آيات الهداية والاستقامة
في كتاب الله تعالى

تأليف

فضيلة الشيخ عطية محمد سالم
رحمه الله تعالى (ت ١٤٢٠هـ)

الجزء الثاني

دار الجوهرة

آيات الهداية والاستقامة

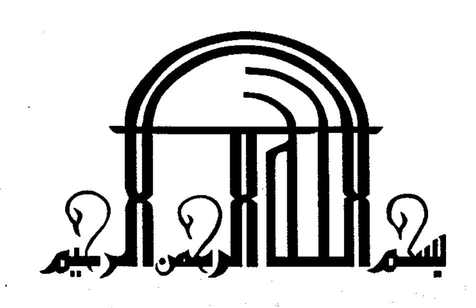
في كتاب الله تعالى

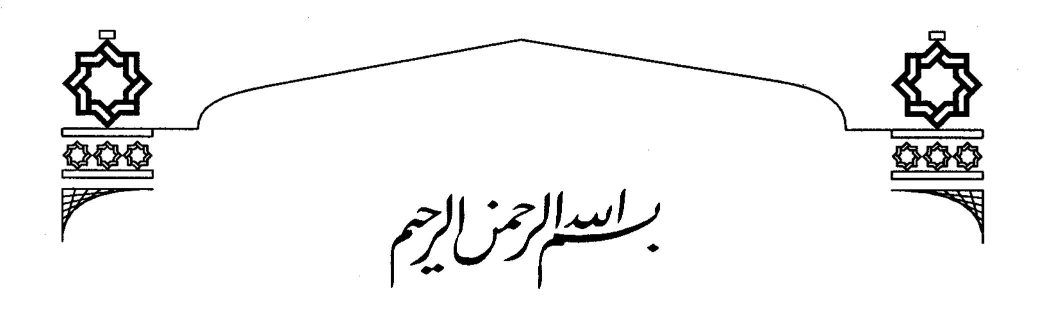
(٢)

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ



المَدينة النّبويّة
شارع المَلك عَبدالعزيز - التّازل
هاتف : ٨٣٨١١٤٨
فاكس : ٨٣٩٠٨٣٨


بسم الله الرحمن الرحيم



آيات الهداية من سورة القصص

١ ـ **اشتملت هذه السورة الكريمة** على قسمي الهداية: حساً ومعنىً، هداية الطريق للمسافر لغاية، وهداية الإيمان وتجنب الغواية، وأن حقيقة الهداية بقسميها إنما هي هدية من الله تعالى، وأن المؤمن يستهدي ربَّه في جميع أموره، إيماناً منه بأن خالقه هو مدبر أمره، وما يكون من هداية حسية ملموسة في دلالة على طريق؛ فيه السلامة وبه الوصول إلى الغاية، يكون جزءاً ووسيلة إلى الهداية والإرشاد الديني، وإنفاذ رسالة الله تعالى إلى الخلق، والكل يكمل المطلوب من حياة المسلم، ويحقق الغاية التي من أجلها كان وجوده.

وأول ما نجد من نص الهداية في هذه السورة «سورة القصص» هو ما جاء على لسان نبيِّ الله وكليمه موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، عند خروجه من مدينته خائفاً يترقب، حين أخافه الملأ، يأتمرون به ليقتلوه. قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ الآيات [٢٠ ـ ٢٢]. إنه موقف قلق يُورث الحيرة، لقد قتل منهم نفساً، وعلموا به وها هم ملأ يأتمرون به، يتآمرون على قتله، وكيف يُواجه ملأً كاملاً، وليس معه من المؤمنين من يقف معه، أو أن يدفع عنه؟ وساق الله إليه ذاك الرجل، فأتاه يسعى، مخبراً بالواقع، وناصحاً إياه أن يخرجَ عن المدينة كلها قبل أن يدركوه، فلا سلامة إلا بذلك. فماذا يصنع؟ لا بدَّ من الخروج، ولكن إلى أين؟ فلم يكن عنده من الوقت ما يفكر ويخطط إلى وجهة معينة، ولن

يمهله الطلب وسعي الملأ حتى يفكر ويستدل، فما كان إلا أن خرج حالاً آخذاً وجهه تلقاء مدين، يعني أنه لم يكن الطريق إليها بعلاماته ومسالكه، ولكن يعلم اتجاهها فقط شرقاً من مصر، أو غرباً منها، يعرف الجهة التي تقع فيها، دون تحديد مكانها، أو معرفة الطريق إليها. وهنا يتوجَّه إلى ربِّه سبحانه في رجاء المضطر ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقال الفخر الرازي: اعلم أن الناس اختلفوا في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ فقال بعضهم: إنه خرجَ وما قصدَ مدينَ ولكنَّه سلَّم نفسه إلى الله تعالى وأخذَ يمشي من غير معرفة، فأوصله الله تعالى إلى مدين. قال: وهذا قول ابن عباس. وقال آخرون: لما خرج قصد مدين، لأنه وقعَ في نفسه أن بينهم وبينه قرابة، لأنهم من ولد مدين بن إبراهيم عليه السلام، لكن لم يكن له علم بالطريق، بل اعتمد على فضل الله تعالى، ومن الناس من قال: أتاه جبريل فدلَّه على الطريق.. إلى أن قال: وقال ابن إسحاق: خرجَ من مصرَ إلى مَدْيَنَ بغير زادٍ ولا ظهر، وبينهما مسيرة ثمانية أيام... إلخ. ويستدل القائلون بأنه لم يكن يعرف الطريق إلى مدينَ بأمرين: الأول قوله: ﴿تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ﴾ فلو كان يعرف الطريق لقال: فلما توجه إلى مدين، وعيَّنَها في بداية توجهه. والثاني: قوله عند التوجه: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾. مما يُفهم منه أنه ليست لديه هداية إلى سبيلها. وإلا لقال: عسى ربي أن يعينني على الوصول إليها.

ومهما يكن فإن موسى عليه السلام لجأ إلى ربِّه، وربُّه أرحمُ به من نفسِهِ، ورجاه أن يهديَه سواءَ السبيل، فيسلم من الملأ الذين يطلبونه، ويجدُّون في الطلب، وهذه حالة المؤمن يلجأ إلى الله عند الشدائد، ويستلهمه الهداية إلى ما فيه صلاح حاله وسلامة نفسه.

وقد شاهدنا مثل هذا الموقف ولكنه أخطر خطراً وأعظم أثراً، إذ لم يكن موسى وحده، بل كان معه قومه، ولم يكن الموقف موقف خوف وترقب، هل يدركه العدو أو لا يدركه؟ بل كان الموقف موقف مواجهة وتحد، وليست أمام موسى وجهة يسير إليها، وأصبح محصوراً بين العدو وبين البحر، وقد لجأ موسى أيضاً إلى ربه أن يهديه، وقد جاء ذلك في سياق طويل، في السورة التي قبلها «سورة الشعراء» قال تعالى: ﴿۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم

﴿مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ الآيات [٥٢ ـ ٥٦]. إلى قوله: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ أي عند شروق الشمس، أو من جهة المشرق، وهنا يتجسم الخطر ويتحرج الموقف: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ الآية [٦١]. فكان البحر أمامهم والعدو خلفهم، ولا سبيل لوجهة أخرى أمامهم، فكان جواب نبيّ الله موسى عليه السلام في غاية القوة، وبغاية السرعة: ﴿كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ أي سيدلني على طريق النجاة والسلامة، لأنه سبحانه هو الذي أمره أن يسري بعباده، وأخبره بأنهم متبعون، وهو سبحانه الذي وجّهه إلى تلك الوجهة، حين خرج ببني إسرائيل، فأرسل إليه سحابة، وقال له: سر حيث تتجه هذه السحابة، فسارَ، فإذا هو على شاطئ البحر، وإذا بالعدو يلحق به، لقد صدق ما أوحى الله إليه، إذاً فالأمر كله لله، ويقين موسى عليه السلام هو ما عبَّر عنه وأعلنه على قومه، يُهدِّئ من روعهم، ويُذهب خوفَهم، ويُطمئنهم على أنفسهم: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي﴾، معي من أول رسالتي، معي من أول مواجهتي لفرعون، معي من أول لحظة سريت بكم، معي في كل لحظة ومع كل خطوة، معي سيهدين، سيبين لي أين أتوجه. وحالاً جاء الوحي بالهداية والدلالة ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ﴾ وهنا وقفة إجلال، ونظرة إعجاز، وسجدة العقول والقلوب، بل هنا يتعطل الفكر الإنساني، والإدراك البياني، ولم يبقَ إلا الإيمان والتسليم والمنطق الوجداني، أمة خرجت فارَّةً بدينها، هاربةً من عدوها، فيستوقفها البحر الخضم المتزاحم، بأمواجه العاتية تتلاطم، ويأتيها العدو الطاغي والمعتدي الباغي، ويتلاقون وجهاً لوجه، فيتراءى لهم الموت والهلاك، وليس أمامهم من سبيل لنجاة أو فكاك، فإذا بالوحي يأمر موسى عليه السلام أن يضربَ بعصاه البحر. فما عصاه التي توكأ عليها، ويهشُّ بها على غنمه، في لجة بحر لا يرون منتهاه؟ ولكن موسى عليه السلام يعلم أن الأمر ليس أمر العصا، ولا القدرة في ضربه إيّاه، إن حقيقة الأمر كله لله ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الآية [٦٣]. أي: فامتثل موسى أمرَ ربه، فضربه بعصاه فانفلقَ، وهنا يظهر جانب من جوانب الحقيقة للقدرة الإلهية، وهي أن موسى عليه السلام ضربَ بعصاه البحر في موطن

واحد، وبقدر ما تنالُ عصاه من البحر بالقدرِ المحدود، ولكن النتيجة أن ينفلقَ الماء، وبعرض البحر وبعمقه، حتى أصبحَ لهم طريقاً واحداً، بل متعدداً قيلَ: اثني عشرَ طريقاً، بعدد أسباط بني إسرائيل، وتتغير طبيعة الماء السائل والرقراق إلى تجمد ويبوسة، مُتطاولاً كل فرق كالطود؛ كالجبل العظيم، وقيل: إنه كانت تُوجد فتحات بين كل طريق وآخر، في كل فرق يتراءى منها أصحاب موسى بعضهم البعض، ليطمئنوا ويأنسوا في هذا الطريق الوحيد في نوعه، وكذلك الواجب على كل مسافر، ولو كان يعلم وجهته، ويعرف طريقه، فإنه يلجأ إلى الله ليكون عوناً له في سفره، كما جاء عنه ﷺ، فيما يرويه مالك رَحِمَهُ اللَّهُ في الموطأ، أنه ﷺ كان إذا وضع رجله في الغرز، وهو يُريد السفر، يقول: «بسم الله الرحمٰن الرحيم، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم ازو لنا الأرض وهون علينا السفر، اللهم إني أعوذ بك من وعثاء السفر ومن كآبة المنقلب، ومن سوء المنظر في المال والأهل».

٢ ـ من سورة القصص «الهداية هدية من الله»:

نص الهداية وسياقه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ كان ﷺ شديدَ الحرص على إيمان جميع الأمة، عزيزٌ عليه كفرهم، كما وصفَه الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وكم سعى إليهم، وعرضَ نفسَه عليهم، ليقبلوا دعوةَ الله، حتى عذرَه الله تعالى بقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]. والبخعُ الهلاكُ. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨].

وهذا غاية الإعذار لرسول الله ﷺ، فيما بلغ من الجهد في الدعوة إلى الله تعالى، فيعفيه الله من أن تذهبَ نفسُه ﷺ عليهم حسراتٍ وتأسفاً، لعدم استجابتهم إليه، بل قد أخلى منه المسؤولية، ونفى عنه أن يكون له من الأمر شيء، في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ

ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾ [آل عمران: ١٢٨ ـ ١٢٩].

فهذه النصوص كلُّها، تبيِّن مدى حرصه ﷺ على هداية النَّاس إلى حدِّ ذهاب نفسه ﷺ عليهم حسرات، وتردُّ الأمرَ في الهداية والضلال والعذاب والغفران إلى الله تعالى، وتُعفيه ﷺ من مسؤولية النتائج، وتنحصرُ مهمته صلوات الله وسلامه عليه في تبليغ الدعوة وإنفاذ الرسالة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠]. ونظيرُها قوله تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [المائدة: ٩٩].

ولقد أتمَّ صلواتُ الله وسلامه عليه مهمةَ البلاغ على أكمل وجه، واستشهدَ النَّاسَ على أنفسهم، وأشهد الله تعالى عليهم في أعظم مشهد في أعظم يوم، وهو يوم الحج الأكبر «ألا قد بلغت» فيقولون: اللهم نعم. فيقول: «اللهم فاشهد». بل وحمَّلَ الأمة من بعده مسؤولية البلاغ: «ألا فليبلغ الشاهدُ الغائبَ، فُربَّ مبلغ أوعى من سامع».

وإذا كان الأمر كذلك، فإن قوله تعالى هنا من سورة القصص: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ وهو تحقيقُ منهج الرسالة في الدعوة، وإعفائه ﷺ من مسؤولية النتائج.

ولكنه صلوات الله وسلامه عليه، بما جُبل عليه من الرأفة والرحمة، ومحبة الخير لجميع الخلق، كانَ يتعاطفُ مع أفراد الأمة الخاص والعام، وقد نزلتْ هذه الآية التي معنا في معاناته الأمرَ، ومحاولته مع عمِّه أبي طالب، يقول له: «يا عمِّ قل كلمةً أحاجُّ لك بها عند الله». ولكن لله الحكمة البالغة وهو العليم الحكيم، وصدق الله إذ يقول: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ . . .﴾ [يونس: ٩٩ ـ ١٠٠]. حقاً لا أحد يملكُ إكراهَ النّاسِ على الإيمان، لأن الإيمان نتيجةُ الهداية إليه، والهداية حقيقتها هدية من الله ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن

﴿يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩].

وقدَّمنا في أوائل هذا الكتاب المبارك، أن هذه الآية تشتمل النص الصريح بنفي الهداية عنه ﷺ، بينما في الآية الأخرى أثبتَ الله له الهداية، في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ۝٥٣﴾ [الشورى: ٥٢ ـ ٥٣].

وأجمعَ المفسرون أنه لا تعارضَ بين ما نفي عنه، وما أثبتَ له، بناء على تعدد نوع الهدايةِ من دلالة وإرشاد، وتوفيق وسداد، مستدلين بقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. أي بيَّنا لهم وأرشدناهم فأبوا واستحبُّوا العمى ـ وهو الضلال ـ على الهدى ـ وهو الإيمان والطاعة.

وهذا النص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦﴾ مع الآية بعده مباشرة: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ في مجموعهما يُشكلان قضيةً اجتماعية اقتصادية أمنية عامة، يُصورها اعتذارهم عن اتباع الهدى مع النبي ﷺ، وهو أنَّهم يخافون إن هم اتبعوه ﷺ تقومُ العربُ عليهم ويُتخَطَّفُون من أرضهم، هذه في عرف السياسة اليوم ما يُسمَّى بقطع العلاقات، أو سوء العلاقة بين دولتين صديقتين، لأنهم إن أعلنوا إسلامَهم قطعوا علاقاتِهم مع جيرانِهم، وبعد قطع العلاقة تأتي المخاصمةُ، وليسوا بقادرين على مواجهة الأمم حولهم، وجاءَهم الجوابُ موضوعياً من واقع حياتهم: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ أي إن ادعاءَكم ذلك مردود بواقع حياتكم إذ كنتم على الشرك وعبادة الأصنام، (فإنا مكنا لكم حرما آمنا). أفنؤمنكم حالَ شرككم، ونترككم تُتخطفون حالَ إسلامكم؟ ليس هذا من المعقول، فالذي جعلَ لكم حرماً آمناً، ومكنَّكم منه طيلة حياتكم، وأطعمكم من جوع، وآمنكم من خوف، لن يُمَكِّنَ عدوَّكم من أن يتعدى عليكم، أو يترككم له يتخطفكم.

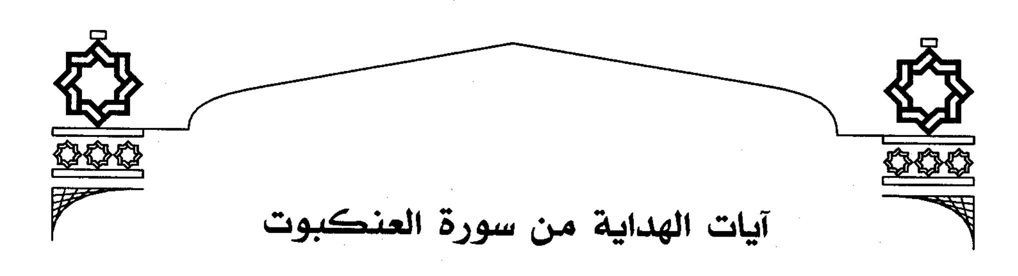
هذا من الناحية الأمنية، أما الناحية الاقتصادية، ففي قوله: ﴿إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ

شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإن خفتم ضيقَ العيش بسبب مقاطعة أولئك، فإن هذا الحرم الآمن كانت ولا تزال تجبى إليه ثمراتُ كلِّ شيء، رزقاً لمن حولَه ولساكنيه، من لدنه سبحانه، لا لمجهود ولا لسعي يتعادل معه، وإنما هو لما تقدم من دعوة الخليل عليه السلام: ﴿أَفْئِدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ وقد فعلَ سبحانه. ونظيرُ ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة: ٢٨].

والعالم اليوم ـ إلا مَنْ شاء الله ـ إذا دعوتَهم إلى تحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يعتذرون، ولسان حالهم يقول: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ وقد شهدَ العالم أكثر من حصار اقتصادي، لاختلاف وُجهات النظر السياسية، فهذه أمريكا تفرض حصارَ القمح على روسيا بسبب أنابيب الغاز إلى سيبيريا، وغيرها حصار الإلكترونيات، وأخرى حصار السلاح أو قطع الغيار، وغير ذلك مما ترتبط به مصالح هذه الدولة أو تلك، ولسنا نقولُ بقطع العلاقات ولا بسوء الجِوار. ولكن نقول: إن أولئك من غير المسلمين لم يتنازلوا ولا عن شيء من دينهم في مقابل علاقتهم بالمسلمين، ومعلوم أن العالم اليوم في تشابك مصالحه وتقارب اتصالاته كالبلد الواحد، فينبغي أول ما يُراعي لكل أمة أمور دينها، وقديماً قال عمر بن الإطنابة ـ أحد ملوك المدينة المنورة قبل البعثة ـ: إني من الذين إذا انتدوا بدؤوا بحق الله، ثم النائل. فحقُّ الله أولاً، ثم حقوق الآخرين. وهكذا الجواب على أولئك، ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا . . .﴾ الآية.

وختاماً: فإننا ونحن بأرض الحرمين الشريفين، وفي ظل تحكيم الشريعة السمحاء، لا يسعنا إلا أن نرفعَ أكفَّ الضراعة إلى الله عز وجل أن يأخذَ بنواصي المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى اتباع الهدى، وتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

* * *



آيات الهداية من سورة العنكبوت

١ ـ قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ الآية [٦٩].

في هذا النص ثلاث معانٍ عظيمة: جهاد في ذات الله، وهداية إلى سبيل الله، ومعية خاصة من الله.

المعنى الأول: مضمون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ والمعنى الثاني: مضمون ﴿لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾. والمعنى الثالث: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. والمعنى الأول مرتبط بالمعنى الثاني ارتباط المقدمة بالنتيجة، وكلا المقدمة ونتيجتها مسببة لهذه المعية الخاصة بهؤلاء الخواص، وهم المحسنون، أولئك الذين تسنموا قمة الفضل على تحقيق أركان الإسلام وحقائق الإيمان، ومن هذا كله إلى مرتبة الإحسان، تلك هي العوامل الثلاثة في هذا السياق الكريم، على سبيل الإجمال، أما تفصيل ذلك فكالآتي:

أولاً: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ وصف عام صالح لكل من اتَّصفَ به، ولا يختص بشخص دون شخص، ولا قبيل غير قبيل. وقال ابن كثير: المعني به رسول الله ﷺ؛ لأنه هو وحده الذي ينطبقُ عليه هذا الوصف، والعموم أولى ليكون صالحاً لكل زمان ومكان، ومجالاً لمن تجرَّدَ للجهاد في ذات الله تعالى، والجهادُ بذلُ الوسع إلى أقصى الجهد، ولا يُقال لأدنى محاولة، ولا لمعالجة البسيط من الأمور، يقال: فلان اجتهد في حمل الصخرة، ولا يُقال: اجتهدَ في حمل نواة، وكذلك في الفقه، يُقال: اجتهد في استنباط الحكم، إذا لم يكن عليه نص. ولا يُقال: اجتهد في فهم نص ظاهر صريح واضح، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: ٩٧].

وجاهدُوا فينا، يعمُّ كلَّ جهاد قُصد به وجه الله، سواء كان قمة الجهاد، وهو جهاد الأعداء بالسلاح، أو كان دون ذلك مسؤولية ومشقة؛ كالجهاد

بالقلم، وإقامة الحجة، كما فعل ﷺ في بادئ الأمر، مكثَ بمكة ثلاث عشرة سنة، يُجاهد بالحجة والبُرهان ومنطوق اللسان.

وقد يكون الجهاد اليوم لأهل الأهواء والابتداع، فيبطل ادعاءاتهم، ويُظهر بطلانَ أهوائهم، وأعظمُ ميدان لذلك هو ميدان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وقد جعله الله تعالى قسيم الجهاد في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ﴾ وقد خصَّ النبيُّ ﷺ طلبَ العلم في مسجده الشريف بمعادلته بالغزو في سبيل الله، وفي قوله ﷺ: «مَنْ راحَ إلى مسجدي هذا إلى علم يعلمه أو علم يتعلمه؛ كان كمن غزا في سبيل الله...» الحديث.

وقد يكونُ الجهاد جهادَ النفس، لإلزامها بما يُرضي الله، وأعتقد أن هذا النوع هو أصل ومنطلق كل جهاد، سواء أكان جهاداً دينياً أو حتى دنيوياً، لأن كل عمل عظيم يحتاجُ بذل الجهد، وفي بذل الجهد مشقة على النفس، كما قيل:

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجود يفقر والإقدام قتال

وكما قالت الخنساء عن صخر:

إنه سادَ العشيرةَ أمردًا وعلَّلت لذلك، بقولها:

يُحمِّلُه القومُ ما نابَهم ... وإن كان أصغرَهم مولدا

فتلك المنزلة من السيادة في قومه، لم تحصل له إلا بالجهاد والمشقة، وهكذا قول امرئ القيس:

ولو أنني أسعى لأدنى مشقة ... كفاني ولم أطلب قليلاً من المال

وإنما أسعى لمجد مؤثل ... وقد يُدرك المجد المؤثل أمثالي

فجهادُ النفس في أمور الدنيا من أعظم أسباب تحصيل المطلوب.

وأعتقد أن كلَّ إنسان لا بُدَّ باذلاً جهداً دنيوياً على اختلاف درجاتهم ومراتبهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ﴾ يعني نتيجة عمله، وعليه فليكن جهادُ العاقل المسلم المؤمن بلقاءِ الله جهاداً في ذات الله تعالى، وفي سبيل مرضاتِهِ، وعلى وفْقِ شرعِه وهدايتِه ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أياً كان نوع

الجهاد، وكيف كانت غايته، فما دام في ذات الله وعلى وَفْقِ ما شرعَ الله دنيوياً كان أو دينياً، فإن الغاية النهائية واحدة، ألا وهي الوصول إلى ما يُرضي الله تعالى، وحيثما كان الجهاد في ذات الله وعلى منهج شرع الله، فإن الله قد تعهد في هذا الوعد الأكيد، وهذا الخبر الصادق بالهداية بياناً وإرشاداً ودلالةً وإعانة وسداداً وتوفيقاً، يهديه السبيل ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾. وهنا وقفة مع إيراد السبيل بصيغة الجمع والتعدد، وفي مواطن أخرى يأتي السبيل مفرداً مُضافاً إلى الله، ومتعدداً مضافاً إلى غيره سبحانه، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وما جاء عنه ﷺ أنه خطَّ خطاً مستقيماً، ثم خطَّ على جانبيه خطوطاً، وقال عن الخط المستقيم: «هذا صراط الله» وعن تلك الخطوط: «على رأس كل خط شيطان يدعو إليه». ففي هذا كله إفراد السبيل والصراط المضاف إلى الله، بينما ما أُضيف لغير الله جاء مجموعاً متعدداً. وقال العلماء في ذلك: لأن سبيلَ الله وصراط الله هو الحق، والحق واحد، وما عداه هي طرق الباطل والضلال والأهواء، وهنا جاء السبيل مجموعاً ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

والواقع أنه لم يتعارض مع ما تقدَّم، لأن الهداية هنا مرتبطة بالمجاهدة، وميادين الجهاد في ذات الله متعددة، جهاد بالسنان، وجهاد باللسان، وجهاد للأعداء، وجهاد للنفس، وكل نوع من مسميات الجهاد هنا يختلف عن الآخر، وسبيله يُغاير سبيل ما سواه، فكان يتطلَّبُ لكل جهاد سبيلاً يُوصل الغاية المقصودة منه، فاقتضى تعدد السبل في قوله تعالى: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ مع ملاحظة تفرد السبيل في كل ميدان، فميدان العلم للمجاهد في طلب العلم سبيل واحد، وهو التزام كتاب الله وسنّة رسوله، وما يقتضي ذلك من علوم مساعدة، وميدان الجهاد في أمر دنيوي سبيل واحد، وهو تحري الحلال والكسب المشروع.

بل والجهاد في سبيل نصرة الدين بقتال الأعداء، سبيل واحد، وهو مَنْ قاتلَ لتكونَ كلمةُ الله هي العليا، لا حمية لا شجاعة، وهكذا تعدد السبل

من جهة تعدد ميادين الجهاد وتنوعه، وهي في كل نوع سبيل واحد.

وقوله تعالى هنا: ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ تعهد ووعد من الله أن ينير بصيرة كل مجاهد، حتى لو كان يسير في طريق مجهول المعالم، ولكنه في سبيل الله، واضطر إليه، فإن الله سيهديه السبيل، وتقدَّم عن نبي الله موسى عليه السلام لما خرج خائفاً يترقب، وتوجَّه تلقاء مدين، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي الطريق الموصل إليها، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معية خاصة مؤكدة بلام مختصة بخواص المؤمنين، وللمعية هذه مبحث خاص ـ عسى أن يتيسر إيراده إن شاء الله تعالى.

* * *

٢ ـ المعية في آيات الهداية:

في آخر سورة العنكبوت قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾. وإن ختام الآية الكريمة بهذه الخاتمة لمشعر بأمرين:

الأول: التنبيه على معنى الإحسان فيما تقدم من أنواع الجهاد المتعددة، سواء في سبيل الدعوة إلى الله: فبالحكمة والموعظة الحسنة، وإن كان جدال فبالتي هي أحسن، أو كان قتال الأعداء فكذلك بدون تعدٍّ ولا تشف، على حد قوله ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة...**» الحديث. فالله مع كل من أحسن في أي ميدان من ميادين الجهاد في ذات الله تعالى.

والأمر الثاني: التنبيه على لطف الله تعالى وتفضله على خواص عباده بهذه المعية الخاصة بالتأييد، والرعاية، والتوفيق. والمعية في كتاب الله تعالى قسمان:

أ ـ خاصة: لخواص عباده. ب ـ وعامة: لعموم البشر.

وبتتبع نصوص المعية في كتاب الله، نجدها في نحو اثني عشر موضعاً وتشمل الآتي:

١ ـ الملائكة: قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ

كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢]. ونلحظ هنا أن المعية هنا معية نصرة وتأييد، بما أوحاه تعالى إليهم من تثبيت المؤمنين وتعليمهم لوازم القتال ومواضع الضرب. وأنه سبحانه سيلقي في قلوب الذين كفروا الرعب، وهو من أقوى عوامل النصر.

كما نلحظ أنه سبحانه وجه تلك التعليمات إلى الملائكة بالوحي ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بينما في مواقف أخرى يخاطبهم بدون ذكر الوحي، كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: ٧١]، وبدون الوحي. ولعل - والله تعالى أعلم - كان مجيء ﴿يُوحِى﴾ في سياق المعية، ليبين أنها معية تأييد ونصرة، كما أسلفنا.

٢ - جاءت المعية مع الرسل: وفي موقف التحدي ومواجهة خطر الأعداء، من ذلك: مع نبي الله موسى وأخيه هارون عليهما السلام في رسالتهما إلى فرعون في قوله تعالى: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٣ - ٤٦].

ومع موسى أيضاً في أشد وأحرج مواقف التحدي، حينما خرج موسى ببني إسرائيل فأدركهم فرعون وجنوده، وأصبح موسى ومن معه بين البحر أمامهم، والعدو من خلفهم، والتقى الجمعان، فقال أصحاب موسى: إنا لمدركون. فقال موسى عليه السلام: كلا، إن معي ربي سيهدين. قال تعالى: ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: ٥٢ - ٦٣].

وهنا نلحظ أن خروج موسى بمقتضى وحي ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ﴾، فمن بداية الرحلة كان الوحي موجهاً وهادياً إلى نهايتها، كما نلحظ في هذا الموقف أن الله تعالى أوحى إليه أن اضرب بعصاك البحر، بينما وجدنا في موقف آخر قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب

﴿بِعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]. ففي الموضعين: تضرب بعصاك البحر، الحجر، ولكن في حادثة البحر كان التوجيه وحياً، وفي حادثة الحجر كان التوجيه قولاً، إلا أن الوحي كان في سياق ذكر المعية ليشعر ـ والله تعالى أعلم ـ أنها معية تأييد ونصرة وهداية، بدليل أن البحر قد انفلق له كل فرق الطود العظيم، وما كان لموسى ولا لعصاه أن تفعل ذلك، ولكنها عناية الله، وقدرته، ونصرته لرسوله أمام تحدي وطغيان عدوه.

ومن ذلك مع النبي ﷺ وصاحبه معه في الغار، حين تحداه قومه، ورصدوا له عشرة رجال بسيوفهم على باب بيته، يرصدون خروجه، فيخرج من بينهم ويقرأ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]. بل ويحثو على رؤوسهم التراب، ويمضي في طريق هجرته.

إنها بداية بمعونة الله، بل وكان فيها توجيه من الله حين جاءه جبريل عليه السلام وقال له: لا تنم في فراشك الليلة. فكان خروجه وعدم مبيته بعناية من الله، فلما وصل هو وصاحبه إلى الغار، وافتقده عدوه، أخذ يبحث هنا وهناك، حتى ساقهم الأثر إلى فم الغار، وتخوف الصديق رضي الله عنه، فجاءت المعية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]. وفي سورة التوبة بعدها، قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة: ٤٠]. فالعناية الإلهية التي أخرجته من بيته صاحبته إلى الغار، والمعية التي تجلت في تلك السكينة التي أنزلها عليه، وفي هذا التأييد بجنود لم تروها، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى، وظلت كلمة الله هي العليا.

٣ ـ ومعية مع المتقين والصابرين والمحسنين، وكلها من المعية الخاصة لخواص عباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ

ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة: ١٩٤]. ونلاحظ هنا مقارنات متعددة: الشهر الحرام بالشهر الحرام، أي الاعتداء مقابل الاعتداء في هذا الشهر، بل اعتداء المشركين عن عمد وقصد، واعتداء مضاعف في الشهر الحرام، وعلى حرمة البلد الحرام، وإخراج أهله منه؛ واعتداء المسلمين كان عن خطأ، وظن أن الشهر الحرام وهو «رجب» لم يدخل عليهم، وذلك في وقعة (نخلة) وقتل ابن الحضرمي، وهنا قصاص في من اعتدى على المسلمين، فهنا فريقان: معتدٍ ومعتدى عليه، وهنا مشركون ومؤمنون، وهما في معرض الخصومة، والله قد أيد المسلمين في موقفهم، وأنه مع المتقين، لأنهم على الحق، وكذلك مع المحسنين في آخر سورة النحل في سياق الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

٣ ـ تتمة نصوص المعية في آيات الهداية:

المعية مع الصابرين ومع المحسنين: فمع الصابرين في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]. وقوله تعالى عن طالوت ومن معه: ﴿قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١].

فالموقف الأول: حث على الاستعانة بالصبر والصلاة، وإخبار بأن الله مع الصابرين، وهذا تمهيد لموقف خطير أحوج وأدعى ما يكون للصبر، حيث جاء عقبه مباشرة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ [البقرة: ١٥٤]. ولا شك أن القتل أثقل ما يكون على النفس، والإقدام على مسبباته كالجهاد في سبيل الله يستلزم كامل طاقة الصبر، ثم بعد ذلك أيضاً: لنبلونه بأنواع الابتلاء، في قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥] أي الذين وطنوا أنفسهم على الرضى بقضاء الله، مستأنسين

بمعية الله تعالى، ويقابلون كل ما نزل بهم بقولهم: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝١٥٧﴾ [البقرة: ١٥٦ ـ ١٥٧]. أي مهتدون إلى ما يجب أن يكون العبد عليه ساعة الابتلاء، مهتدون إلى ما يحبه الله لهم، مهتدون بالاستعانة على شدائد الحياة بالصبر والصلاة، مستأنسين بمعية الله للصابرين.

وكذلك الموقف من بني إسرائيل أصحاب طالوت كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلۡجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبۡتَلِيكُم بِنَهَرٖ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغۡتَرَفَ غُرۡفَةَۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُواْ مِنۡهُ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ . . .﴾ [البقرة: ٢٤٩ ـ ٢٥١]. موقف كله امتحان وابتلاء:

أولاً: في ماء النهر: فمن شرب منه، فليس من طالوت في شيء، وكان الوقت حاراً، فشربوا منه إلا قليلاً منهم، تلك القلة هي المؤهلة لقتال العدو، والعدو متفوق عليهم، فكان ابتلاء.

ثانياً: وهناك أعلن المؤمنون الصابرون سابقاً على شدة الظمأ في شدة الحر، موقنين نصر الله إياهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ﴾ أي مثلهم ﴿غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ﴾ مثل عدوهم، وليست الغلبة بقانون القلة والكثرة، ولكنها بإذن الله، يمنحها للصابرين، وهي المعية الخاصة، وكذلك المعية مع المحسنين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. والجهاد في ذات الله مبناه على الإحسان حتى مع الأعداء، لأنه مع قتلهم فهو إحسان إليهم، لإخراج من بقي منهم حياً من الظلمات إلى النور، وإخراجهم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمٰن. وقدمنا بيان الإحسان في كل ميدان من ميادين هذا الجهاد المتعدد السبل.

وفي الموقف الثاني من آخر سورة النحل ابتداء من قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ [النحل ١٢٠ ـ ١٢٢]. هذه صورة مشرقة، ومنهج قويم لنبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم.

ثم يؤمر ﷺ باتباعه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣] إلى قوله سبحانه: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: ١٢٥]. فبين سبحانه وجود فريقين: ضالين ومهتدين، ومن لوازم ذلك الخلاف ومعاداة الدعوة ـ وإن كانت بالحكمة والموعظة الحسنة ـ لأن أصحاب المصالح الخاصة يصمون آذانهم عن سماع الموعظة والحق، ويغمضون عيونهم عن رؤية الأدلة والبراهين، فتقع المصادمة، ويأتي القصاص، فيأمرهم سبحانه بالمماثلة كحد أدنى، ويندبهم إلى المسامحة والصبر على أذاهم: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل: ١٢٦ ـ ١٢٧]. إنه حث وندب إلى الصبر على شدائد كثيرة يحتاج العبد معها إلى معونة، فيأتي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]. وقد جمع الوصفين بالتقوى والإحسان، نتيجة كل ما تقدم من امتثال الأوامر والإحسان إلى العدو، وبالصبر على أذاه، وترك معاقبته، وانفساح صدره معهم، وعدم الحزن عليهم. مواقف ما أعظمها، وعناية من الله ما أجلها!

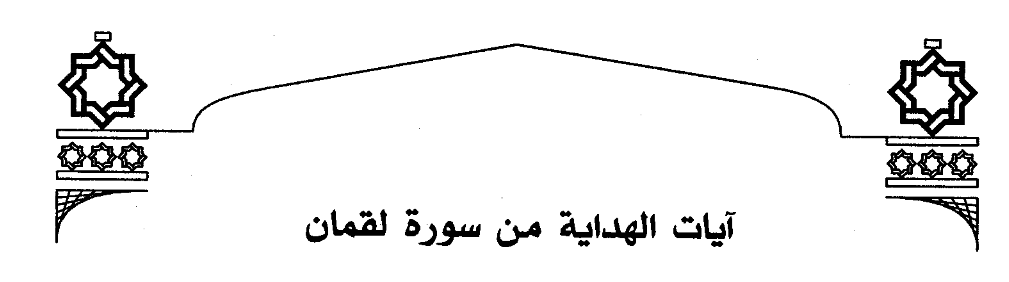
ثم تأتي المعية العامة مع البشر عموماً في أوائل سورة الحديد، وفي سورة المجادلة.

تقرأ في سورة الحديد قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٣ ـ ٤]. بعد تلك الصفات الدالة على الكمال والجلال، والقدرة والعلم والإحاطة، يقول تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ﴾ فهي معية عامة لعامة الخلق، أين ما كانوا، عليم بهم، بصير بأعمالهم.

وفي سورة المجادلة بعدها يأتي تفصيل أوسع في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]. فهذه معية علمية عامة بآحاد الخلق: في السر والعلن، في الجهر والنجوى، قليلاً كانوا أو كثيراً، في سهل أو جبل، فإن علمه محيط بجميع خلقه، وقد سئل أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه المعية في هذه السورة فقال: بعلمه، اقرأ ما قبلها وما بعدها، فقد بدأها بالعلم، وختمها بالعلم.

وهكذا، وعلى ضوء النصوص من كتاب الله، وما صح من سنة رسول الله ﷺ، يتضح لنا المنهج القيم، والهدي البيّن في هذه القضية، التي تناولها المتقدمون والمتأخرون، وأن ما قدمناه هو ما ارتضاه سلف هذه الأمة رحمهم الله، وقد بينا مواقع المعية في كتاب الله العامة والخاصة، سواء مع الملائكة، أو مع الرسل، أو مع خاصة المؤمنين، أو مع عموم الخلق جملة وتفصيلاً، نسأل الله تعالى أن يكون معنا بالعون والتأييد والنصرة والرشاد والتوفيق، إنه ولي ذلك، ومنه الفضل والإحسان.

* * *



آيات الهداية من سورة لقمان

١ ـ بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿الٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًاۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [لقمان: ١ ـ ٨].

تتفق افتتاحية هذه السورة الكريمة مع افتتاحية سورتي البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ١ ـ ٣]. وسورة النمل: ﴿طسٓۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ۝١ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٣﴾ [النمل: ١ ـ ٣].

افتتاحيات متفقة، والجديد في سورة لقمان: أن القرآن هدى ورحمة للمحسنين. والجديد في سورة النمل: أن القرآن هدى وبشرى للمؤمنين. وقد جمعت الافتتاحيات الثلاث أن القرآن هدى ورحمة للمؤمنين وللمتقين وللمحسنين، وهذه الصفات الثلاث هي أعلى صفات المسلمين، وهم الذين نفعهم الله ووفقهم لسلوك صراطه المستقيم، ومن هداهم من عامة المسلمين، لا يزالون على بداية الطريق، على حد قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ﴾ [الحجرات: ١٤]. وجبريل عليه السلام لما جاء في صورة رجل، ويسأل، بدأ بالسؤال عن الإسلام، ثم عن الإيمان، ثم عن الإحسان.

وقد وصفهم الله تعالى في الافتتاحيات الثلاثة: بأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويؤمنون بالله واليوم الآخر، وقد تقدم الكلام على هذا كله.

بقي الحديث عما اختصت به افتتاحية هذه السورة من جهتين:

الأولى: كون القرآن هدى ورحمة للمحسنين.

والثانية: المقارنة بين فريقين: **الأول:** مَن وصفهم الله بأنهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وعلى هدى من ربهم. **والثاني:** من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله، إلى آخر صفاتهم.

وكون القرآن هدى للمحسنين: فإنه موضوع هذا الكتاب من أول فصوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] وقوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلى هذه الصفحات وكون القرآن رحمة للمحسنين؛ فقد قال تعالى عنه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢﴾ [الأعراف: ٥٢]. وقوله: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]. وفي سورة النحل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]. وقوله في سورة الإسراء: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. ونظير ذلك من الآيات.

وبهذه الرحمة كان ﷺ رحمة للعالمين.

وكونه بشرى للمؤمنين: فكما تقدم في سورة النحل، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

أما المقارنة بين الفريقين: فالفريق الأول: فريق المؤمنين المتقدمة صفاتهم. والفريق الثاني: فهو الذي يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً. وقد أثبت تعالى لهذا الفريق أربع صفات، كلها نقائص: أولاها: أنه يشتري لهو الحديث. وكون المشترى لهو الحديث دليلاً على نقص عقل المشتري، سواء كان الشراء بالنقد، ولهو الحديث: آلات الطرب، والجواري المغنيات، أو كان الشراء الاستبدال، بأنه استبدل سبيل المؤمنين من الصلاة والزكاة والتقوى بلهو الحديث من لعب وتلهٍّ. والاستبدال يسمى شراء، لقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ۝١٦﴾ [البقرة: ١٦] وكقول الراجز:

بدلت بالجمة رأساً أزعرا

وبالثنايا البيض الدردرا
كما اشترى المسلم إذ تنصرا

يعني يشتري المسلم، استبدل إسلامه بالنصرانية. فمطلق شرائه لهو الحديث ـ على أي المعنيين ـ دليل على جهالته. ووصفهم: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾. يكفيه الوصف، بأنه يضل عن سبيل الله، والضلال: الضياع لغة، ووصفه بقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾. هو عين الضلالة والجهالة. وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ أي يتخذ سبيل الله هزواً. والسبيل تذكر وتؤنَّث وهي هنا مؤنثة، وجاءت مذكرة في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦]. وهنا الربط بين نفي العلم، وإثبات الهزء، وهما متلازمان. فمن جهل شيئاً لا يعنى به، وقد يهزؤ به لجهالة حقيقته، والهزء بسبيل الله أبرز سمات المنافقين والمشركين، وتارة يستهزئون بالله وبآياته وبرسله، وبفروع الإسلام، بل وبالمؤمنين على ما سيأتي بيانه.

فمن ذلك: استهزاء المنافقين في قوله تعالى عنهم في أوائل سورة البقرة: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

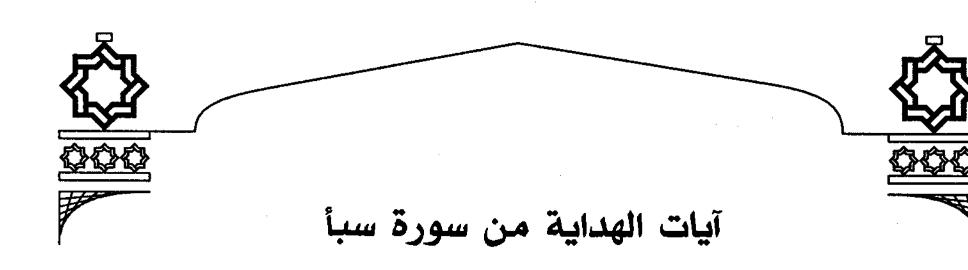
ومن استهزائهم قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٤ ـ ٦٦]. ومن استهزاء اليهود بالصلاة قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة: ٥٨].

ونظير اشتراء لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا . .﴾ [الأعراف: ٨٦] ونحو ذلك من الآيات.

وقد دلت آيات الهداية في كتاب الله أن كل من اشترى وسيلة من الوسائل: لهو الحديث قولاً أو فعلاً، ويدخل في ذلك قلم المطبوعات والدوريات، جرائد ومجلات تعمل على التشكيك في الدين، أو الانصراف عنه، أو الاستهزاء به، أو بأهله، فإنه يدخل في هذا الفريق أياً كان هو، جاداً كان أو

هازلاً. ومن هذا الباب يخشى على كل من استبدل تشريعاً من تشريعات الإسلام بغيرها من التشريعات الوضعية، كمن يعتبر نظام الضرائب بديلاً عن الزكاة، ويعطل نظام المواريث، ويمنع من تعدد الزوجات، ويحظر على الزوج الطلاق، ويفرض على سبيل التعميم تحديد النسل، ويمنع فتيات المسلمين من الحجاب، وما شابه ذلك من قضايا العصر وركام الحضارة الغربية، أو أخطاء النظريات كنظرية داروين ونحوها، مما يتعارض صراحة مع سبيل الله، فإنه على خطر عظيم من مدلول آيات الهداية في مستهل هذه السورة، بل ويبعد كل هؤلاء عن هداية ورحمة آيات الكتاب الحكيم. نسأل الله العافية وأن يرد جميع المسلمين إلى ما يحبه الله ويرضاه.





آيات الهداية من سورة سبأ

١ ـ نص الآية من هذه السورة قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦].

إن مجيء هذا النص الكريم بخصوص الذين أوتوا العلم، وموقفهم من القرآن الكريم: أنه منزل من الله تعالى، وأنه هو الحق، وأنه يهدي إلى صراط العزيز الحميد. ولكن السياق جاء معطوفاً بالواو، مما يشعر بأن ما قبله مرتبط به حتى عطف عليه.

ولعلوّ منزلة الذين أوتوا العلم، ورفعة الموقف هنا، يلزم العودة إلى ما قبلها، والنظر إلى ما بعدها، لنرى سعة الموقف والمقارنة بين الذين أوتوا العلم وبين غيرهم، والنص الواقع قبل آية الهداية هنا هو من بداية قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [سبأ: ٣ ـ ٥]. ويأتي: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أما ما بعدها فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾ [سبأ: ٧].

وبمجموع هذا السياق كله، نجد مقارنة بين فريقين افترقوا في موقفهم مما جاء به النبي ﷺ، من الوحي المنزل على رسول الله ﷺ، هداية للبشر، وفيه النذارة، والبشارة والوعد، والإخبار بالبعث والساعة، والجزاء كل بعمله.

فالفريق الأول المنصوص عليه في قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾. فكفرهم بما جاءهم به النبي ﷺ، وعدم تصديقهم به، جعلهم يقولون جازمين: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾. وهذا التكذيب بالساعة صراحة

يتضمن التكذيب بأمور عديدة، منها: التكذيب بقدرة الله، على أن يأتي بها، ومنها التكذيب بما يكون فيها من جزاء للمحسنين وعقاب للمسيئين، وكلا هذين الأمرين خطير، لأن نفي القدرة الإلهية عن الإتيان بالساعة طعن في الربوبية، ونفي الجزاء والعقاب طعن في العدالة الإلهية، إذ لو لم يكن جزاء المحسن وعقاب المسيء واقعاً في الدار الآخرة لكان معناه مساواة المحسن والمسيء في النهاية بالموت، ولكن مقتضى العدالة الإلهية أن جعل اليوم الآخر ليلقى كل مخلوق جزاء ما عمل، وقد جاء الأثر أنه سبحانه لَيقتص من الشاة القرناء للشاة الجلحاء، لأن القرناء تتمكن من إيذاء الجلحاء، والجلحاء تعجز عن أن تنتصف لنفسها لعدم وجود قرون لها. وبهذا تتحقق العدالة الإلهية، فلما كان نفي الإتيان بالساعة، ونفي المجازاة والمعاقبة بهذه المثابة من الخطورة، كان الرد عليهم قوياً وأخطر من نفيهم إياها، فقال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾. فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ كان يكفي لرد زعمهم، وإبطال تكذيبهم، ولكنه سبحانه أكده بالقسم، فأمر النبي ﷺ أن يقسم على إتيانها، وبأي شيء يقسم؟ بربه سبحانه. ثم يأتي لهم بمقتضى الإتيان بالساعة، عالم الغيب، ومن الغيب الذي يعلمه: الإتيان بالساعة، ثم فصل لهم مجمل علم الغيب عند الله تعالى بأدق ما يكون: لا يعزب عنه، أي لا يغيب، ولا يخفى مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين.

قال ابن كثير: وهذه الآية إحدى آيات ثلاث مما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لما أنكره من أنكر من أهل الكفر والعناد:

الأولى: في سورة «يونس» عليه السلام، وفي قوله تعالى: ﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [يونس: ٥٣].

والثانية: هذه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

والثالثة: في سورة التغابن، وهي قوله تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ [التغابن: ٧].

ثم بيّن تعالى: لازم الإتيان بالساعة، كما نبهنا من إيقاع المجازاة كل

بعمله، فقال تعالى مظهراً علة الإتيان بالساعة، بقوله تعالى عقبها: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④﴾ [سبأ: ٤] وبيّن عقاب الفريق الآخر بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ﴾ أي صادين عنها ومعارضين لها، سواء باتخاذ لهو الحديث المتقدم في الحلقات المتقدمة، أو بالاستهزاء وابتغائها عوجاً، أو بأي نوع من أنواع السعي لمعارضة آيات الله.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وهذا هو تحقيق العدالة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ㉘ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ㉙﴾ [ص: ٢٨ ـ ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ㊿⑧ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ㊿⑨﴾ [غافر: ٥٨ ـ ٥٩]. فترى العدالة الإلهية تأبى أن يستوي الضدان، لأنه ممنوع عند العقلاء، فلا يستوي الأعمى الذي لا يرى شيئاً مع البصير الذي يبصر ما أمامه، وكذلك لا يستوي المؤمنون الصالحون مع المسيئين المفسدين، لما أصلحه الله. ويعقبه ويعقب عليه بقلة عقل من يظن ذلك ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ ولو تذكروا وتدبروا ما سووا بين ضدين متناقضين.

ثم أعقبه هنا أيضاً في سورة غافر، بما أعقبه فيما قبلها بمجيء الساعة ومعها مستلزماتها من مجازاة المحسن بالإحسان، ومعاقبة المسيء بجنس عمله، فقال: ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

وجاء بعد آية الهداية قوله تعالى عن المنكرين للساعة مستبعدين مجيئها: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ⑦﴾ [سبأ: ٧]. جاء هذا بعد إعلان الذين أوتوا العلم إيمانهم بما جاء به النبي ﷺ، وهذه مقارنة بين أهل العلم وبين أهل الجهل، وقد ردهم القرآن إلى العوالم حولهم، فقال بعدها: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [سبأ: ٩]. يعلمهم أن من خلق هذه كلها قادر على الإتيان بالساعة وإعادتهم ولو تمزقوا. ونظيرها قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ㊆㊆ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن

﴿يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩﴾ [يس: ٧٧ ـ ٧٩] إلى آخر السورة. وبهذا السياق يظهر فرق ما بين نتائج العلم والإيمان، ونتائج الجهل والكفران. وسيأتي زيادة بيان لفضل العلم والعلماء إن شاء الله.

٢ ـ تتمة بيان آية الهداية من سورة سبأ:

وهي قوله تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾ [سبأ: ٦]. وتقدم عمل المقارنة بين ما جاء قبل هذه الآية وما جاء بعدها، وبين موقف الذين أوتوا العلم، ونتائج العلم والإيمان على العالِم، والجهل والكفران على الجاهل.

ولما كانت منزلة العلم أعلى المنازل، ومرتبة العالِم أرقى المراتب، نلم هنا ببيان شرف العلم على من أخذ منه حظاً، سواء من الإنسان أو الطير والحيوان، وكان يكفي إيراد مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]. وقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]. نعم تكفي تلك النصوص لإظهار فضل العلماء وعلو مرتبتهم، ولكن فضل العلم وشرفه وتكريمه لمن نال منه حظاً أوسع من حدود الإنسان حيث بيّن لنا كتاب الله تعالى فسحة مجال العلم، وتخطيه حدود الإنس والجن، فشمل الحيوان والطير على ما سيأتي إن شاء الله.

أولى قضايا العلم وعدم العلم، كانت مع أولى قضايا وجود الإنسان، شهد فيها الملائكة الكرام في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [البقرة: ٣٠]. فسؤال الملائكة استيضاح واستطلاع، وجاء الجواب رداً إلى علمه سبحانه ما لا يعلمون. وهذا أمر لا مراء فيه، إلا أن سؤال الملائكة واستيضاحهم كان مصحوباً بالتنويه بفضل أعمالهم ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾. فجاء دور آدم عليه السلام. وفي شبه مقارنة وإظهاراً لفضله وتكريمه وعن طريق العلم: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ أصحاب التسبيح والتحميد والتقديس ﴿فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى

بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾. وإن كنتم صادقين، هنا تنبئ عن شيء طواه السياق، الله أعلم به. وبعد العرض عليهم، وقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى﴾ قالوا معترفين، وقبل الاعتراف: منزهين الله تعالى وشبه معتذرين: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾. وهنا وقفة منهجية علمية ومسلكية، ألزم ما تكون للعالم وللعامي:

الأولى: وقوفهم عند حد ما علمهم الله تعالى، وفي هذا يقول السلف: قد أحسن من انتهى إلى ما قد علم. وهذا حد كل عاقل.

والثانية: أنهم لم يقولوا بما لم يعلموا. وفي هذا يقول السلف: من ترك قول (لا أدري) أصيبت مقاتله. وقالوا:

إذا ما قتلت الشيء علماً فقل به ولا تقل شيئاً بما أنت جاهل

وقال تعالى في محكم كتابه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ...﴾ [الإسراء: ٣٦]. فكان بعد هذا الموقف الكريم، والمنطق الحكيم، أن أمر الله آدم بالإنباء: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٣٣].

وجاء بعدها أمر الملائكة بالسجود إليه: ﴿فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ...﴾ الآية. وجاء بعد هذا كله التكريم بإسكانه وزوجه الجنة: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا...﴾ الآية. فظهر فضل آدم عليه السلام لا بجنسه، ولا بما خصه الله تعالى، كما أشير إليه في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥]. فقد اختص آدم بذلك. بينما الملائكة وغيرهم كان إيجادهم بالأمر «كن» فكان شرف آدم بالعلم.

وقد يقول قائل: في هذا السياق تفضيل العلم على العبادة. فيكون قوله مطابقاً وبالعلم تفاضل أبناء آدم.

أما تشريف العلم للحيوان. فهو المنوه عنه في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾﴾ [المائدة: ٤]. يجعل الله تعالى صيد الكلب المُعَلَّم حلالاً، ومن الطيبات نأكل مما أمسك علينا، في الوقت الذي جاء في الآية قبلها مباشرة رقم (٣) بيان ما حرم الله علينا في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ

لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ... ﴾ [المائدة: ٣]. فنجد المحرمات، وهي ضد المباحات، موصوفة بالفسق، وفيها المحرمات لوصف مادي، وأخرى لوصف معنوي.

فالمادي: الميتة، والمنخنقة، وما ألحق بهما، ومنها ما أكل السبع، أي افترسه إلا ما أدركناه حياً وذكيناه، فيحل بالذكاة.

والمعنوي: ما ذبح على النصب، أو أُهِلّ لغير الله به. فنجد ما أمسك السبع، ويصرف إلى المتبادر للذهن إلى الأسد ـ وهو سلطان الوحوش ـ مدرجاً ضمن المحرمات، وموصوفاً بأنه فسق، بينما ما أمسك الكلب وهو أخس الحيوان كما جاء في حقه ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾. ومع هذا الانحطاط في الجنس، فقد شرف بما تلقى من علم وأي علم، إنه علم مأكل ينحصر في إدراكه معنى الإرسال، فيرسل وراء الصيد، ومعنى الإمساك فيمسك عنه، وحل صيده وكان ضمن الطيبات المباحة.

وكذلك تشريف العلم للطير: فقد جاء ذلك في حق الهدهد، تغيب عن نبي الله سليمان بدون استئذان ولا علم، فتوعده نبي الله بالذبح، أو التعزير الأليم، أو يقدم موجب تغيبه هذا. فمكث غير بعيد ثم جاء، وبدون مبالاة بما صدر عنه، أو صدر في حقه، وقام خطيباً بليغاً كما قال تعالى عنه: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ...﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٨].

إن التعليق على هذا السياق طويل، وقد تناولناه سابقاً بالتفصيل، ويهمنا منه أن الهدهد كان بغيبته محكوماً عليه بأقصى العقوبات، ولكنه بفضل علم أدركه

صدفة، كما يدرك كل رحالة أمراً جديداً، فجعله يدعي الإحاطة بما لم يحط به نبي الله سليمان مع ما أعطاه الله من إمكانيات، سواء من الجن، أو الريح غدوها شهر ورواحها شهر، وتكون نتيجة ذلك أن يُعفى من العقوبة، ويهيئه للسفارة بين ملكين عظيمين.

وهكذا في هذه الآية: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: ٦] فيهتدون بهديه، ويعتزون بعزة الله تعالى.

٣ ـ تتمة آيات الهداية في سورة (سبأ):

نص الهداية قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وأول الآية قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]. ويلاحظ أن النص يخاطب فريقين: ﴿وَإِنَّآ﴾: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ في عمل مقارنة على سبيل التسامح وأسلوب التنزل مع الخصم. وأول الآية الخطاب فيها لفريق واحد: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ . . .﴾ [سبأ: ٢٤]. فأين إذن الفريق الثاني المعني بقوله: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾؟ وبالرجوع إلى ما قبل آيتين فقط في السياق، نجد الصورة مكتملة من بيان الفريقين، وبيان مسلك كل منهما. وذلك في بداية قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٤].

قال أبو حيان: (زعم) هنا تتعدى إلى مفعولين محذوفين معلومين من السياق، أي: زعمتموهم آلهة من دون الله، تعبدونهم زاعمين أنهم يملكون لكم جلب نفعٍ أو دفع ضر. ولا شك أن هذا الطلب: ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ طلب تعجيز.

وفي مقابلة ما أولاه الله تعالى لعباده المؤمنين من شمول بالنفع، وحفظ من

الضر. ولذا قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكرهم بداود وسليمان، وما أسبغ عليهم من نعمة بما فيه آثار قدرته سبحانه. وقال أبو حيان: بعدما قص على المشركين قصة سبأ، وما فعل الله بهم ولهم، ففي خبرهم الأمران جميعاً:

سعة الإنعام والإرزاق: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ [سبأ: ١٥].

إنعام في الدنيا: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ ومغفرة في الآخرة: ﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾.

والجانب الثاني: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٦ ـ ١٩]. وبعدها بآية واحدة جاء: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾.

قال الفخر الرازي: لما بيّن تعالى حال الشاكرين وحال الكافرين، وذكرهم بمن مضى، عاد إلى خطابهم، وقال لرسوله ﷺ: ﴿قُلْ﴾ للمشركين ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ ليكشفوا عنكم الضر، ويجلبوا لكم النفع، وذلك على سبيل التهكم.

وقال أبو حيان: كان ذلك زمن أخذهم بالشدة وسنين كسني يوسف. ثم ذكر أسباب الشرك وأبطلها، وعلى أن ذلك حال وجود الشدة فعلاً، فيكون قوله تعالى: ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ من أسلوب التعجيز.

وعلى كلٍّ: سواء للتهكم، أو للتعجيز، فإن الربط بين دعائهم هذا وبين قصة سبأ، هو أن الله تعالى أوقع لأهل سبأ الحالين: السعة والرخاء، والضيق والشدة: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾. ثم أبدلهم بخمط وأثل وشيء من سدر قليل.

ولا شك أن قريشاً قد أحاطت بخبر سبأ، وتداولته فيما بينهم، بل إن ابن كثير يذكر أبياتاً عنهم فيها الإعلان عن مبعث نبينا محمد ﷺ فيما بعد.

قال ابن كثير: اسم سبأ: عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما سُمي سبأ لأنه أول من سبأ في العرب، وكان له الرائش، لأنه أول من غنم في الغزو، فَأَعطى قومه فسُمي الرائش. والعرب تسمي المال ريشاً

ورياشاً، وذكروا أنه بشّر برسول الله ﷺ في زمانه المتقدم، وقال في ذلك شعراً:

سيملكُ بعدَنا مَلكٌ عظيمٌ	نبي لا يرخصُ في الحرام
ويملكُ بعده منهم ملوكٌ	يدينوه القيادَ بكل دامي
ويملك بعدهم منا ملوكٌ	يصيرُ الملكُ فينا بإقتام
ويملكُ بعدَ قحطانَ نبيٌّ	تَقِيٌّ فحبت خير الأنام
يسمى أحمد يا ليت أني	أُعَمَّرُ بعد مَبعثه بعامِ
فأعضدُه وأحبوهُ بنصري	بكلِّ مُدَجَّجٍ وبكلِّ رامِ
متى يظهرْ فكونوا ناصريه	ومَن يلقاهُ يبلِّغه سلامي

فهذه الأبيات مهما يكون من سندها، فهي من مرويات التاريخ وتؤكد معرفة قريش لأمر سبأ، وما أجراه الله عليهم في حالتي الشكر والكفر، وجعل في ذلك آية لهم، وعبرة لغيرهم. فيكون مجيء قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. له علاقة قوية بما سيق قبله، ليرجعوا إلى أنفسهم، ويعلموا أن الله سبحانه هو وحده المدبر والمتصرف في هذا الكون، ثم جاءهم بما يبطل زعمهم حساً وعقلاً، ومن أربعة احتمالات قاطعة:

الأول: في قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾. وإذا كانوا لا يملكون في هذا الكون كله ـ سمائه وأرضه وما بينهما ـ مثقال ذرة، أو كما قال في موضع آخر: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]. ومعلوم أن من لا يملك مثقال ذرة ولا يملك من قطمير، لا يتأتى منه تقديم أي نفع لغيره، بل ولا يملك ذلك لنفسه، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، وعليه بطل الاحتمال الأول: من كون ما يعبدون من دون الله يملكون لهم نفعاً، لبطلان تملكهم ولو مثقال ذرة.

الاحتمال الثاني: وهو انتقال معهم وتدرج في قوله تعالى عنهم: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾. أي وما لمعبوديكم في السموات ولا في الأرض من شراكة. فلكأنه سبحانه لما أبطل زعمهم امتلاك معبوديهم أسباب النفع، وأبطله عليهم. قد يزعمون أن نفعهم إياهم عن طريق المشاركة، والشريك قد ينفع البعض ممن يطلبه من حصة الشراكة، فأبطله أيضاً عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن

شِرْكٍ﴾ فبطل زعمهم استطاعة معبوديهم نفعهم بطريق مباشر.

ثم انتقل معهم أيضاً إلى **الاحتمال الثالث**: وهو أن يكون لمعبوديهم تعلق في هذا الملك غير مباشر، وعن طريق التسبب، بأن لهم يد مساعدة لصاحب هذا الملك، ظاهروه وأعانوه في شأنه، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾. أي لأنه سبحانه القادر على كل شيء كما قال سبحانه: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾. وقبلها قوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فقد صرح النص بأنه سبحانه لم يعي بخلق السموات والأرض، وأنه على كل شيء قدير، فلا مجال لاتخاذ ظهير: لا منهم، ولا من غيرهم، سبحانه جل جلاله. وبهذا نفى كل طرق مزاعمهم نفع معبوديهم إياهم، سواء بطريق مباشر بتملك شيء في السموات أو الأرض، أو بوجود شراكة لهم مع الله، أو بوجود معاونة لهم لله.

وبعد هذا كله جاء إلى الاحتمال الأخير: وهو ما ليس مباشراً ولا مسبباً، وإنما هو احتمال لأمر خارجي، وهو إتيانهم بالشفاعة لهم عند الله. كما جاء التصريح به في قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]. وقوله تعالى عنهم: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ...﴾ [يونس: ١٨]. فأبطل الله شفاعة معبوديهم عند الله بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فلم يبق لهم أي وجه مما زعموها في معبوداتهم. وسيأتي مبحث الشفاعة إن شاء الله.

٤ ـ من سورة سبأ:

متابعة الحديث على قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [سبأ: ٢٤]. واقتضى السياق بدء الحديث عن أوله من قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ

فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣]. وتقدم الكلام على إبطال زعم المشركين إمكان معبوديهم من دون الله أن يقدموا لهم نفعاً، أو يدفعوا عنهم ضراً، وذلك في أسلوب استقصائي شامل، متسلسل تسلسلاً منطقياً مفحماً، حيث حصر حال الإمكان المزعومة في أربع حالات:

١ ـ إما أنهم يملكون في هذا الكون سمائه وأرضه ما يحق لهم تقديم النفع بمقتضى ما يملكون. وهذا باطل لأنهم لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض.

٢ ـ وإما أنهم لهم شراكة مع الله في ملكه ما يحق لهم تقديم النفع بمقتضى حصة الشراكة. وهذا باطل، لأنهم ما لهم فيهما من شرك.

٣ ـ وإما أنهم عاونوه وظاهروه على إيجاد هذا الملك وعلى تسيير وتدبير شؤونه. وهذا باطل لأنه سبحانه ما له منهم من ظهير.

وتقدم إيضاح ذلك في السابق وبقي في الاستقصاء في هذا السياق، وهو: أن تكون لهم شفاعة عند الله فيحصل لهم نفع بشفاعتهم تلك. وهذا باطل، لأنه لا تنفع الشفاعة عند الله تعالى إلا لمن أذن له، سواء الشافع لا يتقدم ليشفع عنده إلا إذا أذن له، أو المشفوع له لا يشفع شفيع في أحد إلا من أذن له الله أن يشفع فيه. وبمقتضى ذلك فإن المشركين لا ينتفعون بشفاعة معبوديهم المزعومة، لأن الله لم ولن يأذن في تلك الشفاعة: لا لمعبوداتهم أن تشفع، ولا لهم أن يشفع فيهم. وبهذا السياق وهذا التقسيم والاستغراق بطلت مزاعم المشركين كلها، حتى زعمهم في الشفاعة.

وقال الفخر الرازي: إن المشركين بطلبهم الشفاعة، قد فوتوا على أنفسهم الشفاعة.

والمتأمل نصوص الشفاعة في كتاب الله ـ وقد قاربت الثلاثين نصاً سيجد منهجاً متكاملاً في موضوع الشفاعة، حَرِياً بإفراده بتأليف يجمع أطرافه، وينسق جوانبه، نلم بذلك إلمامة موجزة بقدر المستطاع، مستعينين الله في ذلك.

أولاً: النص على أن الشفاعة من حيث هي لله تعالى. قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٢ ـ ٤٤]. إنه حكم قائم على موجباته من قدرته سبحانه، يتوفّى الأنفس فيمسك ويرسل كيف شاء، ولا تقوى قوة في الأرض ولا في السماء على تغيير ذلك. وفي هذا غاية القهر للخلق، ومنتهى السلطان للخالق. ومع هذا يتخذون من دونه سبحانه شفعاء يتوسطون لهم عنده، والحال أن أولئك الشفعاء لا يملكون شيئاً فينفعونهم بموجبه، ولا يعقلون مواطن النفع وغيرها ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ لانفراده بالعظمة والسلطان والقدرة والملك له ملك السموات والأرض لا شركة لأحد فيه، ثم إليه ترجعون بالقهر والقوة.

فإذا كانت الشفاعة لله جميعاً، ولا يملك منها أحد، فلا شفاعة إلا لمن أذن له سبحانه بها، كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وقوله: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ٣]. ومعلوم أن الشفاعة تُرجى يوم القيامة. وقال تعالى عن ذلك اليوم: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ . . .﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١١١]. في هذا الهول الشديد لا تنفع الشفاعة إلا بشرطين: من أذن له. ومن رضي قوله. وكل من دون الله لن يؤذن له، وكل من عبد غير الله غير مَرْضِي قوله. وأكد ذلك قوله تعالى ردّاً على من زعم أن الملائكة أبناء الله: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

فتأمل ـ رحمني الله وإياك ـ عباد مكرمون، لا يسبقون الله تعالى بالقول، ولا يتقدمون عليه، ولا بين يديه سبحانه، وبأمره يعملون. كما قال تعالى عنهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. ومع هذا كله لا يشفعون إلا لمن ارتضى سبحانه ويومئ إلى امتناعهم عن ذلك قوله تعالى بعدها: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ﴾. وإذا كان هذا حال الملائكة المقربين، والعباد المكرمين، فما بال غيرهم؟ وقد جاء عنه ﷺ: أن هذه الحال حال الملائكة من خشيته مشفقون، هي بعينها ستكون حال جميع الرسل يوم القيامة في حديث الشفاعة العظمى، والمقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون. وذلك حين يجتمع الخلائق في الموقف، وتدنو الشمس من الرؤوس، ويلجم الناس العرق، ويطلبون فصل القضاء ولو إلى النار، فيقولون: ألا تطلبون من يشفع لنا عند ربنا ليأتي لفصل القضاء؟ فيقولون: اذهبوا إلى أبينا آدم. فيقولون: أنت خلقك الله بيديه، وأسجد الملائكة إليك، وأسكنك الجنة، ألا ترى ما نحن فيه، فاشفع إلى ربنا ليأتي لفصل القضاء. فيعتذر لهم قائلاً: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضبه قبل، وإني عصيت ربي فأكلت من الشجرة التي نهاني عنها، نفسي نفسي. فيذهبون إلى إبراهيم عليه السلام، ويقولون: أنت خليل الرحمن. فيعتذر لهم كما اعتذر آدم، ويقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى موسى. فيقولون: أنت كليم الله. فيعتذر لهم ويقول: نفسي نفسي. وهكذا كل رسول يعتذر لشدة غضب المولى، ويشفق أن يتقدم بطلب الشفاعة، وتهمه نفسه، حتى يأتوا إلى النبي محمد ﷺ فيقول: «**نعم أنا لها أنا لها**». وهناك أقصى صورة التواضع لله، والخشية رغبة ورهبة، فيذهب فيسجد تحت العرش، ويسبح الله ويحمده بمحامد لم يكن يعلمها من قبل، حتى يقال له: ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع. فيشفع في فصل القضاء، وهي الشفاعة العظمى التي تشمل الأولين والآخرين، وهو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، ثم تتوالى شفاعاته للأمة، حتى يخرج الله بشفاعته ﷺ من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان. جعلنا الله تعالى من أتباعه وأحبابه، وأهل شفاعته، وصدق الله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾.

٥ ـ من سورة سبأ:

بعد إبطال مزاعم المشركين فيمن يدعون من دون الله، جاء بإقامة الدليل على وحدانيته سبحانه في أخص ما يكون في كيان الإنسان. فقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. لأن أخص ما يكون في كيانه بعد إيجاده من العدم إلى الحياة هو عامل بقاء تلك الحياة، وهو إيجاد الرزق لها، ودفع المضار عنها. وأشد المضار المهلكة هو الجوع الملهب. وهذا العامل هو الموجب لعبادته سبحانه وحده، كما قال تعالى لقريش: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ٣ ـ ٤].

وهنا يخاطبهم المولى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي بالمطر والهواء والشمس عوامل الإنبات والتلقيح والنضج، والأرض بما تنبت من نبات، وتختزن لكم من الماء وما فيها من المعادن، تحتاجونها في شؤون حياتكم. وهم يعلمون أنه لا رازق إلا الله، وقد فصل سبحانه كيفية هذا الرزق بقوله: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢]. وهم يعلمون أنه لا يقدر على شيء من ذلك إلا الله. وكذلك قال لهم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الواقعة: ٦٣ ـ ٧٠]. كل ذلك تذكير لهم بإنعامه تعالى عليهم، وإبطال ما يزعمون من قدرة من يدعون من دون الله على نفعهم.

وقد صرح سبحانه قبل هذا السياق وفي سورة الإسراء: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦]. وقال في يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

[يونس: ٣١ ـ ٣٢]. وهنا لفتة هامة، وهي عطف تدبير الأمر على صفات الرزق وإيجاده من السماء والأرض، وعلى إخراج الحي من الميت، والميت من الحي، يعني الخلق والإبداع، وعلى امتلاك السمع والأبصار مما يشعر أن تدبير أمر هذا الكون وتسييره وإحكام تصرفاته، يعادل خلقه وإيجاده. ونحن نشاهد هذا في حياتنا اليومية، مما يكون تدبير الشيء بعد تكوينه أصعب من مجرد إنشائه. كمن أسس مصنعاً للغزل أو للنسيج أو للحديد حتى انتهى من إنشائه، وجاء دور التشغيل، فإن تكلفة ومتطلبات العناية به، وتدبير إدارته وصيانته، وتوفير مواده الأولى، وتسويق منتجاته وملاءمة الإنتاج مع الاستهلاك، ومراعاة جودة الناتج، ومتطلبات من يتعامل معه، كل ذلك مع توفير الأيدي العاملة، والقوى الفنية المتخصصة، أعظم خطراً وأهميةً على مجرد الإنشاء، لأنه كما يقال: الإنشاء مرة واحدة، أما الإدارة والتدبير والصيانة فعدة مرات، وبصورة دائمة.

ومن هنا نعلم عظمة الخالق الرازق المدبر شؤون العالم ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ وهم يقرون بذلك ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ أي أفلا تخافونه، وتعملون بما يقيكم عذابه؟ ثم يظهر سبحانه عجز معبوديهم الذين يزعمونهم شركاء مع الله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يعني يبدأ الخلائق ثم يميتهم، ثم يعيدهم إلى الحياة بعد الموت، ويبعثهم من قبورهم؟ الجواب: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤]. تنقلبون عن وجهة الحق في عبادته وحده، وتزعمون أن معه شركاء ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد: ١٦]. قهر العالم بقدرته، وسير الكون بحكمته.

ونأتي إلى سورة (المؤمنون) فنجد الأسلوب يتكرر بصورة إلزامية أخرى في أسئلة تقريرية: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩]. وهنا معنى جديد في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾. يجير: يحمي ويمنع في جواره من استجار به، لقوته وقدرته، فلا

يستطيع أحد أن يخفر جواره. وليس أحد يستطيع أن يجير عليه، أي يمنع أحداً منه، لعجز الخلائق عن ذلك.

وفي بعض الغزوات نام النبي ﷺ تحت شجرة، وعلق سيفه بها، فجاء أعرابي فأخذ السيف فاستله، ونبه النبي ﷺ وقال له: من يجيرك مني؟ فقال ﷺ: «الله». فسقط السيف من يد الأعرابي، فأخذه ﷺ وقال له: «**من يجيرك مني؟**» قال: لا أحد. أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله.

وبعد هذا التقرير على وحدانية الله تعالى جاء بعدها بقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٠﴾﴾. ثم أعلن لهم الحقيقة التي ينبغي أن يعتقدوها في حقه تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ رداً على قولهم: الملائكة بنات الله. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾. ردّاً على اتخاذهم اللات والعزى آلهة. وأقام الدليل العقلي على بطلان ادعاءاتهم: (إذا) أي لو كان معه آلهة لذهب كل إله بما خلق. ويطوى في هذا الخبر خبراً آخر، أي أن من يستحق الألوهية لا بد أن يكون قادراً على الخلق والإيجاد، فلو قدر على زعمكم أن معه آلهة، لكان لكل إله مخلوقون متميزون عما يخلق غيره فيذهب كل إله بما خلقه، ويتفرد كل إله بمخلوقاته. ثم لَعَلا بعضهم على بعض. لأن العادة جرت: أن الشركاء ليسوا في قوة واحدة، ولا على مستوى واحد، وحينئذ يتعالى كل واحد منهم على الآخرين، وكما في الآية الأخرى من سورة الأنبياء: ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ﴾ يعني الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، هذا في شأن أهل السماء، ثم خاطبهم في أهل الأرض: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾. أي بتنازع الآلهة، والحال أنهما لم تفسدا، بل في غاية الضبط والحسن والإتقان ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ . . .﴾ [الأنبياء: ١٩ ـ ٢٤].

وبعد هذا الإيراد في إبطال مزاعمهم فيمن يدعون من دون الله، وإقامة الأدلة والحجج والبراهين على وحدانية الله تعالى، نعود إلى نص الهداية من سورة سبأ: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. وإنّا؛ أي النبي ﷺ الذي أمر أن يقول لهم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم . . .﴾ الآية، ومن معه:

أي جماعة المؤمنين: ﴿أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ جماعة المشركين، على سبيل التنزيل نحن الذين نعبد الله مالك الملك، ومدبر الكون، ويجير ولا يجار عليه، لا يُسأل عما يفعل. وليس من شركائكم من يفعل ولا شيئاً من ذلك: واحد منا قطعاً على هدىً، والآخر قطعاً في ضلال مبين. وهذا الأسلوب أهدى ما يكون، ويستنطق الخصم بالحكم، كما قال حسان في الرد على أبي سفيان حين هجا رسول الله:

أتهجوه ولست له بكفء   فشركما لخيركما الفداء

والبدارة بقوله: ﴿وَإِنَّآ﴾ تشعر بأنهم هم الذين على الهدى، لأنهم يعبدون ربهم ورب نعمتهم، ومن بيده ملكوت كل شيء، ومنهج التنزيل هذا هو منهج الواثق من نفسه، المطمئن لعدالة قضيته، المنصف في دعواه.

٦ ـ النص الأخير من سورة سبأ:

قال تعالى آمراً نبيه المصطفى رسول الهدى ﷺ على سبيل الفرض والتنزل مع المشركين، ومعه هو صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠].

فما أعظمه كتاباً وأكرمه! وما أوضحه بياناً وأبينه! وما أقواها حجةً وسلطاناً وأعزه! وما ألطفه أسلوباً وأرحمه! وما أهداه منهجاً وألينه! يتنزل مع الخصم على سبيل الافتراض ليرجع الخصم لنفسه، ويعمل فكره، ويحكم عقله، ويستشير رشده، ويتطلب الصواب لنفسه، لتكون قناعته منطلقة من داخليته، وليست مفروضة عليه فرضاً. كما أنه يرسم إلى الدعاة الصادقين في دعوتهم، المخلصين في مقاصدهم الذين لا يبتغون من وراء دعوتهم سوى هداية الخلق إلى سبيل الحق.

وهذا السياق يرتبط من أول قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سبأ: ٢٢]. وبيّن سبحانه أن دعواهم إياهم باطل، وبين بطلان مزاعمهم من الوجوه الأربع التي قدمناها بأنهم: لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، وبأنهم ما لهم فيهما من شرك، وبأنه سبحانه ما له منهم من ظهير أي ولا معين، وبأنه سبحانه لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له. وجاءهم

بأعظم دلائل الربوبية المستوجبة لتوحيد الألوهية، وهي صفة الرزق: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾. ثم التنزل معهم في كمال العدالة: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقد أوضحنا ذلك فيما تكلمنا في السابق. ثم يليها نوع آخر من الإنصاف ورفع التبعية كل من الفريقين عن الآخر، وأن كل فريق يتحمل مسؤولية نفسه فقال: ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ يعني لو كنا في ضلال. ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ومن ألطاف الأسلوب المعجز أنه في حق النفس عبر بكلمة (أجرمنا)، وفي حق الخصم بكلمة ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وهي لا شك ألطف من ﴿أَجْرَمْنَا﴾ إمعاناً في ملاطفة الخصم، والتلطف في دعوته. وأخيراً وفي النهاية: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا﴾ ـ يعني يحكم ـ ﴿بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٤ ـ ٢٦]. وعلمه محيط بعمل الفريقين، ويعلم مَن على الهدى، ومن في ضلال مبين.

وبعد عدة آيات يدعوهم للتحاكم إلى أنفسهم مجتمعين ومنفردين، فيقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ﴾. أي بالتوحيد على ما يقوله بعض المفسرين، أو بخصلة وخطة واحدة لا تختلفون عليها: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. وبتأمل تلك الخطة المبسطة واليسيرة ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي تتجهوا وتعرفوا وجهتكم لله، وتكون مثنى مثنى، وفرداً فرداً.

على هذين القسمين ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ قال الفخر الرازي: لأن ما زاد على اثنين أدعى إلى الاختلاف، وسبيل المفاهمة الهادفة أن تكون بين اثنين صادقين، بعيدين عن التعصب والهوى.

وقال أبو حيان: إن الكثرة مدعاة للخلاف كما نرى في حِلَقِ الدروس.

ولو تأملنا ما ساقه القرآن الكريم في جدل الماضين، لوجدناه يلتزم الثنائية ابتداء من حوار إبليس مع رب العزة في شأن آدم، ثم في حوار إبراهيم عليه السلام أولاً مع أبيه، ثانياً: مع نمرود. ثم موسى عليه السلام مع فرعون. والعديد من القضايا في الإسلام أهمها قضية المتكلمين في قضية القرآن.

والذي يهمنا أنه إذا قامت أمة كاملة: مثنى يتفاهمان معاً، كلٌّ منهما يورد ما عنده، والآخر إما يصدقه أو يورد عليه وجهة نظره حتى يصلان إلى نتيجة.

وفرادى: كلٌّ على حدة، يستغرق في تفكيره ويتساءل مع نفسه، وقضيتهم جميعاً واحدة وهي شخصية النبي محمد ﷺ من الجهة العقلية، والسلامة من مس الجن ونحوه، والحال أنهم منذ طفولته ﷺ فيهم وهم يعرفون له رجاحة العقل، وسلامة الفكر، وصواب الرأي. وقد سجلوا على أنفسهم ذلك كله في حادثة وضع الحجر الأسود في موضعه، بعد أن كادوا يقتتلون، ثم قالوا: نحكم أول من يخرج علينا من هذا الفج، فكان هو ﷺ، فقالوا جميعاً: الأمين ارتضيناه. ثم بعد ذلك أعلنها عمه أبو طالب في خطبة خديجة رضي الله عنها إليه: إن محمداً لا يوزن به فتى من قريش إلا رجح عليه عقلاً وفضلاً... إلخ، وليس عندهم أي شبهة في ادعائهم عليه. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]. ومعلوم أنه لا يتولى مهمة النذارة إلا خبير محنك على مستوى تلك النذارة، ولما أبطل عليهم زعمهم في شخصيته ﷺ جاءهم عن طريق المعارضة والمادة التي يدينون بها، وينفي عنه ﷺ الحظ الشخصي الذي هو مثار التهمة، فقال تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ: ٤٧]. وفي هذا براءة جانبه ﷺ من ابتغاء نفع وراء دعوتهم إلى الله. بل إنه ﷺ فيما شرع لنا أن الصدقة ـ وهي حق فرضه الله في أموال الأغنياء يعطى للفقراء ـ قد حرَّمها ﷺ على نفسه وآل بيته، مع أنه كلف بجمعها، والقتال عليها، وتوزيعها إلى المستحقين. وهي وإن كانت أوساخ الناس، إلا أنها أيضاً تفتح نافذة لضعاف النفوس، يقولون: جَمَعَها لِحظِّهِ منها.

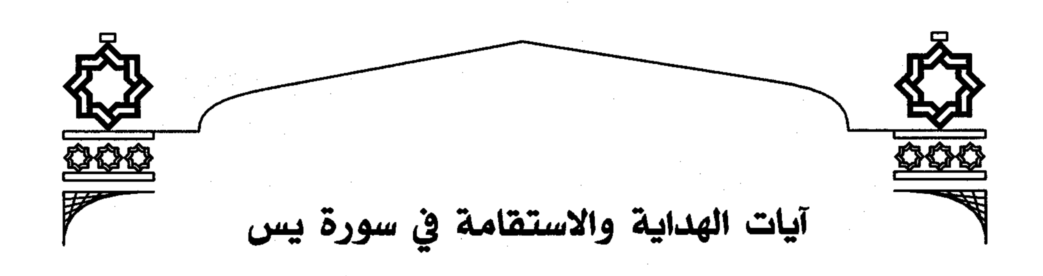
ومما سأل عنه هرقل أبا سفيان: أكان له أباً ملكاً؟ أكان يَدَّعِي الرئاسة عليكم؟ فيقول: لا. فقال هرقل: لو كان كذلك، لقلنا يدعو لحظ نفسه.

ثم إن عدم سؤال الأجر على الدعوة إلى الله من الناس هو منهج الرسل، كما جاء في سورة الشعراء عن نوح وعاد وثمود ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام كل يقول لقومه: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء: ١٠٩]. وجاء في سورة الشورى: ﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. وهذه الرابطة قد سألوه بها لما منع ثمامة بن أثال الميرة عن مكة، ولحقتهم الشدة، فجاؤوا إليه ﷺ بالمدينة، وقالوا: مُرْ ثمامة

أن يأذن بالميرة لمكة، فإن فيها خالاتك وعماتك وذوي قرابتك. وهذه أقوى صلة للرحم من الطرفين.

وبعد هذه التنزلات، وتلك الحجج عليهم بأنه ﷺ ليس به جنة، ولا يسألهم أجراً، وإنما هو نذير لهم؛ يأتي تقرير الواقع ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي بعد تفنيد الباطل، وهذا الحق هو ما جاء به محمد ﷺ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. ولا شك أن الباطل لا محالة زاهق كما قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء: ٨١]. وقال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ﴾ [الأنبياء: ١٨]. وبعد هذا الإيراد، ومسايرة الخصوم، وإقامة الحجج عليهم ومن أنفسهم مثنى وفرادى، يأتي التنزل الأخير منه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾ [سبأ: ٥٠]. حاشاه صلوات الله وسلامه عليه وهو رسول الهدى، ويهدي إلى صراط مستقيم، ولكنه على حد قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الزخرف: ٨١]. وسبحانه وتقدست ذاته عن ذلك، ولكن لتسجل عليهم وعلى غيرهم أن الضلال من النفس وعليها، وأن الهداية من الله وبما يوحي سبحانه، وليست من صنع البشر ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

* * *



آيات الهداية والاستقامة في سورة يس

١ ـ **الهداية والاستقامة** من سورة (يس) والنص هو الافتتاحية الكريمة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾ [يس: ١ ـ ٦].

تلك آيات ست. **الأولى**: مسمى السورة (يس). وقيل: إنها من الحروف المقطعة في أوائل السور، مثل (طه). وعن ابن عباس أنها بمعنى: يا إنسان. وأطال المفسرون في هذا المعنى، فالله تعالى أعلم بمراده. كما أن البعض قال هنا: إذا كانت بمعنى (يا إنسان) فالمقصود بها خصوص النبي ﷺ، بدلالة الخطاب إليه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ ومهما يكن من معانيها فإن المفسرين متفقون: على أن ابتداء السور بحروف مقطعة زيادة إعجاز واسترعاء انتباه السامع والقارئ على السواء.

والآية الثانية: الْقَسَم العظيم، حيث يقسم الله تعالى بالقرآن الكريم. ومعلوم أن القَسَم من مقاصده الأولى توثيق المقسم عليه.

تبقى الآيات الأربع، كل آية تختص بموضوع في جزئية من قضية كلية، هي رسالة نبينا محمد ﷺ. فالآية الأولى من الأربع: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ والتي تليها: وصف لما عليه الرسول ﷺ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾. والتي تليها بيان مصدر الرسالة والذي أرسله، ومصدرها: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾. والتي تليها بيان المرسل إليهم، ومهمة الرسول ﷺ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾.

فافتتاحية السورة الكريمة في مجموعها اشتملت على: الرسول، والرسالة، والمرسل، ومن أرسل إليهم. وكل طرف من الأطراف الأربعة صريحة في قول بلقيس في شأن نبي الله سليمان: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً ...﴾ الآية إلى

قوله تعالى عنها: ﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ۝٣٥﴾ [النمل: ٣٤ ـ ٣٥]. فالرسالة: هي الهدية، وبلقيس: هي مرسلتها، والمرسل إليهم: سليمان عليه السلام، والمرسلون: هم الذين تنتظرهم بم يرجعون إليها.

وبتأمل هذه الأطراف الأربعة في افتتاحية السورة، نجد كل طرف منها جاء مصحوباً بقيد:

فالأول منها: الرسول ﷺ بوصفه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾. وهذا هو موضوع هذا الكتاب المبارك يأتي تفصيل الحديث عنه بعد بيان الأطراف الأخرى.

والطرف الثاني: الرسالة. جاء وصفها ضمناً في قوله: ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ وجاءت قراءة ﴿تَنزِيلُ﴾ بفتح اللام وضمها. و﴿تَنزِيلُ﴾ ليس وصفاً للرسول، ولكن لِمَا أُرسل به وهو القرآن الكريم المنزل من الله العزيز الرحيم.

والطرف الثالث: المرسل إليهم. وهم القوم الغافلون.

والطرف الرابع: مهمة الرسول برسالته إلى أولئك القوم: وهو الدعوة والإنذار.

هذا على سبيل الإجمال وسيأتي التفصيل إن شاء الله. ومن الإعجاز القرآني أن السورة كلها تدور على مقدمتها: إخباراً، وبياناً، مع إقامة الأدلة الكونية والعقلية على صحة الرسالة، وصدق الرسول، وإلزام المرسل إليهم بالإيمان والتصديق. وتفصيل ذلك من بداية الاستهلال بالقسم وعلاقته بالمقسم عليه. وهذا المبحث يكاد يكون من أدق المباحث وأجلها، وفيه أعمق أساليب الإعجاز، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ١ ـ ٤]. فالمقسم به: النجم في سيره وهويه. والمقسم عليه: نفي الضلالة عن صاحبهم ﷺ وحفظ منطقه عن الهوى، ومصدره وحي يوحى إليه به. وقوة الرابطة بين المقسم به والمقسم عليه: هي أنهم يعرفون المقسم به وهو النجم في تحركه أصدق قياس للزمن، وأهدى دليل للمسافر، يستدل به في ظلمات البر والبحر، فلا يضل أبداً. فكذلك المقسم عليه وهو صاحبهم: فهو نجم هدايتهم إلى الله تعالى، لا يضل من اهتدى به، ولا شك في منطقه لأنه ليس

عن هوى، إن هو إلا وحي من الله تعالى، يوحى به إليه، كالنجم في سيره ليس عن هوى، وإنما بتسيير خالقه ومدبر هذا الكون. والربط بين المقسم به: القرآن الموصوف بالحكيم، وبين المقسم عليه ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣﴾ والموصوف بأنه ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤﴾ رابطة قوية للغاية، لأن القرآن المقسم به هو رسالته ﷺ، فهو مرسل بالقرآن، وإذا كان القرآن موضوع الرسالة حكيماً، كان ولا بد أن من أرسل به بمقتضى تلك الحكمة على صراط مستقيم، لأن الاستقامة والحكمة صنوان.

وهنا أثار الفخر الرازي سؤالاً، وأورد عليه عدة أجوبة، وهو: إن المرسل إليهم لا يؤمنون بالرسول رسولاً، ولا بالقرآن قرآناً، فكيف جاء إثبات ما ينكرونه وهو الرسالة، والقسم بما ينكرونه وهو القرآن؟

ومن الأجوبة: أن العرب تعظم القسم في الجملة، ويكون أعظم إذا أقسم المتكلم بما يعظمه، وهذا وجه. ووجه آخر أن الأصل في الجدل تقديم الأدلة، فإذا كابر فيها الخصم، لم تبق فائدة في زيادة تقديم أدلة أخرى، لأنه سيكابر فيها أيضاً، فلم يبق إلا القسم.

ويشهد لهذا الوجه عندي موقفه ﷺ مع وفد نجران حين انتهى الأمر معهم إلى المباهلة فتوقفوا. وبتأمل السورة قبل (يس) وهي سورة (فاطر) نجد الإعجاز في نظم القرآن، وترتيب سوره، وقوة ترابط ما بينها، إذ نجد السورة كلها تقوم على نصب الأدلة القاطعة الساطعة على وجود وقدرة الله ووحدانيته سبحانه، وعلى البعث والجزاء. وعلى سبيل الإيجاز: بدأ من افتتاحيتها: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]. فلن يكابر في ذلك إلا معاند. والآية الثالثة تذكير بنعمة الله على خلقه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝٣﴾ [فاطر: ٣]. نعم والله. لا إله إلا هو، والآية التاسعة منها: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ [فاطر: ٩]. فهذا دليل البعث، ثم في الآية (٤٠) يعطف على آلهتهم، فيبطل عبادتهم إياها ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ . . .﴾ [فاطر:

٤٠]. إنه كتاب الله، لا تنقضي عجائبه. فالسورة كلها في إقامة الأدلة على الرسالة، والبعث، وقدرة المولى سبحانه، مع إبطال عبادة شركائهم. فلم تعد حاجة لزيادة أدلة، فكان القسم بالقرآن الحكيم على رسالته ﷺ عين الحكمة.

وسيعود السياق في سورة يس مرة أخرى إلى إقامة الأدلة تحقيقاً لهذا القسم، والله تعالى أعلم.

٢ ـ الهداية والاستقامة من سورة (يس):

تقدم الكلام على افتتاحية السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾﴾ وعلى القَسَم بالقرآن الحكيم على رسالته ﷺ، وبيان موجب القسم بما لم يؤمن به المخاطبون الذين أرسل إليهم الرسول ﷺ، وربط هذه السورة بما قبلها (فاطر)، وربط القَسَم بالمُقْسَم عليه.

وهنا الكلام على المقسم عليه: وقد جاء مؤكداً بزيادة حروف التأكيد: (إن) واللام. وهذا التأكيد بعد القسم عليه، زيادة في الإثبات. ويلاحظ أن قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ومعلوم أن حرف (مِن) للتبعيض. أي أن المقسم عليه ـ وهو كونه ﷺ رسولاً ـ من عموم المرسلين قبله، هو في ذاته مؤكد ومثبت لرسالته. لأن المقسم إليهم يعلمون أن قبله رسل متقدمون؛ كإبراهيم وصالح وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، وآكدهم عندهم إبراهيم عليه السلام جده ﷺ، وباني البيت الذي يعيشون حوله وفي بركاته، وهم سدنته وجيرانه، وخاطبهم الله فيه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. وفي تحركاتهم منه وإليه لمعاشهم وتجارتهم: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾﴾ [قريش: ١ ـ ٤]. وعليه فإن الذي أرسل الرسل قبله، قد أرسله ﷺ إليهم، وكذلك الذين يعترفون برسل قبله ﷺ لا يحق لهم أن يجحدوا رسالته، وعليه إقامة الحجة عليه بهذا التبعيض صراحة في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩].

وبتأمل الأوصاف التي وصف بها كل من القرآن المقسم به بأنه حكيم، والرسول ﷺ، المقسم عليه بأنه على صراط مستقيم، والرسالة وصفت بأنها

تنزيل العزيز الرحيم، نجد الآن: كون القرآن حكيماً: فعيل بمعنى مفعل: أي محكم. والإحكام: الإتقان، كما في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١]. أي ليس فيها خطأ، ولا يعتريها خلل، ولا تقبل لا تغييراً ولا تبديلاً على الزمان إلى الأبد، والواقع شاهد على ذلك، وعلى المعنى العام لحكيم. والحكيم: الذي يضع الأمور في مواضعها. وهذا وإن كان مدلوله اللغوي في حق البشر، فإني أعتقد أن (حكيم) بالنسبة للقرآن وإلى الله تعالى هو: إيجاد المعدوم حسّاً أو معنًى، لكمال المصلحة.

وعليه: فإن القرآن الحكيم قد جاء للإنسانية بما يحقق مصالحها، سواء كان بإيجاد ما لم يكن موجوداً من أمور العبادات والمعتقدات، وجَعَلَ فيها تحقيق سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، أو عدل في الموجود عندهم، كما كان من معاملات ربوية، وعقود الغرر، وأكل الأموال بالباطل كالميسر والربا، أو بالظلم كأكل مال اليتيم، وحرمان النسوة من الميراث، أو كان في علاقة الرجال بالنساء في صور الزواج والطلاق، يتزوج الرجل إلى عشر نسوة، ويطلقها مئة تطليقة، ولا تملك المرأة من أمرها شيئاً حتى حياتها. فأصلح القرآن من أحوالهم، وأخرجهم من الظلمات إلى النور، ووضع لهم المنهج الحكيم بما فيه من الحكمة: فأحق الحق وأقره على ما هو عليه، كأعمال الخير من جود ومروءة ونجدة وصدق القول ووفاء الوعد، وحرمة الحرم والأشهر الحرم، وتحريم الهدي وما إلى ذلك. حتى بعض العبادات كالوفاء بالنذر، وصوم يوم عاشوراء، على عموم عبادة الصوم، وأداء الحج والعمرة، إلا أنه عدل في بعض الأنساك فيهما: فحرم الطواف عرياناً، وعدّل أوقات الإفاضة ووحّدها. وأقر السقاية والسدانة، إلى أشياء كثيرة صارت على أفضل ما يكون كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. أي قد توجد أمور مستقيمة نوعاً ما، فجاء القرآن بما هو أقوم، فَنَظَّم حياة المسلمين في جميع المجالات: في مجال علاقة العبد مع ربه: يعبد ربه الذي خلقه، والذي يرزقه، والذي بيده الحياة والموت وإليه المصير. وفي مجال علاقة الإنسان بأخيه: جعلهما كالجسد الواحد. وعلاقة الزوجين: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وفي حالة الفرقة: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ

بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. وبعد الفرقة: يذكرهم بماضيهم ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. ويبقي على صلة الرحم. وعلاقة الحاكم بالمحكوم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]. ومن الطرف الثاني: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩]. إلى غير ذلك كله. وبمجموع الحكمة في القرآن، والصراط المستقيم للرسول ﷺ، وكونه من العزيز الرحيم أرحم بالعبد من الأم بولدها، مما يلزم العاقل المبادرة إلى السمع والطاعة، والاستجابة لله ولرسوله لما فيه حياته. وقد كان أثر ذلك كله، أن وضع الله أمة الاستجابة لهذه الرسالة المباركة، موضع الوسطية، وفي مقام الشهادة على الأمم جميعاً. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾. والوسط: الاعتدال. والفضيلة: وسط بين طرفين. وبهذا كله كانت خير الأمم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

ثم جاء في ختام تلك المقدمة: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾. و(ما) في مدلولها الحرفي: للنفي، وفي مدلولها الاسمي: اسم موصول معناه في صلته. وعلى النفي يكون المعنى: لم يسبق لآبائهم إنذار، وجئتهم نذيراً. وعلى الصلة: يكون قد سبق الإنذار لآبائهم، وجئتهم مجدداً ومنبهاً لهم إلى ما كان عند آبائهم. وهذه مسألة الفترة ما بين رسول ورسول، أي بين الخليل إبراهيم عليه السلام، وبين محمد ﷺ، وقد رجح والدنا الشيخ الأمين رحمه الله أنها للنفي، بدليل قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٦]. وفي قوله تعالى: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾. إنما هم قومه الذين نشأ فيهم والمنوه عنهم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]. ومعلوم أن نذارته ورسالته ﷺ ليست قاصرة عليهم، بل هذا على سبيل الأولوية، فقد جاء ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤﴾ [الشعراء: ٢١٤]. وجاء: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الأنعام: ٩٢]. وجاء: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠] وجاء: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤﴾ [الكهف: ٤]. وهم اليهود والنصارى وجاء لعموم الناس: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

وعليه: فكل داعية إلى الله حقاً من كان على صراط مستقيم بمقتضى القرآن الحكيم.

٣ ـ أساليب الدعوة:

تقدم في افتتاحية السورة الكريمة وصفه ﷺ بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [يس: ٣ ـ ٤]. ومعلوم أن الصراط المستقيم هو القرآن الكريم، وسيرته ﷺ في الأمة، إذ كان صلوات الله وسلامه عليه بأقواله وأفعاله التطبيق العملي للوحي الإلهي. وصدقت أم المؤمنين ﵂: كان خلقه القرآن. وتلك القضايا موضع التسليم.

والجديد في هذه السورة الذي يدركه الدارس المتأمل، يجد فيها الصراط المستقيم في أسلوب الدعوة إلى الله، حيث اشتملت على أقسام الأسلوب الأربعة، وكل واحد منها متمم للآخر:

الأول: في ضرب المثل بغيرهم أصحاب القرية، سواء كانت قرية معينة كما قالوا: هي (أنطاكية) أو غيرها، ولا شك أن ضرب المثل لهم بغيرهم، وما وقع لمخالفي الرسل، تخويف شديد، وإرشاد واضح. والمثل هنا في الرسالة إليهم: ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ۝ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ وفي هذا التدرج بلطف معهم، ولكنهم معاندون، ﴿قَالُوا۟﴾ لرسلهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ۝ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ۝﴾ [يس: ١٣ ـ ١٦]. هذا جانب الرسل، أرسل الله إليهم ابتداءً اثنين، فكذبوهما، فلم يعاجلهم بالعقاب، فعززهما بثالث، فاجتمع الثلاثة إليهم وقالوا لهم: إنا إليكم ـ أي لا إلى غيركم ـ مرسلون. ولما رفضوا رسالتهم، لم يقتصروا على ذلك، بل بدؤوا يجادلونهم في رسالاتهم: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾. وعليه مع التساوي بيننا وبينكم، فلا خصوصية لكم بالرسالة. وزادوا في جدالهم بنفي أن يكون الرحمن أنزل من شيء، والنتيجة جابهوهم أيضاً بالتكذيب. وهذا من أولئك القوم تجاوز إذ الشهادة من اثنين في أي قضية تقضي بثبوتيتها، وقد جاءهم ثلاثة، ومع ذلك يكذبونهم. ومرة أخرى لم يعاجلهم المولى بالعقوبة، ولا بادروهم بالتفسيق والإساءة، ولكن بالحكمة والتي هي أحسن: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾، وهنا يقول البلاغيون في علم البيان: لقد أكد لهم الرسل بمؤكدات تتناسب مع مدى إنكارهم، وبلطف

وهدوء: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦﴾ وبعد هذه المؤكدات قالوا: ﴿وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾. وهنا انقطعت حجتهم، ولكن عنادهم يدفعهم إلى اللجاج، فانتقلوا إلى ما لا يحكمه العقل: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي تشاءمنا. وهذا أمر لا ميزان له، فرده عليهم المرسلون ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ أي أن حقيقة الشؤم هو ما أنتم عليه من تكذيب ولجاج، فلجؤوا إلى البطش، وهي وسيلة المنقطعة حجته، كما حدث من النمرود، لما بهت في المناظرة مع إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُواْ حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. والرسول ﷺ لما عجزوا عن إقناعه في ترك الدعوة، عمدوا إلى التآمر على قتله. وهكذا هنا أصحاب تلك القرية يقولون لرسلهم: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾. وهنا رد عليهم الرسل بقولهم: ﴿بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾. أي على أنفسكم في التكذيب، وعلى الرسل في الوعيد.

وهذا القسم من أساليب الدعوة يلزم الدعاة الصبر، والحلم، والتأسي، وعدم اليأس. . . ، إلى آخره.

ولما لم ينتفعوا بهذا الأسلوب، جاء **القسم الثاني**: وفيه تطبيق عملي ونموذج في رجل منهم، فقال تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنۡ أَقۡصَا ٱلۡمَدِينَةِ رَجُلٞ يَسۡعَىٰ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٢٠﴾. ومجيئه على هذه الصورة من أقصى المدينة ينفي تواطؤه مع المرسلين. ومجيئه يسعى أي مُجِدّاً في نصحهم، وساعياً في مصلحتهم مهتماً بها. كما في العناية بالجمعة: ﴿فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]. وهنا دعوته إياهم أيضاً غاية في التلطف ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إذاً فهو منهم، والرائد لا يَكْذِبُ قومَه. ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾. إشارة إلى إيمانه برسالتهم، إذ سماهم المرسلين. ثم أخذ يقيم الحجة العقلية عليهم: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسۡـَٔلُكُمۡ أَجۡرٗا وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٢١﴾ لكأنه يقول لهم: إن صاحب الدعوة الباطلة إنما يريد مصلحة لنفسه، وصاحب الدعوة الحقة إنما يريد مصلحة الآخرين. وأي مصلحة لهؤلاء وهم لا يسألونكم على دعوتهم إياكم أجراً؟ ثم يعلن شهادته بأنهم مهتدون، وعليه: أي مانع لكم من اتباع المهتدين، وأنتم لا تدفعون أجراً على اتباعهم؟ ثم عاد يخاطبهم في نفسه ـ والحال أنه واحد منهم، ليكون أسوة لهم، وفي مجال الدليل العقلي أيضاً ـ ﴿وَمَا لِيَ﴾.

وأي شيء يمنعني ﴿لَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ ومن أدق الأساليب أن ينفي وجود المانع، ويأتي بالمقتضى، مما يلزم بلازم، والمقتضى هو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ أي خلقني، لأن موجب خلقه إياه، يوجب له عليه عبادته وحده، والتعبير بـ(فطرني) فيه ـ كما قال الفخر الرازي ـ لطيفة: وهي تجانس الفطر بمعنى الخلق، والفطرة التي هي الحنيفية السمحاء: كل مولود يولد على الفطرة. ثم انعطف على إبطال عبادتهم، وبطلان معبوديهم بالكشف عن حقيقة ارتباط العبد بمعبوده، متسائلاً معهم: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي أقل منه ممن هو مفتقر إليه، وليس مساوياً له ﴿ءَالِهَةً﴾. لا مبيناً المانع وعدم المقتضى. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ من أي مهلكة، أي ولا ينفعوني. فما موجب عبادتكم أنتم إياها؟ ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ إن عبدتها. وبالتالي فأنتم بعبادتكم من لا يدفع عنكم ضراً، ولا يجلب لكم نفعاً، لفي ضلال مبين. وبعد هذا الإيضاح لم يبق إلا إعلان موقفه: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمۡ﴾. ولم يقل: بربي، إلزاماً لهم بعبادة ربهم ﴿فَٱسۡمَعُونِ﴾ لم تأخذه في الله لومة لائم. وقوله تعالى عقبها مباشرة: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ مشعر بموته، ويقول المفسرون: فقتلوه، ﴿قِيلَ﴾ ـ جزاءً له لدعوته قومه ومواجهتهم ـ ﴿ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَ﴾ وهنا في غمرة السعادة، وبحبوحة نعيم الجنة، لم ينس قومه، ولم تنقطع شفقته عليهم، فرغم أنهم قتلوه، لم يتشف فيهم بدخول الجنة، ولم يدع عليهم لقتله، بل يقول متمنياً: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِى يَعۡلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يس: ٢٦ ـ ٢٧]. أي لو علموا لآمنوا، وهذا نظير موقفه ﷺ من قومه بعد الإساءة إليه: «**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**». وهذا كما قال ابن عباس: نصح لقومه حياً وميتاً.

ونختم هذه الحلقة بما قاله الرازي: في هذا تنبيه عظيم، ودلالة على وجوب كظم الغيظ، والحلم على أهل الجهل، والترؤف على من أدخل نفسه في غمار الأشرار، والتشمر في تخليصه، والتلطف في افتدائه، وعدم الشماتة، والدعاء بالخير، حيث تمنى الخير لقتلته... إلخ. وهذا من أعلى أساليب الدعوة على صراط مستقيم.

٤ ـ تتمة الحديث عن الصراط المستقيم الذي وصف به ﷺ في افتتاحية هذه السورة الكريمة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

وتقدم أن السورة الكريمة تدور على مقدمتها، وأن ما جاء فيها يختص بهذا الصراط المستقيم والاستقامة في دعوة العباد إلى الله تعالى. ويشتمل على مناهج ثلاثة: المنهج العلمي في أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، وما كان فيه من حوار بين أصحاب القرية ورسول الله. والمنهج العقلي الملزم لهم يدور حول نفي المانع، ووجود المقتضى للإيمان، وذلك في مجيء الرجل من أقصى المدينة، ينصحهم، ويعلن إيمانه، وتقدم الكلام على هذين الأسلوبين من أساليب الدعوة.

وقد جاء التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾. وفي هذا التحسر والإشفاق تحذير لهذه الأمة في موقفهم من رسول الله ﷺ، ثم يأتيهم بالأسلوب الذي يدركه كل كائن حي حتى الحيوان. وهو إهلاك القرون الأولى بسبب هذا الاستهزاء برسلهم وتكذيبهم إياهم. ولا شك أنهم يعلمون بذلك، حيث كان مسرح إهلاك الكثيرين على عرصة بلادهم: فتلك ديار صالح، وقرية لوط. كما قال تعالى عنهم: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٣ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ۝١٣٥ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝١٣٦ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٣٨﴾ [الصافات: ١٣٣ ـ ١٣٨]. ولهذا ردهم إلى تاريخ الأمم، وللتاريخ سجل لا يمحى، وذاكرة لا تنسى، والواقع أقوى حجة لمن أراد العظة والاعتبار، فقال تعالى في توجيه الخطاب لهذه الأمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ رؤية بصيرة وتدبر. ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾. و﴿كَمْ﴾ هنا للتكثير أي قروناً عديدة، بمعنى أمماً كثيرة، بدليل الجمع ﴿مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وها هم يشهدون بعدم رجعة من أهلكهم الله: ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ وهذا الأسلوب نفسه هو الذي أعلنه قس بن ساعدة حكيم الجاهلية في سوق عكاظ على مسمع العرب جميعاً، حين قال في خطبة طويلة معتبراً بالآيات الكونية، وفي نهايتها قال:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلى	ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائر

إنها الفطرة، ودلالة الواقع من آيات كونية استدل بها: أرض وسماء، وبحار وجبال، ونجوم أوردها، واعتبار بالماضين، وهكذا هنا يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: ٣١ ـ ٣٢] ثم خاطبهم في تلك الآيات الدالة على القدرة الإلهية في إعادتهم وإحيائهم بعد مماتهم فيما يحيط بهم من حولهم من الأرض والسماء والبحار، ومتجددات أحداثها، بدأ بالأرض ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ﴾ أي على القدرة على إحيائهم بعد الموت. ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [يس: ٣٣ ـ ٣٥]. ثم جاء بالأعم: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ أي الأصناف المتزاوجة ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾. وإحياء الأرض بعد موتها من أدلة البعث الأربعة، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ ثم رتب عليه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]. وسيأتي الحديث عنها في ختام هذه السورة إن شاء الله.

ثم آية الزمن الذي يغشاهم: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [يس: ٣٧]. وهم لا يستطيعون إيقاف الزمن ولا تسييره، إنما هي حركة النيرين في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٨ ـ ٤٠]. وهذا وإن كان غير مشاهد لهم، إلا أنه من أهم علومهم: علم منازل الشمس والقمر والنجوم، وبها يهتدون في ظلمات البر والبحر. والتعبير

عن مسيرها بالسباحة لفتة إلى أنها في بحر الفضاء بقدرة الله تعالى القادرة، وحكمته الباهرة.

ثم يأتيهم في بعض مساعيهم لمعاشهم: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾﴾ [يس: ٤١ ـ ٤٤]. وكل من سفن البحر وسفن البر ـ وهي الإبل ـ من آياته سبحانه، كما جاء في الفلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾﴾ [الشورى: ٣٢]. وفي الإبل قال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية: ١٧]. وعليه: ينبغي للداعية أن ينوع الأساليب في الدعوة، ويغاير في استرعاء الأنظار إلى كل ما فيه إقامة الحجة، ووضوح المحجة.

وبعد إقامة الأدلة بأنواعها، وتنويع الأساليب: من عقلية وعملية وواقعية، جاء بالوعيد الشديد بعرض صور البعث والجزاء، بدأ من الصيحة الأولى، إلى إنزال كل من المؤمنين منازلهم، يسعدون وينعمون بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، وإنزال الكافرين منازلهم: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ ـ أي فلا جدال ولا مكابرة ـ ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٣ ـ ٦٥]. وهنا نوع إعجاز: إذ أسند الكلام إلى الأيدي، والشهادة إلى الأرجل، لأن الأيدي هي الجوارح آلة الكسب، وإقامة الشهادة من الأرجل على ما اكتسب الأيدي أقوم في العدالة.

ثم تأتي خاتمة السورة مفصلة وموضحة مقدمتها من حيث: الرسول، والرسالة، والمرسل إليهم: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس: ٦٩ ـ ٧٠]. فتنفي عنه ﷺ التهمة أنه شاعر، وتبين القرآن الحكيم أنه ذكر وقرآن مبين، وتبين من يستفيد من النذارة ومن يحق عليه القول بكفرهم.

ثم إبطال عبادة غير الله ببطلان لوازمها، وعدم مقتضاها: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾. ثم يسلي رسوله ﷺ مشعراً بأنه أدّى ما عليه إليهم، ومظهراً شفقته عليهم:

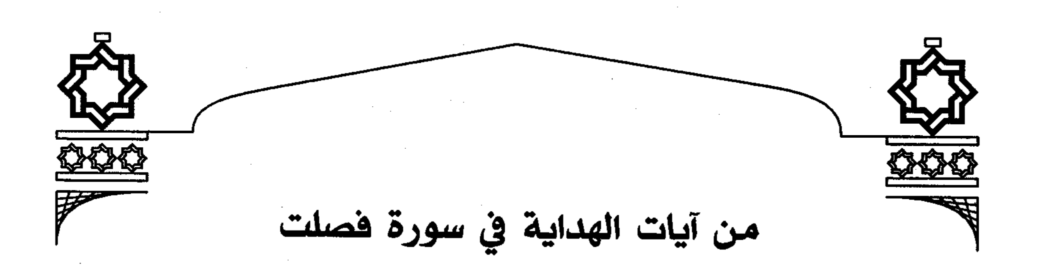
﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ [يس: ٧٤ ـ ٧٦]. شاعر، كاهن... إلخ، مثل قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾ [الكهف: ٦]. وقوله: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ...﴾ [فاطر: ٨].

ثم يأتي لشرح ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ مقيماً الدليل في أسلوب هادئ مقنع، مع بيان لجاج الإنسان: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ حقيقة أو تنزيلاً: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾. وهذا هو الدليل الثاني من أدلة البعث. ويأتي بالدليل الثالث: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ۝٨١﴾. والرابع: إحياء الموتى في الدنيا من إنسان وطير وحوت.

ومسك الختام: تسبيح الله الذي بيده مَلَكُوتُ كُلِّ شيء: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾ [يس: ٨٢ ـ ٨٣].

آمنا بالله، وملائكته، ورسله، وكتبه، وباليوم الآخر، وبقضاء الله وقدره. ونسأله الهداية والاستقامة على ما يرضيه، ويُرضِي رسوله ﷺ.

* * *



من آيات الهداية في سورة فصلت

١ ـ قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ . . .﴾ [فصلت: ٤٤ ـ ٤٥]. يبين تعالى تعنت الكفار في شأن القرآن بأنه لو جعله بلغة أعجمية لقالوا: لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي؟ قال ابن كثير: بمعنى لقالوا: كيف يوحي أعجمي على عربي وكيف يبلغ بلغة لا يعرفها؟ وقيل: إنهم يعنون لو أن بعضه أعجمي وبعضه عربي. وهذا المعنى أشد تعنتاً وقد يقال: إن هذا المطلب قد يلوح إذ أن النبي ﷺ مبعوث للعرب وللعجم. فما حظ العجم من هذا الوحي؟ ولكن الواقع لم يتقبل ذلك والواقع يدفعه ويرفضه لأننا نقول: أي العجم الروم أم الفرس أم غيرهم؟ بل إن يزعم ذلك ويقبل منه لكان يرد عليه في الرسالة والرسول ولكن كما صح: أن الله اصطفى العرب من بني آدم واصطفى من العرب قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفى سيد الخلق ﷺ من بني هاشم. ولله سبحانه أن يصطفي من أفراد الأجناس ما يشاء فقد اصطفى من جنس الملائكة جبريل، ومن جنس الأمم رسلها ومن جنس الزمن أزمنة أياماً وليالي وساعات. ومن جنس الأمكنة أمكنة إلى غير ذلك، ثم إن الرسالات والأنبياء كانت في بني إسرائيل مدة طويلة إلا أن بني إسرائيل لم يعودوا صالحين لحمل الرسالات ولا لقبول الرسل كما قال تعالى معدداً رسله إليهم ومبيناً موقفهم منهم: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ ولهذا جاء الله تعالى بإسماعيل من أرض النبوءات إلى واد غير ذي زرع لينقل الرسالة إلى العرب، ودعا الخليل عليهم بدعوته: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ . .﴾ [البقرة: ١٢٩].

وعليه فقولهم مردود، وزيادة على ذلك فإن العجم أنفسهم لم يطلبوا هذا الطلب وهم كانوا أولى وأحق بذلك، فتركهم إياه دليل على أنه غير وارد. وقد جاء الجواب مبيناً حقيقة آثار القرآن الكريم على الفريقين. فمن جانب المؤمنين: هدى وشفاء. ومن جانب غير المؤمنين: وقر في آذانهم وعمى على عيونهم. ومن عظمة هذا القرآن أن يكون له هذا الأثر المزدوج المتضاد. هدى وشفاء لقوم ووقر وعمى على قوم. ونظير ذلك ما جاء في حق المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ فجمعت قلوب الذين مع نبينا محمد ﷺ بين وصفين متقابلين الرحمة والشدة. ولكن مع انفكاك الجبهة فهم رحماء من جهة ما بينهم يتعاطفون ويتراحمون وقد يؤثرون على أنفسهم، وهم أشداء من جهة الكفار فلا هوادة بينهم، وهذه الحالة شبيهة بما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. ووصفهم بالذلة على المؤمنين أقصى غاية الرحمة كما في قوله تعالى في حق الوالدين: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ومن هذا القبيل كون الشيء واحداً في ذاته يختلف أثره ما جاء في غزوة بدر من إنزال المطر على أرض المعركة المبين أمره في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾ [الأنفال: ١١]. وذلك أن أرض المعركة كانت قسمين: قسم رملة دعسة تغوص فيه الأقدام وهذا موقع المسلمين، وقسم سبخة صلبة. فلما نزل الماء من السماء كان مثبتاً للرمل داكاً إياه تثبت عليه الأقدام وتخف عليه الحركة. والصلبة السبخة موقع الكفار فلما نزل الماء على السبخة صارت زلقة لا تثبت الأقدام عليها فلا تساعد على الكر والفر المطلوبين ضرورة للقتال. فكان شيء واحد وهو ماء نزل من السماء فكان للمسلمين نعمة ونوعاً من النصر وكان للمشركين نقمة ونوعاً من الخذلان. وها هو القرآن له تأثير مزدوج وقد جاءت نصوص في مواطن أخرى تؤكد هذا المعنى في الجانبين: جانب هدى وشفاء للمؤمنين، وجانب وقراً وعمى للمشركين، الجانب الأول كالآتي:

١ ـ **في سورة يونس**: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى

ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [٥٧]. وفي سورة الإسراء يذكر الفريقين في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾. أي بإعراضهم عنه يخسرون أنفسهم ومنازلهم في الجنة، وهذه أكبر خسارة نسأل الله العافية. وشفاء القرآن لما في صدور المؤمنين هو إذهاب القلق والحيرة والشعور بالضياع وامتلاء القلب به نوراً وحكمة: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الزمر: ٢٣] فطمأنينة القلوب هي أعظم شفاء للصدور، فالقرآن فعلاً شفاء للمؤمنين.

أما الجانب الثاني: وهو أنه وقر في آذان الكافرين. نجد في أول هذه السورة: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [فصلت: ٥]. وفي الأنعام: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [٢٥ ـ ٢٦]. وفي الإسراء: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ...﴾ [٤٥ ـ ٤٦]. وفي الكهف: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [٥٧]. فهذه نصوص تبين أنه بسبب إعراضهم ونأيهم عن القرآن كان ثقيلاً على آذانهم وعمى على عيونهم وقد صور هذا المشهد نبي الله نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ ...﴾ [نوح: ٧]. وعلى هذا فمن وفقه الله تعالى وأنعم عليه بالهداية القرآنية فقد رحمه وهداه إلى صراط العزيز الحميد. وبالله تعالى التوفيق.

٢ ـ من آيات الهداية والاستقامة في سورة (فصلت):

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ۚ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣٦].

تعتبر هذه الآيات الكريمات في هذا السياق أشمل منهج إسلامي: اعتقاداً، وقولاً، وعملاً واستقامة، مصحوباً بالنتائج الحميدة المثلى، عاجلاً وآجلاً، وقد اكتنفت في سياقها أقسام الناس الثلاثة أمام دعوة الإسلام: عوام المؤمنين، والدعاة العاملين، والأعداء المعارضين. وأعقبت ذلك بالطريقة المثالية في مواجهة الأعداء، سواء من الإنس أو الجن، في دفع السيئة بالتي هي أحسن، وفي الاستعاذة بالله السميع العليم، كعامل وقائي لضمان مسيرة الدعوة، وسلامة الدعاة، على التفصيل الآتي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا . . .﴾ الآية. قال: لما أطنب المولى في الوعيد قبلها، أردفه بهذا الوعد الشريف، ويعني بالوعيد الشديد قبلها من بداية قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [فصلت: ١٩ ـ ٢٤]. ثم بيَّن موقفهم من القرآن بقوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ وأعاد الوعيد مرة أخرى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ ۖ﴾ [فصلت: ٢٦ ـ ٢٨].

وبعد هذا العرض من شدة الوعيد على سوء أعمال الكفار، جاء السياق بأحسن البشرى في العاجل والآجل لعباد الله المؤمنين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ فهو بمثابة مقارنة بين الفريقين، ويهمني في هذا السياق بيان منهج

الفريق الفائز بالسعادة والبشرى، السائرين على منهج الاستقامة، وحقيقة الاستقامة هنا كما جاء عن الخلفاء الراشدين الأربعة، فعن أبي بكر رضي الله عنه قال: ﴿قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ [فصلت: ٣٠]: أي ربنا الله وحده لا شريك له، ومحمد ﷺ عبده ورسوله. وعن علي وعثمان مثل ذلك. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو على المنبر وهو يخطب: استقاموا والله على الطريقة لطاعته، ثم لم يروغوا روغان الثعالب. وتقدم في أول السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦﴾ [فصلت: ٦].

فأجمل معنى الاستقامة إلى الله، وقد فصلها الفخر الرازي بقوله: ليس المراد منه القول باللسان فقط، لأن ذلك لا يفيد الاستقامة، يعني قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ لأنه سبحانه أعقب القول: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾. بالاستقامة، ففيه الدلالة على أن ذلك القول مقرون باليقين التام، وتكون الاستقامة في الدين والتوحيد، وفي الأعمال الصالحة.

أما الاستقامة في التوحيد: فإن من علم أن لهذا الكون صانعاً. أن لا يتوغل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل؛ ولا يتوغل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه، بل يبقى على الخط المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل، وكذلك يبقى مستقيماً على الخط الفاصل بين الجبر والقدر، وفي الرجاء والقنوط، لا يفرط في الرجاء ويسوّف العمل، ولا يفرط في القنوط فييأس من رحمة الله، أي يدعو ربه رغباً ورهباً.

وكذلك في الأعمال: لا يفرط في حمل نفسه على العزائم وما يشق عليها، ولا يفرط في تتبع الرخص، وقد وقع البيان لهذا الخط من الاستقامة في الأعمال قوله ﷺ: **«اكلفوا من الأعمال ما تطيقون، فلن يشادّ أحد هذا الدين إلا غلبه»**. وقوله: **«إن المُنْبَتَّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى»**. وقال رداً على النفر الثلاثة الذين قال أحدهم: سأصوم فلا أفطر، وقال الآخر: سأقوم الليل ولا أنام، وثالثهم قال: لن أتزوج النساء. فغضب لذلك ﷺ وقال: **«أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»**.

وروي عنه ﷺ أن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به. قال ﷺ: **«قل آمنت بالله ثم استقم»** قلت: يا رسول الله ما

أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بطرف لسان نفسه ثم قال: «هذا». وتقدم في أوائل هذا الكتاب المبارك بيان حقيقة الاستقامة على الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

ولعل أوضح مناهج الاستقامة ما جاء عملياً في شخصية رسول الله ﷺ في قوله تعالى عنه: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣]. فقد شمل مجالات التكليف كلها: من معتقدات وأقوال وأعمال، في الحياة والممات، أما ما أعده الله تعالى لأهل هذه الاستقامة، فهو كذلك من الشمول ما وسع أمر الدنيا وأمور الآخرة، فمن الأول قوله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الجن: ١٦ ـ ١٧]. قال قتادة: لأوسعنا عليهم من الدنيا. قال ابن كثير: وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ [المائدة: ٦٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]. وفي هذا الإنعام سعادة الدنيا ورغد العيش، أما من جانب أمور الآخرة فقد جاء مجملاً ثم مفصلاً، فالمجمل في سورة الأحقاف: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأحقاف: ١٣ ـ ١٤]. وأما التفصيل ففي هذا السياق في قوله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي عند آخر لحظة من الدنيا وأول لحظات الآخرة بهذه البشرى السعيدة ﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾ أي مما أمامكم. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾ أي عما وراءكم. ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ثم يؤنسونهم بالولاية والمحبة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ ما أحسنها بشرى! وما أحوجنا إليها! نسأل الله تعالى الاستقامة على ما يحبه ويرضاه.

٣ ـ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾ [فصلت: ٣٣]:

هذا القسم الثاني من أقسام الأمة أمام الدعوة إلى الاستقامة المتقدم بيانها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾. وهذا القسم الداعي إلى الله، فإنه بعد أن تمّت له الاستقامة، وتزود بالعمل الصالح، وحصل له الكمال في نفسه، تدرج في سلم الكمال من إصلاح ذاته، وحصوله على ما استوجب البشرى، فدعا غيره إلى الاستقامة على منهج الله تبارك وتعالى، وهذا القسم من الناس هم الذين تحملوا مسؤولية الرسل بعد أداء رسالتهم، فحملوا لواء دعوتهم جيلاً بعد جيل، لتظل المسيرة الخيرة في طريق الهداية ما دامت الخلائق في هذه الدنيا. وقد بين تعالى أنه الواجب الذي كلف به الرسل وخاتمهم سيد المرسلين ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وفي قوله تعالى في السورة التي بعدها مباشرة سورة الشورى مبيناً منهج الرسل جميعاً في دعوتهم إلى الله بقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾. ثم بين تعالى أن الدعاة إنما يصطفيهم الله ويجتبيهم إليه فقال: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. وبعدها: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ...﴾ الآية ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ...﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥]. فقد أمر الله نبيه ﷺ أن يدعو إلى الله، وأن يستقيم على دعوته مهما عاند الأعداء، ومهما وضعوا العقبات أو استمالوه وعرضوا ما لديهم، فلا يتبع أهواءهم. وقد عرضوا عليه أن ينصبوه ملكاً عليهم، أو يعطوه من الأموال أعز ما لديهم، أو يزوجوه أجمل ما عندهم، فأعرض عن هذا كله وأيأسهم من استمالته بقوله: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أدع هذا الأمر ما تركته**». ومن هنا يعلنها مستقيمة عادلة، ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾. وهذا أيضاً من منهج الاستقامة، لأن العدل اعتدال، وهو اعتدال الكفتين على خط مستقيم لا رجحان ولا

خسران، ومن العدل في القول ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ على حد سواء. وكذلك ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وهذا هو قمة العدالة: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ . . .﴾ [آل عمران: ٦٤].

بهذا المنهج كلف الله تعالى نبينا محمداً ﷺ في قوله: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ وهنا جاء بيان هذا القسم من الأمة قسم الدعاة إلى الله مبيناً مثاليتهم في مسلكهم بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾. والجواب: لا أحد أحسن قولاً منهم.

وقال الفخر الرازي: إن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يدل على أن الدعوة إلى الله أحسن من كل ما سواها، ورتب من الآية قضية منطقية أنتجت أن الدعوة إلى الله من أول الواجبات، ثم إن أحسن الأقوال بمقتضى هذه الآية ما جمع بين خصال ثلاث: أولها: الدعوة إلى الله، وثانيها: العمل الصالح، وثالثها: أن يكون من المسلمين. ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ [النساء: ١١٤]. فنفى الخير عن كثير من نجواهم، وأثبته لهذه الأمور الثلاثة: الأمر بالصدقة، وفيه الإشفاق والرحمة للمساكين. والأمر بمعروف، وهو أعم من الصدقة، وبابه يسع المجتمع كله، لأنه يتضمن في المقابل النهي عن المنكر، لأن كل أمر بشيء يتضمن النهي عن ضده، فالأمر بإكرام شخص يتضمن النهي عن الإساءة إليه، وأخص من كل ما تقدم القسم الثالث: أو إصلاح بين الناس. وهذا الذي فيه الإبقاء على روابط الإخاء، وصلة الأرحام، ووحدة الصف، واتحاد الكلم، كما وجه الله تعالى أهل بدر بقوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنفال: ١]. فهذه الأمور الثلاثة هي التي أثبت الله فيها الخيرية: أمر بصدقة، أمر بمعروف، إصلاح بين الناس. وهنا أثبت الأحسن بأفعل التفضيل للقول المتضمن الدعوة إلى الله مع العمل

الصالح، وكونه من المسلمين، وبتأمل هذه الأوصاف أو القيود الشرعية، ليكون القول فعلاً له أفعل التفضيل، ولا يوازيه قول آخر، لكل قيد منها مفهوم يحذر منه.

الأول: كون الداعي إلى الله لا إلى مبدأ أو فكرة أو نِحلة لم يشرعها الله، أو نهى الله عنها.

والثاني: أن يصحب الدعوة إلى الله عمل صالح، أن لا يأتي بأعمال تخالف دعوته، كما جاء قوله تعالى عن مقالة هود عليه السلام لقومه: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

والثالث: أن يكون هذا الداعي من المسلمين وليس أجنبياً عنهم. لأن غير المسلم قد يتظاهر بالعمل الصالح، وقد يتعرض إلى الدعوة إلى الله خداعاً وتوسلاً لغاية، ولن يكون أبداً مخلصاً في عمله ولا صادقاً في دعوته، كما قال البوصيري في مدحته:

وخالفِ النفسَ والشيطانَ واعْصِهِمَا ... وإن هما مَحضَاكَ النصحَ فاتَّهِمِ

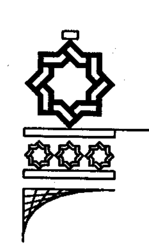
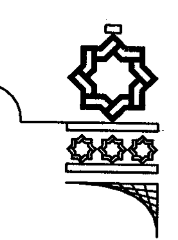
ثم يأتي البيان الضمني للقسم الثالث في قوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾. فالحسنة هنا هي الدعوة إلى الله التي هي أحسن الأقوال المتقدم بيانها، فأين مصدر السيئة؟ إن مصدرها أولئك الذين يتعرض الدعاة إليهم بالدعوة إلى الله، فقد لا يقتنعون ولا يقبلون الدعوة، ولم يقفوا عند رفضها وعدم قبولها، بل يتعدون ذلك بإيذاء الدعاة إلى الله، كما نبه الحكيم لقمان ولده في هذا الخصوص بقوله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]. وهذه وصية الله لرسله: كما في الأحقاف: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ...﴾ [الأحقاف: ٣٥]. والدعاة هم حملة لواء الدعوة بعد الرسل، فلا بد أن تصدر من أولئك الذين تتوجه إليهم الدعوة إساءة إلى من يدعونهم، وهنا يتميز الدعاة، وليسوا سواء، فإن الدعاة يدفعون بالتي هي أحسن، وتكون

النتيجة العملية ما بيّنها هذا السياق الكريم: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ﴾ أي أعداء الدعاة في كل زمان ومكان ﴿كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾، فبعد أن كان عدواً معادياً ينقلب حميماً موالياً، وما ذاك إلا بالإحسان. وكما قيل: الإنسان عبد الإحسان. وكقول القائل:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

وقد ذيل هذا السياق ببيان كيفية معالجة عداوة العدو الأكبر الذي يرانا من حيث لا نراه، فقال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾. وهكذا يسير الدعاة إلى الله على خط الاستقامة مع الوقاية ممن يعترض مسيرتهم، ويتحقق وعد رسول الله ﷺ: **«لا تزال طائفة من أمتي منصورة على الحق، لا يضرهم من خذلهم»**. جعلنا الله وإياكم من الدعاة إلى الله، المؤيدين بنصره آمين.

* * *

آيات الهداية من سورة الشورى

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥١ ـ ٥٣].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذه مقامات الوحي بالنسبة إلى جناب الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو أنه تبارك وتعالى تارة يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً لا يتمارى فيه أنه من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما جاء في صحيح ابن حبان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**». وما قاله ابن كثير هنا لا شك فيه، بل إنه قد يقع إلى بعض آحاد المسلمين، كما وقع في بعض السرايا، إذ جاؤوا على حي من أحياء العرب ليلاً فطلبوهم القِرَى، فأبوا عليهم وقالوا لهم: أنتم صابئون. فسلط الله على سيد ذلك الحي عقرباً، فجاؤوا إلى تلك السرية وقالوا: هل فيكم راق؟ فقال رجل من المسلمين: نعم أنا، وذهب معهم فأبى أن يرقيه حتى جعلوا له جعلاً، فقرأ عليه سورة الفاتحة فكأنما نشط من عقال، وجاء إلى أصحابه بالغنم يسوقها فاستفهموه: كيف فعلت؟ فأخبرهم فتأثموا أن يأكلوا مما أخذ على قراءة القرآن، حتى جاؤوا إلى رسول الله ﷺ فسألوه، فقال: «**إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله**»، وسأل الرجل عن الرقية فقال: سورة الفاتحة، فقال: «**وما يدريك أنها رُقْية؟**» فقال: شيء نُفث في روعي. فإذا كان هذا رجل ونفث في روعه، وكان حقاً، وعافاه الله بها، فالرسل من باب أولى. بل ونظيره رؤيا الأنبياء وحي كما هو معلوم، كما صح في قصة الخليل مع الذبيح، ولقوله ﷺ: «**تنام عيناي ولا ينام قلبي**».

أما الطريق الثاني: فهو في قوله تعالى: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وهذا كما قال ابن كثير: كما كلم موسى عليه الصلاة والسلام، أي في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾. وهذا مما خص الله به كليمه موسى عليه السلام، وقد طلب موسى الرؤية فحجب عنها، بل إن قومه معه قالوا: أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة.

وجاء في الأثر أن النبي ﷺ أوتي سورة الفاتحة، وفرضت عليه الصلوات الخمس، وأوتي خواتيم سورة البقرة مباشرة بدون واسطة الملك، ولكن من وراء حجاب كما قال ﷺ: «**حجابه النور أنَّى أراه**». فكانت إكرامية لرسول الله ﷺ تلك الليلة، وقيل: من كنز تحت العرش. وجاء عنه ﷺ أنه قال لجابر بن عبد الله رضي الله عنه: «**ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وأنه كلم أباك كفاحاً**». وكان أبوه قتل في يوم أحد. قال ابن كثير: ولكن ذلك كان في عالم البرزخ.

والطريق الثالثة: هي الوحي بواسطة الملك وهو جبريل عليه السلام، وهو معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ من الوحي على من يشاء من الرسل. وهذه الطرق الثلاث بإجماع المسلمين.

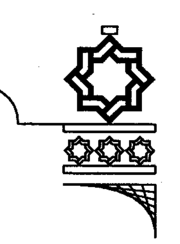
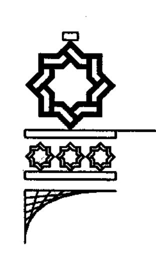
أما طرق تلقي الرسول ﷺ الوحي عن الله فقد سئل ﷺ: كيف يأتيك الوحي يا رسول الله؟ فقال: «**أحياناً يأتي كصلصلة الجرس، ثم يفصم عني وقد وعيت ما قال وهو أثقله علي. وأحياناً يتمثل لي الملك كرجل وأحياناً ينفث في روعي**».

ويهمنا في مجموع تلك الصور أن الله تعالى أوضح لنا طرق تلقي النبي ﷺ الوحي عن ربه، وكلها مأمونة مضمونة لا يتطرق إليها أدنى توهم، مما يؤكد ويقوي ويقطع بقطيعة الوحي من عند الله تعالى، وقد رتب على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾. قال ابن كثير: فهو عليّ عليم خبير حكيم. أي أنه سبحانه عليٌّ على جميع المخلوقات، مسيطر على جميع الكائنات، لا يستطيع مخلوق أياً كان أن يتطاول إلى الوحي بتغيير أو تعطيل؛ حكيم فيما يوحي به ويشرع للخلق.

وبعد هذا التأكيد لسلامة الوحي، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ أي: كذلك الطريق السليم المحكم، كان الوحي إليك روحاً من أمرنا، يعني القرآن. فهو روح يحيي الله به أموات القلوب بما فيه من ربط ووصل الخلق بالخالق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانًا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ [الرعد: ٣١]. أي لكان هذا القرآن.

ثم يبين تعالى امتنانه على هذه الأمة في شخصية رسوله ﷺ بما علمه ما لم يكن يعلم: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾. قال ابن كثير: يعني على سبيل التفصيل الذي شرع لك في هذا القرآن. ويوضح هذا قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ﴾. إن هذا النص ليستوقف كل مسلم يتبصر هذا النور الإلهي الذي أشرقت عليه الأرض وانقشعت به الظلمات، فتبدلت الأرض غير الأرض من أرض الظلم والظلام إلى أرض العدل والضياء، من أرض الجاهلية الجهلاء توأد فيها البنات، وتنتهك فيها الحرمات، يأكل فيها قويُّهم ضعيفَهم، إلى الرفق بالحيوان وتوقي الشبهات، والقوي يصبح ضعيفاً حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف يصبح قوياً حتى يؤخذ الحق له؛ فأخرج الناس من الظلمات إلى النور: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هداية الدلالة والإرشاد إلى طريق الحق، ليس فيه عوج، قيم بمصالح العباد، ضامن لسعادتهم في الدنيا والآخرة؛ استقامة في العبادات، لا إفراط ولا تفريط، استقامة في المعاملات بالعدالة في المعاوضات، استقامة في مكارم الأخلاق حتى سوّد هذه الأمة على سائر الأمم، وأقامها مقام الشهود العدول بين الأمم ورسلِهم، صراط الله المنزل من عنده، الموصل إلى رضوانه. وتقدم التنويه عن ذلك عند الكلام على قوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهذا الصراط هو الشريعة السمحة التي شرعها الله لنا، كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ١٨].

وعودة إلى هذا النص في الهداية، لنجد أن القرآن العظيم روح ونور، ومع ذلك فإن الهداية إليه موكولة إلى مشيئة المولى ﷻ لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ - ٢٩]. وقوله: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي الملك والتصرف المطلق، ومنه ما شرع لعباده من أحكام، فليس لمن في السمٰوات ولا لمن في الأرض تغيير ولا تبديل لشيء منه، وهو سبحانه أعلم بمصالح العباد.

آيات الهداية من سورة الفتح

١ ـ **قال تعالى:** ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ [الفتح: ٢٨ ـ ٢٩].

لعل هذا النص من هذه السورة الكريمة أجمع وأشمل آيات الهداية، حيث جمعت الآيتان موضوع الهداية ومقوماته، وخاصة إذا ربطناهما بما قبلهما مباشرة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ . . .﴾ [الفتح: ٢٧ ـ ٢٨].

بل أبعد من هذا في أول السورة وأوسطها، ففي أولها قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]. إذ قرن المولى تعالى إتمام نعمته على رسوله، بهدايته صراطاً مستقيماً، إشعاراً بأن الهداية والاستقامة تمام النعمة. وهذا الموطن في خصوصياته ﷺ.

ويأتي في وسط السورة ما يتعلق بالمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح: ٢٠]. فقرن المولى أيضاً هدايتهم صراطاً مستقيماً مع ما يكون آية للمؤمنين. والهداية والآية متلازمان: فالآية الحجة والبرهان على طريق الاستقامة. وهكذا السورة كلها لها صلة قوية بنص الهداية وموضوعها.

وفي هذا العرض السريع نأخذ من الربط القريب: ﴿لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ وهي رؤيا رآها رسول الله ﷺ في سنة ست من الهجرة: أنه وأصحابه أتوا المسجد الحرام لأداء نسك العمرة، فأخبر بها أصحابه فاستبشروا بها، وهم يعلمون أن رؤيا الأنبياء وحي، كما جاء في شأن الخليل وإسماعيل عليهما وعلى نبينا الصلاة والسلام في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠١ ـ ١٠٢]. فاعتبر إسماعيل عليه السلام رؤيا أبيه إبراهيم عليه السلام أمراً، وقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾. والحال أنها رؤيا.

وكذلك ﷺ في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قوله ﷺ: **«تنام عيناي ولا ينام قلبي»**.

وعليه: فاعتمد الصحابة رؤيا رسول الله ﷺ إتيانهم المسجد الحرام فنهضوا معه، غير أن قريشاً أخذتهم الحمية كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾. فقالوا: لا تتحدث العرب أنكم دخلتموها علينا عنوة، ولكن ترجع من هنا ـ يعني من الحديبية على مشارف حدود الحرم ـ وتأتي من عام قابل على شروط جرت بينهما. وكان موقفاً حرجاً، ولكن تدارك الله المؤمنين بما بينه في قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح: ٢٦]. وقد أوجد هذا الموقف تساؤلات فرضها عليهم الواقع المشاهد، إذ أصبحوا ما بين إيمانهم بصدق ما رأى رسول الله وأخبرهم به، وبين صدهم عن البيت وهم على مشارف حدوده، وقد أفصح الصديق رضي الله عنه بذهنه وفطنته ونور الإيمان حيث قال لهم: هل حدد لكم هذه السنة؟ قالوا: لا. قال: أنتم والله آتوه إن عاجلاً أو آجلاً. وجاء نص القرآن بأن الله علم ما لم يعلموا، وأنه جعل من دون ذلك ـ أي إتيان البيت ـ فتحاً قريباً. وقد كان فعلاً ما تم من صلح بين الطرفين فتحاً عظيماً، ولكي يُنهي هذا الموقف، ويَقضِي على كل شوائب تلك التساؤلات، جاء تأييد ما قاله الصديق رضي الله عنه، وإيضاح لما

أراده الله لهم من الخير والنصر والفتح في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ . إنها والله رؤيا حق صادقة، وإنكم لتدخلن لا محالة المسجد الحرام ـ إن شاء الله ـ، تأكيد آخر، لا تعليق، أي: وبمشيئته التي لا يعرض لها أي مانع، بل هي نافذة قطعاً. وقد شاء لكم الدخول ﴿ءَامِنِينَ﴾ من مخاوف العدو، ومن كل ما تتخوفون منه ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ وفي الإتيان بقوله: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ تأكيد لتمام الأمن، ووجود الطمأنينة عند دخولهم المستقبل. ثم تلطف بهم، وأخبرهم بموجب التأجيل إلى ما بعد بما فيه مصالحهم، ومردهم في ذلك كله إلى ما في علمه سبحانه مما لا يعلمونه ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟﴾ وهم يوقنون فعلاً أن ما يعلمه الله أحق وأصدق وأصلح لهم مما يعلمونه هم، وأخبرهم بما تتوق إليه نفوسهم ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. وهل يتطلبون أعظم من الفتح؟ لقد سكنت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وقوي في الله يقينهم.

ثم يأتي على أثر هذا كله نص الهداية المشتمل على إثبات الرسالة والشهادة عليها من الله، وبيان موضوعها في دين الحق، والوعد من العلي القدير بإظهاره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً على ذلك كله.

وللمتأمل من هنا وقفة هداية واسترشاد عظيمة الأثر في حياة المؤمن: نعم المؤمن بقدر الله، والمستسلم لمشيئة الله، حيث يتجدد يقينه بالله، أن ما يختاره الله للعبد، لا شك أنه أفضل إلى حد بعيد مما يختاره العبد لنفسه، فهذه جماعة المسلمين، وفيهم الرسول الأمين، جاؤوا معتمرين محرمين ملبين، وقد وصلوا بعد رحلة طويلة إلى حدود الحرم، فيفاجؤون بالمشركين يصدونهم عن المسجد الحرام، والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، ويأتي الأمر على خلاف مرادهم، فكم تكون حسرتهم، وكم تشتد عليهم إساءتهم، مما جعلهم يبايعون رسول الله ﷺ على الموت، ليدفعوا عن أنفسهم هذا الظلم. ولكن وبعد أن سجل الله لهم بيعة الرضوان، وأصبحت لهم سابقة فضل وفضيلة، يأتي الوحي وكأنه يقرر هذا الواقع، ولكن يعلل لهم بما تستسيغه عقولهم، وتستجيب له عواطفهم: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾ أي: إخوانكم في النسب وفي الدين ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ يخفون إسلامهم ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ

﴿عِلْمٍ﴾ [الفتح: ٢٥]. إلى آخره. وهم جميعاً لا يرضون أن يطؤوا هؤلاء.

وفي النهاية يأتي نص الهداية والشهادة على صدق رسول الله ﷺ، والوعد الأكيد بإظهار دين الحق على الأديان كلها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ أما التفصيل ففيما يأتي إن شاء الله.

٢ ـ آيات الهداية من سورة الفتح:

تكلمنا في السابق عن افتتاحية السورة الكريمة، وخطاب المولى تعالى للنبي ﷺ خطاب التكريم والإنعام: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ١ ـ ٣]. وصدق الله ما وعد، فقد أتم عليه وعلى الأمة كلها نعمته العظمى معلنة في أعظم مشهد يوم الحج الأكبر: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وأنجز له النصر بفتح مكة، وبصلح الحديبية، ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

وجاء نص الهداية مرة أخرى أثناء السورة المباركة، فخاطب به عموم أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾. وفي ختام السورة الكريمة يأتي مسك الختام: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ۝٢٨ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر السورة في حق المصطفى ﷺ وحق الأمة، وما سجل الله لهذه الأمة خاتمة الأمم في الكتب السماوية لدى أهل التوراة والإنجيل، وحسن الثواب، وعظيم الأجر عند الله. ولما كان صلب الموضوع هو النص الأخير، وكان على قدر عظيم من الأهمية، نستعين الله في بيانه مستلهمين الهداية والرشد والتوفيق.

أولاً: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾. فيه لأول وهلة لفتة حانية، بأن هذا النبي الكريم هو رسوله، ومن مستلزمات إرساله من الله إحاطته بالعناية والتأييد، لأن من يرسل رسولاً، يكون هو المسؤول عنه. ومن ناحية أخرى: أن كونه رسول الله، فهو باصطفاء واختيار من الله تعالى، وتحت هذا كبرى قضايا العقائد في النبوات والرسالة، حيث يزعم بعض الفلاسفة أن النبوة

تأتي مكتسبة عن طريق الترقي في الذكر، والتعمق في الفكر، وشفافية النفس، وخفة الروح، وهذا مذهب خطير، يفسح المجال لكل مهووس أو زنديق أن يدعي النبوة ويأتي بالمضللات. كما سجل التاريخ أنواعاً متعددة في ذلك. وبدلاً من تفنيد كل دعوة تظهر، فإن علماء المسلمين قد أبطلوا هذا المنهج، وبينوا تزييفه وسفهه، وإني بعون الله تعالى أقدم النماذج العملية على بطلان هذا المنهج عقلاً ونقلاً:

أما عن طريق العقل، وواقع الرسالات كلها: فأبرز تلك النماذج ثلاثة رسل قبل خاتم النبيين ﷺ:

الأول: أبونا آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقد اتفقت الكتب السماوية كلها على أصل خلقته، وأنه من تراب من حَمَأ مسنون من صلصال كالفخار، فأين منه اكتساب آدم وهو في تلك الأطوار قبل أن ينفخ فيه الروح؟ بل وأي كسب له في أن يكون هو أبا البشر أو حتى أن يكون له وجود في هذا العالم؟ وقد أجمع العلماء أن هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها ولا في واحد منها: نعمة الإيجاد، نعمة الإسلام، نعمة دخول الجنة.

فوجود الإنسان: لم يكن عن كسب منه، بل هو هبة من الله لأبويه: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠].

وكذلك نعمة الإسلام: إذ أن إيجاد الإنسان من أبوين مسلمين لا كسب له في ذلك، فلو ولد بين أبوين غير مسلمين، لكان كما قال ﷺ: «**فأبواه يهودانه أو ينصرانه...**»، الحديث. فنعود إلى أبينا آدم ويتحقق لنا أنه لم يكن منه أي كسب لا في إيجاده في هذا الوجود، ولا في اصطفائه واختياره، وإنما هو محض فضل واصطفاء من الله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

والنموذج الثاني: نبي الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، يتولاه المولى منذ اللحظة الأولى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧]. فأي كسب لموسى وهو طفل رضيع: تُذْبَحُ لِدَّاته فيتولى المولى

رعايته وحفظه، ويسوقه إلى آل فرعون ليربيه عدو الله وعدوه. وأي كسب كان لطفل رضيع يمتنع امتصاص أي ثدي دون أمه إلا بصنيع الله: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾. ويحقق الله وعده لأمه فيرده إليها: ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾، ثم يأتي وقت تحمل الرسالة: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١٢ ـ ١٤].
وفي نهاية تطور حياته جاء قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]. أي أهلك الله عدوه فرعون بعد أن قدم له الآيات والبصائر المتقدم ذكرها: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ ۖ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ . . .﴾ [القصص: ٣١ ـ ٣٢]. فأي كسب لموسى عليه السلام في قلب العصا وتحويلها عن مادتها تهتز كأنها جان والمفصل أمرها في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ٢١]. فأي كسب وأي قدرة لبشر أن يحول ماهية العصا ـ وهي جزء من شجرة وقد يبست، فتتحول إلى جنس آخر مغاير، إلى جنس الحيوان (حية تسعى). ثم في الوقت نفسه يسلبها تلك الحيوية ويردها إلى ماهيتها الأولى، فيأخذها موسى فتعود عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، وكذلك في سقيا بني إسرائيل من الحجر، وكان يحمله معه موسى عليه السلام: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ . . .﴾ [البقرة: ٦٠]. فأي قدرة لبشر وأي كسب لموسى في انفجار اثنتي عشرة عيناً جارية بالماء لكل سبط من أسباط بني إسرائيل مشربهم، وإذا قضوا منه حمله معه موسى عليه السلام حجراً أصمّ، وهكذا مدة وجودهم في التيه، تظل عناية الله ترعاه.
وكما أجملها سبحانه في سورة طه: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ

عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾﴾ [طه: ٣٧ ـ ٤١]. إنها سيرة حياة نبي الله موسى منذ كان رضيعاً، وحال وجوده في اليم، توجهه العناية الإلهية إلى أن بلغ أشده، وهو يُصنع على عينه سبحانه، ويصطفيه لنفسه، ثم يصطفيه على الناس برسالاته وبكلامه، وتتم رسالته في قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ...﴾ [الأعراف: ١٤٤ ـ ١٤٥]. إنها رسالة اصطفاء، ولما قال المشركون: ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣ ـ تتمة الحديث على قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ [الفتح: ٢٨]:

تقدم الكلام على ما جاء في افتتاحية سورة الفتح، والتمهيد في الرد على من زعم أن النبوة قد تحصل بالكسب، ثم اختيار نماذج ثلاثة عملية في إبطال تلك المزاعم، وهم: آدم عليه السلام، وموسى الكليم عليه السلام، وعيسى كلمة من الله وروح منه. وتقدم الإيضاح عن أبي البشر، وكليم الله.

أما عن عيسى عليه السلام: فقد أجمع العالم على أهم أحداثه ومواقفه، مما لا مجال فيها ـ ولا بالمكابرة والعناد ـ لوجود كسب منه عليه السلام، أوصله إلى ما كان عليه. ابتداءً من تقديم أم مريم نذراً لله ما في بطنها محرراً، تَأمَلُ أن يكون غلاماً يخدم المعبد، فيخلف الله عليها، وتضعها أنثى، وكما قال تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦]. لأنه سبحانه يريد من هذه الأنثى آية لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ فتجلت تلك الآية فيه وفي أمه.

أما في أمه: فأن تأتي به بدون رجل، فأي كسب كان منها حتى تكون موضع الاختيار لتكون آية؟ كما قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ

لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم: ١٦ ـ ١٩]. فأي كسب منها حتى تكون موضع رسالة رسول ربها إليها ليهبها هذا الغلام؟

أما الآية فيه: فكما قال تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾. فأي كسب كان من عيسى عليه السلام قبل أن تحمل به أمه؟ وكبريات آياته حين أتت به قومها تحمله، وجابهوها بالْبُهْتِ، فيجعل الله من قضيتها حكم طهارتها، وإثبات كرامتها: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ـ وهو مصدر بهْتِهِم عليها لتأتي براءتها منه، فعجبوا لها ـ ﴿قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ . وبعد أن سجلوا للتاريخ أن الصبي في المهد لا يتكلم، تأتي الآية بخلاف ما يعلمون ويعلم العالم، فينطق الغلام، ويتكلم الصبي ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ ولم يكتف بالعبودية، بل ويعلن الرسالة: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٢١ ـ ٣٠]. إلى آخر ما أكرمه الله وأمه به.

فأي كسب لمن كان في المهد صبياً: يجعله يكلم الناس، ويجعله نبياً، ويؤتيه الكتاب؟ حاشا وكلا.

وقد ربط الله تعالى بين عيسى وآدم عليهما السلام في أصل النشأة فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. فكذلك عيسى كلمة من الله: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥]. فأي كسب كان لعيسى عليه السلام قبل وجوده ليكون وجيهاً في الدنيا والآخرة، وليكون من المقربين؟ إنه اصطفاء الله وصنعه.

ثم من جانب الآيات والمعجزات التي أجراها الله على يديه، وشاهدها بنو إسرائيل منه: من إبراء الأكمه والأعمى والأبرص، وإحياء الموتى، وجعل ما يصوره من الطين كهيئة الطير طيراً، فأي كسب له في ذلك؟ وأي سبق علوم ومعارف لهذا كله؟ حاشا وكلا إنه اصطفاء من الله له ولأمه من قبله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ

وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ﴾ [المائدة: ١١٠]. فهل في شيءٍ من ذلكم كله كسب لعيسى عليه السلام؟ أم أنه أولاً نعمة من الله عليه، وبإذن من الله إليه. وليعلم الزنادقة والمشائين بطلان زعمهم أن النبوة تكتسب، وليوقن المؤمنون ويزدادوا يقيناً، بأن الرسالات اصطفاء واختيار، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ﴾ [الحج: ٧٥]. وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٧]. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ ...﴾ [فاطر: ٣٢].

وتأمّل معي أيها الأخ الكريم هذه القضية الخطيرة التي اشتملت مصير أمة، ويفصل فيها المولى سبحانه باختياره واصطفائه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٤٨]. إنها قضية كيان أمة أخرجت من ديارها وأبنائها، رغبت القتال في سبيل الله، وطلبت من نبي لها أن يبعث فيهم ملكاً لقيادتهم، فلم يختاروا هم، ولم يختر لهم نبيهم، بل أخبر، باختيار الله لهم، وسماه لهم (طالوت ملكاً)، فيعترضون على هذا الاختيار، لأنه لم يكن ـ على مقتضى حسابهم وميزانهم ـ أولى

بالملك منهم، وأفصحوا عن ذلك بأنه لم يؤت سعة من المال. فبين لهم نبيهم أن أساس الاصطفاء لقيادة الجيوش ليس على ميزان الغنى والفقر، بل على ما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ وهما مقومات القيادة الحكيمة، إذ بالعلم يكون التخطيط والتعبئة بما يتلاءم وظروف المعركة عدداً وعدة ونظراً في العواقب وبصيرة بالنتائج. وبالقوة البدنية: التنفيذ، ومقارعة الأقران. فأبطل الله ميزان اختيارهم، وأوضح لهم ميزان اختياره واصطفائه، ومع هذا أقام لهم آية ملكه، ونتيجة اصطفائه: ﴿لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾ كما وصف الله: ﴿فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ﴾. فأي كسب كان لطالوت في إتيان التابوت وفي حمل الملائكة إياه؟

لقد أطلنا الحديث في هذه المسألة لنؤكد بطلان مزاعم القائلين بكسب النبوة، لسلامة الرسالات من جهة، ولتصحيح مفاهيم بعض الغلاة في بعض أهل الفضل من الأولياء، حتى جعلوا لهم بعض خصائص الأنبياء، وقد عني السلف بهذه القضية كما جاء في مشارق الأنوار للسفاريني قوله:

ولا تنال رتبة النبوة   بالكسب والتهذيب والفتوة

لكنها فضل من المولى الأجل   لمن يشا من خلقه إلى الأجل

وحق قوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾.

٤ ـ بيان منهج القرآن الكريم لاصطفاء الأنبياء والمرسلين:

تقدم تفنيد مزاعم القائلين باكتساب النبوة، وتقدم بيان أنها اصطفاء من الله، وذلك عن طريق الواقع في نماذج من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولزم بيان منهج القرآن الكريم لاصطفاء الأنبياء والمرسلين، ليكتمل العمل العلمي عقلاً ونقلاً. وقد كتب في ذلك أفاضل العلماء ـ متقدمين ومعاصرين ـ كالإمام ابن تيمية رحمه الله ومن بعده، والداعية أبي الحسن الندوي وغيره.

ومجمل ذلك: أن الله تعالى اصطفى في كل أمة رسولاً يهديهم إلى الحق، كلما ضل بهم السبيل، واختلفت عليهم الطرق، ﴿وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ﴾ [فاطر: ٢٤]. وذلك أن الرسالات من ضروريات الأمم، ليحققوا الغاية من خلقهم وإيجادهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وتحقيق عبادته سبحانه على الوجه الذي

يرضاه، لن يكون إلا ببيان منه سبحانه، ولن يكون هذا البيان شخصياً لكل فرد، بل جماعياً للأمة كلها، لتتوحد مناهجها، وعلى أيدي أصفيائه ـ سبحانه ـ منهم. ولهذا كان لكل أمة نذير، وعلى فترة من الرسل حتى ختم الله ذلك بسيد الخلق، وخاتم الرسل، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

وقد جاء منهج القرآن الكريم في بيان اصطفاء هؤلاء الرسل الكرام بأوضح بيان في أعلى المراتب، وأرفع المنازل، في تتابع وترابط على بعد ما بينهم، اقرأ قوله تعالى من بدايتهم: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: ٣٣ ـ ٣٤]. انظر قوله تعالى في آدم بعد إنزاله إلى الأرض: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢]. وقوله عن إبراهيم: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٠ ـ ١٢٣]. فهذا ربط بين خاتم الرسل وبين أبي المرسلين في اجتباء وهداية، وانظر قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ﴾ يعني محاجته للنمرود وقومه، وإبطال عبادتهم للشمس والقمر والنجوم، وتفيد دعوى النمرود الألوهية، بأن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها أنت من المغرب، فبُهت الذي كفر. وبهذه الحجة قال تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ﴾ يعني بالعلم والحجة والبرهان، كما رفع آدم على الملائكة بتعليمه الأسماء كلها، إلى غير ذلك. ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ حيث يجعل رسالاته، ويصطفي رسله. ثم ربط بين إبراهيم عليه السلام وبين تلك الذرية الطيبة المباركة ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾. قرابة العشرين نبياً في نسق الأنبياء، ويعقبهم قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ . . .﴾

إلى قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ . . .﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٩٠].

تأمل هذا الربط، وتأمل مقومات النبوة: اجتباء، وهدى، وإيتاء الكتاب، والحكم، والنبوة، والرسالة. مما يجعل النبوة والرسالة موحدة الأصل، متفقة الفروع في تحقيق الغاية الواحدة، التي من أجلها خلق الله الثقلين: الجن والإنس، وأمعِن النظر في قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يعني يدبرها كيف يشاء ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وبعدها ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣﴾ [الشورى: ١٣]. فالذي بيده مقاليد السمٰوات والأرض، يدبرها بما فيه الصلاح والأصلح، ابتداء من بسط الرزق لمن يشاء، وإمساكه بمقتضى الحكمة والعلم، وكذلك اصطفائه الرسل، وتشريعه الشرائع، واجتبائه من يشاء، وهدايته إليه من ينيب، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٧ وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ [ص: ٤٥ ـ ٤٨].

وقد يتسع العطاء الإلٰهي لمن أصفاهم لرسالته، فيشتمل المُلْك وزيادة. واقرأ عن نبي الله سليمان عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ [ص: ٣٥ ـ ٤٠]. هذا هو منهج القرآن في بيان اصطفاء رسل الله، وربط بعضهم ببعض، على بعدٍ أو قرب ما بين أممهم.

أما خاتم الرسل: فنبذة يسيرة في هذا السياق، وسيأتي التفصيل في شأنه ﷺ، وشأن أصحابه معه فيما بعد إن شاء الله. قال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء: ١٦٣]. كل أولئك مرتبطون في أصل واحد: هو أن الله

تعالى أوحى إليهم، ثم يخص نبينا ﷺ بقوله بعد ذلك: ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾ [النساء: ١٦٦]. وهو نظير ما سيأتي في سياق نص الهداية من سورة الفتح الذي معنا هنا من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨]. بل إن أعظم الربط بين أول الرسل وآخرهم في مجال الاصطفاء والرسالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]. فعيسى عليه السلام مرتبط بما قبله، مصدق لمن تقدم بين يديه من الرسل، وربط ما بعده بالبشرى برسالته ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى﴾ وقد سماه باسمه، وعيّنه بشخصه من قبل ما يزيد على ستمئة سنة ما بين عيسى ونبينا عليهما السلام.

وأعم من هذا وأشمل في حق نبينا محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. حقاً إنها وحدة النبوات، واتحاد الرسالات، ورابطة الأنبياء والمرسلين، يرسمها منهج القرآن الكريم للعالم أجمع يعلن عن ذلك في وحدة الإيمان قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

٥ ـ بيان الهدى ودين الحق الذي أُرسل به رسول الله ﷺ:

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [الفتح: ٢٨]. تقدم بيان الرسالة اصطفاءً. وهنا اشتملت رسالة رسوله محمد ﷺ على الهدى، ودين الحق. فهل هما شيء واحد أم هما مختلفان؟

فأكثر المفسرين يركزون على ما بعدها، ولم يقفوا عندها، وابن كثير أشار إشارة خفيفة، لكنها ذات دلالة، وذلك في قوله: الهدى العلم: ودين الحق: العمل.

وبالرجوع إلى مدلول اللفظين لغة: نجد الهدى بمعنى الدلالة والإرشاد. والدين يطلق على الجزاء. كقولهم: دِنَّاهم كما دانوا. وعليه: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾: أي يوم الجزاء. كما يطلق على الإسلام عموماً، أعني يشمل الإسلام والإيمان والإحسان، كما جاء في خبر جبريل عليه السلام لما سأل رسول الله ﷺ عن ذلك كله، وأجابه صلوات الله وسلامه عليه ثم أدبر، فقال ﷺ: «**هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم**». وكذلك استعمالات القرآن للكلمتين: الهدى والدين.

أولاً في استعمال الهدى: ١ ـ ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]. فيه هداية ومهدى إليه، ٢ ـ ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: ٢]. فيه هداية، ومهتدين، ومهدى إليه، في تفسير المهتدين بالذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون. ٣ ـ ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]. فيها هاد، وهدى، وطريق مهدى إليه. ٤ ـ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ۝٤٦﴾ [المائدة: ٤٦]. فكلها نصوص في استعمال الهدى في معنى الدلالة والإرشاد، كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَـٰمَـٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦].

ثانياً: في استعمالات الدين: تقدم قوله تعالى: ﴿يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ بمعنى الجزاء، مطابق لاستعمالها في اللغة. ١ ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. ٢ ـ ﴿يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]. ٣ ـ ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ﴾ [التوبة: ١١]. فجمع بين التوبة، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة في مسمى الدين. ٤ ـ ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]. يعني في نظام حكمه ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]. والتشريع في الأعمال كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨]. وأعم ما يكون قوله ﷺ: «**الدين النصيحة**» فشملت لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. وعليه فقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ

﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ يكون كل من الهدى والدين متلازمين، إذ الهدى لا بد له من مهدى إليه، ودين الحق لا بد له من هداية إليه، فهما إذاً متلازمان، فالهدى دلالة وبيان، والمدلول عليه هو دين الحق. والهدى: هو كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. والدين الحق: هو مضمون هذا الكتاب وتلك السنة: من تكاليف في العبادات، والمعاملات، والإخبار عن الماضي والمستقبل، والعقائد، وكل ما جاء في الوحي المنزل. وهو لا شك دين الحق ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥]. ودين الحق هنا: إما من إضافة الموصوف إلى صفته، كقوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾ وإما إضافته للحق سبحانه كما قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٦]. والأول أكثر دوراناً في كتاب الله، ولأن السياق إخبار من الله تعالى أنه أرسل رسوله، وقد بين بما أرسله به وهو الهدى والدين، وأحرى ما يكون الدين الذي أرسل به رسوله هو دين الحق، فيكون الحق وصفاً للدين ليؤسس معنى جديداً.

وهل هو وصف كاشف: كما في قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥]. إذ لا كلمة تخرج إلا من الفم. وكقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]. إذ لا طائر يطير إلا بجناحيه.

أم أنه وصف له مفهوم المخالفة، لينفي الأديان الباطلة التي كانت موجودة من قبل. ولا شك أن كل ما عدا الإسلام فهو باطل: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]. وسواء كان ديناً جاهلياً كما أُمر ﷺ أن يعلن لكفار مكة: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ أو كان ديناً نصرانياً أو يهودياً لأنها بمجيء الإسلام لم يعد معمولاً بها. وكان الإسلام دين الحق، لأنه وحده الذي يحقق للإنسان في أي مكان وعلى مدى الأزمان كل ما يسعده عاجلاً وآجلاً، وعنوانه المعبر عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]. يعني بالكتاب الجنس وهو كل كتاب سماوي، ولما جاء عمر رضي الله عنه بصحيفة من التوراة يقرؤها غضب ﷺ وقال له: «**ألم آت بها بيضاء نقية؟ والله لو كان موسى حياً**

ما وسعه إلا اتباعي». وتقدم أن الله تعالى أخذ العهد على جميع الرسل، لئن جاءهم الرسول ﷺ وأدركوه ليتبعون النور الذي أنزل معه ولينصرنه.

أما تفصيل أنه دين الحق: فقد نقلنا في كتاب الوصايا لرسول الله ﷺ في وصيته بكتاب الله، وأنه شامل جامع، نقلنا كلام والدنا الشيخ الأمين رحمه الله في الأضواء على قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ أنه قال: لو أردنا بيان مضمون هذه الآية الكريمة لأتينا على القرآن كله. فقد أجمل الله تعالى في هذه الآية جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها، ثم ساق نماذج لذلك تنبيهاً بالبعض على الكل، ساق أحد عشر نموذجاً من مهمات الدين، بدأ بالعقيدة وإرساء مبادئ التوحيد والعبادة التي من أجلها خلق الله الجن والإنس، ثم ما بين المسلمين من معاملات كحقوق الزوجية، وحق الإنسان في قضية الرق ومعاملته، ثم حفظ الضروريات الخمس وكل ما تقوم الحياة عليه. فليرجع إليه هناك.

وقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾. لا شك أن المراد بالدين كله: جنس الأديان، أياً كان اتجاهها: وثنية، أو سماوية قد حرفت، وفي هذا تَحَدٍّ لأصحاب تلك الأديان جميعها، بدليل ما جاء في سورتي التوبة والصف قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣]. وفي سورة التوبة: ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]. وفي الصف: ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨]. وفي يونس: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨٢]. وقد صدق الله وعده، فأظهر دينه في مشارق الأرض ومغاربها. ويدل قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾ على النصرة والتأييد. كقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. وفي هذا رد اعتبار للمسلمين الذين صدوا عن البيت وهم على مشارف الحرم، ونحروا وحلقوا دون أن يطوفوا بالبيت، وكان في ذلك تحقيق رغبة المشركين فرض على المسلمين، فجاء الوعد الإلهي مؤكداً بشهادة الله، وكفى بالله شهيداً، وفي مجموع ذلك كله إبطال لحمية الجاهلية، وإسقاط اعتبارهم عدم الشهادة للنبي ﷺ بالرسالة عند كتابة صحيفة الصلح.

وهذه الآية بحق بمثابة التذييل والتوقيع على ما اشتملت عليه السورة

المباركة من الهداية ومقدماتها، وما بعدها تأكيد لها، وإشادة بالملتزمين بها، ﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَاۚ﴾ [الفتح: ٢٦].

٦ ـ من آيات الهداية في سورة الفتح:

﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ [الفتح: ٢٩].

تستهل الآية الكريمة في هذه السورة المباركة ـ سورة الفتح ـ بهذه الجملة الخبرية العظيمة ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ وبتأملها مع ما قبلها يظهر منها أنها جملة وأساس قاعدة الرسالة المحمدية. ففي الآية قبلها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٢٨﴾ [الفتح: ٢٨]. فيها إرسال الله رسوله، وهو محمد ﷺ وإن لم يسمه باسمه، فقد أضافه إليه سبحانه، وفيه من التشريف والتكريم والعناية ما فيه، وبيّن موضوع الرسالة التي أرسله بها: وهي بالهدى، وهذا عام في كل هداية ودلالة وإرشاد، ودين الحق وهو الشامل لكل ما فيه صلاح الدنيا، وسعادة الآخرة، لكل من يدين به، وتعهد سبحانه بنصرته، وإظهاره على الأديان كلها: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ على جميع ذلك.

ثم تأتي الآية الختامية لهذه السورة، فتستفتح بهذه الجملة ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ سواء كانت بدلاً من الرسول في الآية قبلها، لتبين الرسول بعينه وهو محمد ﷺ، وتسميه باسمه وتعيّنه بشخصه، أو كانت مستقلة بذاتها، فإنها بمضمونها ومنطوقها والنسبة الإسنادية فيها، تعتبر بحق القاعدةَ الأساسية للرسالة المحمدية، ومنطلق الإيمان لكل مسلم، ومبدأ الدعوة إلى الله، لأنه قبل التصديق والإيمان بأن محمداً رسول الله فلا تصديق بأي خبر عن الله، ولا إيمان بأي عقيدة إلٰهية، ولا التزام بأي عمل تشريعي، كما قال سهيل بن عمرو في صلح الحديبية: لو كنت أعتقد أنك رسول الله ما صددتك عن البيت. وبوجود الإيمان والتصديق بأن محمداً رسول الله يكون التصديق والالتزام بكل ما جاء به رسول الله ﷺ في شرع الله، كما حدث للصدّيق رضي الله عنه صبيحة ليلة الإسراء حين ذهبوا إليه مستنكرين، فقابلهم بقوله: إن كان قال ذلك فأنا أصدقه. ولما تعجبوا من هذا التصديق، كشف لهم عن أصله فقال:

إني لأصدقه في خبر السماء ـ أي آمن به رسولاً، وبما جاء ويجيء به من الوحي من فوق سبع سماوات ـ ألا أصدقه بخبر بيت المقدس؟ فكان إيمانه ﵁ بمحمد رسول الله مطلق تصديقه بما عجزت عنه عقول قريش، لعدم إيمانهم بمحمد رسول الله ﷺ.

ولما حدّث أصحابه بأن رجلاً ركب بقرة فضربها فقالت له: يا هذا إنا لم نخلق لهذا. فقالوا: سبحان الله بقرة تتكلم. فقال ﷺ: «**نعم، وأنا أؤمن بذلك ومعي أبو بكر وعمر**» وهما ثمة. وكذلك في خبر الذئب الذي خطف شاة من الراعي، فجاء صاحبها فاستخلصها منه، فقال له الذئب: كيف بك إذا لم يكن لها راع إلا أنا. فعجبوا أيضاً، وقالوا: سبحان الله ذئب يتكلم. فقال ﷺ كما قال أولاً. فهنا رسول الله ﷺ يحكي أحداثاً وقعت في بني إسرائيل، لم يشاهدها، ولكن عَلِمَها بالوحي. ولكن أبا بكر وعمر لم يوحَ إليهما، ولم يعلما عنها، ويخبر ﷺ عنهما أنهما يؤمنان بذلك كما يؤمن هو ﷺ، أي أنهما بمجرد ما يسمعان ذلك يؤمنان به حالاً، تبعاً لإيمانهم وتصديقهم بأن محمداً رسول الله.

وكذلك الصحابي الذي سمع رسول الله ﷺ يقول للأعرابي: «**إني اشتريت الفرس منك، وإنك بعته لي، ولم يبق إلا نقد الثمن**»، والأعرابي ينكر، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول ﷺ: «**من يشهد لي أني اشتريت هذا الفرس من هذا الأعرابي**». فيقول الصحابي الجليل (خزيمة بن ثابت ﵁): أنا يا رسول الله، أشهد أنك قد اشتريته. فتقوم الحجة على الأعرابي، ويلزمه البيع وبعد أن دفع ﷺ الثمن للأعرابي ومضت الصفقة، وذهب البائع لحال سبيله، يسأل النبي ﷺ الذي شهد له: «**كيف تشهد وأنت لم تحضر؟**» فيقول: كيف لا أشهد على قولك: اشتريت الفرس وأنا أشهد وأؤمن بما أسمعه منك من الوحي عن الله سبحانه. فيدعو له ﷺ، ويخصه بأن يجعل شهادته بشهادة رجلين. ولعل ذلك مع تكريمه إياه أن شهادته قامت مقام شاهدين في إثبات دعوى قائمة، وليس ذلك من باب المحاباة، ولا خارجاً عن منهج القضاء، لأن القصد من الإشهاد التوثق من صدق المدَّعي في دعواه، وكون المدعي هنا هو رسول الله ﷺ الذي شهد الله له أنه لا ينطق عن الهوى، فكان الأصل أنه لا يحتاج إلى استشهاد شاهد على دعواه، كما أنه ليس للأعرابي أن يناكر

رسول الله ﷺ، ويطلب من يشهد له. ولكن مكارم أخلاق النبي ﷺ، والتزام المنهج العادل في سير القضاء «**البينة على من ادعى**» وخاصة كون الطرف الثاني أعرابياً، لم يرد ﷺ قسر الأعرابي على البيع وإيهامه أن لا حق له في طلبه، ولذا اكتفى ﷺ بشاهد واحد، وبه قنع الأعرابي، والأعرابي يعلم في قرارة نفسه، وفي واقع الأمر، أنه فعلاً قد باع الفرس لرسول الله، وأُحِبُّ أن أعتذر لهذا الأعرابي بأن أقول: إن كونه أعرابياً نزل بفرسه يبيعها بالمدينة، قد لا يكون يعرف شخصية رسول الله ﷺ، وقد جاء أن شخصاً لم يكن يعلم بمشترى رسول الله ﷺ، فطلبها من صاحبها بثمن أكثر، فنكث الأعرابي في بيعه.

والذي يهمنا أن الذي شهد لرسول الله ﷺ لم يكن حاضراً، وإنما انطلاقاً من إيمانه، وتصديقاً بأن محمداً رسول الله.

وكذلك علي رضي الله عنه لما بعثه ﷺ ورفيقه إلى الظعينة بروضة (خاخ) معها كتاب إلى قريش، فأدركاها وسألاها فأنكرت، ففتشا دابتها ورحلها فلم يجدا شيئاً، ولكنهما لم يتركاها، يقيناً منهما أن معها كتاباً كما قال ﷺ، فقال لها علي رضي الله عنه: لقد صدقنا رسول الله ﷺ، لتخرجن الكتاب أو لنفتشن الثياب. فعندها علمت أن الأمر جد، فقالت لهما: استأخرا، فأخرجته من عقاص رأسها.

تلك قضايا جزئية، وهل إقدام كل مسلم على كل عمل يعمله ابتغاء وجه الله، وكل شيء يحجم عنه كل مسلم ابتغاء مرضاة الله، إلا كان ذلك كله من وراء الإيمان والتصديق بمحمد رسول الله، ومن ثم الالتزام بما احتوته تلك الرسالة من الله، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. من الذي عقد هذه الصفقة بين المؤمنين وخالقهم إلا رسول الله ﷺ.

ولقوة الصلة بين سورة الفتح والتي قبلها سورة محمد أو سورة القتال: تجد افتتاحيتها موضحة لهذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾. وهل هم إلا المشركون في الحديبية. يليها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ

عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ۝٢﴾ [محمد: ـ ٢]. فإيمانهم بمحمد وبما نزل عليه ﷺ جعلهم يعملون الصالحات، ويفوزون بصلاحهم وصلاح بالهم. وكل ذلك لم يكن إلا بالإيمان والتصديق بأن محمداً رسول الله ﷺ.

٧ ـ من آيات الهداية في سورة الفتح:

تقدم نص الهداية في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ . . .﴾ [الفتح: ٢٨]. وتقدم بيان الهدى ودين الحق الذي أرسل به رسوله، ثم جاء الإفصاح عن رسوله، والإخبار عنه، وإثبات الرسالة له، وبيان علاقتها بما قبلها: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾. وإثبات أن محمداً رسول الله أساس قاعدة الإيمان بالله، وبما يوجبه لرسوله ﷺ، ثم يأتي بعد هذا الإخبار الإلٰهي ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ عطف الحديث عن الذين معه: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ إلى آخر الأوصاف في المثلين المضروبين لهم في التوراة والإنجيل.

والحديث هنا أولاً: عن مدلول هذه المعية في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: ومدلولها من حيث اللغة يصدق عاماً، وخاصاً، وأخص. فالعامُّ: معية الإيمان والتصديق بالرسالة، فيعم كل مؤمن في كل زمان ومكان. **والخاص**: يقتصر ويختص بالصحابة الكرام في عصره والذين كانوا معه ومعاصريه. **والأخص**: أولئك الذين كانوا معه في الحديبية، والتي هي موضوع سورة الفتح تقريباً.

وقرينة الحديث عنهم مقروناً بالحديث عنه ﷺ قوية في الدلالة على أن المعية هي معية الصحبة عموماً، وهي أقوى دلالة في أصحاب الحديبية، وهنا نجد عناية الوحي بهؤلاء الذين أكرمهم الله بتلك المعية، حتى جعلهم موضع حديث كريم فاضل، يشيد بهم وبجليل صفاتهم، ويعرفهم لا لمعاصريهم من أهلهم وذويهم، ولا لخلفهم الذين يأتون من بعدهم، بل يصفهم ويجليهم للأمم الماضية السابقة في الوجود على وجودهم، ويجعل ذلك الوصف المتعدد وحياً في الكتب المنزلة: في التوراة وفي الإنجيل، وفي هذا أقوى دلالة على أن المولى سبحانه لما اصطفى واختار محمداً ﷺ لرسالته، وتولى

رعايته من قبل مجيئه إلى الدنيا، ومن بعد مجيئه، ومن ولادته ورضاعته وطفولته وشبابه ورجولته، إلى أن فاجأه الوحي برسالة ربه، كان سبحانه أيضاً قد اختار واصطفى من الأمة وادخر تلك المعادن النقية، والأروحة الزكية، والنفوس الأبية، والهمم العالية، والعزائم الماضية، والأرواح الشفافة، من تسامت منازلهم إلى مسايرة وإدراك ما أنزل عليهم، والتعامل معه على أعلى مستوى تطبيقي، وكانوا حقاً موضع المثل الأمثل، والإمام المقتدى به في كل ما هو الأفضل، ومحل التأسي بهم للأمم قبلهم فيما سلف، والأسوة الحسنة لمن بعدهم ممن خلف، وكم هو عظيم شرفهم بتلك المعية لرسول الله ﷺ، مما يشعر في مدلوله بنوع مشاركة في نوع من فضائله ﷺ، وقد وصفهم الله تعالى بوصفين هما في دلالتهما متغايران نقيضان، بل وفي عرف المجتمعات متناقضين، أي لا تقوى إنسانية إنسان بمقتضى جبلتها أن تتصف بهما، لبعد ما بينهما، وهما الشدة والرحمة. لأن الشدة: تنتج غلظة وقسوة، والرحمة: تفيض عطفاً وليناً. ولكن لما اختلفت الجهات ـ جهات التعلق ـ أمكن ذلك، وهما جهتا: الكفار، والمؤمنين. وبالتوزيع الموجود يتمكن كل وصف مما هو له:

﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: وهذا في محلة، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣، والتحريم: ٩]. وقوله تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]. وهذا الوصف من عوامل نصرة رسول الله ﷺ التي وعده الله إياها في أول السورة في قوله: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾ [الفتح: ٣]. ومن عوامل إظهار هذا الدين على الدين كله.

والوصف الثاني: **رحماء بينهم**: فمتعلق الشدة: الكفار، ومتعلق الرحمة: فيما بينهم، أي الشدة على الأعداء، والرحمة على الأولياء. ومعلوم أن الرحمة ستفيض العطف والشفقة والرأفة والمودة، فتجعل الجميع في تراحمهم وتعاطفهم كالجسد المرصوص، فهذان الوصفان: الشدة والرحمة، منهجهما في الداخل والخارج: فهم في خارج نطاق جماعتهم أشداء، وموضع هيبة الأعداء ومخافتهم، فيوقع الرعب في قلوب الكفار ومن يعاديهم. والرحمة في الداخل: تجمع شملهم، وتؤلف قلوبهم، وتعطف بعضهم على بعض في إطار أخوة الإيمان.

ونظير هذا الوصف: قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾. ثم يربط سبحانه بين هؤلاء الأعزة على الكافرين، الأذلة على المؤمنين، وهم عين الموصوفين هنا: أشداء على الكفار، رحماء بينهم. فيربط في سورة المائدة بين هؤلاء وبين الله ورسوله في الموالاة: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٤٥ ـ ٥٥]. وهو عين الوصف في سورة الفتح: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ على ما سيأتي إن شاء الله.

إن اجتماع هذين الوصفين: الشدة على الكفار والعزة عليهم، مع الرحمة فيما بينهم والذلة على المؤمنين، لهما أقوى عوامل مقومات الأمة الإسلامية، وتثبيت وجودها، وتعاملها مع نفسها فيما بينها، وتعاملها مع غيرها خارجاً عنها. فبالشدة: تدفع عن نفسها، وتذود عن حماها. وبالرحمة: تنمو قواها. وقد يمكن تصور هذين المعنيين من قول الشاعر:

إذا أنتَ لم تنفعْ فَضُر فإنما ... يُرادُ الفتى كما يَضُرُّ وينفعُ

أي يمكن أن يضر عدوه، وينفع صديقه.

وسجل تاريخ الصحب الكرام أروع المثل في هذين المجالين، فكانوا أشداء على الكفار ولو كانوا أقرب الأقربين إليهم، كما في عودتهم من بني المصطلق، إذ حدث من ابن أُبَي مقالته: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ [المنافقون: ٨]. وبلغت رسول الله ﷺ فغضب لها، وسار في القائلة حتى إذا وصلوا المدينة أتاه ولده عبد الله، واعترض طريقه ومنعه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله، ويعلم أنه هو الأذل، وأن العزة لله ولرسوله، إلى آخر الخبر.

وفي غزوة أحد: خرج ولد أبي بكر يطلب المبارزة، فابتدر له أبوه حتى منعه رسول الله ﷺ. إنه التلاحم في ذات الله، والمقاطعة النهائية في غير ذلك. وصدق الله العظيم: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ

﴿حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]. وهذه صورة واضحة في اعتبارهم بالشدة على الكفار حزبَ الله.

ومن جانب التراحم بينهم: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وبهاتين الصفتين: أشداء على الكفار، رحماء بينهم. تلاحم المهاجرون مع الأنصار، فكانت نواة الأمة الإسلامية، وكانتا هاتان الصفتان، أهم نتائج الهداية والاستقامة في كتاب الله، وصدق النبي الكريم: «**ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعظم كبيرنا**».

٨ ـ تابع لبيان آية الهداية من سورة الفتح:

تقدم بداية النص: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ ثم عطف عليه من صفات الذين معه ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وبعد هذا يأتي تتمة الوصف للذين هم مع رسول الله ﷺ، بأعلى ما تكون صفات العباد ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩].

لقد كان الوصف الأول: أشداء على الكفار، رحماء بينهم. منهج هدايتهم في علاقتهم بمعاصريهم ـ مؤمنهم وكافرهم ـ وإن شئت: تنظيم علاقتهم، وكيفية تعاملهم مع الخلق.

وفي هذا الوصف الثاني: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ منهج هدايتهم وتنظيم علاقتهم بالخالق سبحانه. وبتأمل قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمْ﴾ بصيغة المضارع الدال على التجدد والحدوث، تجد دلالة تجدد هذا العمل منهم، وهو المناسب للوصف ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ حيث تتجدد الصلوات بتجدد الأوقات: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. بينما جاء الوصف الأول: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ جاء بالجملة الاسمية، يعني هم أشداء. والجملة الاسمية تدل على الدوام والاستمرار. وهما فعلاً صفتان مستمرتان لا انقطاع لهما، وهما صفتان نفسيتان تظهر آثارهما بصفة دائمة. أما الصلاة فهي عمل متجدد، فناسب الإتيان معها بالجملة الفعلية

﴿تَرَىٰهُمْ﴾ وإن كان معنى الكثرة والمداومة يأتي من مدلول صيغ المبالغة ﴿رُكَّعًا﴾ على وزن فعلاً، بدلاً من راكعين ساجدين، وتلك الصيغة الدالة على المبالغة تجعل مجال عبادتهم في صلواتهم أوسع من نطاق المكتوبة، فتمتد إلى النوافل الراتبة معها والمنفردة عنها، ناهيك عن قيام الليل. وإبراز هذا العمل منهم إلى حد أنك تراهم كذلك، أي في أغلب أوقاتهم.

ومعلوم أنهم غير مقصورين على ذلك، لأن عملهم هذا هو عنوان كل خير، وأساس كل فضيلة، حيث إن الصلاة تعين على كل خير، وتنهى عن كل شر. ويوضح ذلك قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]. تلك هي الصفقة المعقودة بين الله تعالى وبين المؤمنين، وهي لا شك صفقة غالية، سلعتها نفوس المؤمنين وأموالهم، وثمنها الجنة. ثم يأتي الوصف لهؤلاء المؤمنين الذين عقدوا تلك الصفقة مع الله فيقول تعالى فيهم: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [التوبة: ١١٢]. إن هذه الصفات العظيمة كلها لتندرج تحت قوله تعالى هنا في وصف ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾. وابتغاء الفضل من الله والرضوان ليس مقصوراً على الركّع السجّد، بل يُبتغى فضل الله ورضوانه بكل الفضائل وصالح الأعمال. وقوله تعالى شهادة لهم: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ﴾ إظهار لما خفي من حسن نواياهم الخالصة لله تعالى، لأن القصد والابتغاء من الأعمال القلبية، ولا يعلمها إلا الله «**إنما الأعمال بالنيات**». وفي هذا براءة لهم من أي شائبة: رياء، أو تهمة نفاق. بل إن فيه التنبيه إلى أنهم يعملون هذا العمل وهم يشعرون بالتقصير في حق الله تعالى، لأنهم لم يطلبوا أجراً مقابل عمل. ولكن رجوا من الله أن يتفضل عليهم من جوده وعطائه الواسع، ولا يقابلهم بهذا العمل، لأن عملهم مهما كان فهو في مقابل عطاء المولى، وإزاء رضوانه، ليس في ميزان التعادل. ولكأنهم يقولون:

نحن نؤدي واجباً علينا والله سبحانه يتفضل من عنده فيحسن إلينا.

﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾: إن السيماء العلامة، وتُشعر بالعلو. من مادة (س م و). والسمو: العلو. ومنه الاسم، فهو بمثابة العلامة المعتلية على المسمى. ومنه الوسم: العلامة المميزة. ولما كان وصفهم: ﴿رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ يتناول النوافل بكثرة، وقد تكون غالباً خفية في جنح الليل، ولم يطلع عليها إلا الله، جعل الله لذلك أثراً طيباً ينبئ عنه من حسن السيماء في وجوههم. كما جاء الحديث: «**من قام ليله حسن وجهه**». وإضافة السيماء للوجوه، يشعر بالسماحة والطلاقة والإضاءة والبشر، من آثار ما يضفيه نور الإيمان في قلوبهم، فتشرق به وجوههم، يوضح ذلك ما جاء في خبر عداس في عودة النبي ﷺ من الطائف، لما دخل ﷺ بستاناً لابني ربيعة - عتبة وشيبة - فأرسلا إليه عداساً بقطف عنب، وكان من شأنه أنه عرف النبي ﷺ، وأعلن إسلامه، فلما رجع إلى مواليه، قال أحدهما للآخر: والله لقد رجع بوجه غير الوجه الذي ذهب به. إنهم من سادات العرب، وأهل فراسة، فقد أدركوا مدى تأثير الإسلام حالاً على وجه عداس. وكذلك الركع السجد، يَرى آثار ذلك في وجوههم كل من كانت له بصيرة نيرة. وليس هذا الأثر ما يظنه بعض العوام من وجود كلف في الجبهة يتوسط الجبين.

إن مجموع تلك الصفات: أشداء على الكفار، رحماء بينهم، ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، سيماهم في وجوههم من أثر السجود. مثل وبيان من الله لأصحاب محمد ﷺ، رسمه الله في التوراة وحياً منزلاً، وكتاباً متلواً، يتعرف عليهم من سبقهم في الأمم.

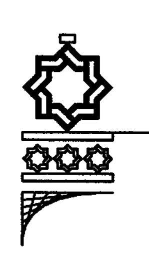
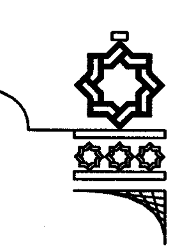
ثم يأتي بمثل آخر قد رسمه لهم في الكتاب المنزل بعد التوراة: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ مشهد ما أجمله نضارة، ونماء، واستواء! والصورة العامة في التفافه وتآزره يحنو كباره على صغاره، ويحتمي صغاره بكباره، إنها أوضح صورة لتآخي المسلمين وتراحمهم وتعاونهم، ظهرت عملياً في طبقات العصر النبوي فيما بين المهاجرين والأنصار.

ومن روائع الإعجاز في سياق هذين المثالين للذين مع رسول الله ﷺ: أن

جعلهم الأسوة الحسنة لمن قبلهم، ولأن يكونوا أسوة لنا من بعدهم أولى وأحرى، وقد جاء توزيع المثلين على الفريقين: اليهود والنصارى، غاية في الإعجاز، إذِ اليهود غلبت عليهم أساليب المادة، حتى اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، واستحلوا ما حرم الله بأساليب الحيل. فكان المثل الذي خصهم التراحم والاجتهاد في العبادات ركعاً سجداً. والنصارى تركوا دنياهم وترهبنوا، فكان المثل الذي جاءهم حركة إنماء وإنتاج وأساس عمَّ العالم وحياة الأمم، هو الزرع الذي منه الطعام واللباس. إنه كلام الله أحسن الحديث.

وفي نهاية هذا السياق نسمع نداء الحق والهدى يقول: إن في هذين المثلين منهج الهداية العامة للأمة، إذ لا قوام لها ولا وجود دونه. كما نرسل نداء للمعنيين بشباب الأمة، باعتماد تعليمهم سيرة أصحاب رسول الله ﷺ، ومناهج حياتهم، وكيفية تعاملهم مع أنفسهم، ومع خالقهم، ليكونوا خير خلف لخير سلف: أشداء على الكفار رحماء بينهم.



آيات الهداية من سورة الحجرات

١ ـ **والنص فيها قوله تعالى:** ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].
وموضوع هذا النص: النهي عن التمنن بالإسلام على أحد، أيّاً كان هو، نبياً مرسلاً، أو داعياً مصلحاً، لأن الإسلام علاقة بين العبد وربه ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ . . .﴾ [الإسراء: ١٥]. وفي يونس: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس: ١٠٨]. وعليه فلا مجال لتمنن أحد بإسلامه على أحد. ولو كان في هذا المقام مجال لتمنن، لكان للنبي ﷺ وللدعاة حق التمنن على الأمة، لأنه عن طريقه كان إسلامهم وهدايتهم. ولما جمع الله شمل المسلمين، وأعزّ دينه، ونصر رسوله بفتح مكة، وقال قائل الأنصار ما قال، وجمع النبي ﷺ الأنصار وحدهم، وعاتبهم فيما بلغه عنهم في شأن تقسيم الغنائم، وما قال لهم: «**ما مقالة بلغتني عنكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا أتألف بها أقواماً. إني لأعطي الرجل أتألفه على الإسلام، وأترك أقواماً اتكالاً على ما وقر في قلوبهم، يا معشر الأنصار: ألم آتيكم مفترقين فجمعكم الله بي؟ ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟**» وكل كلمة يقولون: الله ورسوله أَمَنُّ. فاعتبروها منة من الله ورسوله عليهم، وهو الواقع والحق، ومع ذلك لقنهم الجواب وكيف يجيبون على ذلك مما فيه من نوع المقال، إذ قال: «**ألا تجيبون؟**» فقالوا: وبِمَ نجيب يا رسول الله؟ قال: «**تقولون وأنتم صادقون: جئتنا طريداً فآويناك. وكذبك قومك وصدقناك**». فإنا نقول: إنها مقالة عتب وتعبير عن مواقف صدق، ليس فيها تزيد، وليس فيها ادعاءات، إنها عين الحقائق أبرزها ﷺ، ثم بنى عليها ما طابت به نفوسهم، ونعمت به

أرواحهم، وأملأ الله به من الطمأنينة قلوبهم، وأعلنها ﷺ بعز الدنيا والآخرة لمعشر الأنصار: «**والله لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار...**». إلى آخر مقالته ﷺ، بخلاف الموقف مع هؤلاء الأعراب الذين يتمننون على رسول الله ﷺ أن أسلموا، ويرد الله تعالى عليهم: ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فإنكم إن كنتم أسلمتم، فإسلامكم لأنفسكم، والمنة لله تعالى عليكم أن هداكم للإسلام.

وللكشف عن حقيقة هذا الموقف، يلزم الرجوع إلى أول الحديث مع الأعراب أصحاب هذا التمنين، ابتداء من قوله تعالى قبلها: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٤ ـ ١٧]. وقوله تعالى هنا في سورة الحجرات: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾. فالأعراب اسم جنس، يشمل كل من سكن البوادي من العرب. قد يشعر بأن ما حكاه الله عنهم يعم جميع الأعراب، ولكن القرآن الكريم قد بيّن أقسام الأعراب بالنسبة إلى دعوى الإيمان، ومجمل ذلك كالآتي:

أولاً: قِسْمٌ أقعدهم عن الذهاب مع رسول الله إلى الحديبية قلة الوسع، فجاؤوا يعتذرون لرسول الله ﷺ وعذرهم الله، وذلك في قوله تعالى من سورة التوبة: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة: ٨٨ ـ ٩٠]. وفي قراءة بتخفيف الذال: (المعذِرون) فهذا قسم من الأعراب على استعداد للذهاب مع رسول الله ﷺ، لكنه لم يجد ما يوصله، فجاء يعتذر لرسول الله ﷺ. والله قد عذرهم، بدليل تقبيح فعل الآخرين الذين قعدوا عن

هذا الاعتذار، وهم الذين كذبوا الله ورسوله، وهذا ما ذهب إليه ابن عباس رضي الله عنهما من أنهم مؤمنون عجزوا عن الذهاب معه ﷺ، ومصداقه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: ٩٩].

والقسم الثاني: المنافقون منهم: كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ﴾ [التوبة: ١٠١]. وينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة: ٩٨]. وينطبق عليهم أيضاً قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١١]. ومعلوم أن هذا هو مبدأ النفاق، ثم كشف الله حقيقة موقفهم بقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١٢].

والقسم الثالث: أشد كفراً ونفاقاً كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: ٩٧].

فتلك أقسام الأعراب في نصوص صريحة: منهم المؤمنون، ومنهم المنافقون، ومنهم من هم أشد كفراً ونفاقاً.

وهذا القسم الذي معنا في سورة الحجرات يعتبر قسماً رابعاً. لم يتمكن الإيمان من قلوبهم. ولم ينافقوا في دينهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ﴾ وهذا ادعاء منهم الإيمان، والإيمان مرتبة عالية، وهم لم يصلوا إليها بعد. فلم يكذبهم الله في الأمل والمبدأ، ولكن نفى عنهم الوصول إلى تلك المنزلة العالية من الدين، وبيّن لهم ما يحق لهم أن يقولوه، وهو المطابق لما هم عليه، فقال لهم: ﴿قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا﴾. فوضعهم على بداية الطريق، وهو الإسلام الذي بمعنى الاستسلام والانقياد. ولم ييئسهم من الإيمان، أو يردهم عنه، يبعده عن منالهم إياه، بل أطمعهم فيه، وأفسح لهم المجال إليه فقال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ﴾ وحرف (لما) وإن كان للنفي، إلا أنه يشعر

بحدوث المنفي في المستقبل، تقول: أثمر الشجر ولما يونع الثمر. أي أنه في طريقه إلى النضج والإيناع.

ثم طمأنهم على أعمالهم في تلك المرحلة الأولى، وفي نفس الوقت يحثهم على دوام الطاعة لله ولرسوله، بقوله: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

ثم بيّن تعالى: حقيقة الإيمان، وما عليه المؤمنون، أي إن الإيمان ليس مجرد ادعاء، وإنما هو قول وعمل يصدق القول، ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٢ - ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾:

جاء النص قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]. واقتضى هذا المنهج البداءة من أول قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾. وتقدم إبطال تمننهم على رسول الله ﷺ بإيمانهم، كما تقدم بيان أقسام الأعراب - في كتاب الله - الثلاثة: منافقون، ومؤمنون، وأشد كفراً ونفاقاً.

وهذا القسم صاحب هذه المقالة يعتبر قسماً رابعاً، وحقيقة موقفهم كما يفهم من السياق في حقهم: أنهم ادعوا ادعاءين: الأول - في الإيمان، والثاني - في الامتنان. وقد جاء حسن التوجيه إليهم مع الإرفاق بهم، مما يعتبر منهجاً عملياً للدعاة إلى الله في كيفية التعامل مع أمثالهم، سواء ممن يبتدئون الإسلام، أو يعودون إلى تجديد العهد والالتزام:

فالادعاء الأول: قولهم: ﴿آمَنَّا﴾. وهم في الواقع لم يؤمنوا، وقد صحح الله لهم موقفهم وما يحق لهم قوله: ﴿وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. ثم بيّن تعالى من هم المؤمنون والذين يحق لهم أن يقولوا آمنا: وهم من أقاموا الدليل العملي، وجمعوا بين صدق القول وإخلاص العمل، بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾﴾. أي إن أعمالهم صادقت أقوالهم. وفي هذا

بيان أكيد وصريح بأسلوب الحصر (إنما): وهي لحصر ما يليها فيما بعده، كما نقول: إنما الكريم حاتم، وإنما الشاعر حسان. فكذلك هنا تحصر المؤمنين فيما بعدها، وهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فجعلت للمؤمنين حقاً صفات ثلاثة:

١ ـ الإيمان بالله ورسوله. ٢ ـ عدم الارتياب في هذا الإيمان. ٣ ـ الجهاد في سبيل الله بالنفس والنفيس.

وبتأمل التعقيب على ذلك بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ بزيادة الضمير هم، وهو للتأكيد. ندرك أن من عداهم ليسوا بصادقين في ادعائهم الإيمان. يؤكد هذا أن الإيمان في اللغة: هو التصديق. فمن قال بلسانه وارتاب بقلبه، أو قال بلسانه موقناً بقلبه ولم يجاهد في سبيل الله بماله وبنفسه، فليس مؤمناً والإيمان بالله ورسوله يستلزم الإيمان بلوازمه، ولوازم الإيمان بالله: الإيمان بكل ما جاء عن الله من أسمائه، وصفاته، وأفعاله، ووعده ووعيده، وبالبعث والجزاء. والإيمان برسوله يستلزم: الإيمان بكل ما جاء به عن ربه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [الحشر: ٧].

وقد جاء مصداق ذلك في أوائل سورة الأنفال التي جاءت في أحداث وقعة بدر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾. ثم بيّن حقيقة المؤمنين: من هم؟ وبأسلوب الحصر أيضاً: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾ فجمعوا بين أعمال القلب من أنها إذا ذكر الله وجلت قلوبهم إجلالاً لعظمة الله، وخوفاً من عذابه، وبين زيادة الإيمان بسماع آيات الله تتلى عليهم، لأن كل آية تتضمن معنى جليلاً وتوجيهاً جميلاً، فيزدادون بها إيماناً على إيمانهم السابق. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ـ لا على غيره ـ ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾، لأنهم أيقنوا بأنه سبحانه بيده مقاليد السمٰوات والأرض، ويوقنون أنه سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

ثم بيّن تعالى التزامهم بأركان الإسلام ماثلة في: إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، أي العبادتين البدنية في الصلاة ويتبعها الصوم، والمالية في الزكاة ويتبعها الحج والإنفاق في سبيل الله، أي الجهاد في سبيل الله بالنفس وبالمال. وعليه يشهد تعالى لهم أنهم هم المؤمنون حقاً.

والأوسع من ذلك تفصيلاً افتتاحية السورة المسماة باسمهم: سورة (المؤمنون) بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ① ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ② وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ④ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ الآية. وما بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ⑧ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ⑩ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ⑪﴾ [المؤمنون: ١ ـ ١١]. ست صفات جمعت أصول الفضائل في الأقوال، والأفعال، والعفة، وأداء الأمانة، ورعاية العهد.

فقوله تعالى في سورة الحجرات في السياق الذي معنا: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ جاء مجملاً، لأنه في معرض تصحيح ادعاء الأعراب في قولهم: آمنا. وجاء تفصيل ذلك المجمل في العديد من الآيات كما سقنا بعضها مفصلاً من سورتي (الأنفال) و(المؤمنون).

ثم الوصف الثاني: وهو من لوازم الأول، وشرط في صحته، قوله تعالى: ﴿لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾. والريب: الشك. والإيمان لا يصح مع الشك، وإنما هو جزم وقطع ويقين. والمجيء بحرف (ثم) وهو حرف عطف مع التراخي، قال أبو حيان: انتفاء الريبة يجب أن يقارن الإيمان. فقيل: إن (ثم) لترتيب الكلام لا من ترتيب الزمان، أي ثم أقول: لم يرتابوا. وقيل: قد يخلص الإيمان ثم يعترضه ما يثلم إخلاصه، فنفى ذلك، فحصل التراخي، أو أريد انتفاء الريبة في الأزمان المتراخية المتطاولة، فحاله في ذلك كحاله في الزمان الأول الذي آمن فيه.

ونظيره عندي: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ . . .﴾ [فصلت: ٣٠]. قال الصديق رضي الله عنه: أي داموا على ذلك حتى ماتوا.

والارتياب في نصوص القرآن ملازم لمرضى القلوب، وأخطر أمراض

القلوب هو الكفر والنفاق، أي ضد الإيمان والإخلاص. قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ٤٤ ـ ٤٥]. فقابل بين الفريقين المؤمنين وغير المؤمنين، الفارق بينهما: ارتياب قلوب الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر. ونظيره في المنافقين أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟﴾ [النور: ٤٨ ـ ٥٠]. مقابلة أيضاً بين حالتين لهم: حالة ما إذا كان الحق عليهم. وحالة ما إذا كان الحق لهم. وفي الأولى: يعرضون عن حكم الله ورسوله، وفي الثانية: يأتون إليه مذعنين. والفرق عندهم في الحالتين هو مرض قلوبهم أو ارتيابهم، وهما متلازمان، فلا يرتاب إلا مرضى القلوب، وقد يظل الريب خفياً في نفوسهم، والمرض ملازماً قلوبهم، حتى يكشف الله عنه يوم القيامة، وتكون النتيجة أشد وأعظم. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ . . .﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

وبهذا نعلم: أن الريب يتنافى مع الإيمان. ولهذا حصر الله المؤمنين في الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا. ورتب على نفي الريب: الدليل العملي الصادق، وهو الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس، وشهد لهم بالصدق في إيمانهم. على ما سيأتي إن شاء الله من ارتباط الجهاد بصدق الإيمان، وقوة اليقين.

٣ ـ ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]:

بعد تصحيح مقالة الأعراب ﴿ءَامَنَّا﴾. وَرَدِّ تمننهم على رسول الله ﷺ، جاء بيان حقيقة من يحق له أن يقول مقالتهم تلك، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. وتقدم التنبيه على أن الجهاد

في سبيل الله بالمال وبالنفس من لوازم الإيمان بالله، ورسوله، واليوم الآخر، شرعاً وعادةً وعُرفاً. وتقدم من دلائل ذلك شرعاً: ما جاء من النصوص في فرضية الجهاد في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وما جاء بمثابة المتابعة للوجوب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ . . .﴾ [الأنفال: ٦٥].

والآن نسوق بيان علاقة الجهاد في سبيل الله عقلاً. قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩١]. ونظيره: قول أصحاب طالوت: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا . . .﴾ [البقرة: ٢٤٦]. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾. يقول ابن كثير: إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين هِمَّتُهم قتالُ الإسلام وأهله، كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم، كما قال تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]. وكما قال: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أي: لتكون همتكم منبعثة على قتالهم، كما همتهم منبعثة على قتالكم، وعلى إخراجهم من بلادهم التي أخرجوكم منها قصاصاً.

ومعلوم أن المقاصة ومعاملة المعادي بالمثل منطق عقلي حتى مع الحيوان، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟﴾ أي: قاتلوا في سبيل الله ولا تعتدوا في ذلك. ويدخل في ذلك ارتكاب المناهي، كما قاله الحسن البصري من المثلة، والغلول، وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأي لهم، ولا قتال فيهم، والرهبان، وأصحاب الصوامع، وتحريق الأشجار، وقتل الحيوان لغير مصلحة، كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم. ولهذا جاء في صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول: **«اغزوا في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا الوليد، ولا أصحاب الصوامع»**. وعن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: وجدت امرأة في بعض مغازي النبي ﷺ مقتولة، فأنكر رسول الله ﷺ قتل النساء والصبيان.

ومرة أخرى وعند كتابة هذه السطور تتزامن مع تأزم فتنة الخليج، واعتداءات الرئيس العراقي على الكويت، وما نقله شهود عيان من إفساد بالسلب والنهب والتدمير، وقتل النساء والصبيان والشيوخ، وما هو أقبح من ذلك يستحيي المسلم أن يتفوه به. لقد وضع الإسلام آداباً لكل شيء فيها المثالية العالية، حتى للجهاد: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ﴾. إن الرئيس صدام حسين وجيوشه أحوج ما يكونون لمعرفة آداب القتال مع كل عدو، لا سيما في حالة اعتدائهم على إحدى جاراتهم. ولعلنا ـ إن شاء الله ـ نوفق إلى تقديم بحث كامل في آداب ومثاليات الجندي المسلم في ظل تعاليم الإسلام.

نعود إلى منهجنا في بيان ارتباط الجهاد في سبيل الله شرعاً وعقلاً وعرفاً: لقد جاء السياق في سورة النساء يشمل الأمرين: الارتباط الشرعي والعقلي بل والعرفي، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النساء: ٧٤]. ويشرون هنا بمعنى يبيعون، كقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]. أي: باعوه. وهذا من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر، أن يبيع نفسه بثمن مؤجل يوقن أنه مضمون عند الله تعالى، كما قال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ . . .﴾ [التوبة: ١١١]. فأوضح أن قوله تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: يبيعون الدنيا بالآخرة، وهي والله صفقة رابحة كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٢]. فهذا كله من ارتباط الجهاد في سبيل الله بالإيمان بالله واليوم الآخر، وفي نفس السياق من سورة النساء بعد ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ يأتي قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

[النساء: ٧٥]. فهذا موجب عقلي وعرفي يقتضيه الفعل، وتعارف عليه كل أجناس العالم: أن يقاتل الأقوياء حفاظاً ودفاعاً عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، والذين يستغيثون بالله تعالى أن يخرجهم من القرية الظالم أهلها، وأن يجعل لهم ولياً، أي من جند الله، ونصيراً لهم.

وكذلك القتال لحفظ البلاد والأموال والممتلكات: فإن العقول والأعراف متوافقة على وجوب حمايتها والذود عنها.

ثم تأتي المقارنة بين الفريقين المتقاتلين: المحق منهم، والمبطل، فيقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ [النساء: ٧٦]. تلك المقارنة تلزم المؤمنين بالقتال في سبيل الله بكل قوة، وبأسرع مبادرة، لأنها مقارنة بين حق وباطل، وبين ظلم وعدالة. فإذا كان الكفار يقاتلون، ويقاتلون من؟ يقاتلونكم. وفي سبيل من؟ واستجابة لماذا؟ في سبيل الطاغوت، واستجابة لنداء الشيطان، فيبذلون أنفسهم وأموالهم هدراً وخسراناً، فلأنتم أيها المؤمنون الذين يقاتلون في سبيل الله، وقد جعل لكم العوض إحدى الحسنيين: إما النصر والظفر والعزة والغنيمة، وإما الشهادة وما أعد الله للمجاهدين من أعلى الدرجات. فَلأَنتم أولى وأحق بالمبادرة إلى القتال. وكما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤]. ومن الجانب العرفي نأخذه من مضمون ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ ومنطوق قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ﴾ لأن العرف القائم على قانون التعامل في الحياة هو قانون المعاوضة، لكل سلعة ثمنها، والثمن مقبوض ولا يؤخر إلا بتوثيق. وهنا السلعة غالية جداً، وهي النفس والمال. وكما قيل:

.... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

فالمؤمن يجود بالسلعة والثمن مؤجل إلى ما بعد الموت، فلولا ثقته بالله لما قدم سلعته، فكان تقديمه إياها أقوى دليل على صدق إيمانه كما قال ﷺ: **«والصدقة برهان»** أي: على تصديقه بوعد الله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

[البقرة: ٢٤٥]. وهكذا وضح لنا مدى قوة ارتباط الجهاد في سبيل الله بالإيمان بالله واليوم الآخر، ومدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

٤ ـ علاقة الجهاد بالمال والنفس بالإيمان (لا ريب فيه):

جاء تصحيح ادعاء الأعراب الإيمان بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ وتقدم بيان صحة الإيمان، ومنافاته للريب، وملازمة الريب لمرضى القلوب. فكان السياق مؤكداً دعوى الإيمان بأمرين: نفي الريب، والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، مما يؤكد ـ وبقوة ـ علاقة الجهاد بقوة الإيمان على ما سيأتي إن شاء الله.

والمتأمل نصوص الجهاد في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، يجد ارتباط الجهاد في سبيل الله بالإيمان بالله واليوم الآخر ارتباطاً قوياً، بدليل الشرع والعقل والعرف.

فمن جهة الأدلة الشرعية، وهي متعددة: منها ما هو نص صريح في افتراضه على المسلمين: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]. وفي هذا النص العظيم أوضح وأقوى الدلالة على وجوب تسليم الأمر لله، والرضاء بما يختار الله تعالى، لأنه يعلم ما هو الخير للعبد، لأنه سبحانه وحده العالم بعواقب الأمور ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين، أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام. وقال الزهري: الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد. فالقاعد عليه إذا استعين أن يعين، وإذا استغيث أن يغيث، وإذا استنفر أن ينفر. وإن لم يحتج إليه قعد. قلت: ـ والقائل ابن كثير ـ ولهذا ثبت في الصحيح: «**من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بالغزو، مات ميتة جاهلية**». وقال عليه السلام عام الفتح: «**لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا**».

ومعلوم عند الأئمة رحمهم الله أن من استنفره الإمام بشخصه، وعَيَّنه باسمه، كان الجهاد في حقه فرض عين، وإن كان في حق غيره تطوعاً. لأن اختياره بالذات قد يكون لخصوصية فيه: من شجاعة، أو خبرة بأرض المعركة، أو إلزاماً لغيره.

وبعد فرضية القتال بالصيغة المؤكدة ﴿كُتِبَ﴾ التي لم تأتِ إلا في مهام الأمور وعظائمها، كقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى﴾ [البقرة: ١٧٨]. ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ﴾ [البقرة: ١٨٠]. ومن العبادات ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣]. فبعد الإيجاب بهذه الصيغة، جاء بانتزاع غضاضته وثقله على النفس، فقال مقرراً الواقع: ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾. وهذا صحيح كما قال ابن كثير: فإنه إما أن يقتل، أو يجرح، مع مشقة السفر، ومجالدة العدو.

ثم أعلمهم أنه لا خيار لهم بين ما يكرهون من القتال، وما يحبون من القعود عنها، لأنهم لا يدركون عواقب الأمور ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ وأشدها القتال ﴿وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ لما فيه من النصر على الأعداء، والاستيلاء على بلادهم، وغنيمة أموالهم، وحماية بلادكم، والحفاظ على أعراضكم وذراريكم، والتمكين لدين الله. وفي المقابل ﴿وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا﴾ وأقربه هنا القعود عن القتال، لما فيه من الراحة، وعدم المعاناة، والابتعاد عن ميادين الكر والفر، والطعان والنزال، ولكن قد يكون شراً لكم لما يترتب عليه من إباحة حمى الإسلام والمسلمين، وسبي نسائهم وذراريهم، والاستيلاء على بلادكم، والتحكم في رقابكم، وإذلال الأعزاء فيكم، وتعطيل شرائع دينكم، وكل ما فيه هلاككم. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ حيث نزلت في الذين قالوا: قد جاهدنا كثيراً، وفتح الله على رسوله، قالوا: عدنا إلى أموالنا نصلحها. فنزلت على الصحيح في سبب النزول لقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٥].

وعليه: فقد فرض الله الجهاد على المسلمين وإن كان فيه كراهة عليهم، لأنه فيه الخير لهم. وقد قال الشاعر:

لا تكرهوا ما تكرهوا ... بعد عسى أن تكرهوا

ثم يأتي النص الآخر الذي يعتبر بمثابة المتابعة، كما يقال: خطط، ونفذ، وتابع. لأن الخطة بدون تنفيذ لا أثر لها، والتنفيذ بدون متابعة لا بقاء له، والمتابعة هي التي تضمن نتائج الخطة المرسومة. وذلك النص هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنفال: ٦٥] وهذه المعادلة الشديدة وضعت المجاهدين من المسلمين أمام عشرة أضعافهم، أي الواحدة لعشرة من الكافرين، فيها أوضح وأقوى دليل على ثبات المسلمين، وقوة عزيمتهم، ومبادرتهم للامتثال والتنفيذ. وبعد أن استقر ذلك، يأتي التخفيف فيقول تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ﴾ فقط أي بعد الامتثال، وبعد الصبر والمصابرة ﴿خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال: ٦٦]. ونلحظ في هذه المرحلة الثانية أن التخفيف جاء بعد تكاثر عدد المسلمين، لأنهم في الأولى عشرون ومئة، بينما في الثانية مئة وألف، فلو كان للتخفيف فقط ـ وهم لا يزالون على عددهم الأول ـ لكان العشرون لأربعين، والمئة لمئتين. ولكن وجدنا الحد الأعلى في الأولى هو الحد الأدنى في الثانية، فعلمنا أنه مع كثرة العدد خفف عنهم، ووزعت المسؤولية بحسب ذلك العدد. علماً بأن القضية العددية ليست أساساً. كما في قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [النساء: ٨٤]. فكان عليه ﷺ أمر واجب ﴿فَقَٰتِلْ﴾ ولا يتحمل مسؤولية غيره: ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾. وكان على المؤمنين تحريضاً. وقد جاء عن الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة أنه قال لعمر: والله لأقاتلنهم ولو كنت وحدي.

ثم جاء النصوص التي تُعَيِّنُ وتُعَلِّلُ: تعين الذين يجب قتالهم، وتبين العلة المستوجبة لذلك. من ذلك قوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ لأن وجودهم عائق عن انتشار الإسلام، وحاجز لمن يتابعهم عن إسلامهم. وقوله في أوائل سورة (براءة): ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ ...﴾ إلى

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [التوبة: ٥ ـ ١٥]. وإن من عجيب الصدف أن يكون وقت كتابة هذه السطور متزامناً مع اعتداء الجيش العراقي على جارته الكويت، وأن الرئيس العراقي كان قبل الاعتداء بأيام بل بساعات يعطي العهود والمواثيق للملوك والرؤساء أنه لن يعتدي، فإذا به ينكث العهد، وينقض ويهدم المواثيق، ولا أيمان له. فيجبر الأمة على إرسال القوات تحسباً لحشوده. وهنا وعد من الله في قتاله وأمثاله ليخزيهم وينصر الأمة عليهم، ويشفي صدور قوم مؤمنين، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.

٥ ـ أولاً: مثالية الجهاد في سبيل الله:

تقدم بيان كون الجهاد في سبيل الله من لوازم الإيمان بالله، ورسوله، واليوم الآخر من مدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. والحديث عن الجهاد مجاله واسع، وأبوابه متعددة، سواء عن فضله، وأحكامه، والإعداد له، وغير ذلك. وقد أوعبها موسوعات من تفسير وحديث وفقه، بل وأفردت بمؤلفات خاصة، ولكن الجديد الذي نستعين الله في تقديمه في هذا الكتاب هو هداية كتاب الله إلى المثالية العالية في الجهاد في سبيل الله، مما لم أقف لها على مثيل في التاريخ، ولم أقف لها على بحث أو عرض خاص، وهي من الأهمية بمكان، ولا سيما في هذا العصر، وأن البعض قد أساء الفهم لمضمون الجهاد في سبيل الله، نتيجة لتلك الدراسات والثقافة الحديثة.

وقبل كل شيء نذكّر الجميع أن الإسلام دين المثاليات العالية، والإحسان المطلق، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقال ﷺ:

«**إن الله كتب الإحسان على كل شيء**». وإذا كان الجهاد ذروة سنام الإسلام، فإن مثالية الجهاد هي ذروة سنام المثل العليا. يدرك ذلك كل من أمعن النظر في نصوص الجهاد، وتوجيهات تلك النصوص، وتابع بدقة عمل سلف الأمة، ابتداء من غزوات الرسول ﷺ، وفتوحات الخلفاء الراشدين رضوان الله تعالى عليهم، ثم مسيرة الإسلام في بلاد الله شرقاً وغرباً. ولإيضاح ذلك، وجمع أطراف الموضوع، نقدم مجمل مقومات الجهاد، ثم نتبين المثالية في جميع تلك المقومات، لنتمكن من تصورها واستيعابها.

ومقومات الجهاد هي على سبيل الإجمال كالآتي:

أولاً: المشروعية من الكتاب والسنة.

ثانياً: الغاية التي شرع الجهاد من أجلها.

ثالثاً: المنهج التشريعي الذي وضع للجهاد.

رابعاً: التطبيق العملي من القادة والأمراء.

خامساً: التنفيذ والأداء من الأفراد والجماعات.

وفي مجموع تلك المقومات الخمس، توجد مثاليات عالية، ولكل مثالية منها آثارها العظيمة على خصوص المجاهدين، وعموم المسلمين. وهو ما نستعين الله تعالى في إيراد ما يتيسر بعون الله **تعالى**:

أولاً: المثالية في التشريع، وأعلى مثاليات الجهاد في التشريع: ربط الجهاد في سبيل الله بعقيدة المجاهدين بإيمانهم بالله وبرسوله وباليوم الآخر، مما يجعل المجاهد يتعامل مع الله: طاعةً لله ولرسوله، ورغبةً فيما عند الله يوم يلقاه. وما يؤمله في تلك الحياة الدائمة، والنعيم المقيم. وهذا الربط نأخذه من قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [الحجرات: ١٤]. ثم جاء الربط بين الإيمان بالله ورسوله، وبين الجهاد بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥]. أي: في دعوى الإيمان المذكور. وبمقتضى هذا الإيمان العميق، جاءت مشروعية القتال لهؤلاء المؤمنين: بالكتابة والالتزام، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ

﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ [البقرة: ٢١٦]. وانطلاقاً من هذا الالتزام بالكتابة المؤكدة للمشروعية، جاءت التجارة الرابحة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾. ثم بين سبحانه أن الجهاد المذكور إنما هو من أنصار الله فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤].

وهكذا المجاهدون في سبيل الله، فهم الحواريون أنصار الله، أنصار دينه وأنصار المؤمنين به، وهذا الربط لا نظير له في أي مبدأ قتالي: من حمية، أو عصبية، أو مادية... إلخ. لأن تلك المبادئ يمكن الاستعاضة عنها بنظيرها، ويمكن أن يقاتل عنها من لا يهمه أمرها، كالفِرَق المستأجرة، وما يقال لهم: (المرتزقة)، وهؤلاء ينظرون إلى مدى الكسب المادي، وبالتالي يضنون بأرواحهم عن تلك المبادئ.

أما المؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر فإنه قد عقد صفقة مع الله، صفقة عالية على سلعة غالية كما قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة: ١١١]. ونلحظ في هذا العرض أن الله اشترى، أي والمؤمنون باعوا أنفسهم وأموالهم. ونجد في سياق آخر مبادرة المؤمنين من جانبهم بالشراء، ونفس الصفقة الغالية، قال تعالى: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ﴾ [النساء: ٧٤]. ويشرون بمعنى يبيعون. كما قال تعالى عن ملتقطي يوسف عليه السلام: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]. أي: باعوه.

قال ابن جرير: باعوا حياتهم الدنيا بما أعد الله لهم من الثواب وحسن

الجزاء في الدار الآخرة، ومن كرمه سبحانه أن يمضي هذه الصفقة لمجرد القتال، سواء انتصروا وقَتَلوا العدو وغنموا، أو قُتِلوا وفارقوا الدنيا. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٧٤]. ومن هذا يتبين لنا قوة ارتباط الجهاد في سبيل الله بقوة الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، ومدى التلازم بين ذلك. وبهذا كان تجارة رابحة، لأنه تعامل مع الله، مضمون بعهد الله موثق في كتب الله: التوراة والإنجيل والقرآن. وكان من آثار ذلك أن بادر المؤمنون إلى ميادين القتال، يتمنون الشهادة في سبيل الله، وظهرت آثار ذلك عملياً في تلك البطولات الرائعة، التي حفظها سجل المجاهدين الصادقين:

فهذا عمير بن الحمام في غزوة بدر، يسمع النبي ﷺ يحث المسلمين ويقول: **«والله لا يقاتلهم اليوم رجل مقبل غير مدبر صابر محتسب فيُقتل إلا دخل الجنة»**. وكان بيده تمرات فقال: بخ بخ ليس بيني وبين الجنة إلا أن أقاتل هؤلاء فيقتلونني. وألقى التمرات من يده وقال: لئن عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة. وانطلق يقاتل حتى استشهد.

وهذا عوف بن الحارث في ذلك اليوم أيضاً يقول: يا رسول الله ما يضحك الرب اليوم من عبده؟ فيقول رسول الله ﷺ: **«غمسه يده في العدو حاسراً»**. فينزع درعاً كانت عليه فيقذفها، ثم يأخذ سيفه فيقاتل القوم حتى يقتل. فما كان ليفعل ذلك في نفوس المجاهدين إلا ارتباطهم بالله، وتعلقهم بما عند الله.

وبهذه المثالية العالية كان المسلمون جميعاً مجندين في سبيل الله، كل في حدود وسعه وطاقته، إن كان في القادة أو في الساسة، لا ينتظرون إلا أن يستنفرهم الداعي، إلا من عَذَرَهم الله لعجز بدني أو مالي، على شدة أسف، وعميق حزن في نفوسهم، وبالغ نصح لله ولرسوله، قال تعالى: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢]. وكان من آثاره هذه المثالية في تشريع الجهاد في سبيل الله أنه لم تمض سوى ست سنوات فقط

من المشروعية إلا وقد انتشرت مظلة الإسلام على ربوع الجزيرة العربية كلها، وقضي على دولة الشرك، وقامت دولة الإيمان، وبلغت نداءات الإسلام ملوك العالم من حولها، وأصبحت هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس، وأكمل الله الدين، وأتم النعمة، وأخذ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ثم تتابع الزحف الإسلامي على أيدي الخلفاء الراشدين، حتى بلغ الإسلام أقصى المشرق والمغرب، وأظل ثلاثة أرباع المعمورة، وكانت له السيادة العالية.

٦ ـ ثانياً: المثالية في الغاية من مشروعية الجهاد:

ترتبط الغاية بأصل المشروعية، وأصل مشروعية الجهاد مرتبطة بالعقيدة: من الإيمان بالله، ورسوله، واليوم الآخر.

وعليه: فمثالية الغاية من الجهاد هي تثبيت هذه العقيدة، والتمكين لها، وحماية أهلها، وتخليص الناس من الاستعباد لغير الله، وما يستلزم ذلك.
ويمكن حصرها في الآتي:

أولاً: وفي الدرجة الأولى لإعلاء كلمة الله، ويكون الدين كله لله. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩١ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٢ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٠ ـ ١٩٣]. وقال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٨ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [الأنفال: ٣٨ ـ ٣٩]. فبدأ بدعوتهم أن ينتهوا عن كفرهم، ووعدهم أن يغفر لهم ما قد سلف، فلم يكن قتال الكفار غاية في ذاته. ثم يأتي الأمر بقتالهم للغاية الأساسية: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾. أي: إذا لم ينتهوا عن كفرهم. والدين المعني هو الإسلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾ [آل عمران: ٨٥]. فهو الدين

الحق، وما سواه باطل، كما قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ . . .﴾ [التوبة: ٢٩]. وعليه قوله ﷺ: «**أُمِرْتُ أن أقاتلَ الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم...**» الحديث. فأمر ﷺ بقتال الناس عموماً لتلك الغاية النبيلة.

ولما سئل ﷺ: الرجل يقاتل حمية، يقاتل شجاعة، يقاتل ليرى مكانه؟ فيقول ﷺ ـ وبأسلوب الحصر ـ «**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**». فينفي ﷺ علاقة الجهاد في سبيل الله عن كل حظ نفسي، أو غرض شخصي، ويحصره في إعلاء كلمة الله.

وقد كان ذلك هو المستقر في معتقد المجاهدين في سبيل الله، كما جاء عن الرجلين اللذين انتدبهما رسول الله ﷺ لحراسة فم الشعب، حيث عَرَّسَ في بعض غزواته، فاقتسما الليل بينهما، فنام أحدهما وقام الآخر يحرس في نوبته، وأخذ يصلي ويقرأ، فجاء العدو فصوب سهمه على صوت القارئ فأصابه. ولكن القارئ نزع السهم واستمر في قراءته، فظن العدو أنه لم يصبه، فرمى بالثاني والثالث وكلها تصيبه، حتى تقاطر الدم على وجه صاحبه فانتبه، فأخبره بما فعل العدو فقال: هلا نبهتني أول ما رمى. قال: كنت أقرأ سورة كرهت أن أقطعها، ولولا ثغر أمرنا رسول الله بحفظه، وخشيت أن أضيعه، ما قطعتها. ويهمنا من روعة هذا الموقف اعتباره القتال لإعلاء كلمة الله، وحراسة المسلمين في سبيل الله، لا ينفذ العدو إلى معسكر المسلمين.

وفي غزوة حنين نظيرها: لما عرس ﷺ وقال: «**من فارس يحرس الليلة على هذا الجانب**»؟ فقام أنس بن أبي مرشد، فقال له: «**فاركب**». فركب فرساً له وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه، ولا نؤخذ من قبلك الليلة**» فلما أصبحوا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين ثم قال: «**هل أحسستم فارسكم؟**»... ثم بشرهم بمجيئه، وقال له ﷺ: «**هل نزلت الليلة؟**» قال: لا. إلا مصلياً أو قاضي حاجة. فقال له ﷺ: «**قد أوجبت، فلا عليك ألا تعمل بعدها**» رواه النسائي، وساقه ابن كثير.

وفي غزوة أحد لما غفلوا عن المثل الأعلى للجهاد، وتأولوا تشديد النبي ﷺ ألا يبرحوا أماكنهم، وظنوا أن الغاية قد تحققت، والمعركة قد انتهت، وسقط لواء المشركين. فتركوا مواقعهم، ودفعوا الثمن غالياً.

ومن لوازم هذه المثالية في الغاية من الجهاد في سبيل الله النهي عن الاعتداء، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾. والاعتداء هنا كما فسره علماء التفسير في نوعية القتل: من المثلة ونحوها، أو قتل غير المقاتلة من النساء والأطفال والشيوخ الكبار، بل وأهل الصوامع من الرهبان ونحوهم. وكذلك عدم الاعتداء بتخريب العمار: من تحريق الشجر، أو تغريق الزروع، أو هدم المساكن. اللهم إلا لضرورة كما جاء في وصية الصديق رضي الله عنه في مثالية المنهج التطبيقي: لا تقتلوا امرأةً ولا صبياً ولا شيخاً هرماً، ولا تقطعن شجراً مثمراً، ولا تخربن عامراً... إلخ. أي لأن ذلك كله ليس من مقاصد الجهاد في سبيل الله. وأن المقصد الأول هو إعلاء كلمة الله. فإن حصلت بدون ذلك فقد تحققت الغاية المنشودة.

ثانياً: ومن الغايات المثالية أيضاً: إنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من الأعداء الذين تسلطوا عليهم، ليفتنوهم عن دينهم. قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: ٧٥]. قال ابن جرير يعني بذلك جل ثناؤه: وما لكم أيها المؤمنون لا تقاتلون في سبيل الله. وفي المستضعفين يقول: عن المستضعفين منكم. وذكر من كانوا مسلمين بمكة مستضعفين. فحض الله المؤمنين على استنقاذهم، إلى قوله: فقل لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم الذين استضعفهم الكفار، ليفتنوهم عن دينهم. وساق ذلك عن مجاهد والسدي وابن عباس وابن شهاب. وعن ابن زيد قال: وما لكم لا تفعلون؟ تقاتلون لهؤلاء الضعفاء الذين يدعون الله، بأن يخرجهم من هذه القرية الظالم أهلها، وليس لهم قوة... إلخ.

ومن ذلك: استنجاد خزاعة من بني بكر برسول الله ﷺ. إذ كانت خزاعة

في حلف المسلمين، وبنو بكر في حلف قريش حين كتبت صحيفة الهدنة في الحديبية، وكان بينهما ثأر قديم، فعدت بنو بكر على خزاعة، فجاء بنو كعب من خزاعة وأنشدوا لرسول الله:

اللهم إني ناشِدٌ محمدا　　　حِلْفَ أبينا وأبيهِ الأتلَدا

إلى قوله:

فانصر هداك اللّه نصراً أعتدا　　　وادع عباد اللّه يأتوا مددا

إن قريشاً أخلفوك الموعدا

إلى قوله:

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا　　　وقتلونا رُكَّعاً وسجَّدا

فقال ﷺ: **«نصرت يا عمرو»**. وكان فتح مكة بسببها، وهكذا يجب نصرة كل مسلم مستضعف من عدوه.

ثالثاً: رد المعتدين وقتال الباغين. قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الحجرات: ٩].

رابعاً: حفظ الممتلكات وحماية المنشآت. قال تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ﴾ [النساء: ١٠٢]. قال ابن جرير: أسلحتكم التي تقاتلونهم بها، وأمتعتكم التي بها بلاغكم في أسفاركم. أي: من ظَهْرٍ وخيامٍ وطعامٍ وشرابٍ وعموم المعسكر. وهي في الوقت الحاضر تساوي: المستودعات والمصانع والطرق والمطارات والموانئ وجميع المنشآت ـ عسكرية أو مدنية ـ مما يجب الحفاظ عليه والدفاع عنه.

٧ ـ شُبَهٌ معترضة وإبطالها:

بعد بيان الغاية من مشروعية الجهاد، ومثالياتها، وآثارها. نجد لزاماً علينا إيراد الشُّبَهِ المعترضة، وبيان بطلانها، لأنها محدثة لم تكن لدى سلف الأمة، بل ولا خلفها، وإنما نفث سمومها أعداء الإسلام في أفهام بعض المعاصرين الذين عاصروا الاستعمار، وكانت من مقدمات الغزو الفكري لأبناء المسلمين، روج لها أصحاب مدارس التقريب بين الشرق والغرب، ودعاة التحرر

الفكري، ومن أشخاص تسلموا مناصب قيادية، بمساندة سلطات الاستعمار. وهي لا شك مفاهيم خاطئة، وأسلحة فتاكة، تعتبر بمثابة تعاطي المخدرات، تخدر عقول الغزاة والمجاهدين، وتحد من انطلاقاتهم براية الإسلام لغير المسلمين، تلك المفاهيم هي:

أولاً: قولهم: إن الجهاد شُرع للدفاع عن النفس، وعليه: فإذا لم يقع اعتداء من أعداء الإسلام على المسلمين، فلا قتال ولا جهاد.

والمفهوم الثاني: قولهم: إن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف. وعليه: فالإسلام ليس صالحاً في ذاته ومناهجه للعالم، وإنما أكرهوا عليه إكراهاً. يريدون أمرين: **أحدهما**: إيقاف الزحف الإسلامي، **والثاني**: أن يترك الناس وما يريدون دون إكراه على دين الحق، تحت عنوان حرية الأديان. وكلاهما دسيسة على ناشئة المسلمين، وتزييف لحقائق الإسلام. فكان من لوازم هذا الكتاب المبارك «آيات الهداية والاستقامة» أن نعمل على تفنيد هذه المفاهيم، وكشف تزييفها، وبيان الحقيقة واضحة جلية. أما شباب المسلمين: حتى لا يخدعهم ما يقرؤون عمن يجلونهم من قادة عصرهم، بل وإبراءً للذمة في الدفاع عن حقيقة هذا الدين الحنيف، وأداء لواجب البيان الذي ألزم الله به طالب العلم. ونجمل ذلك بقدر ما يسعه الوقت كالآتي:

أولاً: خطأ المفهوم الأول. وهو قولهم: إن الجهاد شرع دفاعاً عن النفس. وبطلانه من عدة جهات:

أ ـ يعلم الجميع أن الدفاع عن النفس أمر جبلِّي عند كل كائن حي، تمليه غريزة حب البقاء، وكم شوهدت صور عديدة، لا من بني الإنسان، بل حتى من الحيوان والطيور والزواحف، بل إن كريات الدم البيضاء مهمتها دفاعية لكل غريب في الجسم.

ب ـ ومن هذا المبدأ فإن القتال دفاعاً عن النفس كان موجوداً قبل الإسلام، وعند العرب والعجم. فلم يأتوا بجديد.

جـ ـ واقع التاريخ الإسلامي في وقائع الجهاد. فهذه السرايا يرسلها ﷺ إلى سيف البحر ـ كسرية حمزة، وأبي عبيدة رضي الله عنهما ـ ثم غزوة بدر للتعرض لعير قريش، فأي اعتداء كان من تلك العير؟ بل إن قائدها قد احتال لها

وجنبها ملاقاة المسلمين، خوفاً عليها. وفَتْحُ خيبر كان اليهود فيها يتمنون السلامة، بعد أن أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة إلى خيبر. وتلك غزوة تبوك على موعد مع الروم، يسير إليها رسول الله ﷺ في جيش العسرة إلى تخوم الشام، إلى حدود بلادهم، وهم لم يبعثوا جيشاً، ولا سرية لقتال المسلمين في بلاد الإسلام. وهذه فتوح الشام والعراق ومصر وإفريقيا. فأي اعتداء كان من تلك الأقطار على المسلمين في جزيرة العرب حتى تكون تلك الفتوحات دفاعاً عن النفس؟

ومن جانب النصوص التشريعية، ومنها ما تقدم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾ [النساء: ١٠٤]. فالإيلام قدر مشترك بين المسلمين وأعدائهم، والنص يشير إلى أن ذلك في ابتغاء القوم، لا في ردهم ودفع اعتدائهم. بل إن المسلمين هم الذين يطلبون القوم ويقاتلونهم، فيحثهم الله تعالى على قتالهم أولئك القوم دون هوان وتساهل.

ثم يواسيهم فيما يلحقهم فيقول: ﴿إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ﴾ أي: من قتالهم، فهم أيضاً ﴿يَأْلَمُونَ﴾ من قتالكم، كإيلامكم من قتالهم. ولكن الغاية مختلفة، فأنتم ترجون من الله بقتالكم القوم ما لا يرجوه القوم بقتالهم إياكم. وهذا كقوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ أي: في قتال العدو ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾ [آل عمران: ١٤٠] أي: في قتالهم إياكم. ومما لا شك فيه أن العدو إنما يقاتل دفاعاً عن النفس، لصد المسلمين عنه وعن دياره. وآثار القتال بين الطرفين قدر مشترك: من إيلام، ومس القرح. وغاية الأعداء كف المسلمين عن قتالهم، أما غاية المسلمين فهي من وراء ذلك، وهي ما يرجون من الله ما لا يرجوه العدو، وهو رجاؤهم المثوبة وحسن الجزاء مع إعلاء كلمة الله: ﴿هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]. ثم لو كان الجهاد دفاعاً عن النفس لما تعدى الإسلام جزيرة العرب، وقد دخل أهلها في دين الله أفواجاً، ولا غزا المسلمون ما وراء الجزيرة براً وبحراً، ولأصبح الإسلام إقليمياً قومياً، ينحصر في إقليم الجزيرة، ويقتصر على قومية العرب. ولكن

الإسلام عالمي للناس كافة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]. وفي الحديث: «**وكان النبي يبعث في قومه خاصة وبعثت للناس كافة**». وكيف كان يظهر الإسلام على الدين كله إذا كان الجهاد في الإسلام دفاعاً عن النفس؟ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣]. ولن يكون ذلك إلا بالقتال ابتداء، وفي عقر دارهم، ولإعلاء كلمة الله.

ثم نقول لأصحاب هذه المقالة الباطلة: ما تقولون في تشريع الجزية عن يد وهم صاغرون؟ كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]. وتأمل معي - رحمني الله وإياك - صيغة الأمر ﴿قَٰتِلُواْ﴾ التي توجب المأمورية، وهو القتال. ثم بيان المفعول به وهم الذين لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يدينون دين الحق. فإن في صلة الموصول العلة التي استوجبت قتالهم، ولم تكن هي علة الدفاع عن النفس، ثم عيّنهم: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ فإنهم وإن كانوا أهل كتاب إلا أنهم لا يدينون دين الحق، لما طرأ على دينهم من التغيير والتبديل، ولمجيء الإسلام مهيمناً عليه، وهو دين الحق. ثم يجعل لقتالهم غاية إما الإيمان بالله ورسوله ويدينون دين الحق - وهو الإسلام - وإما أن يعطوا الجزية سنوياً. وفي تلك الحالة: ﴿عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾. أي: أن كل واحد يؤديها بيده، ولا ينيب أحداً عنه، ليلحقه الصغار والذلة في دفعها إلى المسلمين. فأي اعتداء من هؤلاء، وأي دفع لعدوان منهم؟

ولا شك أن تشريع الجزية ليس تكثراً بأموالهم، فإن المسلم يدفع في الزكاة سنوياً أضعاف ما يدفعه الذمي في الجزية، ولكن فرضية الجزية عليهم لتدفعهم إلى الإسلام خروجاً من ضعة الصغار، وطوق الذلة والمهانة، ولهذا لما فرض عمر رضي الله عنه الجزية على نصارى بني تغلب وهم عرب أنفوا من ذلك، وقالوا: خذ منا مثل ما تأخذ من المسلمين. فأبى عليهم، فطلبوا الخروج إلى الشام، أي قبل دخول الإسلام هناك. فاستشار عمر أصحابه، فأشاروا عليه أن أضعف عليهم الزكاة وأبقهم عندك، لا يذهبون إلى العدو يَتَكَثَّرُ بهم عليك، وتستعين بأموالهم. وهكذا فإن كل من له نفس أبية لن يستمر على صغار الجزية، ومن

يستمر عليها من صغار النفوس فلا خير فيهم. ولعل هذا أكبر دليل عملي على إبطال ادعاء مشروعية الجهاد للدفاع عن النفس من اعتداء الأعداء. واقرأ معي قـــــول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ فقطع الموالاة بين المؤمنين وأهليهم إن استحبوا الكفر على الإيمان. ثم وسع الدائرة هذه فقال بعدها مباشرة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٣ ـ ٢٤]. فقد عادل في هذا السياق بين أعز وأغلى مرافق الحياة: من الأهل والمال والولد، وبين الجهاد في سبيل الله المقرون بالإيمان الله ورسوله. فأي دفاع عن النفس هنا؟

٨ ـ إبطال شُبهة القول: بأن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف:

وهذه الفرية تناقض كون الإسلام دين الفطرة والحنيفية السمحة، وهي دعوى باطلة من عدة جهات نظرية، لا تكلف فيها ولا جدال.

١ ـ واقع حال السابقين إلى الإسلام: أبو بكر وعثمان ومن استجاب في أول الدعوة.

٢ ـ واقع المستضعفين الذين يعكسون على هؤلاء فريتهم، إذ كانوا يقابلون صنوف التعذيب من صناديد المشركين، ولا يرجعون عن دينهم، كبلال وعمار وآل ياسر: فهذا بلال يستلقي على الرمال في الظهيرة، وتلقى عليه الصخرة الحارة، ولا يفتر عن قوله: أحد أحد. وهؤلاء آل ياسر: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**». فأي سيف أرغمهم على الإسلام وهم يقاومون سيوف الأعداء ثباتاً على الإسلام؟ وكما قال هرقل لأبي سفيان: أيرجع أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه؟ فيقول: لا. فيقول هرقل: هكذا الدين الحق، إذا خالطت بشاشته القلوب.

٣ ـ وهذا عمر بن الخطاب يتوشح سيفه ويخرج في طلب محمد ليقتله، حيث سفّه عقولهم، وعاب آلهتهم، وفرق كلمة قريش. فيلقاه نعيم بن عبد الله،

فيسأله فيخبره فيقول له: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي؟ فقال: أختك فاطمة وزوجها ابن عمك سعيد فقد والله أسلما، فعليك بهما. فرجع إليهما، فوجد خباباً عندهما يقرئهما القرآن، فلما أحسَّا به اختفى خباب، وسأل عمر أخته ما هذه الهمهمة التي سمعتها؟ فقالت له: لم تسمع شيئاً، وأخفت الصحيفة عنه، فأساء إليها وضربها وقال: بلغني أنكما اتبعتما محمداً على دينه. وهناك جاهرت أخته: نعم أسلمنا، فافعل ما بدا لك. فتراجع في نفسه وقال: ناوليني الصحيفة أنظر ما فيها. فقالت له ـ وبكل قوة ـ: إني لا آمنك عليها وأنت على الشرك نجس، وهذا لا يمسه إلا المطهرون. فيذهب ويغتسل، وينظر في الصحيفة ويقرأ أول سورة (طه) فما إن قرأ إلا وقال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه! فخرج خباب من مخبئه وقال: يا عمر والله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اللهم أعز الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب»**، الله الله يا عمر. وحالاً يقول عمر: دلني على محمد يا خباب حتى آتيه فأسلم. فدله عليه في دار الأرقم عند الصفا. فأتاه فأسلم.. إلى آخر خبر إسلامه ومجاهرتهم بالدعوة بسببه.

فهذه فاطمة أخت عمر وزوجها سعيد، يسلمان خفية عن عمر، وهذا عمر يتوشح سيفه ليقتل محمداً، وما وضع سيفه حتى أسلم، وأشهر سيفه في وجه أعداء الإسلام، وجاهر بإسلامه.

٤ ـ وهذا العاص بن الربيع ـ صهر النبي ﷺ على زينب رضي الله عنها ـ أُخِذَ أسيراً في بدر، ونادته زينب رضي الله عنها، ورجع إلى مكة ثم أخذ بتجارة معه لقريش عائداً من الشام، فتخلص حتى دخل على زينب فأجارته، وردَّتْ إليه تجارتَه، ولما وصل بها إلى مكة قال: هل أخذ كل واحد حقه؟ قالوا: نعم، إنك وفي، أين؟ قال: إني أسلمت، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. فقيل له: ولم أخرت ذلك، وكنت في أيدي المسلمين بالمدينة، وتجارتك بأيديهم؟ قال: خشيت أن يلحقكم الخوف على أموالكم.

٥ ـ وهذا ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، أخذته خيل المسلمين وهو في

طريقه إلى مكة، وربط بسارية المسجد ثلاثة أيام، وكان إذا مر عليه النبي ﷺ يسأله: «**كيف أنت يا ثمامة؟**» فيقول: إن ترد مالاً يا محمد، أعطيتك ما يرضيك، وإن تمنن تمنن على كريم، وإن تقتل تقتل ذا دم. ثم قال ﷺ: «**أطلقوا ثمامة**». فيذهب ثمامة، فيغتسل ويأتي فيجلس إلى النبي ﷺ ويعلن إسلامه. فيُقال له: ولِمَ أخرتَ ذلك وبقيت في الأسر؟ فيقول: خشيت أن تقولوا: أسلم خشية السيف. ثم ينطلق إلى مكة فيعلمون بإسلامه، فيؤذونه، فيقسم لا تصلهم ميرة بني حنيفة حتى يشتد بهم الحال، ويأتون إلى النبي ﷺ يستشفعون به على ثمامة، فيقول له ﷺ: «**مر بالميرةِ لأهل مكة، فإن لنا فيها الخالة والعمة وذوي الرحم**».

٦ ـ ومن أقوى النماذج العملية ما كان من مصعب بن عمير بالمدينة، حين بعثه ﷺ مع أصحاب بيعة العقبة يعلمهم الإسلام. فكان يذهب به سعد بن زرارة إلى الأوس والخزرج على مياههم، فدخل به يوماً حائطاً لبني ظفر، واجتمع إليهما من بني عبد الأشهل وغيرهم، فعلم بهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير ـ وهما سيدا قومهما ـ فقال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: انطلق إلى هذين الرجلين اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما، ولولا أن سعد بن زرارة ابن أختي لكفيتك أمرهما. فقام أسيد إلى حربته، فوقف عليهما متشتماً، فقال: ما جاء بكما؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أو غير ذلك. فقال: وما هو؟ قال: تجلس وتسمع، فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففناه عنك. فقال: أنصفت. وغرز حربته وجلس، فكلمه مصعب في الإسلام، وقرأ عليه من آيات الله، فعرفا في وجهه الإسلام قبل أن ينطق به في إشراقة وجهه وتهلله. فقال: ما أحسن هذا وأجمله! كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين؟ فأمراه بالغسل، وتشهد وصلى ركعتين. ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، فلما انصرف عنهما وأقبل على قومه. قالوا: والله يا سعد لقد رجع أسيد بوجه غير الوجه الذي ذهب به من عندنا، ثم نهض سعد بنفسه، فوقف على مصعب وصاحبه وتهددهما، فقال له مصعب كما قال لأسيد، فجلس وسمع فأسلم. وعاد إلى قومه، فوقف على ناديهم

وقال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً وأيمننا نقيبة. قال: فإن كلاكم - رجالكم ونساءكم - عليَّ حرام حتى تسلموا وتؤمنوا بالله ورسوله. فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً.

فأي سيف كان مع مصعب؟ وأي سيف شُهر على بني عبد الأشهل؟ وتلك نماذج فردية في مكة قبل الهجرة، وفي المدينة، وعلى مياه أهلها.

ثم هذا واقع العالم الإسلامي مدناً وأقطاراً. بدأ من المدينة المنورة دار الهجرة، فأي سيف مكن للإسلام فيها؟ إنها حلاوة الإيمان، وطلاوة القرآن، ولمدة سنة واحدة تزدهر أنجم الإسلام في سمائها، وتستقطب المهاجرين إليها، ولم يبق بيت من بيوتها إلا ولمع فيه ضوء الإسلام، بينما اليهود فيها مئات السنين: لم يزدهم إلا فرقة ونزاعاً.

وهذا صلح الحديبية سنة ست من الهجرة، خرج ﷺ معتمراً ومعه الهَدْيَ سبعون بَدَنَة، وصحبه قيل: سبعمائة، وقيل: ألف وأربعمائة رجل. ولما تم الصلح، ووقعت الهدنة، واختلط المسلمون بالقبائل، وخالط المشركون المسلمين، فكان لا يعرض مسلم الإسلام على مشرك ذي عقل ونَظَرٍ إلا أسلم، حتى إن المسلمين في مدة سنتين فقط - بين سنة ست وسنة ثمان من الهجرة - إلا وقد صار عدد المسلمين نحو عشرة أضعاف ما كانوا عليه من قبل، إذ كان عدد من خرج مع النبي ﷺ لفتح مكة عشرة آلاف مقاتل، بينما كان عددهم قبل سنتين ما بين سبعمائة وألف وأربعمائة، أي في هاتين السنتين دخل في الإسلام عشرة أضعاف من أسلم في تسعة عشر عاماً كاملاً. فأي سيف كان وقت الهدنة لمضاعفة هذه الأعداد الهائلة؟

ثم إن هناك أقطاراً بكاملها دخلها الإسلام ولم يشهر فيها سيف واحد لقتال، فهذه اليمن في جنوب الجزيرة، وتلك أندونيسيا في شرق آسيا، لم يَسِرْ إليها جيوش تقاتلها على الإسلام، وإنما سار إليها تجار مسلمون، كانوا دعاة إلى الإسلام: بإسلامهم، وحسن معاملتهم، وصدق حديثهم وأمانتهم.

وفي نهاية هذا الكلام نذكرهم بقول الأصوليين: إن العلة تدور مع معلولها وجوداً وعدماً. فإذا كان الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف، وقد أغمد سيف

المجاهدين من أمد بعيد، فما الذي أبقى على الإسلام بدون سيف؟ بل إن الإسلام قد واجه ضغوطاً سياسية شديدةً، وضيق الخناق عليه أزماناً طويلةً، وما إن خف ذاك الضغط، أو أطلق ذاك الخناق، إلا وظهر الإسلام بجدته وحيويته.

ومن كريم الموافقات الزمنية: أن تعلن اليوم عند كتابة هذه السطور روسيا الشيوعية عن قانون حرية الأديان، ونحن نعلم مدى معاناة الإسلام والمسلمين منذ نصف قرن تحت الشيوعية والماركسية، ومع ذلك لم ينطفئ نور الإسلام من تلك البلاد، ولم يزل يقاوم حتى وجد طريق الحرية اليوم. وهكذا تاريخ الأديان وسيطرتها على القلوب. وتلك الأخدود بنجران لم تزل آثارها حيث أججوا نيرانها لمن لم يرجع عن دينه، فكان نور الإيمان، وبرد اليقين، يزوي ويطفئ تلك النيران. وجاء في الحديث: «**إنه كان الرجل ينشر بالمنشار شقين ليرجع عن دينه، فلا يرجع**». وصدق الله العظيم: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم: ٣٠]. وعليه «**كل مولود يولد على الفطرة**».

٩ ـ ثالثاً: المثالية في المنهج الذي وضع للجهاد في سبيل الله:

يعتبر المنهج العلمي للجهاد في سبيل الله أمثل المناهج، حيث شُرع وسيلةً لا غاية، فلم يكن يوماً من الأيام انتقاماً، ولا تشفياً، بل كانت الجيوش الإسلامية تتقدم للعدو، أولاً بدعوته إلى الإسلام، فإن أجاب كفوا عنه، وإن تمسك بدينه فرض عليه الجزية، فإن أبى وأصر على كفره استعانوا بالله وقاتلوه. وحادثة (سمرقند) مشهورة في مداهمة الجيش إياهم دون إنذار ولا سابق دعوة، فبعثوا وفداً للخليفة، فأشخص الخليفة إليهم قاضياً ينظر في تظلمهم، وثبتت للقاضي ما ادعوا به، فحكم القاضي بخروج الجيش عنهم، ورجوعه إلى معسكره خارج حدود بلدهم. ثم هو يتقدم إليهم بالدعوة إلى الإسلام، وتهيأ الجيش للرحيل والخروج عنهم تنفيذاً لحكم القاضي الذي نصّبه الخليفة، وكانت مفاجأة لأهالي البلاد أن وجدوا تلك العدالة وهذه

الطاعة، فقاموا وتمسكوا بالمسلمين يرجونهم البقاء، وأنهم رضوا بهم حكاماً، لما شاهدوا من عدالة وحسن سيرة، وأسلم منهم من أسلم.

بل لم يكن للمسلمين حق بالتمثيل لمن مثل بأحد منهم إن هم ظفروا من العدو بأحد، كما وقع لسيد الشهداء حمزة عم النبي ﷺ، وقال النبي ﷺ: **«لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين رجلاً منهم»**، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ . . .﴾ [آل عمران: ١٢٨]. ولما قتل وحشي قاتل عمه بين يديه ﷺ مسلماً، ما كان منه ﷺ إلا أن طلب منه أن يتنحى عن مجلسه.

وفي النص الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٩٠]. قال المفسرون: هي في النهي عن الصورة: لا تمثلوا ولا تقتلوا الضعفاء الذين لا يتأتى منهم قتال: كالمرأة والصبي والشيخ والعاجز من الرجال، وعدم الاعتداء على الممتلكات ونحو ذلك.

كما كان مثالياً في الإرفاق بالمسلمين أنفسهم في تحمل مسؤولية الجهاد، فلم يكلفهم جميعاً بأعيانهم، بل جعله على أساس الفرض الكفائي. كما قال تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]. فشمل هذا النص مصالح الأمة في الداخل وفي الخارج، بأن ينفر من كل فرقة طائفة، تتفقه في الدين لتعليم قومهم، وطائفة أخرى تنفر في سبيل الله. فجعل الله الأمة قسمين: قسم يجاهد بسلاحه، وقسم يجاهد بعلمه. ويكون استنفار تلك الطائفة حسب الحاجة كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انفِرُوا جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء: ٧١]. والثبات جمع ثبة، أي: فصائل وسرايا حسب نظر الإمام، أو جميعاً جيشاً موحداً. فإذا داهم العدو بلاد المسلمين، كان أهل كل بلد يقاتلون جميعاً. أو ندبهم النبي ﷺ أو الإمام فلا يتخلفن أحد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ

كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٣٨ ـ ٤٠]. أي: قد نصره وأعزه وأعلى كلمته بعزته سبحانه وحكمته.

ثم أمرهم عموماً: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة: ٤١]. ثم ما عدا ذلك، فهو تطوع ورغبة وتجارة رابحة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣]. وبيَّن سبحانه حالتهم في الآخرة فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًاۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْاْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٢]. هذا عطاء واسع بفضل من الله ونعمة، لمن استجاب لله وللرسول بالجهاد في سبيل الله.

من سعة فضله سبحانه أن جعل كل عمل المجاهد حتى يرجع إلى بيته معدوداً في حساب المجاهدين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١]. وجاء عن رسول الله ﷺ في شأن الخيل في سبيل الله أنه قال: **«من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله، وتصديقاً بوعده، فإن شبعه وريّه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة»**. يعني حسنات، رواه البخاري

والنسائي. فأي منهج قتالي يجعل للمقاتلة هذا الفضل، ويجزيه هذا الجزاء، سواء في الدنيا أو الآخرة؟ إنه لا يوجد إلا في منهج الإسلام، لأنه منهج يعمل لإعلاء كلمة الله، وتحقيق الغاية السامية التي من أجلها شرع الجهاد في سبيل الله. وهذه مثالية عالية بحمد الله.

كما أن من مثالية هذا المنهج: أنه يعفي العاجزين عن القتال كما تقدم، ومن مثالية هذا المنهج أيضاً: أن يفسح المجال أمام المسلمين فيعتبر الجهاد بالكلمة، وبالفكرة، وبالمال، وبالإنتاج لكل ما يستعين به المجاهد في الميدان، وبالنفس وهو أعلاها وأعظمها. كما قيل:

نجودُ بالنفس إن ضَنَّ الجبان بها　　　والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

وسيأتي إن شاء الله بيان أنواع الجهاد هذه كلها، إن شاء الله.

١٠ ـ أنواع الجهاد بالكلمة وبالفكرة:

أ ـ الجهاد بالكلمة:

لقد أعظم الإسلام منزلة الكلمة لشدة خطورتها، وضرب لها في كتابه أروع المثل، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦].

وجعل ﷺ ملاك أمر المسلم في لسانه، كما في حديث معاذ رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار؟ قال: **«لقد سألتَ عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه: تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت»**. ثم قال له: **«ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل»**، ثم تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٦ ـ ١٧]. ثم قال: **«ألا أُخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟»** قلت: بلى يا رسول الله

قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**». **ثم قال**: «**ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟**» قلت: بلى يا رسول الله. فأخذ بلسانه ثم قال: «**كُفَّ عليك هذا**». قلت: يا نبي الله، وإنا لَمُؤَاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «**ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم** ـ أو قال: **على مناخرهم** ـ **إلا حصائد ألسنتهم؟**» رواه الترمذي وأحمد، وهو حديث صحيح.

فأي بيان لخطر الكلمة بعد هذا الحديث النبوي الشريف الذي جاء جواباً لطالب الجنة، وخائف من النار. وهو ـ حقاً ـ طلب عظيم. وقد أخبره ﷺ بأركان الإسلام الخمسة، ثم تدرج به إلى ذروة سنام الأمر وهو الجهاد، ثم بعد هذا كله يأتي إلى ملاك الأمر كله، الجامع لكل ما أخبره به، وهو حصاد هذا اللسان: من قول، ونتائج الكلمة.

وقد جاء في حديث آخر ربط مقالة الخبر بالإيمان بالله، كما تقدم ربط الجهاد بالإيمان، وهو قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت**».

وكان السلف يرون منطق اللسان عنوان الإنسان. قال يحيى بن أبي كثير: ما رأيت أحداً لسانه منه على بال إلا رأيت ذلك صالحاً في سائر عمله، ولا فسد منطق رجل قط إلا عرفت ذلك في سائر عمله. هكذا خطر الكلمة وأثرها، ولهذا ربما كلمة تقال، تعتبر نصراً وجهاداً في سبيل الله. وقد جعل الله إقامة الحجة على الكفار بالقرآن جهاداً كبيراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ﴾ يعني: القرآن ﴿لِيَذَّكَّرُواْ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان: ٥٠ ـ ٥٢].

وجاء قوله: «**أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر**». جعلها ﷺ أعظم الجهاد، بل الكلمة الصادقة جهاد أوسع ميداناً، حيث تكون في الحرب مع العدو، وفي السلم مع النفس «**لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليخالفن الله بين قلوبكم**».

وبالكلمة هذه الآمرة بالمعروف، الناهية عن المنكر، كانت هذه الأمة خير

أمة أخرجت للناس ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولقد كان للكلمة آثارها في سير الجهاد، ومن أشد الأسلحة على العدو، وما كان شعراء الدعوة كابن رواحة، وحسان إلا مجاهدين بالكلمة، ويكفي ما قاله ﷺ لحسان: **«اهجهم وروح القدس يؤيدك، والله لكلامك أشد وقعاً عليهم من السهام في غسق الظلام»**.

وفي المدينة المنورة يأتي وفد بني تميم، وينادون رسول الله ﷺ في الظهيرة من وراء الحجرات، ويقولون: جئنا نفاخرك. وكانت المفاخرة والمنافرة من عاداتهم في الجاهلية، وهي ما تسمى حرباً كلامية، أو الحرب الباردة، فقال لهم ﷺ: **«ما بالفخار بعثت، ولكن هاتوا ما عندكم»**. يعني جاراهم ولم يتراجع أمامهم. فقام شاعرهم وامتدح مفاخرهم، ثم قام خطيبهم وأشاد بفضائلهم. فانتدب النبي ﷺ حسان والمقداد، فأجابوهم بما أفحمهم. فقال سيدهم الأقرع بن حابس: والله إنه لمؤتَى: خطيبه أبلغ من خطيبنا، وشاعره أفصح من شاعرنا. فكان الشعر والخطابة في الكلمة انتصاراً لرسول الله ﷺ.

ونحن اليوم نجد الإعلام بكل وسائله تجنيداً للكلمة، سواء في تدعيم قضية اجتماعية، أو تفنيد فرية ادعائية، وفي الحروب تعمل على الحث والتحريض على الجهاد بكل الإمكانيات، وإنا لنستنهض الأقلام لتشغل كل حيز إعلامي للتوجيه، وتزييف الأباطيل، وإيضاح الحقائق بما يسمى تنوير الرأي العام، بل وترد الشبه عن الإسلام، وتكشف عن محاسن الدين، وحكمة التشريع إلى غير ذلك من مجالات الكلمة الهادفة. وما تلك المؤتمرات الإسلامية، والندوات الدينية، إلا سلاح فعال لنصر الحق، وإذكاء روح الجهاد عند المجاهدين. وقد كان السلف يخصصون الخطباء مع الجيوش، يشجعون ويرغبون، كأبي هريرة، وأبي أيوب، وأبي سفيان ﷺ، وسلفهم وقدوتهم الأمثل رسول الله ﷺ في جميع الغزوات.

وكذلك كانوا قبل الإسلام: كانت الكلمة الحيوية تسبق السيوف والسهام. وهذا هانئ بن قبيصة يوم ذي قار ـ بين العرب والعجم ـ يقول في قومه: يا بني بكر، المنية ولا الدنية، هالك معذور، خير من ناجٍ فرور. الطعن في ثغر

النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا بني بكر، قاتلوا فما للمنايا بد...

وقد جاء عن معاوية ﷺ أنه قال: لقد كدت أن أنسحب لولا أبيات لعمرو بن الأطنابة تذكرتها، إذ قال:

أَبَتْ لي هِمَّتِي وأَبى بلائي | وأَخْذِي الحمدَ بالثمنِ الربيحِ
وإقحامي على المكروه نفسي | وضَرْبِي هامةَ البطلِ المشيحِ
وقولي كلما جشأتْ وجاشتْ | مكانَكِ تُحْمَدِي أو تَسْتَرِيحِي
لأوقع عن مآثرَ صالحاتٍ | وأحمِي بعدُ عن عرضٍ صحيحِ

وسمع رجل عبد الله بن قيس يقول: قال رسول الله ﷺ: «**الجنة تحت ظلال السيوف**» فقال: يا أبا موسى، أنت سمعت رسول الله ﷺ يقوله؟ قال: بلى. فرجع إلى أصحابه فقال: أقرأ عليكم السلام، ثم كسر جفن سيفه، ثم مشى بسيفه إلى العدو فقاتل حتى قتل.

وفي طريق الهجرة حين لحق بهم سراقة، وقال ﷺ: «اللهم اكفناه بما شئت». فساخت قوائم فرسه في الأرض، ثم طلب الأمان، وكتبوا له الكتاب، وعرض عليهم المساعدة، قال له ﷺ: «عَمِّ عنا» فصار يقول لمن لقيه: كُفيتم هذا الوجه. وكانت الكلمة منه تصرف الطلب عن رسول الله ﷺ، وكان عامل نصر لدين الله ولرسوله ﷺ. أما الجهاد بالفكرة، فعلى ما سيأتي إن شاء الله.

١١ ـ ب ـ الجهاد بالفكر والتدبير:

إن من المؤكد عند العقلاء أن صفاء الفكر، ودقة التدبير في شأن القتال، هو المبدأ الأساسي من وضع الخطط، ورسم المخططات، وتكييف القتال: هجوم أو دفاع، التفاف أو كمين، أو غير ذلك. ولذا قيل:

الرأي قبل شجاعة الشجعان | هو أول وهي المحل الثاني

ولهذا نُهي عن قتل الشيوخ إلا إذا كانوا أهل فكر وتدبير للحرب، لأنهم يكونون أخطر من الفرسان وسط المعارك. ومن أمثلة العجم: أسد يقود ألف ثعلب، خير من ألف أسد يقودهم ثعلب لما يجمع الأسد بين الروية والشجاعة.

وقد كانت أول فكرة خدعت العدو، وأيدت النبي ﷺ هي ليلة الهجرة، من قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «**نم في فراشي الليلة، وتسجى ببردي، فلن يصلك أذى منهم**». وفعلاً كان الفتيان على باب الدار ينتظرون خروج رسول الله ﷺ، ولكنه خرج من بين أيديهم ولم يبصروه، فكانوا كلما نظروا من خلال الباب يرون النائم في الفراش ويظنونه رسول الله، والحال أنه علي رضي الله عنه، حتى طلع النهار، وعلموا أن رسول الله ﷺ قد خرج، وأن الذي يرقبونه طيلة الليلة هو علي.

إن مما لا شك فيه أن هذه الفكرة أجدى وأنفع في ذلك الوقت مما لو اجتمع جميع المسلمين في مكة ـ آنذاك ـ لحمايته ﷺ. وهكذا كانت تكون الفكرة السابقة المدبرة. أو الطارئة العارضة، يكون لها الأثر العظيم في نصرة الإسلام والمسلمين، وهذه نماذج منها على سبيل المثال:

١ ـ في أول الغزوات الكبرى، غزوة بدر، يوم الفرقان، يوم التقى الجمعان، وعلى غير موعد، وبدون تكافؤ وتعادل، حيث خرج المسلمون لعير أبي سفيان، وكانوا ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، بينما جاء النفير في حوالي الألف في كامل العدة والأهبة، وقد نزل النبي ﷺ بالمسلمين على أول ماء ببدر، فيتقدم المقداد رضي الله عنه بكل أدب المسلم، وطاعة المقاتل، ونصح المؤمن، فيقول: أمنزل أنزلكه الله يا رسول الله، فلا قول لأحد، أم هي الحرب والمكيدة؟ فيجيبه ﷺ: «**إنما هي الحرب والمكيدة**». فيقول: إذن فليس هذا بمنزل، والرأي عندي أن نتقدم حتى ننزل على آخر ماء، ونغور بقية الآبار، ونبني لنا حوضاً نملؤه ماء، فنكون على ماء، ولا ماء للعدو. قال ابن كثير: وكان جبريل مع رسول الله ﷺ، وهو يرتب الناس، فنزل ملك من السماء فقال: يا محمد الرأي ما قال الحباب... إلى آخره فيتحول رسول الله إلى آخر ماء جهة العدو، وينفذ الخطة، حتى إذا جاء العدو بالعدوة القصوى لم يجد ماء أمامه إلا حوض المسلمين، ولعل قائلاً يقول: كيف يخفى مثل هذا على رسول الله ﷺ ومعه جبريل، حتى يتقدم به أحد الأفراد؟ والجواب عندي: لعل الله سبحانه جعل ذلك لعموم المسلمين، ليتحملوا مسؤوليات قتالهم مع أعدائهم، ولا يسلبهم ملكة التفكير في خطط النجاح، وكذلك

جبريل ليست له سوابق قتال، كما يظهر من تعليم الله تعالى للملائكة كيفية المشاركة الفعلية ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]. وعلى كل: فقد كانت فكرة ناجحة، خدمت المسلمين، وساهمت في النصر على المشركين.

٢ ـ وفي غزوة أحد: إذ نظر النبي ﷺ إلى أرض المعركة وطبيعتها، فاختار مجيب الجبل لحماية ظهورهم، وأقام الرماة على الجبل المقابل يمنعون العدو من الالتفاف بهم من ورائهم، وشدد عليهم أن لا يبرحوا أماكنهم ولو رأوهم يتخطفهم الطير، وكانت خطة ناجحة، وفكرة عسكرية متقنة، وكتب الله لهم الغلبة، وسقط لواء المشركين ولم يجد من يحمله. حتى إذا أَخَلَّ الرماة بتلك الخطة. وأَخْلَوا أماكنهم، كانت الدائرة، فاستدار خالد ومن معه من الخيالة، وجاؤوا المسلمين من خلفهم، فاختلَّت مواقفهم، وتخلخلت صفوفهم، وكان ما كان. وقد أشار القرآن الكريم إلى إحكام تلك الخطة، وأشاد بها في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١]. وإننا لندرك من التذييل على هذا السياق بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ تأييده لرسوله على هذه الخطة، وإلا لما كان أقره عليها وهو يسمع ويرى، والله أعلم.

٣ ـ وفي غزوة الخندق: وقد تألب العرب جميعاً على المسلمين، فاجتمعت قريش وغطفان وتمالأت معهم يهود بالمدينة، على أن يستأصلوا أهل المدينة عن آخرهم. ولما استشار النبي ﷺ أصحابه، أشار عليهم سلمان ؓ بفكرة لم تكن العرب تعرفها، إذ أشار بحفر الخندق وقال: كنا إذا حوربنا خندقنا. فأخذ بها ﷺ، وقام بتنفيذها، فلما حضر المشركون وعاينوه، فوجئوا به وقالوا: إنها لمكيدة لم تكن العرب تعرفها. وحجز الأعداء عن المسلمين حتى أرسل الله على المشركين ريحاً أكفأت قدورهم، وقوضت خيامهم، وأرسل عليهم جنوداً لم يروها، وكفى الله المؤمنين القتال. وكان قد حدث أثناء المصافَّة، وفترة الحصار والانتظار، أن اليهود قد نقضوا العهد الذي عليهم لرسول الله ﷺ، فاشتد الأمر على المسلمين كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ

ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ۝٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ۝١١﴾ [الأحزاب: ٩ ـ ١١]. وفي هذا الظرف العصيب، جاء نعيم بن مسعود إلى النبي ﷺ وقال: لقد أسلمتُ يا رسول الله ولم يعلم بي أحد، فمرني بما تريد. فقال له: «**إنما أنت رجل واحد فثبط عنا**». فكانت خطته: أن أوقع بين المشركين واليهود، فأتى اليهود وقال: لقد نقضتم العهد مع محمد، وقريش ليسوا بأهل دار، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإلا ذهبوا عنكم وخلوا بينكم وبين محمد، ولا طاقة لكم به، فالرأي عندي: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن عندكم لا يذهبون عنكم. وذهب إلى قريش وقال لهم: لقد أسفت يهود على نقضهم العهد مع محمد، ولن تقاتل معكم، وسيطلبون منكم رهائن ثم يقدمونهم لمحمد يضرب أعناقهم، فإن طلبوا منكم رهائن فلا تعطوهم. ومن الغد أرسل أبو سفيان لليهود ويقول: لقد طال مقامنا هنا وغداً نناجز القوم. فأجابت اليهود: إن غداً السبت فلا نقاتل فيه، ونطلب رهائن عندنا لا تذهبون عنا. فتذكروا مقالة نعيم فرفضوا. وتذكر اليهود كذلك كلام نعيم، فخاف كل منهما صاحبه، ولم يبادروا بالقتال حتى أرسل الله الريح والجنود من عنده، وكفى الله المؤمنين القتال. لقد كانت هذه الفكرة في ميزان الجهاد والقتال أعظم من جيش يأتيهم مدداً.

وفي واقعة اليرموك: على قلة عدد المسلمين، كان خالد يسرح الرجال ليلاً، ويعودون ضحى أمام العدو حتى يظنهم مدداً جديداً. ومن المعلوم أن الجهاد عماده على الله، ثم على حسن التدبير قَلَّ العددُ أو كثر.

١٢ ـ رعاية هذا المنهج شؤون المجاهدين وأسرهم:

من أسس إعداد الجيوش توفير المؤن للمجاهدين ورعاية أسرهم، وقد أوجب الله سهماً من ثمانية أسهم من زكاة الأموال للصرف في سبيل الله. ثم إن من أشد ما يواجه الدول اليوم هو ما تخلّفه الحروب من آثار تدمير المنشآت، واستنفاذ الاقتصاديات، ورعاية أسر الضحايا نساءً وأطفالاً.

وقد جاء عن معاوية رضي الله عنه ـ فيما وقع بينه وبين سبط رسول الله ﷺ

الحسن بن علي رضي الله عنهما في الصلح بينهما ـ ما ساقه ابن كثير في البداية والنهاية ١٧/٨ قال نقلاً عن البخاري في كتاب الصلح: حدثنا عبد الله بن محمد. وسنده إلى أبي موسى قال: سمعت الحسن يقول: استقبل والله الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان بكتائب أمثال الجبال، فقال عمرو بن العاص: إني لأرى كتائب لا تُوَلِّي حين تقتلُ أقرانها. فقال معاوية ـ وكان والله خير الرجلين ـ: إن قتل هؤلاء هؤلاء، وهؤلاء هؤلاء، مَنْ لي بأمور الناس؟ من لي بضعفتهم؟ من لي بنسائهم؟ فبعث إليه رجلين من قريش من بني عبد شمس: عبد الرحمٰن بن سمرة، وعبد الله بن عامر، قال: اذهبا إلى هذا الرجل فاعرضا عليه، وقولا له، واطلبا إليه. فأتياه فدخلا عليه، فتكلما وقالا له، وطلبا إليه. فقال لهما الحسن بن علي: إنا بنو عبد المطلب قد أصبنا من هذا المال، وإن هذه الأمة قد عاثت في دمائها. قالا: فإنه يعرض عليك كذا وكذا، ويطلب إليك ويسالمك. قال: فمن لي بهذا؟ قالا: نحن لك به. فما سألهما شيئاً إلا قالا: نحن لك به. فصالحه. قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكرة يقول: رأيت رسول الله ﷺ على المنبر والحسن بن علي إلى جنبه وهو يقبل على الناس مرة وعليه أخرى ويقول: «**إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**». فهنا معاوية لم يفكر في أمر المقاتلة بقدر ما فكر في أعقاب الحرب ومخلَّفاتها من إدارة أمور الناس، ورعاية ضعفائهم ونسائهم، ويتبع ذلك أيضاً أطفالهم وممتلكاتهم.

والإسلام قد راعى شؤون المجاهدين من أول يوم يخرج فيه إلى أن يعود، سواء في شخصه، أو في أسرته.

ففي شخصه: بتجهيزه، فجعل للمجاهدين سهماً من زكاة الأموال، وحَمَّل المجتمع تغطية ما نقص من ذلك في قوله ﷺ: «**من جهز غازياً فقد غزا**». والجهاز يشتمل ذهابه من طعام ولوازمه، وكذلك في أهله كما في قوله ﷺ: «**ومن خلف غازياً في أهله بخير فقد غزا**» كما في حديث الشيخين والنسائي.

وعند ابن حبان: «**كتب الله له مثل أجره حتى إنه لا ينقص من أجر الغازي شيء**». أي إنه تفضل من الله، ويبقى أجر الغازي موفوراً له.

وعند ابن ماجه: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ

يقول: «**من جهز غازياً حتى يستقل** - يعني يكتفي بما يلزمه من الأقوات والعتاد - **كان له مثل أجره حتى يموت أو يرجع**».

ثم ها هو ﷺ يوزع مسؤولية الجهاد وأسرهم بين أفراد الأسرة، فيكتب إلى بني لحيان ليخرج من كل رجلين رجل. ثم قال للقاعد: «**أيكم خلف الخارج في أهله فله مثل أجره**» رواه مسلم وأبو داود.

وعن زيد بن ثابت: «**من خلف غازياً في أهله بخير أو أنفق على أهله فله مثل أجره**».

وبهذه الرعاية: من تزويد المجاهد، وتوفير جهازه له، ينطلق قوياً مكتفياً مستقلاً عن جهاز غيره، فإن كانت له عائلة وأهل يخلفهم وراءه، فإنه يكون مطمئناً عليهم، وليس قلقاً مشوش الباب تنتابه المخاوف على معيشتهم من نساء وأطفال، ويعلم أنهم في كفالة المجتمع. ويؤكد هذا التشريع الحكيم على محارم الغزاة أثناء غيابهم أشد ما يكون، كما جاء في قوله ﷺ: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم، إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء فما ظنكم؟**».

وهنا يسجل لنا ابن سعد في الطبقات صورة رائعة لموقف عمر رضي الله عنه من هذه القضية فقال: إن يزيد قدم على عمر فنثر كنانته، فبدرت صحيفة، فأخذها فقرأها فإذا فيها:

أَلَا أبلغ أبا حفصٍ رسولاً	فِدى لك من أخي ثِقة إزاري
قلائصنا ـ هداك اللّه ـ إنا	شُغِلْنا عنكُمُ زَمَنَ الحصارِ
فلما قُلُصٌ وُجِدْنَ مُثَقَّلاتٍ	قَفا سَلْعٍ بِمُخْتَلِفِ البِحارِ
قلائصُ من بني سعدِ بن بكرٍ	وأَسْلَم أو جُهَيْنَةَ أو غِفارِ
يُعَقِّلُهُنَّ جعدةُ من سُلَيم	مُعيداً يبتغي سَقَطَ العذارِ

فقال عمر رضي الله عنه: ادعوا لي جعدة من سليم. قال: فدعوا به، فجلد مئة معقولاً، ونهاه أن يدخل على امرأة مغيبة. فقد فهم بثاقب فكره من تلك الأبيات أن جعدة المذكور يتردد على مساكن أسر الغزاة اللاتي شغل عنهن رجالهم بالحصار للعدو، وفهم أن القلائص وهي جمع قلوص، والقلوص

الناقة، فهي كناية عن المرأة، فاستحضر ذلك الشخص وأدبه بجلده مئة جلدة وهو مقيد، ونهاه أن يدخل على امرأة مغيبة، يعني غائب وليها. وهذا درس لغيره، وتشريع عام في هذه القضية، وبهذا لا شك تكتمل للغزاة العناية الوافرة بهم وبأسرهم مدة غيابهم، لا من حيث الإنفاق والمعيشة، وقضاء لوازمهم مما فيه متابعة سير أولادهم، سواء في مدارسهم وما يلزمهم، أو معالجتهم وما يحتاجونه، وسواء كان عن طريق مباشر، أو بواسطة أهله أو محارم تلك الأسر.

والآن فإن الحكومات في كل دولة تقيم المدن العسكرية لسكنى الجيوش وتدريباتهم، فتجعل فيها المدارس للأولاد، والمستشفيات للعوائل، كما تقيم فيها الأسواق والحدائق، وتوفر لأبناء أفراد القوات المسلحة ما يلزمهم. وإن من موضوع الساعة ونتيجة لتلك الحركات العسكرية، سواء في أفغانستان، أو فلسطين، أو لبنان، أو بعض دول إفريقيا مما فيها أقليات إسلامية، وفيها حركات تحرر وجهاد، أو تعيش تحت ضغوط حكومات علمانية أو ذات مبادئ هدامة، فتتأيم النساء، وييتم الأبناء، ويضيع الضعفاء مما هو معلوم لدى تلك المنظمات العامة للإغاثة ونحوها، فإن على العالم الإسلامي أن ينظم ما يضمن كفالة ورعاية كل هؤلاء، سواء من عوائد الحكومات، أو من سهم الزكوات، أو من تبرع المجتمعات. وقد ميز الله الإنفاق في هذا السبيل بمضاعفات لا حدود لها، كما في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١].

وبتأمل خبر بني لحيان الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ بما فيه رعاية المجاهدين والقاعدين، فمن كل رجلين يخرج رجل، والرجل الذي يجلس فقد كلف برعاية العاجزين والقاعدين من النساء والأبناء والوالدين. وعليه تكون معاونة على حماية الخارج ورعاية الداخل، سواء في السلم، أو في الحرب في حفظ الثغور، أو معارك القتال.

بل ونجد أبعد من ذلك في خلافة عمر رضي الله عنه لما سمع امرأة ليلاً وهي تشتكي طيلة غيبة زوجها وتوحشها من تفردها، وعرف أنه غازٍ، سأل ابنته

حفصة عن أقصى ما تصبر المرأة عن زوجها، فأخبرته: أقصاها أربعة أشهر، فكتب إلى أمراء الأجناد: أن لا يغيب زوج عن زوجته فوق ذلك، مع اعتبار مدة سفره ذهاباً وإياباً. إنها والله غاية المثالية لرعاية أُسَرِ وشؤون المجاهدين في سبيل الله.

١٣ ـ الجهاد بالمال:

مما استقر عند العامة والخاصة أن المال عصب الحياة، سواء في الحرب أو في السلم. وقد يلاحظ تقديم ذكره في الكتاب الكريم على النفس.

وباستقراء آيات الكتاب الحكيم، نجد عدة ارتباطات بين المال والولد في صور شتى، منها: أنهما صنوان في العطاء وفي الابتلاء، قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]. وأفرد المال بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا . . .﴾ [الكهف: ٧]. والأولاد بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ . . .﴾ [الفرقان: ٧٤]. وفي الجانب الآخر قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]. وكذلك جاءت النصوص بأن كلاً من المال والأولاد هبة من الله، قال تعالى في شأن المال: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢]. وفي شأن الأولاد: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]. فكلاهما المال والولد هبة من الله وعطاء، وكلاهما زينة الحياة الدنيا وابتلاء، ومن جهة أخرى تشير آيات القرآن إلى أن النفوس تواقة إليه، وأنه لحب الخير لشديد، «**لو كان لابن آدم وادٍ من ذهب لتمنى الثاني...**» الحديث. وقال تعالى: ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٩ ـ ٢٠]. ثم هي بعد الحصول عليه شحيحة به: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨]. حتى ولوكان الإنفاق مطلوباً في سبيل الله: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ . . .﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٨]. وهكذا يكشف لنا الكتاب الحكيم علاقة النفس بالمال: حِرْصٌ على تحصيله، وشحٌّ على إنفاقه. والشح هو الغالب.

تولى الله سبحانه إدارة المال بين العباد في الحالتين: الكسب والعطاء، كما قال ﷺ: «**إن الله لم يدع قسمة هذا المال لأحد من خلقه، وتولاه بنفسه**». يعني قوله تعالى في تقسيم الصدقات: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ . . .﴾ [التوبة: ٦٠]. وفي المواريث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١١]. فلم يدع سبحانه للعواطف بين الآباء والأبناء مجالاً في هذه القسمة، وجعلها فريضة من الله تعالى، وخصوصاً في هذين البابين: قسمة الصدقات، وقسمة التركات، لأنهما كسب بدون مقابل.

ولما كان الناس يتفاوتون في القوة والضعف، وفي الغنى والفقر، جعل الله سبحانه تكافلاً بين الأغنياء والفقراء، ففرض في أموال الأغنياء حقاً للفقراء ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [المعارج: ٢٤ ـ ٢٥]. وجعل عبء تحصيلها وتوصيلها على رسول الله ﷺ وولي الأمر من بعده: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]. قال علي رضي الله عنه: إن الله فرض في أموال الأغنياء ما يسد حاجة الفقراء، فما اشتكى فقير إلا بشح غني. فكان في فرضية الزكاة تكافل اجتماعي، وتآخٍ إنساني، تطهر الغني من درن الشح، وتخلص الفقير من لهيب الحسد والحقد.

وكذلك كان هذا التكافل في الجهاد في سبيل الله بتجهيز المحتاجين، وجعل الغازي ومن يجهزه في الأجر سواء. «مَن جَهَّزَ غازياً فقد غزا». لأن الأمة قد يكون فيها الفقير القادر، كما بين سبحانه حال هؤلاء الفقراء القادرين على الجهاد، ولا يجدون ما يبلغهم، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ

﴿قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢]. فكان من تحقيق التعاون بين الفريقين أن الغني العاجز، يجهز الفقير القادر، فكان الجهاد بالمال من لوازم تشريع الإسلام ومثاليات الجهاد في سبيل الله.

ومما تقدم يتضح لنا أن مجال المال في حلبة السباق في سبيل الله هو أوسع وأشمل وأعم من كل المجالات الأخرى، لأنه بالمال نجهز من لا يستطيع أن يجهز نفسه، وبه نوفر للجهاد كل متطلباته: من آليات، وعتاد، براً وبحراً وجواً، وما يلزم من توابع ذلك: من طرق، وجسور، وموانئ، ومطارات، وقطع غيار تصنيعاً أو شراء، وكذلك أجهزة الإنذار المبكر، بل وإعداد المؤهلين لتشغيل ذلك: من إقامة المدارس والمعاهد، والتدريبات، مما يتطلب النفقات العظيمة، ما تقوم به وزارة الدفاع اليوم، وترهق ميزانيات الدول.

ومن عموم وسعة مجال الجهاد بالمال، أنه يمكّن جميع الأفراد في الأمة من المساهمة فيه، من النساء والشيوخ حتى الأولاد، كل بقدر ما يسعه، وليس في ذلك حد محدود، ابتداءً من قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧]. إلى ما لا نهاية له. وقد جهز عثمان رضي الله عنه جيش العسرة إلى تبوك، وقد بين الله تعالى أن في الإنفاق في سبيل الله النجاة والسلامة، وأن الإمساك عن الإنفاق في سبيل الله هلاك للأمة، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾. إلى قوله تعالى بعدها بآية واحدة: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾ [البقرة: ١٩٣ ـ ١٩٥]. فالأمر بالإنفاق في سبيل الله بعد الأمر بقتال المشركين، يدل دلالة قوية أن هذا الإنفاق هو في المنزلة الأولى من منازل القتال المذكور، لأنه لا إعداد بغير المال. ثم هو سبحانه يحذر من التقاعس عن الإنفاق، وأن عدم الإنفاق مهلكة يلقون أنفسهم فيها بأيديهم، وذلك أن بالإنفاق تكتمل العدة، ويتم الإعداد، وبالتالي يتأهلون للنصر. أما بالإمساك عن الإنفاق، فسيكون العكس، يضعف الإعداد، وتقل العدد، ويكونون مدعاة للهزيمة والغلبة،

وحينئذٍ وبمعادلة واضحة فإن الإنفاق بإحسان ولو قليلاً سيحفظ عليهم أموالهم وبلادهم، بل وأنفسهم وأولادهم، ويحمي أعراضهم، فمن الإحسان أن يُفادَى الكثير بالقليل، لا أن يضيع الكثير بسبب القليل، وإن من مثاليات الجهاد بالمال في سبيل الله هو أن نظم العالم المالية أن تفرض ضريبة الجهاد لتغطية النقص في الميزانيات، فقد يقع البعض تحت الإحساس بالظلم، ويكون في نظره أن ما يدفعه مغرماً، بينما المسلم يتعامل مع الله، فينفق القليل، ويؤمل في الكثير إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

وقد قام الصدر الأول على تحقيق التعاون والتكافل المالي في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ...﴾ [الأنفال: ٧٢]. والآية بعدها: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [الأنفال: ٧٤]. وهذا عود على بدء، مِن ربط الجهاد في سبيل الله بالإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر.

١٤ ـ المثالية في التطبيق العملي:

في هذا الجانب العملي نجد أروع المثل العليا مما لم يشهده العالم من قبل، سواء من كتاب الله، أو من سنة رسول الله ﷺ، ثم عمل السلف رضوان الله تعالى عليهم.

ومن أوائل تلك المثاليات: منع الغدر والمباغتة، وأن لا يكون القتال غاية لغنيمة أو تسلط، بل يسبق الجهاد دعوة إلى الإسلام، ويكون القتال آخر حل بين المسلمين والكفار، ثم يلي ذلك الحفاظ على العهود، والالتزام بها، والوفاء إلى أصحابها. مما يحفظ شرف الكلمة، وأمانة العهد. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِۚ﴾ [المائدة: ١]. يعني العهود التي عقدتموها كما جاء قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا

تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩٠ ـ ٩١]. فأمر سبحانه بالوفاء بالعهد، وجعل كفالته عليه هو سبحانه، فهو الذي يثيب عليه، ويؤاخذ به.

وعليه: فإن هذه الأمة أمة وفاء والتزام وعدل وإحسان. وفي نهاية الوصايا العشر في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ . . .﴾ الآيات، وفي نهايتها ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. وفي خاتمة السياق قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ . . .﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣]. وامتدح الله الموفين بالعهد وجعله مع الإيمان بالله واليوم الآخر، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: ١٧٧]. ويتفق المفسرون على أن المراد بقوله: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾. يعني: في الحرب، وعليه يفهم من هذا السياق المتلاحق أن للوفاء بالعهد هنا صلة بعهود القتال. ومن هذا المنطلق كان الوفاء بالعهد حتى مع العدو من أبرز صفات المؤمنين، وجاء في أوائل سورة براءة قوله تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ . . .﴾ [التوبة: ١ ـ ٢]. فلم يأخذهم على غرة، بل أعلن لهم وأعطاهم مهلة السياحة في الأرض أربعة أشهر، يتمكن كل إنسان حضر الموسم أن يعود إلى مأمنه، وبعث ﷺ بها علياً رضي الله عنه يبلغها عنه ﷺ، ثم يستثني أصحاب العهود، ويأمر المسلمين بإتمام مدتهم إليهم فيقول سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٤]. فيحفظ هذا المنهج لأصحاب العهود عهودهم وهم من المشركين، ما داموا على عهدهم. وكل من استجار ليسمع كلام الله فله الحق، فإن آمن بعد سماعه فبها، وإلا فله الأمان حتى يعود إلى مأمنه. مع ما يعلم من حال المشركين أنهم لو وجدوا فرصة لن يرقبوا في المسلمين إلاً ولا ذمة. كما قال

تـعـالـى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [التوبة: ٧ ـ ٨]. ومع تلك النفسيات الشريرة كان على المسلمين حفظ عهودهم، إلا إذا بدرت منهم مخاوف الحذر: من غَدْرٍ وخيانةٍ، فتنبذ إليهم عهودهم على سواء.

ومن هذا التطبيق العملي من رسول الله ﷺ ما كان مع يهود بني النضير، حين ظهر منهم شيء من ذلك، فجاءهم ﷺ ومعه بعض أصحابه إلى بيت المِدراس فوقف عليهم وقال: «**يا معشر يهود أسلموا**». فقالوا: قد أبلغت يا أبا القاسم قال: «**ذلك أردت**». فقال: «**أسلموا يا معشر اليهود**». قالوا: قد أبلغت يا أبا القاسم. وأعادها الثالثة كذلك. ثم قال: «**يا معشر يهود، إني عازم على إجلائكم، فمن وجد في ماله شيئاً فليبعه، واعلموا أن الأرض لله وإني مجليكم**». فلم يبغتهم ﷺ، ولم يغدر بهم.

ومن أشد المواقف إحراجاً على المسلمين ما كان يوم الحديبية، حين تم الصلح بين النبي ﷺ والمشركين على أن يرجع المسلمون من عامهم، وأن تكون هدنة عشر سنوات، وأنَّ من جاء المسلمين من المشركين بغير إذن أهله رده المسلمون عليهم... إلى آخره، وهم في أثناء ذلك، وبعد توقيع المعاهدة، وقبل انصرافهم من مكانهم، جاء أبو جندل يرسف في القيود، يستصرخ المسلمين أن ينقذوه وقد أسلم، فقام أبوه وقال: يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه. فاعتذر رسول الله ﷺ لأبي جندل وقال: «**لقد لَجَّت القضية فاصبر أبا جندل، فإن الله جاعل لك فرجاً أنت ومن معك**». وبعد أن رجع المسلمون إلى المدينة، جاء أبو بصير فاراً بدينه من مكة، قال ابن هشام: فكتب فيه أزهر بن عبد عوف إلى رسول الله ﷺ، وبعث رجلاً من بني عامر ومعه مولى له، فقدم على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فانطلق إلى قومك**». قال: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟ فأعاد عليه ﷺ مقالته الأولى، فانطلق مع

حامل الكتاب ومولاه حتى إذا كانا بذي الحليفة احتال أبو بصير فتخلص ورجع إلى رسول الله، وقال: وفت ذمتك يا رسول الله أسلمتني بيدهم، وامتنعت بديني. فرده ﷺ ولم يأوه بالمدينة وفاءً بالعهد، فذهب إلى مكان بين مكة والمدينة وصار يأوي إليه كل فار بدينه. . . إلى آخر قصته. فلم يغدر ﷺ بهم، ولم ينقض عهداً لهم، وكان في ذلك حُسْنُ الوفاء وأحسن النتائج.

وإن من المثاليات في هذا المنهج العملي أن القتال لم يكن غاية في ذاته، بل كان آخر الحلول مع العدو، وقد وضع ﷺ جميع جزئيات هذا المنهج بكل مثالياته، كما جاء في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أمّر أميراً على سرية أو جيش أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: **«اغزوا على اسم الله في سبيل الله تعالى، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصالٍ فإن هم أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن أبوا فأخبرهم بأنهم يكونون كأعراب المسلمين ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم، وإن هم أبوا فاستعن عليهم بالله تعالى وقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تفعل، ولكن اجعل لهم ذمتك، فإنكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله. وإذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل، بل على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله تعالى أم لا»**.

ولا تعليق على هذا السياق النبوي الشريف، إلا أنه قد تضمن كل تعاليم الإسلام في منهج الجهاد في سبيل الله وآداب القتال، وإن العالم اليوم ليعاني أشد المعاناة من تخلف تلك التعاليم، فنقضت العهود والمواثيق، وتخطيت الأعراف، وسلبت الأموال، وانتهكت الحرمات، ووقع الفساد في الأرض. فهل تعود مثاليات الجهاد للعالم، وتعلو راية الحق، ويدخل الناس في دين الله أفواجاً، ويتم وعد الله ليظهره على الدين كله؟

١٥ ـ مثاليات القادة والأفراد والتلاحم بينهم:

إن من أقوى عوامل النصر للجيوش، ودواعي ترابط القوات على اختلاف نوعياتها، إنما يكمن في مثالية القيادة: من حكمة، وروية، وتعاطف، وتراحم يجعل الأفراد مع القادة كالأسرة الواحدة، والأفراد فيما بينهم كالأخوة، تعاوناً وترابطاً وإحساساً بوحدة الهدف والمصير.

ولا شك أن أروع المثاليات في القيادة حرباً وسلماً لهي في شخصية رسول الله ﷺ، وهو القدوة الحسنة، والمثال الأعلى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. كيف لا وهو المبعوث رحمة للعالمين، والمبعوث بالرحمة والعدل، وليتمم مكارم الأخلاق، والمعادلة شجاعته بأربعين من أصحابه، والذي يثبت حين تراجع الناس في حنين ولم يخف نفسه حرصاً على حياته وطلباً لسلامته، بل يعلن عن موقعه، ويصبح هدفاً بارزاً حين يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

وهو القدوة والمثل الأعلى في الصبر والتحمل في الرخاء والشدة، وها هو ذا ﷺ في غزوة الأحزاب يشارك في حفر الخندق، وهو في شدة الجهد من الجوع، عاصباً على بطنه الحجر، ولم يعلموا به حتى نزل إلى الكدية يضربها وقد تكسرت عليها معاولهم، وعجزوا عنها، وهو الذي يعايش أفراد المسلمين، ويشاركهم ما هم فيه كأحدهم، ولم يستأثر عليهم بفضل أو يختص بمكرمة. فها هو الصحابي الجليل جابر رضي الله عنه يحس أثر الجوع في صوته ﷺ، فينقلب إلى أهله ويتعاون معهم على صنع طعام له مع أهله في عناق وصاع من شعير، ثم يأتي فيسر في أذنه ﷺ قائلاً: لقد صنعنا لك طعاماً نحب أن تذهب معي نتناول منه. فإذا به يفاجأ من رسول الله ﷺ أن يأمر صارخاً في القوم جميعاً: «**إن غداءكم عند جابر، صنع لكم طعاماً، فهلم إلى بيته...**» إلى آخر الخبر. فلم يرض ﷺ أن يخص نفسه بما صنع جابر من طعام، وإن كان قليلاً، لأنه يعايش المسلمين من بداية العمل، ويشاركهم في الجهد الجهيد الذي يبذله الجميع، وينزل الله البركة في هذه القليل، حتى يشبع الجميع ويزيد.

ومثل ذلك تمرات بنت بشير، كما ساقها ابن هشام قال: إن ابنة لبشير بن سعد ـ أخت النعمان بن بشير ـ قالت: دعتني أمي فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بنية، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما. قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ، وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: تعالي يا بنية ما هذا الذي معك؟ قالت: فقلت: يا رسول الله هذا تمر غذاء أبي وخالي. قال: هاته، فصببته في كفه.. إلى آخر القصة، فوضعه ﷺ على ثوب ودحاه بيده، ودعا الله تعالى وأمر من ينادي القوم هلم إلى الغذاء، فاجتمع أهل الخندق عليه.

ومن المثالية والقدوة الحسنة ما كان من تحمله وتشجيعه على الصبر وتحمل المشاق ووعثاء السفر ما كان في سفرهم إلى بدر، وكانوا يتعاقبون الثلاثة والأربعة على بعير واحد، وهو ﷺ كأحدهم لم يختص براحلة دونهم، وكان يشاركه علي وأبو لبابة رضي الله عنهما، يتعاقبون الركوب والمشي. ولما كانت عُقْبَة رسول الله ﷺ في الركوب، وقد انتهت وأراد النزول، قالا له: ابق يا رسول الله راكباً ونحن نمشي عنك. فيقول لهما: «**ما أنتما بأقدر على المشي مني، ولا أحوج إلى الأجر مني**». في الوقت هو ﷺ جاوز الخمسين، وعلي في حدود العشرين، وهذا القول منه ﷺ لا شك أنه سينتشر في القوم، ويسمعه من لم يجد ظهراً، أو طالت عُقْبَتُهُ مشيه، وسيهون عليه كل صعيب، ويخف عنه كل ثقيل. وفي بدر، وعند تسوية الصفوف بقضيب في يده، ليكونوا كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤]. وكان سواد بن غزية بارزاً عن الصف، فغمزه بالقضيب أن اعتدل في الصف، فيقول: أوجعتني يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فيسأله: «وماذا تريد؟» فيقول: أقِدني يا رسول الله. فما كان منه صلوات الله وسلامه عليه إلا أن استجاب له، وكشف له عن بطنه، وأعطاه القضيب وقال: «**اقتد**». فأهوى سواد عليه فالتزمه، وقَبَّلَ بطنه ﷺ. فقال له ﷺ: «**ما حملك على هذا؟**» فقال: يا رسول الله حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر عهدي من الدنيا بك أنت يا رسول الله، أن يمس جلدي جلدك. فدعا له ﷺ بخير. فأي مثالية هذه في تراحم وعدالة وإنصاف؟ وفي هذا الموطن بالذات!

وفي فتح مكة وتمكنه ﷺ من أهلها بعد ذلك الشوط الطويل المليء بالأشواك والعقبات، وتألبهم عليه، وإيذائهم لأصحابه، واضطرارهم إلى الهجرة عن مكة شمالاً وجنوباً إلى الحبشة وإلى المدينة، وتبييتهم نية قتله، وبذلهم الدية لمن يأتي به حياً أو ميتاً عند الهجرة، ومجيئهم إلى المدينة في أُحُدٍ والخندق، وصدهم إياه عن البيت والهدي معكوفاً أن يبلغ محله، كل ذلك كان منهم. وها هو صلوات الله وسلامه عليه بعد أن أظفره الله عليهم، وأصبحوا في قبضة يده، يسائلهم وهم في جموعهم، وفي عقر دارهم وعند الكعبة: «**ماذا ترونني فاعلاً بكم؟**» إنه لا شك تساؤل يجعل تلك الأحداث تتوارد في أذهانهم كقدح الزناد، وتوقد الشهاب، لا يستطيعون إخفاءها ولا إبعادها عن أذهانهم وحقائق واقعهم، ولكنهم يلوذون برحاب مكارم أخلاقه، ويتلمسون فيوض رحموته التماساً للعفو والصفح، فيقولون: أخ كريم، وابن أخ كريم. فيتسامى إلى أقصى منازل التسامي، ويعفو إلى منتهى العفو، ويجود بأوسع معاني الجود والعطاء، فيقول: «**اذهبوا فأنتم الطلقاء**».

ولقد كان هذا المنهج منه صلوات الله وسلامه عليه يُملي على أصحابه كل معاني المثاليات في الكمال الإنساني، وها هو خالد بن الوليد رضي الله عنه في معركة اليرموك، أرسله أبو بكر رضي الله عنه من العراق إلى الشام عوناً لأبي عبيدة وغيره من الأمراء الذين توافدوا على الشام للقتال، وهناك مع فارق العَدد والعُدد بَيَّنَ لهم خالد بن الوليد رضي الله عنه خطورة الموقف، وعرض عليهم المفاهمة في توحيد الجند، ووحدة القيادة وتناوبها بينهم يومياً، واستأذنهم في اليوم الأول فأذنوا له، فعدل في تنظيم الجيش ميمنة وميسرة وقلباً، وبدأ القتال وهبت رياح النصر، وقد وصل البريد والمعركة في أشدها، وكان فيه نَعْيُ أبي بكر، وتَوَلِّي عمر، وعَزْلُ خالدٍ وتَوَلِّي أبي عبيدة، فما كان من خالد إلا أن حبس البريد معه، وأخفى الكتاب في كنانته مخافة أن يصيب القوم وهن، ومضى في القتال حتى تم النصر على يده، ثم من الغد سلم الكتاب لأبي عبيدة، وأصبح جندياً تحت رايته، فلم يثنه عزله عن مضي عزمه، ولم تنازعه نفسه في شيء، وكان حسبه أن يُتِمَّ اللهُ النصرَ على يديه. وهكذا المثاليات في القادة المسلمين.

١٦ ـ مثاليات الأفراد:

إن مثالية الأفراد لا شك أثر من آثار مثاليات القادة، وقبس من ضيائها، وتقدمت روائع الأمثلة من مثاليات القادة، بِدْءاً من سيد الخلق صلوات الله وسلامه عليه، ومن خلفائه الراشدين، وأمراء الأجناد.

ولن ننسى تلك الصورة الحية الوضاءة من أبي بكر ﷺ وهو يودع أحد أمرائه إلى قتال الشام، فيمشي أبو بكر ﷺ على قدميه، وأمير الجيش راكب، وراحلة أبي بكر تساق بين يديه، فيستحي القائد من أن يكون راكباً والخليفة ـ وهو القائد الأعلى ـ ماشياً، فيقول: عزمت عليك يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن. أي: لنتساوى في الركوب أو المشي، فيقسم عليه الصديق ﷺ ما أنا براكب، ولا أنت بنازل، إنها خطوات أحب أن أخطوهن في سبيل الله. وهكذا يضرب له المثل في التواضع والتراحم، ليكون هذا منهجه مع أفراد جيشه. فإلى أي حدٍّ سنجد سلوك أفراد جيش هذا الأمير وتلاحمهم معه؟

ولقد تجلت مثاليات الأفراد في مجالات عديدة، منها على سبيل المثال:

١ ـ الإحساس بمسؤولية المعارك، والحرص على النجاح فيها، ولكأنه هو المسؤول عنها كما تقدم من المقداد وتقديره لأرض المعركة يوم بدر، وكذلك سلمان الفارسي ﷺ حين تقدم بفكرة حفر الخندق بقوله: كنا إذا حوربنا خندقنا. ويأخذ ﷺ بفكرتيهما، وتكون عاملاً قوياً من عوامل النصر بإذن الله.

وموقف أبي محجن في القادسية، حين سجنه سعد في الشراب، فرأى المعركة تدور رحاها وهو مقيد محجوز عنها، فيستعطف زوجة القائد أن تفكه يشارك في القتال، فإن قتل استراحوا منه وإن سلم: لها عهد الله وميثاقه، ليضعن قدميه في القيد. فتطلقه، ويستعير فرس سعد فينطلق بها، ويشق صفوف الأعداء، ويجاهد جهاد الأبطال، حتى كتب الله النصر للمسلمين، فيوفي بعهده، ويعود إلى قيده. وكان سعد يعجب لفعاله وهو لا يعلم أنه هو، ثم يسأل زوجته: لولا أن أبا محجن في الحبس لقلت: إنه هو، وقد فعل بالعدو الأعاجيب. فأخبرته خبره، فأتى إليه ففك قيده وقال: لا أجلدك ولا أحبسك

في الشراب بعد اليوم. وقال هو: والله لا أشرب أبداً بعد اليوم، فقد كان الحد طهرة لي من الشراب.

وتقدم عن صاحب التمرات في غزوة بدر إذ يقول: إنها لحياة طويلة إنْ أنا عشت حتى آكل تلك التمرات. ويلقي بهن من يده ويقبل على القوم يقاتل حتى قتل.

وصاحب السؤال: ما الذي يضحك الرب اليوم يا رسول الله؟ ويجيبه ﷺ: «من يغمس يده في العدو حاسر الرأس، فينتزع درعه، ويقدم على العدو يقاتل حتى يقتل».

وهذا عثمان رضي الله عنه في الحديبية يبعثه رسول الله ﷺ لأهل مكة يفاوضهم على الطواف بالبيت وإتمام العمرة، فيأبون، ويعرضون عليه هو أن يطوف ويتم عمرته، فيمتنع ويقسم بالله لا يطوف ورسول الله والمسلمون ممنوعون عنها.

وها هم عموم المسلمين في ذلك اليوم لما أشيع بأن عثمان قتل، بايعوا رسول الله ﷺ على الموت ليناجزوا القوم في عقر دارهم، على بعد ما بين مكة والمدينة، وقلة العدد، وعدم المدد.

ومن ذلك تسابق الشباب دون البلوغ إلى الانضمام إلى المقاتلة، وبكاء من يرده ﷺ لصغره. فهذا غلام أخ لسعد بن أبي وقاص، حين يعرض النبي ﷺ الرجال ببئر السقيا بطرف المدينة، يمشي على أطراف أصابع قدميه ليظهر ويزيد من طوله، ويسأله أخوه عن ذلك فيقول: أخشى أن يردني رسول الله وأنا أحب الشهادة.

ومنها ـ وفي أرض المعركة ـ ما يحكيه ابن عوف قال: إني لواقف يوم بدر في الصف، فنظرت عن يميني وشمالي فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهم، فتمنيت أن أكون بين أضلع منهما، فلم أشعر إلا وقد غمزني أحدهما، فقال: يا عم أتعرف أبا جهل؟ فقلت: نعم، وما حاجتك به؟ قال: أُخبرت أنه كان يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا. فتعجبت لذلك، ثم غمزني الآخر وقال لي مثل مقالة الأول، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل وهو يجول في الناس، فقلت: ألا تريان، هذا صاحبكما الذي تسألان عنه. فابتدراه

بسيفيهما... إلخ. وفيها يقول: فلما سمعت، فما سرني أنني بين رجلين مكانهما. نقلها ابن كثير في البداية عن الصحيحين.

وفي غزوة أحد، قال ابن كثير: لقد رد النبي ﷺ عدداً من الغلمان لصغرهم وأجازهم بعدها، منهم ابن عمر وأسامة بن زيد... إلخ، ومنهم سمرة بن جندب ورافع بن خديج، وكانا ابني خمسة عشر عاماً. فقيل لرسول الله ﷺ: إن رافعاً بن خديج رام. فأجازه لجودته في الرماية. فقيل لرسول الله ﷺ: إن سمرة يصرع رافعاً وأقوى منه. فأجاز سمرة أيضاً.

إنها همة فوق أن تكون عالية، وعزيمة أمضى من أن يقال فيها: ماضية، أرواح أبطال ونفوس رجال في هؤلاء الفتية، حقاً إنهم فتية آمنوا بربهم فزدناهم هدى.

وتلك الصورة الرائعة التي لم يُسمع بمثلها، ولم يشاهد نظيرها من أولئك الثلاثة في غزوة اليرموك، حين ينطلق رجل ومعه قدح من الماء يبحث عن ابن عمٍّ له في الجرحى لعله يحتاج الماء فيسقيه، فوجده في الرمق الأخير فقدم إليه الماء، ولما أهوى به إلى فيه سمع أنيناً لجريح آخر، فأشار إلى ابن عمه أن اذهب به إليه لعله يكون أحوج إليه مني. فذهب إلى الثاني فلما رفعه إلى فيه ليشرب، سمع هو أيضاً أنيناً من شخص ثالثٍ، فأومأ إليه أن اذهب بالماء إليه. فذهب إلى الثالث ولكنه لم يصله حتى كان قد مات، فرجع إلى الثاني فإذا هو أيضاً قد مات، فرجع إلى ابن عمه فإذا هو قد مات. وهكذا مات النفر الثلاثة كل يؤثر صاحبه على نفسه وبقي الماء في القدح.

فأي مثالية في الحب والإيثار والتضحية والتلاحم بين أفراد الجيش من هؤلاء؟! أترى من كانوا بهذه المثابة في تلك اللحظات المحرجة يمكن أن يتخلى أحدهم عن الآخر في ساحة القتال؟ لا وكلا. وكيف وصلت نفوسهم الكبيرة إلى تلك المنزلة الكريمة. إنه لا يستطيع أن يوصل النفس البشرية إلى هذا المستوى الأعلى إلا منهج الإسلام، والإسلام وحده.

وفي ختام هذه الجولة ننظر إلى مثاليات القادة في تراحمهم وتعاطفهم مع أفرادهم، وننظر إلى ترابط الأفراد فيما بينهم إيثار الآخرين على أنفسهم، وترابط المجموعة بعضها مع بعض، نجد حقاً أمثلة نادرة، وروحاً عالية ناهضة

إلى الأمور في صور عديدة، ومجالات مختلفة، تؤكد للعالم كله أن المجاهدين في سبيل الله إنما هم حقاً يتعاملون مع الله، ولإعلاء كلمة الله صفاً واحداً، وعلى قلب رجل واحد.

١٧ ـ تلاحم الجند والقادة:

إن من أقوى عوامل القوة وأسباب النصر بإذن الله، لهي قوة تلاحم الجنود مع القادة؛ فمن جانب الجنود: السمع والطاعة، والاطمئنان إلى أوامر قيادتهم، والقناعة بعدالة قضيتهم، والثقة بنصح ولاة أمورهم. ومن جانب القادة: التراحم والشفقة، والحرص الشديد على أرواح جنودهم، وتوفير راحتهم، فلا يزجون بهم في معارك خاسرة، ولا يتساهلون في تنسيق الخطة لهم، فهم كالآباء مع أبنائهم سواء بسواء.

وهذه عوامل إذا تواجدت من الطرفين تجعل منهم بنياناً مرصوصاً، والنماذج والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

ما تقدم بين علي وأبي لبابة مع رسول الله ﷺ في المشي والركوب.

وقبل لقاء العدو يقول سعد: يا رسول الله تأذن لنا نبني لك عريشاً، ونعد عندك النجائب، ثم نلقى عدونا، فإن كانت لنا وظَفَّرَنا الله بهم فيها، وإلا ركبت النجائب ولحقت بإخوان لنا بالمدينة، ما نحن أشد حباً لك منهم؟ ويقابل ذلك رسول الله ﷺ باجتهاد في الدعاء، والاهتمام بهم أكثر من اهتمامه بنفسه، حتى يشفق عليه الصديق رضي الله عنه ويقول: حنانيك يا رسول الله، إن الله سينجز لك ما وعد.

وسبق ما كان من الحباب وتفكيره في أرض المعركة، ومنزله ﷺ بالمسلمين، وتقدمه بالمشورة المباركة التي ينزل مَلَك يؤيدها.

وفي ذات ليلة قالت عائشة رضي الله عنها: بات رسول الله ﷺ ساهراً لم ينم، ثم قال: «**اللهم رجلاً صالحاً يحرسنا الليلة**». فما لبثنا إلا وسمعنا قعقعة سلاح، فقال: «**من؟**» فقال: أنا سعد جئت أحرسك يا رسول الله. فنام ﷺ. إنه الإحساس وتحسس الواجب دون ما تكليف أو إلزام.

وفي خيبر بعد انتهاء المعركة واصطفى ﷺ صفية وبات معها في خيمة،

فلما أصبح ﷺ وجد أبا أيوب قائماً يحرسه، فسأله فقال: خفت عليك هذه المرأة، قَتلتَ زوجها وأباها، فلم آمنها عليك، فدعا له بخير. إنه تحسس مواطن الخطر والمبادرة لتداركها.

ومن ذلك موقف عبد الله بن عبد الله بن أُبَي حين قال كلمته التي أعلنت نفاقه، وذلك على ماء المريسيع لما تلاحى غلام للمهاجرين مع آخر للأنصار، واستنجد كل منهما بقومه، فقال ابن أُبَي: أَوَ فعلوها؟ ما نحن وهم إلا كمثل القائل: سمِّن كلبك يأكلك. لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فتجادل الناس، وبلغت المقالة رسول الله ﷺ، فتعاظمها وجد السير في القائلة يشغل الناس بالمسير عن الجدال فيها، واستنكر ابن أُبَي هذا السير في هذا الوقت، فأعلموه أن كلمته هي السبب، فخاف وأتى رسول الله ﷺ يعتذر وينفي أن يكون قالها. ولكن الوحي نزل بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ . . .﴾ [المنافقون: ٨]. فصدق الوحي مقالته وعكسها عليه، وأوتيت العزة لله ولرسوله للمؤمنين، وليست لابن أُبَي ولا للمنافقين. ولما وصلوا مشارف المدينة يتقدم عبد الله ولد عبد الله بن أُبَي إلى ناقة أبيه فيمسك بزمامها، ويستل سيفه، ويقسم بالله على أبيه لا تدخلها حتى يأذن لك رسول الله، وتعلم أنك أنت الأذل، وأن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. . . إلى آخر خبره.

وفي غزوة أُحد حين اصطف الفريقان، يخرج أحد أبناء الصديق من صفوف المشركين ـ وهو آنذاك لم يزل على دين قومه ـ فيطلب من يبارزه فيكون أول من يسرع بإجابته هو أبو بكر نفسه، حتى يمسك به رسول الله ﷺ ويقول: **«ابق لنا على نفسك»**، أو **«متعنا بنفسك لا تفجعنا»**.

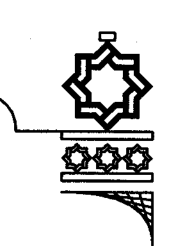
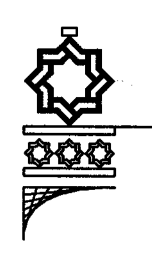
وفي مفاوضة الصلح بالحديبية، جاء عروة بن مسعود مبعوثاً من قريش يفاوض رسول الله ﷺ، ولما رجع إلى قريش قال لهم وقد رأى ما يصنع به أصحابه: لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقاً إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه. فلما رجع قال: يا معشر قريش إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه وإني والله ما رأيت ملكاً في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يسلمونه أبداً.

إنها القمة فيما قلنا من التلاحم، قد يقول قائل: إنه رسول الله ﷺ وهم أصحابه خير هذه الأمة، ولكن وجدناه منهجاً مطبقاً بين الأمراء والقادة، وبين الأفراد والجنود، ومن ذلك ما جاء في فتح مصر حين حاصر عمرو بن العاص حصن بابليون وفيه المقوقس، وطال الحصار شهراً، فبعث المقوقس رسلاً إلى عمرو ليوفد إليه من عنده رسلاً يفاوضهم على الصلح، فأمسك عمرو رسل المقوقس ثلاثة أيام ثم أرسلهم وهيأ من سيرسلهم إلى المقوقس. فلما رجعت رسل المقوقس إليه سألهم: كيف وجدتم هؤلاء؟ فقالوا: رأينا قوماً الموت أحب إليهم من الحياة، والتواضع أحب إليهم من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على الأرض على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء، ويخشعون في صلاتهم. فقال عند ذلك المقوقس: والذي يُحلف به لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها، وما يقوى على قتال هؤلاء أحد... إلى آخره. ويهمنا وصف رسل المقوقس لحال المسلمين من هذا التلاحم والتواضع حتى لا يعرف السيد فيهم من العبد.

وتلك أمنية خالد بن الوليد في نهاية حياته حين سئل: لقد ظفرت بالنصر في كل المعارك ونلت من الشرف ما نلت فما هي أمنيتك الآن؟ فيقول: ليلة مطيرة شديدة البرد، عاصفة الرياح، أقوم حارساً للجند، تالياً لكتاب الله.

وتقدم نظيره في الحراسة من الرجلين اللذين انتدبهما رسول الله ﷺ لحراسة فم الشِّعْب حين عرَّسوا بليل، فيتقاسمان الليل ينام أحدهما ويقوم الآخر، فيأتي ربيئة القوم فيرمي بسهمه صوب الصوت فيصيب القارئ، لكنه ينزع السهم ويستمر في صلاته... إلى آخره.

إنه المنهج الإسلامي الذي يغذي الأرواح، ويحيي القلوب، وينير البصائر، ويزكي النفوس، وليس كما نسمع من سهر الجنود على الترفيه البريء، وإن المتتبع لسيرة السلف وتاريخ المسلمين في جهادهم في سبيل الله، ليجد المعالم التي تهدي الأمة للمثل العليا، وتضع أقدام الأجيال على متن الاستقامة، امتداداً من كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وفيما قدمناه ما يكفي تنويهاً ودلالة.

آيات الهداية من سورة النجم

أ ـ نص الهداية في هذه السورة جزء من الآية الثالثة والعشرين في قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

والمتأمل هذا النص الكريم على إيجازه، وبنظرة عاجلة، يلمح مقارنة عظيمة بين طرفين متباعدين عليهما مدار الهداية والضلال، ومن ناحية أخرى: ترسم صورة واضحة لموقف المشركين وخطئهم في مسلكهم وسوء اختيارهم.

وطرفا هذه المقارنة في إطار هذه الصورة هما:

أولاً: المتحدث عنهم في الآية قبلها، وهم المشركون الذين سموا الملائكة تسمية الأنثى، وليس لهم مستند، إنما هي أسماء سموها هم وآباؤهم ما أنزل الله بها من سلطان، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس.

والطرف الثاني: هو ما جاءهم من الهدى من ربهم.

فما أشد بُعد ما بين هذين الطرفين: طرف يقوم على الظن دون ما علم، والظن تغليب أحد جانبي الشك، وليست له قاعدة ثابتة يقوم عليها، بل الصورة تشير إلى مبنى هذا الظن وهو: ما تهوى أنفسهم. ولا شك أن هوى النفس تبع للرغبات؛ ولو كانت مجانبةً للحق معارضةً للعقل، وليس أضر على الإنسان من ميوله مع ما تهواه نفسه كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجاثية: ٢٣]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]. وبيّن تعالى في أول هذه الآية أنه سبب إعراضهم عنه، وعدم استجابتهم إليه ﷺ بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠]. ونحو ذلك من النصوص التي تبين أن مستندهم في موقفهم إنما هو الظن واتباع الهوى، بينما الطرف الثاني في هذه المقارنة

هو ما جاءهم من ربهم من الهدى والبيان والإرشاد، فأي ضلال أبعد لمن أعرض عن الهدى الآتي من الله؟ ويسلك سبل الظنون والأهواء، وقد أبطل الله عليهم، فيطلعهم في مسالكهم حالاً بما عقب على هذه المقارنة بقوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النجم: ٢٤]. مشيراً بأن ظنونهم وأهواءهم صادرة من أمانيهم، سواء كانت أمانيهم في معبوداتهم وما يظنونه فيها مما صرحوا به في قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]. أو قولهم عنهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]. أو كما قال صاحب الجنتين لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ [الكهف: ٣٤ ـ ٣٦]. تلك الأماني التي غرت أهلها كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ ـ ١٤].

فنص تعالى على المنافقين قد أغرتهم أمانيهم، وغرهم بالله الغرور وهو الشيطان. ومن قبلهم مقالة اليهود والنصارى في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾ يعني: قال اليهود: لن يدخلها إلا من كان يهودياً. وقالت النصارى: لن يدخلها إلا من كان نصرانياً. وأبطل الله مقالة كل منهما بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ثم رسم الطريق السليم بقوله ردًا عليهم: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١ ـ ١١٢]. وفي سورة النساء يقضي تعالى على مسيرة الأماني الكاذبة في سياق متكامل في قوله تعالى عن المشركين وعباداتهم ومعبوديهم وأمانيهم: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾. كل تلك الأباطيل من الأماني التي يمنيهم

الشيطان بها، ثم قال تعالى موضحاً ومبيناً عواقب ذلك: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ يعني: الشيطان ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ إلى قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾. ثم رسم سبحانه طريق الهدى للجميع فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا . . .﴾ [النساء: ١١٧ ـ ١٢٥]. ومن هذه النصوص نعلم يقيناً أن الحياة ليست بالأماني وكذلك الآخرة، وإنما المُعَوَّل عليه هو سلوك سبيل الحق، وهو الهدى المشار إليه في هذه الآية، وأن يسلم وجهه لله كما في الآيات الأخرى المتقدم إيرادها، ويؤكد هذا المنطلق قوله سبحانه: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ أي: ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: ٢٤ ـ ٢٥]. وهذه قضية مستقلة تعتبر تفنيداً لاتباعهم الظن وما تهوى الأنفس، وتبطل عليهم تطلعاتهم لأمانيهم، إذ يقول سبحانه: إن الآخرة والأولى، يعني الدار الآخرة بما فيها من نعيم وسعادة، ودار الدنيا بما فيها من خيرات وأسباب العزة وموجبات الرّضا والإسعاد، كلاهما لله. فمن أين يتحقق للإنسان ما تمنى إن كانت أمانيه دنيوية؟ فالدنيا كلها لله. وإن كانت أمانيه أخروية فالآخرة كلها لله، ولا يكون في الدنيا ولا في الآخرة شيء إلا بإذنه سبحانه. وإيضاح ذلك: أن ما يتمناه الإنسان إما أن يكون في مقدوره فيستطيع تحقيقه، وإما أن يكون ليس في مقدوره، بأن يكون عاجزاً منه، أو هو في حوزة غيره، فما كان عاجزاً عنه وإن كان في حوزة غيره فلا سبيل إليه إلا بإذن من هو في حوزته وملكه. وقد بيّن لهم سبحانه أن لله الآخرة والأولى، ولن تخرج أمانيهم عنهما، فلا تتحقق لهم أمانيهم إلا بالرجوع إلى الله، وقد جاءهم من ربهم الهدى.

وعليه يقال لكل مبطل، ولكل مدعٍ، ولكل صاحب هوى، ولكل من يبني حياته على أماني بعيدة المنال، أو مستحيلة الحصول، أو على ما في حوزة الآخرين: إن مسلكهم مسلك الهوى والباطل، وإن الحق والصواب وتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، لهو اتباع الحق والهدى الذي جاءهم من ربهم

واضحاً لا لبس فيه، سهلاً لا صعوبة معه، وهو صراط الله الذي له ما في السمٰوات والأرض. وسيأتي زيادة إيضاح لمنشأ هذا الهدى الذي جاءهم من ربهم سبحانه في مستهل هذه السورة الكريمة.

ب ـ نص الهداية من سورة النجم:

تقدم إيراد النص من هذه السورة، وهو جزء من آية (٢٣) وفيه مقارنة بين ما عليه المشركون من اتباع الظن وما تهوى الأنفس، وبين ما جاءهم من ربهم الهدى، وبيان أن مبنى مسلكهم وسبب إعراضهم عن الهدى هو اتباعهم أهواءهم مبنية على أمانيهم. ولهذا النص مقدمات قطعية وملموسة في بيان بداية هذا الهدى الذي جاءهم من ربهم، وكيف جاءهم، وثبوته بالحس وبالعقل، ومصداقه من الواقع، وذلك من بداية السورة الكريمة، ثم من نهايته، وما أتى بعد نص الهداية، وذلك يستلزم العودة إلى السورة من أولها، مستعينين بالله تعالى في إظهار ما تضمنته مقدمة السورة من عدة جزئيات، تشكل في مجموعها وحدة موضوع الوحي والرسالة بالهدى للعالمين.

بدأت السورة بالقسم بالنجم، ومن أخص المضامين لهذا المقسم به النور والتلألؤ والهداية الحسية، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ۝١٦﴾ [النحل: ١٦]. ولكنه بقيد هويه وهو غيابه عن الأفق، رداً عن من يعبدونه، ويأتي المقسم عليه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾. وأوضح دلالات الضلال هي الذهاب في الصحراء ونحوه عن الجادة والطريق المقصود، وكذلك ضلال الفكر ذهابه عن سبل الرشاد ومنهج الاستقامة، وأوضح دلالات الغواية هي ترك ما يعلم من الطريق الموصل إلى الغاية المقصودة وسلوك غيره، وكذلك غواية العقل أن يترك ما هو واضح الدلالة على الحق والصواب ويسلك مسالك الشبه والتهم. فالضلالة تكون عن جهالة، والغواية عن دراية، وكلاهما منفيان عنه ﷺ، وهنا نقول: إن الواقع الملموس يصدق ذلك، لأن الله تعالى قد أبرز للمشركين حقيقة لا يستطيعون نفيها ولا جحودها، وفيها الحجة عليهم؛ وهي قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ﴾. ولم يقل: نبيكم. ولم يقل: محمد. ولم يقل أي

وصف آخر يصدق عليه ﷺ، بل قال: صاحبكم. لدلالة الصحبة على معنى المصاحبة، فهو ﷺ مصاحب لهم منذ نشأته بين أظهرهم، كما قال تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾. وهذه الصحبة لم تقطعها أسفار ولا غيبة، فلم يخرج عنهم إلى الشام، ولا إلى مصر، ولا إلى اليمن منفرداً عنهم. ومعنى هذه الصحبة والملازمة أنه لم يغب عن أنظارهم، وبالتالي يحصون عليه، ويعلمون منه كل تصرفاته قبل وبعد البعثة، وقد سجلوا على أنفسهم رضاهم به حكماً في قضية من أخطر قضاياهم، وهي وضع الحجر الأسود في مكانه، وقالوا: الأمين ارتضيناه. وعلى هذا كله فإنهم لم يشاهدوا منه ولم يسمعوا عنه أي نقيضة في ضلال ولا غواية، لو كانوا علموا عليه شيئاً من ذلك لكان أول ما يحتجون به عليه وعلى بعثته إليهم، أن يذكروه في معرض ما افتروا به عليه من نعته بما ليس فيه، من سحر وشعر وكهانة وبه جنة، إلى غير ذلك مما جاء في مخيلاتهم الكاذبة، وقد رده الله تعالى عليهم كله، بل إنه لو كان عندهم عليه شيء واقع منه فعلاً لكان أولى بالاحتجاج به مما لا وجود له أصلاً.

وزيادة على ذلك؛ فإن مستهل هذه السورة يقرعهم، ويجابههم، وينادي على رؤوس الأشهاد بأن صاحبكم هذا الذي تعرفونه ـ لم يخف عنكم من أمره شيء ـ لم يقع منه قط لا ضلال ولا غواية فلم يستطيعوا أن يأتوا بأي ادعاء ولو باطلاً، لأن من يأتي به منهم يكون معلناً على نفسه بالكذب والباطل، ويكون الواقع والمحسوس لديهم يرد عليه. وعليه فإن قوله سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾. حق وصدق بالوحي وبالعقل وبالواقع.

وعودة إلى علاقة المقسم به، وهو النجم في هويه ومساره منتظماً، وانتصابه علاماتٍ ووسائل هداية في البر والبحر، دون ما خلل ولا لبس عند صغيرهم وكبيرهم، في سفرهم وإقامتهم؛ وبين المقسم عليه ﷺ في مسلكه، ونفي الضلال والغواية عنه، نجد الترابط القوي، والتشابه البين، والعامل المشترك بين النجوم في سمائهم ومحمد ﷺ بين أظهرهم، أن **كلاهما** معصوم من الخطأ في مسيره، ومن الضلال والغواية في منهجه، ولكأنه في مجموعه يقول لهم: إن محمداً ﷺ هو نجم هدايتكم فاهتدوا به، كما تهتدون بنجم سمائكم سواء بسواء.

ومرة أخرى يقال: إن ما تقدم من نفي الضلال ونفي الغواية قد يكون من باب السلبيات، فأين الايجابيات في ذلك؟ فنقول: إنها موجودة من جانبين قطعيين:

الأول: جانب مفهوم المخالفة المسلّم به عند العقلاء، وهو أنه بنفي الضلال يلزم إثبات ضده وهو الاهتداء، وبنفي الغواية يلزم إثبات الرشاد، كما تقول: فلان ليس بخائن. فإنه يستلزم إثبات أنه أمين، وهكذا عند العقلاء، كما قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير: ٢٢]. فإنه يلزم إثبات وفرة العقل والإدراك والرشد.

والجانب الثاني: في إثبات الايجابيات، قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]. وبهذا يكون سبحانه قد نفى عنه ﷺ أن يكون قد ضل أو غوى، فبرأه من هذا النقص، ثم أثبت له أعلى صفات الصدق والأمانة وعوامل الرسالة والنبوة بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ فهو أرفع وأصون من أن يملي عليه هواه، أو أن يميل إلى حظ النفس. فكما سلم مسلكه، فقد عصم منطقه، فلا ينطق عن الهوى وظنونه، وأكد ذلك ببيان مصدر نطقه ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾. والوحي هو الإعلام بخفية، وجاء تأكيد هذا الوحي بقوله: ﴿يُوحَىٰ﴾. وهو في معنى المضارع للدلالة على أنه وحي يتجدد، فتتجدد صلته بالله سبحانه، ولما كان الوحي إعلاماً بخفية كما قدمنا، كقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ . . .﴾ [النحل: ٦٨]. وقد يعطى هؤلاء المجال للإيراد على ما يوحى به إليه أنه في خفاء، كشف لهم عن مصدر هذا الوحي، وأسنده إلى من يعلمه إياه، فقال سبحانه: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ٥ ـ ١٣]. وهذه كلها علاقة النبي ﷺ بجبريل الذي يأتيه بالوحي مأمونة مضمونة.

ونظير ذلك بنفس الأسلوب والسياق في سورة التكوير: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ الْجَوَارِ الْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ

﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ . . .﴾ [التكوير: ١٥ ـ ٢٧]. إلى آخر السورة. ولئن قال قائل: إن تلك المواقف والمشاهد كانت في غيبة عنهم عند سدرة المنتهى، فكيف يلزمون بمدلولاتها؟ فيقال لهم: لقد عاينوا صدق ذلك في حدث الإسراء والمعراج، بما أقام لهم من الشواهد المحسوسة، كوصفه بيت المقدس، وإخباره عن العير وما حدث لها، وموعد قدومها، والجمل الذي في مقدمتها، مما أيقنوا به أنه الحق، وبهذا قد أثبت لهم صدق الرسالة بالوحي الذي يوحى إليه، وعن طريق الذي يعلمه إياه، وقوة صلته به.

جـ ـ تتمة لمنهج الهداية في سورة النجم:

تأخذ السورة الكريمة في نظمها وأسلوبها منهجاً علمياً منطقياً، مبنياً على مقدمات ونتائج، وإيضاح الحقائق في صور مقارنات بين الحق والباطل، والهدى والضلال.

فبدأت في مقدمتها بإثبات الوحي بالأدلة الملموسة مع نفي موانعه عن رسول الله ﷺ، واستطردت ببيان طريق الوحي وعلاقته ﷺ بجبريل صاحب الوحي، وبعد ذلك عطفت على باطلهم، وإبراز بطلان عبادتهم، ونفي استحقاق العبادة لمعبوديهم، ليتم المنهج وتكتمل الحجة عليهم، وذلك بإثبات صحة الوحي ووجوب اتباعه بما جاء به من الهدى، وبطلان ما هم عليه حتى لا يبقى أمامهم إلا العودة إلى هذا الهدى في هذا الوحي. ولهذا بعدما بيّن صحة الوحي إلى قوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ انعطف إلى معبوداتهم فقال: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾. وهذه أصنام لهم يعبدونها، وهذه الثلاثة أعظمها عندهم، فكأنه يتساءل معهم: أخبروني عن مرئياتكم في أصنامكم تلك، والتي زعمتم أنها بنات الله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ [النجم: ١٧ ـ ٢٢]. جائرة.

وقد استنكر مقالتهم هذه في السورة قبلها ـ سورة الطور ـ ﴿أَمۡ لَهُ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الطور: ٣٩]. وتساءل معهم في الصافات: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ

﴿وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ١٤٩﴾ [الصافات: ١٤٩]. وقد بلغ عتبهم، وأظهر جورهم، وتحقيق أن قسمتهم هذه حقاً: ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ في سورة النحل بقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ٥٩﴾ [النحل: ٥٧ ـ ٥٩]. ولذا خاطبهم في آلهتهم اللات والعزى ومناة، وأنها ما هي إلا أسماء سموها بها، وهي أحجار من صنع أيديهم ما أنزل الله بها من سلطان، وبيّن سبحانه أن مستندهم في ذلك إنما هو اتباع الظن والهوى وإعراضهم عن الهدى كما تقدم.

ومن استكمال المنهج البياني وإعجازه أنه سبحانه بعد تفنيد عبادتهم إياها عقب على قضية مستقبلية لزعمهم في تلك الآلهة المزعومة، وهي قضية شفاعتها لهم عند الله، فقال سبحانه بعدها مباشرة: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ٢٦﴾ [النجم: ٢٦]. وهنا نلاحظ أيضاً عقد مقارنة ضمناً وبين طرفين أبعد ما يكون بينهما كبعد ما بين العدم والوجود، وهما الملائكة في السماء، منازل الرفعة والعلو والكرامة والتفضيل والقربى؛ وأصنامهم في الأرض، من صنع أيديهم ومصدر إضلالهم، وموضوع المقارنة فيما يدعونه من شفاعة آلهتهم، فيقول لهم: إن الملائكة المقربين على كثرتهم في السماء وعلو منزلتهم عند الله، لا تقي شفاعتهم شيئاً لأحد من خلقه، وإن كانت لهم فعلاً شفاعة، ولكن لا يتقدمون بها إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، سواء لمن يشاء منهم ويرضى، أم لمن يشاء للمشفوع فيه ويرضاه، وإذا كان حال الملائكة كذلك فكيف بالأحجار التي نحتموها بأيديكم، ونصبتموها معبودة لله؟ فهل هذه تكون أهلاً لشفاعة عند الله؟ حاشا وكلا.

ثم أظهر جهالتهم حتى بالملائكة، وأنهم ليس لديهم إلا الظن الكاذب فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ٢٧ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ٢٨﴾ [النجم: ٢٧ ـ ٢٨]. وهنا وقفة مع موقفين في هذا السياق:

الموقف الأول: في تلك الأسماء التي اخترعوها في موضعين: الموضع

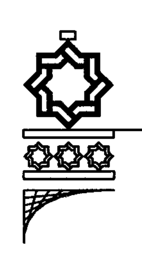
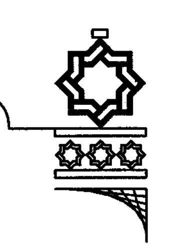
الأول لأصنامهم: (اللات) اشتقاقاً من الإله. (عزى) من العزيز. وهذه التسمية لم تغير من حقائقها، وما هي إلا أسماء سموها هم وآباؤهم. والموضع الثاني: تسميتهم الملائكة تسمية الأنثى. وهم في ذلك أيضاً ما لهم بذلك من علم إن يتبعون إلا الظن، وعليه فإن الأسماء لا تغير حقائق المسميات، فإذا جئت لعبد مملوك وسميته أميراً، فلن يصير بالتسمية أميراً، وكما جاء عنه ﷺ عمن يكون في آخر الزمان: «**يسمون الخمر بغير اسمها**». أي فلا يغير حكمها. وهكذا ما يحدث من إطلاق بعض الشعارات الخادعة المموهة بما يسمى خداع العناوين.

الموقف الثاني: في هذه المغاير في قوله سبحانه عنهم أولاً: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾. وقوله عنهم ثانياً: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾. وبالتأمل نجد ذلك عين المطابقة وسر البلاغة، حتى لو غايرنا بين اللفظين لما ناسب لفظ أحدهما محل الآخر. وذلك أن الموضع الأول جاء بعد تسفيه عقولهم في اتخاذهم اللات والعزى ومناة آلهة، وإجرائهم تلك القسمة الجائرة، ولم يكن لهم مستند إلا اتباع الظن وهوى الأنفس، فكانت مناسبة، والثانية جاءت بعد كفرهم بالآخرة وتسميتهم الملائكة تسمية الأنثى، وهم لم يعلموا حقيقة الملائكة كعلمهم باللات والعزى، فما كان لهم بالنسبة إلا اتباع الظن، وظنهم هذا أو غيره بل وإن عموم الظن الذي لا يستند إلى دلائل أو قرائن لا يغني من الحق شيئاً، فيكون هذا في موضعه هنا قاضياً على ما تقدم من عموم الظن كهذا لا يغني من الحق شيئاً، بخلاف الظن المحفوف بالقرائن وخاصة ـ بالمغيبات ـ فهو نظير العلم، كما في قوله عن المؤمن يوم القيامة: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقة: ٢٠]. يعني عملت واعتقدت. وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ . . .﴾ [البقرة: ٤٥ ـ ٤٦]. وعليه فالظن قسمان: قسم يحتف بقرائن، فهو نظير العلم، وظن تبع للهوى، ويشير إليه قوله تعالى: ﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]. أي: وبعضه ليس إثماً.

وبعد تصفية الموقف معهم، يخاطبه ﷺ بالإعراض عنهم، وكأنه قد بلغ العذر فيهم، فيقول سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ

ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [النجم: ٢٩، ٣٠]. وهذا بيان لحالة العلمانيين الذين لا يدينون ببعث ولا جزاء، ولا يؤمنون بمغيبات ولا بما لا يثبته عندهم العلم التجريبي، وأن ذلك هو مبلغهم من العلم فلا يتعدونه، كما قال تعالى في سياق تقريري طويل في سورة النمل ختمه بقوله: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ - أي قصر إدراكهم عنها - ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ﴾ [النمل: ٦٦]. أي: كما قالوا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٧]. وهذه قضية كل من لم يؤمن بالوحي، ولا بالبعث، فعلمه قاصر على هذه الحياة، وهؤلاء الشيوعيون توصلوا إلى علوم الذرة، ولم يهدهم علمهم إلى الله، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]. ونقول لكل مؤمن بالله: إن هؤلاء مهما بلغت علومهم، فهي مقصورة في علوم ظاهرة من الحياة الدنيا، أما المسلم فقد أعطاه الله علماً عمن قبله، وعلماً عمن بعده، بل إن الله أطلعنا على بعض المغيبات عن جميع الأمم قبلنا في مرئياته ﷺ ليلة الإسراء: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ [النجم: ١٤ - ١٨] فرأى الجنة ونعيمها، والنار وجحيمها، ورأى ثواب وعقاب الأعمال، ولكأننا شاهدناها في مشاهداته ﷺ إياها بما هدانا الله تعالى إليه.

* * *

آيات الهداية من سورة والنجم إذا هوى

جاء النص الكريم في إبطال عبادة المشركين معبوداتهم اللات والعزى، وإنما هي أسماء سموها هم وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، وأنهم لا يتبعون إلا الظن وهوى النفس، معرضين عن الهدى، ثم أبطل أمانيهم وأن لله الآخرة والأولى، ولا تتحقق أمنية لإنسان إلا بامتنانه سبحانه بها عليه.

ولما أبطل مساعيهم بأنها ما هي إلا اتباع الظن، وأبطل أمانيهم بأنها أوهام، جاء لأمر خارج ليكمل عليهم إبطال كل ما سوى الطريق الوحيد الذي تركوه ليعودوا إليه، وهو الحق الذي جاءهم من ربهم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

والطريق الخارجي هو تعلقهم بالشفعاء على أن يشفعوا لهم عند الله، سواء كان من معبوداتهم أو من غيرها، فقال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. وسياق الآية شديد الإنكار عليهم في مدلول: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي عدد كثير جداً في كل سماء ملائكتها: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. وهم على كثرتهم وعلو منزلتهم بالنسبة للشفاعة التي يتطلع إليها هؤلاء. لا تغني عن المعرضين عن الهدى شيئاً، إلا مأذون لهم فيها من الله تعالى، ومشروط فيمن يشفعون فيه أن يكون ممن رضي الله عنه، وإذا كان هذا هو حال الملائكة المقربين: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. فكيف بغيرهم؟

ومعلوم أن موضوع الشفاعة له دور فعال سواء في الدنيا بين الناس أم في الآخرة عند الله. وفي حدود هذا المؤلف المبارك ـ آيات الهداية ـ نقدم موجزاً على ضوء هداية آيات الكتاب وبيان من الأحاديث في ذلك:

أولاً: موضوع الشفاعة في الدنيا:

قالوا: إن الشفاعة مشتق من الشفع ضد الوتر، لأن الشفيع انضم إلى صاحب الحاجة فكان به شفعاً، وبه يتقوى عند المشفوع عنده، والذي عنده الحاجة المطلوبة. وهذا أمر واقع وداعية إليه الحاجة بين الناس، لاختلاف طبقاتهم، وحاجة بعضهم لبعض، مستشهدين بقول حاتم يخاطب النعمان:

فككت عدياً كلها من أسارها ... فأفضل وشفعتي بقيس بن جحدر

ويقول الآخر:

مضى زمن والناس يستشفعون بي ... فهل لي إلى ليلى الغداة شفيع

وكلما كان الشفيع ذا شرف، كان أرجى إلى قبول شفاعته، كما أنشدوا للأعشى:

تقول بنتي وقد قربت مرتحلاً ... يا رب جنب أبي الأوصاب والوجع

واستشفعت من سراة الحي ذا شرف ... فقد عصاها أبوها والذي شفع

وكذلك الشفيع المحب للمشفوع عنده كما قيل:

وليس الشفيع الذي يأتيك متزراً ... مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

يعنون الذي لا كلفة بينهما. وقد يقصد الشخص للشفاعة لحسن سمعته وعلو جاهه، وقال المبرد: أتى رجل لأشفع له في حاجة فأنشدني لنفسه:

إني قصدتك لا أدلي بمعرفة ... ولا بقرب ولكن قد فشت نعمك

فبت حيران مكروباً يؤرقني ... ذل الغريب ويغشيني الكرى كرمك

وقد حث النبي ﷺ على شفاعة ذوي الجاه، ووعدهم بالأجر فيما رُوي عن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جاءني طالب حاجة فاشفعوا له لكي تؤجروا»**. ويشهد له ما في الصحيحين عنه ﷺ: **«اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء»**. وجاء عنه ﷺ أنها صدقة الجاه كما قال: **«أفضل الصدقة أن تعين بجاهك من لا جاه له»**. وجاء عنه ﷺ: **«إن الله تعالى يسأل العبد عن جاهه كما يسأله عن عمره، فيقول له: جعلت لك جاهاً، فهل نصرت به مظلوماً، أو قمعت به ظالماً، أو أغثت به مكروباً»**. وأيضاً جاء: **«أفضل الصدقة صدقة اللسان»**. قيل: يا رسول الله وما صدقة اللسان؟

قال: «**الشفاعة تفك بها الأسير، وتحقن بها الدماء، وتجر بها المعروف إلى أخيك، وتدفع عنه بها كريهة**». رواه الطبراني في المكارم.

وقد يكون الشفيع أعلى منزلة من المشفوع عنده، كما كان رسول الله ﷺ في خصوص بعض أصحابه، من ذلك جابر بن عبد الله توفي أبوه مديناً في أوسق تمر ليهودي فعرض عليه أن يأخذ جذاذ نخله في دين أبيه، فأبى اليهودي مستقلاً ثمرة نخله، وأبى إلا كيلاً معدوداً، فشكا ذلك لرسول الله ﷺ فقال ﷺ: «**اقبل منه**». فامتنع اليهودي أن يقبل شفاعة النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «**إذا عزمت على جذ النخل فآذني**». ومشى ﷺ في النخل ودعا بالبركة، وقال له: «**جذ**» فوف اليهودي حقه، فوفاه وفضل له ما يكفيه.

ومن ذلك أيضاً في قضية بريرة لما عتقت وخيرت، فاختارت نفسها، فكان زوجها يتبعها في الطرقات لتعود إليه وتبقى على الزوجية، فعلم بذلك رسول الله ﷺ، فأشفق عليه فكلمها فيها، فقالت متأدبة: أآمرٌ أنت أم شافع يا رسول الله؟ فقال لها: «**بل شافع**». فقالت: لا حاجة لي فيه. وقولها هذا يساوي ردها لشفاعته ﷺ بلطف وتأدب، ومع ذلك لم يعاتبها ﷺ، ولم يحمل في نفسه منها مع أنها ـ فضلاً عن كونها من عامة المسلمين عليها واجب الطاعة ـ فهي عتيقة زوجه عائشة رضي الله عنها، مما يجعل أمام الشفعاء مثالاً لتقبل رد شفاعاتهم دون ما غضاضة، وقد جاء: من مشى في حاجة أخيه قضيت أو لم تقض كان له كذا. فعمل الشفيع هو التقدم بالشفاعة في حاجة من استشفع به، وليس عليه لزوم قضاء حاجته كما قيل:

على المرء أن يسعى إلى الخير جهده ... وليس عليه أن تتم المقاصد

ومما ينبغي أن يعلم أن هناك أموراً في بعض الحالات لا تحل فيها الشفاعة، لأن الأصل في الشفاعة هي السعي في مصلحة المشفوع له. فإذا كانت تلك المصلحة يترتب عليها مفسدة أكبر منها، فتسقط تلك المصلحة، ولهذا جاء في الأثر عند مالك في الموطأ: أن الزبير بن العوام لقي رجلاً قد أخذ سارقاً وهو يريد أن يذهب به إلى السلطان، فشفع له الزبير ليرسله، فقال: لا، حتى أبلغ به السلطان. فلعن الله الشافع والمشفع، يعني الذي يقبل الشفاعة في الحدود، وذلك لأنها تكون سبباً في تعطيل حكم الله، وبالتالي

إعانة أهل الفساد، ولهذا غضب ﷺ على أسامة بن زيد حب رسول الله وابن حبه، لما شفع في المخزومية بعد أن رُفع أمرها إليه، أما قبل ذلك فهو من ستر المسلم وإقالة ذوي العثرات، كما قال ﷺ لصفوان في شفاعته فيمن سرق رداءه، قال له: **«هلا كان ذلك قبل أن تأتيني به»**. وكما قال لخال ماعز: **«هلا سترته بردائك بدلاً من أن تأتيني به»**. والآثار عديدة، وقد جمع الله تعالى نوعي الشفاعة في قوله تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: ٨٥]. وهذه الشفاعة في الدنيا بين الناس أما الشفاعة في الآخرة فلها في آيات الكتاب منهج متكامل سنلم به إن شاء الله.

القسم الثاني: من الشفاعة ما سيكون يوم القيامة:

تقدم بيان القسم الأول من الشفاعة، وهو ما يكون بين الناس من بذل ذوي الجاه جاههم سعياً في مصلحة الآخرين، وتحصيل المشفوع لهم ما ينفعهم بسعي غيرهم، تطلع الناس إلى الشفاعة في الآخرة من ذوي الجاه عند الله لهم في حصول المغفرة والنجاة من النار، والفوز بالجنة، مما هو غاية كل مسلم في ذلك اليوم. ولكن لما كان حال اليوم الآخر مختلف تماماً عن حال الدنيا، فكان حال اليوم الآخر حال حساب وجزاء، وحال الدنيا عمل واكتساب، كانت الشفاعة في ذلك اليوم تختلف أيضاً عنها في الدنيا، وبما أن أحوال يوم القيامة كلها غيب، فهي من باب العقائد والإيمان بالغيب، ويتوقف فيها على النص، فلا يدرك بالعقل، وموضوعها من أهم المواضيع، وقد عني ببحثها علماء العقائد، فعقدوا لها الأبواب جملة وتفصيلاً، وقد اشتملت آيات الكتاب على منهج فيها متكامل من حيث إثباتها، ولمن هي، ومن له حق فيها، ومن الذي يستحقها.

وآية الهداية من سورة النجم التي نحن بصددها، جاء في سياقها بيان أطراف هذا المنهج، في قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. وهي أطراف أربعة:

١ ـ إثبات الشفاعة في الجملة.

٢ ـ شفيع مقرب.

٣ ـ مشفوع له صاحب حاجة.

٤ ـ الحاجة المشفوع فيها.

وقد فصلت آيات الكتاب وأحاديث المصطفى ﷺ شروط وأحكام تلك الأطراف:

أما إثبات الشفاعة: في ذلك اليوم، ولمن هي؟ ففي قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤]. ونلاحظ في قوله سبحانه: ﴿قُل﴾ في مقدمة الآية أن قبلها عرض وبيان تطلب أن يقول لهم ذلك، وهو من ثلاث آيات قبلها بدأ من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَاۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤١ ـ ٤٤]. فيبدأ السياق بالنص على إنزال الكتاب للناس بالحق لهدايتهم، ونتائج ذلك من اهتداء وضلال، ثم إقامة الدليل العملي على البعث بالميتة الصغرى ووفاة الأنفس بالموت، مما يلزم العقلاء منهم الإيمان والاهتداء بالكتاب المنزل إليهم، ثم التساؤل مع المعرضين عن الهدى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ يعتمدون عليهم ويتركون العمل بالكتاب المنزل إليهم، ثم أبطل مزاعمهم في اتخاذ الشفعاء من دون الله بعدم صلاحيتهم، فقال: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟﴾ يعني الشفعاء ﴿لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ومعلوم أن فاقد الشيء لا يعطيه، وفاقد العقل لا خير فيه، وبعد هذا الإبطال جاء بالحقيقة الواضحة: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ﴾ وحده، وشفعاؤهم لا يملكون منها شيئاً. ثم بيّن ما هو أعم من ذلك في حقه سبحانه: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي: بما فيها أنتم وشفعاؤكم. والمملوك لا يقدر ولا يملك التصرف في ملك سيده ومالكه، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ

تُرْجَعُونَ﴾ فرادى ليس معكم شفعاء فيشفعوا لكم، وجاءت نصوص أخرى تزيد هذا المعنى في هذا الجانب وضوحاً، منها قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ . . .﴾. وهو كذلك من عين السياق السابق ابتداء من قوله تعالى أول السورة: ﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [يونس: ١ ـ ٣]. فبدأ بالوحي والإنذار والبشرى، ثم بآيات القدرة في خلق السمٰوات والأرض، والعظمة في الاستواء على العرش والعلم والحكمة في تدبير الأمر لهذا العالم كله، ونفى الشفيع إلا من بعد إذنه سبحانه، وأنه سبحانه ربكم المستحق للعبادة وحده فاعبدوه. ثم بيّن سبحانه أن المرجع إليه، وأقام الدليل على البعث من أنفسهم أنه يبدأ الخلق، والذي يبدؤه فهو يعيده، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف: ٢٩]. وقوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]. ولما تساءلوا: ﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ أجابهم سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾.

وبعد ذلك كله قال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾. فبطل ادعاؤهم شفعاء يشفعون لهم، لأن الشفاعة جميعاً لله، ومن ذلك أيضاً قوله تعالى من سورة السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٤ ـ ٥]. فبيّن سبحانه أنه الخالق لهذا العالم، وبيّن العظمة في استوائه على العرش، وأنه مدبر أمر السماء والأرض، وبالتالي ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تذكرون فتتعظون.

ثم إن المرجع إليه سبحانه، وفي سورة الأنعام يأتي بيان أوضح، وتفصيل أوسع في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١]. فوجه النذارة للذين يخافون المعاد والحشر إلى الله ليس لهم في ذلك اليوم من دونه سبحانه ولي يتولاهم وينصرهم من الله، وليس لهم شفيع عند الله من دونه، لعلهم بهذا الإنذار يتقون مخاوف ذلك اليوم، ويكون لهم ما وعد الله تعالى به في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]. وفي ذلك توجيه إلى العمل بتقوى الله والخوف من لقاء الله. ثم يأتي من نفس السورة بيان حال الفريق الآخر الذين لم يستجيبوا لإنذار، ولم يعملوا لتلك الدار، فقال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنعام: ٧٠]. فهؤلاء أعرضوا عما جاءهم، واتخذوا دينهم لعباً ولهواً، كما قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ﴾ [النجم: ٢٩ ـ ٣٠]. ويدور معنى أن تبسل حول الهلاك بما كسبوا في الدنيا، ثم نفى عنهم الولي والشفيع، وزاد هنا نفي قبول الفداء والمعادلة، فيكون أبطل عليهم كل وسائل النجاة: من عدم الإيمان والعمل منهم، وعدم الولاية والشفيع، وعدم المفاداة، لأن المُلك كله لله، والأمر كله لله، والشفاعة لله جميعاً، فتبين بهذا كله أنه لا شفيع إلا من بعد إذنه سبحانه، وأن الشفاعة كلها لله وحده، وسيأتي إن شاء الله بيان الجوانب الأخرى للشفاعة من شفيع ومشفوع فيه.

نفي الشفاعة عن المشركين:

لقد اتخذ المشركون أنداداً لله، وعبدوا اللات والعزى، وقالوا: هم شفعاؤنا عند الله. فلا غرو أن يتطلعوا في ذلك اليوم العصيب إلى ما كانوا يزعمون ويتمنون ما كانوا يظنون.

وقد جاءت نصوص الكتاب تبطل عليهم أعمالهم، وتفند مزاعمهم،

وتحذرهم وتنذرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأعراف: ٥٢ - ٥٣].

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم﴾ خطاب موجه للمذكورين في الآية قبلها، وفيها بيان حالهم في الدنيا، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥١ - ٥٢]. فلم يتبعوا ما في كتاب الله، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، وغرتهم الحياة الدنيا، ونسوا لقاء ذلك اليوم، أي لم يعملوا له، ولم يؤمنوا به.

وبيّن سبحانه أن سبب نسيانهم ذلك اليوم هو جحودهم بآيات الله، وقد حذرهم الله موقفاً عصيباً، ومواجهتهم ندماً شديداً، ولات حين مندم، وذلك حين يواجهون تأويل الكتاب، يعني مصداقه وما يؤول إليه كل خبر جاءهم فيه مفصلاً، ويعاينون الحق، هناك يقولون معترفين: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يقول ذلك كل جاحد في كل أمة لما جاء به رسولها، والحال أنهم لم يؤمنوا، فلم يعملوا، وأحاطت بهم خطيئاتهم، وعاينوا الهلاك، فلا يملكون إلا الأماني: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ﴾ عند الله؟ ولما لم يجدوا بوادر أولئك الشفعاء، انتقلوا إلى أمنية أخرى: ﴿أَوْ نُرَدُّ﴾ أي: إلى الدنيا وقد عاينوا الحق ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾. نعمل صالحاً، ونتبع الرسل، وندع الشركاء، ونخلع الأنداد، فلم يجدوا شيئاً من ذلك كله، وتكون النتيجة قد حشروا أنفسهم بإهلاكها، وضل عنهم ما كانوا يفترون كذباً على الله تعالى. فهؤلاء تمنوا شفعاء أياً كانوا فيشفعوا لهم فلم يجدوا، حتى شركائهم في الدنيا ضلوا عنهم.

ومن الإعجاز البياني في هذا السياق: أن يأتي - بعد بيان حال أولئك المشركين - توجيه للمؤمنين: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ

﴿تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝٥٥﴾ [الأعراف: ٥٤ ـ ٥٥]. فيخاطبهم في ربوبيته سبحانه، وأنه خلق السموات والأرض، واستوى على العرش، وسخر تلك العوالم لهم: الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، وكلها عوامل تسيير حياتهم ليل نهار، فهي مسخرات لهم بأمره، ألا له سبحانه وحده الخلق والأمر، وهذا حصر للعالم ومجرياته.

فالخلق كل مخلوق، وهو كل ما سوى الله، فهو مملوك لله خالقه.

والأمر سواء ما يجمع على أمور أو على أوامر، فكل الأمور الجارية في هذا الكون لله وحده، وكل الأوامر الصادرة لهذه العوالم من الله وحده، سبحانه الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون، حقاً تبارك الله رب العالمين.

ومن هذا المنطلق يكون المنهج السليم: التوجه إلي الله بالدعاء في كل حال، وعلى جميع الأحوال: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾. والدعاء هو مخ العبادة، بل هو العبادة.

ثم يأتي نص صريح في نفي شفاعة شركائهم الذين كانوا يصدونهم في الدنيا، ويقولون عنهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله. فيقول سبحانه: ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝١١ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝١٢ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَـٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَـٰفِرِينَ ۝١٣ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ۝١٤﴾ [الروم: ١١ ـ ١٤]. فيبدأ السياق هنا أيضاً بإسناد بدء الخلق إليه سبحانه، وكذلك مرجعهم إليه سبحانه، ويخبرهم بإبلاس المجرمين وهلاكهم، وينفي أن يكون لهم من شركائهم شفعاء، وهناك يسقط في أيديهم، وتذهب أمانيهم، فيكفرون بشركائهم ويتبرؤون منهم.

ثم تقع الفرقة التي لا اجتماع بعدها، فيفرق الله بين أهل الحق وبين أهل الباطل كما بينه سبحانه بالآيتين بعدها بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ۝١٥﴾ [الروم: ١٥] غبطة ومسرة ونعيم مقيم. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ۝١٦﴾ [الروم: ١٦] وشتان ما بين الفريقين كما بين رياض الجنة وعذاب الجحيم، ولئن كان ذلك المشهد في الموقف بين المشركين وشركائهم، ومقارنة بين المشركين والمؤمنين، ومآل كل من الفريقين، فقد جاء في عموم القرناء والأخلاء في

الدنيا، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٧ ـ ٧٨].

فالأخلاء: جمع خليل، والخلة نهاية المحبة والصداقة، والناس في الدنيا تجمعهم مصالح ومبادئ عدة، وكلها تنتهي وتنقضي بالنهاية التي اجتمع كل منهم عليها إلا نوع واحد من تلك الخلة، وهي الإخاء في الله، وهو الصنف السابع ممن يظلهم الرحمن في ظله، يوم لا ظل إلا ظله: «**ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه**».

والنص هنا لم يقتصر على انتفاء روابط أولئك الأخلاء فحسب، بل ينص على أنهم ينقلبون إلى الضد، إلى العداوة، بعضهم لبعض عدو. مما يشعر أن خلتهم في الدنيا ما كانت تعود عليهم بالنفع إلا المتقون، فإن من التقوى أن يعين أحدهما الآخر على أفعال الخير، ولذا تمتد خلتهم إلى ما بعد الموت، وتصحبهم إلى أعلى منازل الجنة في أمن وطمأنينة، ينادون: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزخرف: ٦٨]. كما تقدمت لهم البشرى في الدنيا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ...﴾ [فصلت: ٣٠] إلى آخر السياق.

ثم فصل هنا ما أجمل في سورة الروم بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ وتفصيله بذكر النعيم في قوله: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٦٩ ـ ٧١]. إلى آخر السياق في بيان حال الفريقين، مع التنصيص على أن الميزان إنما هو العمل: ﴿وَتِلْكَ

﴿ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزخرف: ٧٢]. ردًّا على أولئك الذين تركوا العمل، وكذبوا الرسل، وزعموا شفاعة شركائهم، فهم في ذلك اليوم بشركائهم كافرون. نسأل الله السلامة والعافية.

إلزام المشركين الحجة في إبطال شفاعة آلهتهم:

قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

في هذا السياق الهداية بالتحدي: قل لهم: ادعوا الذين زعمتموهم آلهة، وعبدتموهم من دون الله، أي: ادعوهم لنصرتكم، أو ادعوهم ليقدموا إليكم أي: نفع على ما كنتم تزعمون، فإنكم إن دعوتموهم فستجدونهم صفر اليدين، لا يملكون مثقال ذرة، بل ولا أصغر منها، لا في السمٰوات ولا في الأرض، ولا يملكون من قطمير، وإذا كانوا لا يملكون شيئاً قط، فأي نفع يستطيعون تقديمه إليكم؟ وكما قيل: فاقد الشيء لا يعطيه. ومعلوم أن العالم أجمع في ذلك اليوم لا يملكون شيئاً، والملك كله لله وحده، كما قال ﷻ: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾ [فاطر: ١٥ ـ ١٦]. فلا ملك إلا لله، فهو مالك يوم الدين. وكما قال تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [يس: ٨٣].

ويقال للمشركين: أرونا شركاءكم ماذا وجدوا؟ إنهم إن كانوا أصناماً فهي من عمل أيديكم، وتعلمون أن السماء والأرض قائمة قبل وجودكم ووجود شركائكم، فلا سبيل لامتلاكهم فيهما ولا ذرة، وليست الأصنام ـ وهي جمادات ـ أهلاً لأن تملك، فليست ذات أهلية للتملك، وإن كان شركاؤكم فما زعمتم من الجن أو الإنس أو الشمس أو القمر أو النجوم، فإن ذلك كله مملوك لله، مسخر بأمره، فلا ملك لها لا في السماء ولا في الأرض.

ولما نفى سبحانه عن شركائهم مطلق ملك في السمٰوات والأرض، تدرج

معهم إلى ما هو دون الملك المستقل، فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ فنفى أن يكون لهم نوع شراكة مع الله في السموات أو في الأرض، وذلك أن الشريك قد يتصرف بمقتضى الشراكة، فيقدم بعض النفع لمن طلبه منه، ولكن هؤلاء الذين زعمتم قد انتفت عنهم مقتضيات المنفعة: من تملك، أو مشاركة، فلم يبق للتعلق بهم أي موجب، ولو تعلقتم بهم فلا يملكون لكم كشف الضر، ولا جلب النفع، فهو تعلق باطل؛ ويقال لهم: إن موجب المشاركة إنما هو العجز والاحتياج، والعجز عن الاستقلال بالملك سواء العجز في تكوينه، أو في تدبيره، فيحتاج إلى شريك معه يعينه ويسانده، وأنتم تعلمون أن السمٰوات والأرض كائنتان قبل وجود ما تزعمون من دون الله، خلقهن سبحانه ولم يعي بخلقهن، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف: ٣٣]. فهو سبحانه غني عن الشركاء، وليس لمن زعمتم من دونه لا ملك ولا شرك، لا في السموات ولا في الأرض، فأي تعلق بمن هذا حاله؟

ثم جاء بوجه آخر إتماماً لما تقدم، فقال تعالى: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي: ليس ﷻ ممن زعمتم من ظهير يظاهره ويعينه، لأنهم لا يقدرون على شيء، وهو سبحانه لا يعزوه شيء، فأي موجب لدى من زعمتموهم ليقدموا لكم عند الله نفعاً؟! فلا هم يملكون في ملكوته سبحانه مثال ذرة، ولا يملكون من قطمير، ولا هم شركاء معه في ملكه، ولا هم أعوانه على هذا الملك، فلم يبق لكم أي تعلق بهم لانعدام كل موجب عندهم، فلم يبق إلا طريقاً خارجاً عن هذا كله، وهو طريق السؤال والرجاء بالشفاعة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]. أي: أنه حتى هذا الوجه ليس فيه تصرف لمخلوق عند الله عن طريق إلا لمن يأذن له الله أن يشفع، فبإذنه تكون شفاعته، وأنتم تعلمون أنه لن يأذن لمن زعمتموهم آلهة، واتخذتموهم أنداداً لله، ومن هذا كله لم يبق لمن زعمتم أي طريق، لا بمقتضى التملك، ولا بمقتضى المشاركة، ولا بمقتضى المعاونة، ولا حتى بمقتضى الشفاعة.

ويأتي ختام هذا السياق بالتنبيه على عظمة المولى سبحانه، وخشية الملائكة، وهي صورة من صور أهوال ذلك الموقف. فيقول سبحانه: ﴿حَتَّىٰ

﴿إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. والضمير في قلوبهم للملائكة عند الجمهور، وذلك أنهم إذا تكلم المولى بالسماء، أخذتهم رجفة، لشد ما ينتابهم من خشية الله، وجلال عظمته سبحانه. حتى إذا فزع عن قلوبهم وأفاقوا، تساءلوا، سأل ملائكة السماء السابعة حملة العرش: ماذ قال ربنا؟ فيجيبونهم بقولهم: قال الحق، وهو العلي الكبير. فتخبر بها ملائكة كل سماء لملائكة السماء التي تليها، ومما يعطينا مدلولاً لهذا الختام الجليل، وما فيه من صورة الجلال لله سبحانه، هو أنه في ذلك اليوم يشتد الهول، حتى إن الملائكة ـ وهم عباد مكرمون ـ تكون هذه حالهم، فغيرهم لا شك أولى وأحرى. وسيأتي زيادة بيان لذلك عند إيراد قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وكما أسلفنا فإن أعلى أنواع الذين زعمهم هؤلاء هم الملائكة، وهذه هي حالتهم عند الله، فلم يبق للمشركين متعلق فيما يزعمون، لا عقلاً ولا نقلاً.

وقد جاءت نصوص تنفي الشفاعة عن جماعة مخصوصين، موصوفين تارة بالظالمين، وتارة بالمجرمين، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَـٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾ [غافر: ١٧ ـ ٢٠].

يبدأ السياق ببيان الجزاء العادل ﴿تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وتجازى على الإحسان إحساناً دون ما ظلم يقع عليهم، وفي ذلك اليوم لا محاباة لأولئك الظالمين، وليس لهم من حميم صديق، أو قريب أو شفيق بهم، وليس لهم من شفيع يطاع ويسمع منه ويجاب إلى شفاعته، فنفى عنهم الصداقة والخلة من أحد، ونفى عنهم الشفعاء، وذلك يوم الآزفة حين تبلغ الأهوال شدتها، وترتجف الصدور، وترتفع القلوب لدى الحناجر من شدة الخوف وكل يقول: نفسي نفسي. والله سبحانه يقضي بالحق، والذين يدعون من دونه لا

يقضونه لشيء، لأنهم لا يملكون شيئاً، ولا يعلمون شيئاً. أما المولى سبحانه فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ونفي الشفاعة من الظالمين هنا، هو عين نفيها عن المشركين، لأن الشرك أعظم الظلم: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]. ولكن إظهار هذا الوصف، تنبيه لأولئك الظلمة ليقلعوا عن ظلمهم وإن كانوا غير مشركين، فالظلم ظلمات يوم القيامة.

أما النص بخصوص المجرمين فقد جاء فيه تفصيل لأسباب عديدة منعتهم من الشفاعة، وهو في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٨]. فهؤلاء وإن كانوا من الكفار بتكذيبهم بيوم الدين، إلا أن تعدادهم تلك الأعمال: عدم الصلاة، وعدم إطعام المسكين، والخوض مع الخائضين. فإنها تعتبر جزء العلة في سلوكهم في سقر، مما فيه تحذير شديد من ارتكاب ما فعلوه، وإلا لما كان لذكرهم إياها موجباً.

بيان من تدركهم الشفاعة:

لعل من مفهوم آيات سورة المدثر ندرك في الجملة من الذين تدركهم الشفاعة وينتفعون بها، وذلك في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ [المدثر: ٣٨ ـ ٤٢]. فأصحاب اليمين قد أكرمهم الله في جنات النعيم، وهم فيما بينهم يتساءلون عن المجرمين، وعن أسباب مصيرهم إلى سقر. وكان الجواب بتعداد صفات وأعمال متنوعة، من مجموعها كان السبب من حرمانهم شفاعة الشافعين، إذ قالوا: ﴿لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾.

ويقول سبحانه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ ومفهوم ذلك: أن من لم يكذب بيوم الدين، ومن لم يخض مع الخائضين في تكذيب الرسل، وأركان

الإيمان، والجدل في دين الله بالباطل، وكانوا يطعمون المساكين: أنهم تنفعهم شفاعة الشافعين. ويشهد لذلك منطوقاً ومفهوماً قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤)﴾ [الحاقة: ١٩ ـ ٢٤]. فبين سبحانه أن من موجبات أخذه كتابه بيمينه، وكونه في جنة عالية، أنه ظن أنه ملاق حسابه. أي موقن بالبعث والجزاء، ومحاسب على عمله.

ثم جاء إلى مقابلة ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ﴾ أعاذنا الله والمسلمين ﴿فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧)﴾ إلى قوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) . . .﴾ ثم بيّن الموجب بقوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥)﴾ [الحاقة: ٢٥ ـ ٣٥]. إلى آخر السياق، ففيه أيضاً بيان لموانع الشفاعة ونفي الحميم، ومن مفهومه من تنالهم الشفاعة، وهم أهل الأعمال التي تركها أولئك وأعرضوا عنها، وقد قدمنا أن الشفاعة لله جميعاً، فلا تكون إلا من بعد إذنه، وقد جاءت النصوص الموضحة لذلك، وهذا الجانب من جوانب الشفاعة، هو محل العناية والاهتمام، فمن تلك النصوص قوله تعالى في سورة طه، في سياق يكشف عن شدة هول ذلك اليوم العصيب، وتغيير أوضاع العالم، وهو يوم تبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات، وهو يوم يجعل الولدان شيباً، يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، حقاً والله إنه يوم عصيب، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، إلى غير ذلك من شدة الأهوال، يأتي مجملها في هذا السياق من سورة طه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) ۞ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١١٢].

والسؤال عن الجبال ضمن سلسلة أسئلة سألوها عن الأهلة، والمحيض والشهر الحرام، والخمر والميسر، وغير ذلك. والجديد في هذا السؤال هو: أن كل سؤال جاء جوابه مصدر بلفظ (قل) دون الفاء، بخلاف هنا، والراجح أنها زيدت لما فيه من آية القدرة وشدة الهول. وينسفها نسفاً يذهبها، ويصيرها سراباً، ويبقى وجه الأرض مستوياً، لا ترى فيه عوجاً بانخفاض، ولا آمنا بارتفاع، يومئذٍ: أي يوم يقع ذلك في الأرض ونظيره في السماء ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾﴾ ونفخ في الصور، وأخرجوا من قبورهم، ودعاهم الداعي إلى المحشر، يتبعون الداعي لا عوج عنه.

قال القرطبي: لا يزيغون ولا ينحرفون، بل يسرعون إليه ولا يحيدون عنه، ويوضحه قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ق: ٤١ ـ ٤٤]. قال ابن كثير: كان أولى بهم أن يستمعوا الداعي في الدنيا.

وقوله سبحانه: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: بيان لحالة الخلائق لما يعتريهم من هول ذلك اليوم الذي نسف الجبال، وبدل الأرض غير الأرض والسمٰوات، فلا غرو أن تخشع الأصوات، ولا يقوى أحد على الجهر بالقول، وينقطع الحس، فلا تسمع في هذا الجمع العظيم إلا همساً.

قال القرطبي: فكل لسان ساكت هناك للهيبة.

وقال ابن كثير: سعي الناس إلى المحشر، وهو مشيهم في سكون وخضوع، وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [هود: ١٠٥]. فمن مجموع ذلك كله تظهر شدة هول ذلك اليوم.

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾. قال ابن كثير: إلا من أذن له من الشفعاء بالشفاعة. وقال القرطبي: يحتمل أيضاً إلا من أذن له من المشفوع له. ولعل الأرجح هو الإذن للمشفوع لهم، لأن السياق في تهويل الموقف والانتفاع بالشفاعة، إنما هو للمشفوع لهم، وعليه: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ لأحد من أهل الموقف إلا الذين

أذن لهم الله تعالى أن يشفع فيهم، وهم الذين رضي الله لهم قولاً.

عن ابن عباس: هو قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. ولعل مما يشهد لقول ابن عباس ما جاء في قوله تعالى في سورة الزخرف: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الزخرف: ٨٥ ـ ٨٦]. على معنى الاستثناء المنقطع، بمعنى: لكن من شهد بالحق. والشهادة بالحق أول ما تكون لا إله إلا الله.

فالمشركون الذين يدعون من دون الله لا يملكون الشفاعة، ولا تنفعهم شفاعة الشافعين، ومن شهد بالحق يملكونها، أي: تنالهم شفاعة الشفاعين، وكذلك السياق في سورة مريم: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾ [مريم: ٨٥ ـ ٨٧].

وحَشْرُ المتقين إلى الرحمن وفداً، أي: مكرمون، كالوفود التي تَرِدُ على الملوك في الدنيا، يكونون عادة من عِلية القوم وموضع حفاوة وتكريم.

وسوق المجرمين إلى جهنم ـ عياذاً بالله ـ ورداً، فإن السوق عادة لا يكون إلا للمجرمين، كسوق الحيوانات، وكفى تهويلاً أنهم يساقون إلى جهنم، أي: يُكرهون عليهم وهم في حالة شدة الظمأ، كورد الإبل حياض الماء، وهؤلاء لا يملكون الشفاعة، ولكن من اتخذ عند الرحمٰن عهداً تكون لهم الشفاعة، والعهد هو الإيمان. وعن ابن عباس ومجاهد والضحاك هو قول: لا إله إلا الله ولوازمها من دين الإسلام. ولعله يشهد له قوله ﷺ لمعاذ: «**أتدري ما حق الله على العباد، وحق العباد على الله؟**» فقال: الله أعلم ورسوله. فقال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن يدخل من لم يشرك به أحداً الجنة**».

ولعلنا في نهاية هذا المطاف ننبه أن الشفاعة يوم القيامة لا تنال إلا من شهد بالحق، ورضي الله له قولاً، واتخذ عند الله عهداً. وإن تفاوت الناس في العمل، ففضل الله عظيم، وسيأتي بيان من هم الشفعاء عند الله؟ وبيان شفاعة نبينا محمد ﷺ، سواء العظمى وهي المقام المحمود، أو الخاصة في الأمة، والله نسأل أن يشملنا بها فضلاً منه وكرماً.

من هم الشفعاء عند الله:

جاء في نصوص إثبات الشفاعة قوله تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. وفي سورة الأنبياء: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨]. فقد أثبت هذا النص أن الملائكة يشفعون، لكن بعد أن يؤذن لهم في الشفاعة، وهذا بإجماع المسلمين، يثبتون الشفاعة للملائكة، ومصداق ذلك قوله سبحانه في حق حملة العرش منهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْۖ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧ ـ ٩]. فهذا استغفار عظيم من الملائكة جاءت مقدمته ألطف ما تكون مناسبة، فيها الثناء عليه بسعة الرحمة، ومن منطلق هذه الرحمة الواسعة طلبوا من الله الرحمة بالمغفرة للذين تابوا وأن يقيهم عذاب الجحيم، ومع المغفرة والنجاة من الجحيم يسألونه إدخالهم الجنة تحقيقاً لوعده إياهم، ويطلبون أن يلحق بهم إكراماً لهم كل من صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وهم الطبقة الأولى من ذويهم، وأقرب الناس إليهم، وهذا من تمام الفضل وكمال النعيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ . . .﴾ [الطور: ٢١].

وفي سورة الشورى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ [الشورى: ٥]. فكل هذه النصوص من استغفار الملائكة للمؤمنين، والدعاء لهم بجوامع الخير، هو من شفاعتهم عند الله.

وقد بيّن تعالى الرابطة بين الملائكة ومؤمني الإنس بقوله تعالى: ﴿إِنَّ

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١]. فهذه ولاية الرحمة والاشفاق والإكرام برابطة الإيمان بين الطرفين. وقد طبقت فعلاً في الدنيا، إذ جاءت الملائكة مدداً للمسلمين في معارك الجهاد في سبيل الله، وستتحقق أيضاً في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾ [الرعد: ٢٢ ـ ٢٤]. فهذا السلام والتلقي بالتحية الطيبة من أقوى الموالاة من الملائكة لأهل الجنة، ويأتي عموم قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَـٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]. والصلاة من الله تعالى رحمة، ومن الملائكة دعاء، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]. صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه.

ومن مجموع كل ذلك يتحقق لنا: أن الملائكة شفعاء للمؤمنين عند الله، ولكن بالقيد المتقدم، لا يسبقونه سبحانه بالقول، وهم من خشيته مشفقون، فلا يتقدمون بالشفاعة لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لهم.

وبعد الملائكة يأتي قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ فيشعر بأن هناك شفعاء آخرين، ولكن لا يشفعون لأحد قط إلا بإذن الله لهم. وقد جاء عنه ﷺ تعداد أنواع من الشفعاء، أوردهم علماء العقائد والتوحيد، وما يجب الإيمان به على منهج أهل السنة والجماعة، ومن أنسب من تناولهم بالبحث: العالم الجليل «الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي» في منظومته المسماة «الدرة المضية في عقيدة الفرقة المرضية» وفي شرحه إياها المسمى «لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية». وهي المشهورة عند الناس بالسفارية نسبة إلى السفاريني قال في النظم:

فكن مطيعاً وقف أهل الطاعة ... في الحوض والكوثر والشفاعة

فإنها ثابتة للمصطفى كغيره من كل أسباب الوفا
من عالم كالرسل والأبرار سوى التي خصت بذي الأنوار

ثم شرح هذه الأبيات بقوله: فإنها ثابتة للمصطفى وغيره من الأنبياء، والشفاعة العظمى الخاصة بنبينا ﷺ بالنقل الصحيح بل المتواتر، وكذلك أرباب الوفا بامتثال الأوامر والانتهاء عن الزواجر، من عالم عامل بعلمه معلم لغيره، وهم الربانيون، وهؤلاء ورثة الأنبياء، فهؤلاء كما نفعوا الناس في الدنيا بالدلالة والتعليم، كذلك ينفعونهم بالشفاعة لهم عند المولى الجواد الكريم، فيقبل شفاعاتهم، ويعلي درجاتهم، ثم قال: كالرسل والأنبياء خواص الخلق من بني آدم، والأبرار وهم الأتقياء الأخيار، ثم قال: والحاصل أنه يجب أن يعتقد أن غير النبي ﷺ على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم عند ربهم يشفعون بقدر جاههم ووجاهتهم، يشفعون لثبوت الأخبار بذلك، وترادف الآثار على ذلك، وهو أمر جائز غير مستحيل، فيجب تصديقه والقول بموجبه. هـ.

ويلاحظ أنه رحمه الله بعد تعداد الشفعاء من الشهداء والصديقين وذكر الأبرار، ذكر الأولياء على اختلاف مراتبهم، وينبغي أن يعلم أن الأولياء لا يخرجون عن عموم المتقدم ذكرهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ ثم بيّن من هم أولياؤه سبحانه بقوله بعدها: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٣]. ولعله رحمه الله عني بالأولياء خواص الصالحين، وهم فعلاً درجات، فأدنى مراتب الولاية هو الإيمان، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧]. ولكن التفاوت في مراتب الأعمال كما في الحديث القدسي: «**أفضل ما تقرب إلي به عبدي ما افترضته عليه، ثم لا يزال يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها**» إلى قوله: «**ولئن سألني لأعطينه**». فهذه فعلاً مراتب ومقامات، ولا شك أن شفاعاتهم تكون على مقدار مقاماتهم.

وقد جاءت النصوص بذلك، منها على سبيل الإجمال: ما جاء عند ابن خزيمة من حديث أنس أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إن الرجل يشفع للرجلين والثلاثة والرجل للرجل**».

وعند الإمام أحمد في الزهد ص(٣٤٣): أن النبي ﷺ قال: «**ليخرجن من النار بشفاعة رجل ما هو نبي أكثر من ربيعة ومضر**». وكانوا يرون أنه عثمان بن عفان، أو أويس القرني رضي الله عنهما.

وعند الإمام أحمد في المسند (٣/ ٤٦٩) قال ﷺ: «**ليدخلن الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم**». قالوا: سواك يا رسول الله؟ قال: «**سواي**».

فثبتت الشفاعة للملائكة والأنبياء والشهداء والصديقين والعلماء والصالحين، كل حسب مقامه عند الله.

وهناك شفاعة الأطفال للوالدين، والقرآن والصيام، وأعمال موعود عليها بالشفاعة كسؤال الوسيلة للنبي ﷺ، والصبر على لأواء المدينة، وبعض الأعمال الأخرى على ما سيأتي بيانه إن شاء الله.

تفصيل أنواع الشفعاء عند الله وترتيبهم:

تقدم بيان الشفعاء عند الله من الملائكة والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين والعلماء، ثم الأطفال لوالديهم، والقرآن والصيام، وبعض الأعمال الموعود عليها بالشفاعة، وذلك على سبيل الإجمال، أما ترتيبهم وتفصيل القول فيهم فكالآتي:

يتفق الجميع على أن **أول الشفعاء عند الله هو نبينا وحبيبنا سيد الخلق أجمعين صلوات الله وسلامه عليه**. بل هو صلوات الله وسلامه عليه أول من تنشق عنه الأرض، وأول من يشفع في جميع أهل المحشر، وهي الشفاعة العظمى التي اختص بها، وهو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون على ما سيأتي إن شاء الله.

روى مسلم من طريق أبي هريرة والبيهقي من طريق جابر رضي الله عنه أنه ﷺ قال: «**أنا أول شافع، وأول مشفع**».

وعند ابن ماجه والبيهقي عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**يشفع يوم القيامة الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء**».

وعند البزار «**ثم المؤذنون**».

وقد جاء في شفاعة آدم عليه السلام عند الطبراني في الأوسط عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: **«يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته في مئة ألف ألف وعشرة آلاف ألف»**. أي ما يقارب العشرة في المئة من جميع ذريته.

أما شفاعة العالِم: فقال السفاريني: وأخرج ابن أبي عاصم والأصبهاني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يجاء بالعالم والعابد فيقال للعابد: ادخل الجنة، ويقال للعالم: قف حتى تشفع الناس»**.

وعند البيهقي في حديث جابر مثله، وفيه زيادة قوله: **«بما أحسنت أدبهم»**.

وأخرج الديلمي من حديث ابن عمر مرفوعاً: **«يقال للعالم: اشفع في تلامذتك ولو بلغ عددهم نجوم السماء»**.

وهذه الأحاديث وإن كان في أسانيدها مقال، إلا أنه يشهد لها ما جاء في فضل العالم على العابد كما في سنن الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»** ثم قال ﷺ: **«إن الله وملائكته وأهل السمٰوات والأرض حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير»**. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

ذكره المنذري وقال أيضاً: روى عن أبي ذر وأبي هريرة رضي الله عنهما أنهما قالا: بابٌ يتعلمه الرجل أحب إليّ من ألف ركعة تطوعاً. وقالا: قال رسول الله ﷺ: **«إذا جاء الموت لطالب العلم وهو على هذه الحالة مات وهو شهيد»**.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«يا أبا ذر، لأن تغدوا فتعلم آية من كتاب الله خير لك من أن تصلي مئة ركعة. ولأن تغدو فتعلم باباً من العلم، عُمل به أو لم يُعمل به خير لك من أن تصلي ألف ركعة»**. قال المنذري: رواه ابن ماجه بإسناد حسن.

وقد جاء عنه ﷺ: **«من راح إلى مسجدي لعلم يتعلمه أو يعلمه كان كمن غزا في سبيل الله»**. وهذا وأمثاله يبين فضل العلماء على العباد.

أما الشهيد: فقد جاء عند السفاريني قال: وأخرج أبو داود وابن حبان عن أبي الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته»**.

وعند الترمذي (٣/ ١٠٦) بسنده إلى ابن سعيد عن المقدام قال رسول الله ﷺ: «**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجاز من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه التاج تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**». قال عنه: حسن صحيح غريب.

وأما شفاعة الأفراط: فعن أحمد (٥/ ٣١٢) عن الحارث بن أقيش قال: كنا عند أبي برزة ليلة، فحدثنا ليلتئذٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من مسلمَين يموت لهما أربعة أفراط إلا أدخلهما الله الجنة بفضل رحمته**» قالوا: يا رسول الله وثلاثة؟ قال: «**وثلاثة**». قالوا: واثنان؟... الحديث.

وفي صحيح مسلم رحمه الله (٤/ ٢٠٢٩) قال: عن أبي حسان قال: قلت لأبي هريرة: إنه قد مات لي ابنان، فما أنت محدثي عن رسول الله ﷺ بحديث تطيب به أنفسنا عن موتانا؟ قال: نعم «**صغارهم دعاميص الجنة يتلقى أحدهم أباه** ـ أو قال: **أبويه** ـ **فيأخذه بثوبه** ـ أو قال: **بيده** ـ **كما آخذ أنا بثوبك هذا فلا يتناهى** ـ أو قال: **فلا ينتهي** ـ **حتى يدخله الله وأباه الجنة**» وهو للبخاري في الأدب ص(٦٣).

وعند أحمد رحمه الله (٢/ ٥١٠) إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من مسلمَين يموت لهما ثلاثة أولاد لم يبلغوا الحنث إلا أدخلهم الله وأباهم بفضل رحمته الجنة. وقال: يقال لهم: ادخلوا الجنة. فيقولون حتى يجيء أبوانا ثلاث مرات. فيقال لهم: ادخلوا الجنة أنتم وأبواكم**».

وعند الإمام أحمد رحمه الله (٥/ ٣٥) بسنده، أن رجلاً كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ: «**أتحبه؟**» فقال: يا رسول الله أحبك الله كما أحبه. ففقده النبي ﷺ فقال: «**ما فعل ابن فلان؟**» قالوا: يا رسول الله مات. فقال النبي ﷺ لأبيه: «**أما تحب أن لا تأتي باباً من أبواب الجنة إلا وجدته ينتظرك؟**» فقال رجل: يا رسول الله، أله خاصة أو لكلنا، قال: «**بل لكلكم**».

وهنا نقف مع والد ووالدة رزق أحدهما بفقد مولود له، لا لنعزيه وإن كان

يستحق التعزية، ولكن لنهنئه على ما جعل الله لهما من واسع رحمته عوضاً عما فاتهما. ونحب أن نؤكد على ضرورة الصبر والاحتساب، وكما قال ﷺ: «**إنما الصبر عند الصدمة الأولى**». ولا شك أن لله ما أعطى ولله ما أخذ.

شفاعة الحاج: وللحاج شفاعة يشفع بعضهم في بعض، ويشفع بعضهم لمن دعا له. فمن الأول ما جاء عنه ﷺ قال يوم عرفة: «**أيها الناس إن الله تطول عليكم في هذا اليوم فيغفر لكم إلا التبعات فيما بينكم، ووهب مسيئكم لمحسنكم، وأعطى محسنكم ما سأل، اندفعوا بسم الله، فإذا كان** «بجمع» قال: «**إن الله قد غفر لصالحكم، وشفّع صالحكم في طالحكم، تنزل المغفرة فتعمهم، ثم تفرق المغفرة في الأرضين، فتقع على كل تائب ممن حفظ لسانه ويده...**» إلى آخر الحديث، مصنف عبد الرزاق (٥/١٧).

وفي الترغيب والترهيب الحديث الطويل في سؤاله ﷺ وهو بمسجد الخيف بمنى، وسئل عن فضل الحج وما للحاج فيه، فذكر أجر السفر والطواف والسعي، إلى أن جاء ليوم عرفة، فقال: «**إذا كان عشية يوم عرفة ينزل ربنا إلى سماء الدنيا فيباهي بأهل الموقف ملائكته**»، إلى قوله: «**فيقول سبحانه: أفيضوا مغفوراً لكم ولمن شفعتم فيه. شفاعة السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب**». جاء ذلك بأسانيد فيها معلات، ولكن يشهد بعضها لبعض، ويقوي بعضها بعضاً.

منها عند الآجري في كتاب الشريعة (٣٤٣): عن أبي هريرة مرفوعاً: قال ﷺ: «**سألت ربي الشفاعة لأمتي فقال: لك سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. قال: قلت: زدني قال: فحثا بين يديه وعن يمينه وعن شماله**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: حسبنا يا رسول الله. فقال عمر رضي الله عنه: يا أبا بكر دع رسول الله ﷺ يكثر لنا كما أكثر الله عز وجل. فقال أبو بكر: إنما نحن حفنة من حفنات الله عز وجل.

وفي رواية الطبراني: «**مع كل ألف سبعون ألفاً**».

وفي تفسير ابن كثير عن الطبراني أيضاً: «**ويشفع كل ألف لسبعين ألفاً**». فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ فبلغ أربعمئة ألف ألف وتسعين ألفاً، وهو فوق الأربعة مليارات.

وهناك شفاعات لبعض الناس على حسب مراتبهم عند الله تعالى:

فعند الترمذي إلى أبي سعيد ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ـ** أي الجماعة ـ **ومنهم من يشفع للقبيلة، ومنهم من يشفع للعصبة. ومنهم من يشفع للرجل حتى يدخلوا الجنة»**.

وآثار أخرى أنه ﷺ قال: **«إن من أمتي لمن يشفع لأكثر من ربيعة ومضر»**.

ومن الأعمال الموعود عليها بالشفاعة: القرآن، وسورة الملك وغيرها، والصيام، وسؤال الوسيلة للنبي ﷺ، وكثرة الصلاة والتسليم عليه، والصبر على لأواء المدينة وشدتها، والموت بها، والحجر الأسود والإسلام يشفع لأهله، وسنلم بتفصيل ذلك.

الأعمال الموعود عليها بالشفاعة:

أولاً: شفاعة القرآن وحملته:

ممن أكرمهم الله بالإذن لهم بالشفاعة عند الله أولئك الذين أكرمهم في الدنيا بحفظ كتابه. وكما في أثر عبد الله بن عمر ﷺ مرفوعاً إلى النبي ﷺ: **«من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه، غير أنه لا يوحى إليه. لا ينبغي لصاحب القرآن أن يجد مع من وجد، ولا يجهل مع من جهل وفي جوفه كلام الله»**. رواه الحاكم صحيح الإسناد. وهذا مما كرم الله تعالى به من شاء من عباده في الدنيا، فكذلك يكرمهم يوم القيامة، فيأذن لهم في الشفاعة. فروي عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«من قرأ القرآن فاستظهره، فأحل حلاله، وحرم حرامه، أدخله الله به الجنة، وشفعه في عشرة من أهل بيته، كلهم قد وجبت لهم النار»**. رواه ابن ماجه والترمذي واللفظ له، وقال: حديث غريب. وهذا الحديث وإن قال عنه الترمذي: غريب. فإنه يشهد له ما تقدم في شفاعة العالم، لأن من استظهر القرآن وأحل حلاله وحرم حرامه هو العالم فعلاً. والأحاديث في فضل حملة كتاب الله عديدة.

أما شفاعة القرآن: فقد جاء عنه ﷺ عند الإمام مسلم عن أبي أمامة الباهلي ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«اقرؤوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»** وعند مسلم: **«والقرآن حجة لك أو عليك»**.

وجاء فيه وفي الصوم عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: **«الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: رب إني منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعني فيه. ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيشفعان»**. رواه أحمد وابن ماجه وابن أبي الدنيا. ويشهد لهذا الحديث عموم قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٥ ـ ١٧].

وفي هذا المعنى ما اختص به ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]. وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

وقد جاء في خصوص بعض السور أنها تشفع لقارئها، كما في حديث أبي أمامة المتقدم فإن فيه: **«اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه. اقرؤوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما. اقرؤوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»**. والبطلة: قيل: هم السحرة. وقد عرف الصحابة ﷺ فضلها فكانوا يقولون: من أخذ البقرة فقد عظم في أعينهم. ومكث عليها ابن عمر ﷺ خمس سنوات يحفظها خمساً خمساً. أي: خمس آيات قال: نحفظها ونتعلمها ونعمل بها. ولما فرغ منها نحر جزوراً فرحاً بذلك وشكراً لله تعالى.

ومن ذلك أيضاً شفاعة سورة الملك: فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: **«إن سورة في القرآن ثلاثون آية، شفعت لرجل حتى غفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك»**. رواه أبو داود وغيره.

وعن ابن عباس ﷺ قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها. فقال النبي ﷺ: **«هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر»**. قال المنذري: رواه الترمذي وقال: حديث غريب.

ومن الأعمال الموعود عليها بالشفاعة كثرة الصلاة والسلام على النبي ﷺ، والأحاديث في فضل الصلاة والسلام على النبي ﷺ مستفيضة، ويكفي نص القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦]. وجاء عنه ﷺ من حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة**». رواه الترمذي وابن حبان.

قال الصنعاني في سبل السلام: المراد أحقهم بالشفاعة أو القرب من منزلته في الجنة.

وعند البخاري في الأدب المفرد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وترحم على محمد وعلى آل محمد، كما ترحمت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم، شهدت له يوم القيامة بالشهادة، وشفعت له**».

ومن ذلك سؤال الوسيلة للنبي ﷺ مع الصلاة عليه؛ كما في صحيح مسلم رحمه الله بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله بها عليه عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة**».

وفي مصنف ابن أبي شيبة (١/ ٢٧٧) في الذكر عند إقام الصلاة: فإذا قال: حي على الصلاة. فقل: لا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا قال: قد قامت الصلاة. فقل: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، أعط محمداً سؤاله يوم القيامة. فلن يقولها رجل حين يقيم إلا أدخله في شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة. صلوات الله وسلامه عليه.

ومما يستدعي الانتباه مجيء طلب الوسيلة للنبي ﷺ عقب سماع الأذان خاصة دون التلاوة، أو عقب الصلاة وغير ذلك. ولعل المناسبة هي أنه ﷺ قد ذكر في الأذان تشريفاً وتكريماً، وهذا أعلى درجات الرفعة، كما جاء عن بعض العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ۝٤﴾. فكان من تكريمه

ورفعة شأنه أن أفرده الله تعالى بالوسيلة، وهي المنزلة الرفيعة في أعلى الجنة، ولا تكون إلا لعبد واحد فينفرد بها كما انفرد بالذكر في الأذان.

ومن الموعود عليه بالشفاعة: سكنى المدينة والصبر على لأوائها وشدتها، بل والموت فيها لمن استطاع.

وعن سكناها جاء في الموطأ عند مالك رَحِمَهُ اللهُ بسنده إلى ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أنه أتته مولاة له زمن الفتنة تسلم عليه، فقالت: إني أردت الخروج يا أبا عبد الرحمٰن، اشتد علينا الزمان. فقال لها: اقعدي لكع فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً ـ أو شهيداً ـ»**. واللأواء: الأمراء، والأزمات. والشدة: الحاجة والفاقة.

وقد استفاض عند أهلها أنه قل أن يأتيها إنسان للإقامة فيها إلا وقع له من ذلك ما يشبه الامتحان، ويشهد لذلك ما في الموطأ أيضاً. أن أعرابياً بايع النبي ﷺ فأصاب الأعرابي وعك بالمدينة، فأتى رسول الله ﷺ يستقيله بيعته، فأبى ﷺ أن يقيله. وعاود ثلاث مرات. ثم خرج الأعرابي فقال ﷺ: **«إنما المدينة كالكير تنفي خبثها وينصع طيبها»**. ولعل ـ والله تعالى أعلم ـ أن يكون ذلك بمثابة الامتحان، ليظهر صدق عزيمة من هاجر إليها لله ولرسوله. وقد يستأنس لذلك بظاهر قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ . . .﴾ [الممتحنة: ١٠]. مع أن المهاجرين من الرجال لا يمتحنون، لأن كل مهاجر منهم إنما يوقن أنه بهجرته سيجاهد في سبيل الله، وقد يبذل ماله كما فعل صهيب. وعمومهم أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، والله أعلم.

أما الشفاعة لمن مات بها: فقد روى الترمذي رَحِمَهُ اللهُ عن ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أن النبي ﷺ قال: **«من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها، فإني أشفع لمن يموت بها»**. وجاء عنه ﷺ: **«أنها أحب بقعة على وجه الأرض إليه أن يموت بها»**. كما في الموطأ: أنه ﷺ حضر دفن جنازة بالبقيع، فجاء رجل فنظر في الحفرة فقال: بئس مضجع الرجل. فقال ﷺ: **«بئس ما قلت»**. فقال الرجل: عنيت الشهادة في سبيل الله يا رسول الله. فقال ﷺ: **«لا شيء مثل الشهادة في سبيل الله، وما من بقعة على وجه الأرض أحب إليّ أن يكون قبري بها منها»**.

وذكر أُبَي بن كعب أو كعب الأحبار: أنا نجد اسمها «كفتة» لأنها تؤخذ بأهلها فتكفتهم في الجنة.

وصح عنه ﷺ: **«أنها أول مقبرة تنشق عنها الأرض ثم «المعلاة» بمكة»**.

وأيضاً جاء ﷺ: **«من مات في أحد الحرمين استوجب شفاعتي، وكان يوم القيامة من الآمنين»**. وقد حقق الله لرسوله ما أحب، فكان قبره في بيته، ومعه صاحباه، وكذلك حققت لعمر أمنيته: اللهم ارزقني شهادة في سبيلك، وميتة في بلد رسولك.

نسأل الله تعالى أن يتم علينا نعمة الإقامة بها في الحياة وبعد الممات، وأن يدخلنا سبحانه في شفاعة حبيبه وشفيعه، وأن يحقق أمنية كل مؤمن بفضله وإحسانه.

الشفاعة المحمدية:

إن خير ما نختم به حديثنا عن الشفاعة لهو عن أعظمها وأوسعها، والتي هي محط الرحل عند العلماء في دراساتهم ومؤلفاتهم، وهي ما اختص به شفيع الأولين والآخرين سيد الخلق أجمعين، سيدنا ونبينا محمد ﷺ، وهي الشفاعة العظمى التي تشمل أهل الموقف جميعاً من لدن أبيهم آدم عليه السلام إلى آخر الأمم، وهو المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، وذلك حين يحشر الله الخلائق ويقومون في صعيد واحد، ويشتد عليهم الموقف، وتدنو الشمس منهم إلى قدر الميل، ويأخذهم العرق كل بحسب حاله، فمنهم إلى قدميه، ومنهم من يلجمه، ويموجون يستشفعون لمن يشفع لهم عند ربهم ليجيء لفصل القضاء، فيلهمون بسؤال آدم فيعتذر ويحيلهم على غيره، وغيره يعتذر كذلك إلى أن يصلوا إلى نبينا محمد ﷺ، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: **«أنا لها أنا لها»**.

وهذه الشفاعة مجمع عليها عند الأمة بجميع طوائفها، وأنها خاصة به ﷺ.

قال الإمام السفاريني: قد وردت من حديث الصديق وأنس وأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وحذيفة، وعدَّ أربعة عشر صحابياً رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، وقال: أخرج أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم من حديث

أنس رضي الله عنه. . . وساق الحديث مختصراً. أما في الطحاوية فقد قال: ففي الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين أحاديث الشفاعة. . ، وساق حديث أبي هريرة مفصلاً وهذا نصه:

قال: أُتي النبي ﷺ بلحم فدفع إليه منها الذراع ـ وكانت تعجبه ـ فنهس منها نهسة ثم قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون لم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد.**

فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون إلى ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم عند ربكم؟ فيقول بعضهم لبعض: أبوكم آدم. فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما بلغنا؟

فيقول نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، نفسي نفسي، وإنه كان لي دعوة دعوت بها على قومي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم.

فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله ـ وذكر عذره ـ نفسي نفسي، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى.

فيأتون إلى موسى، ويقولون: يا موسى أنت رسول الله، اصطفاك برسالاته وبكلامه وبتكليمه على الناس، اشفع لنا إلى ربك.

فيقول لهم كما قال من قبل، ويعتذر بأنه قتل نفساً لم يؤمر بقتلها، ويقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى.

فيأتون عيسى، فيقولون له ما قالوا لغيره من قبله، ويقولون: أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد، فاشفع لنا.

فيقول لهم ما قال مَن قبله، ولم يذكر ذنباً، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتوني فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم النبيين، غفر الله لك ذنبك ما تقدم منه وما تأخر، فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

فأقوم فآتي تحت العرش، فأقع ساجداً لربي ﷻ، ثم يفتح الله عليَّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي.

فيقال: يا محمد: ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع.

فأقول: يا رب أمتي أمتي، يا رب أمتي أمتي.

فيقول: أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء فيما سواه من الأبواب».

وفي مسند أحمد: «فيأتوني فأقول: أنا لها، أنا لها، فأستأذن على ربي فيؤذن لي...» إلخ.

وعند الطحاوي من حديث الصور: فيذهب ﷺ فيسجد تحت العرش في مكان يقال له: «الفحص» فيقول الله: «ما شأنك؟ وهو أعلم»، قال ﷺ: «فأقول: يا رب وعدتني الشفاعة، فشفعني في خلقك فأقض بينهم. قال: فأرجع فأقف مع الناس». ثم ذكر انشقاق السمٰوات، وتنزل الملائكة في الغمام، ثم يجيء الرب ﷻ لفصل القضاء، والكروبيون والملائكة المقربون يسبحون بأنواع التسبيح.

قال: «فيضع الله كرسيه حيث شاء من أرضه، ثم يقول: إني أنصت لكم منذ خلقتكم إلى يومكم هذا، أسمع أقوالكم، وأرى أعمالكم، فأنصتوا إلي فإنما هي أعمالكم وصحفكم تقرأ عليكم، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

وذكر حتى إذا أفضوا إلى الجنة شفع لهم ﷺ بدخول الجنة.

كما قال ﷺ: «**فإذا أفضى أهل الجنة إلى الجنة، قالوا: من يشفع لنا إلى ربنا فندخل الجنة**». وذكر استشفاعهم بالأنبياء، واعتذارهم حتى أتوا إليه ﷺ.

قال: «**فآتي إلى الجنة فآخذ بحلقة الباب، ثم أستفتح فيفتح لي، فأُحيا ويرحب بي**».

وبعض الألفاظ: «**فيقول رضوان خازن الجنة: من؟ فأقول: أنا محمد. فيقول: أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك**». ابن كثير في النهاية (٢/ ٩٦).

وذكر ابن كثير في النهاية (٢/ ١٦٩) تحت عنوان (الشفاعة العظمى) قال: وثبت في الصحيحين قال ﷺ: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر**... ومنها: **وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة**».

قال: ويعني بالشفاعة الشفاعة العظمى. وقال: «**أول من تنشق عنه الأرض، وأول شافع، وأول مشفع** ـ وفي رواية ـ: **وفي يدي لواء الحمد من لدن آدم فما دونه**».

هذا ملخص ما ساقه العلماء رحمهم الله في الشفاعة العظمى التي خص الله بها نبينا ﷺ، وهي المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، والتي تشمل جميع الأمم بما فيهم الأنبياء والمرسلون صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولن يخفى على مسلم أن أمور القيامة كلها غيب، ومن باب العقائد، وأن الواجب على كل مسلم تلقي كل ما صح عنه ﷺ فيه بالقبول والتسليم، دون تساؤل عن كيف ولا تأويل، كما جاء في مجيء المولى لفصل القضاء، وقد قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]. ووضع الكرسي حيث شاء من أرضه مع مجيء قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾. والدروس والعبر في صورة شدة هول ذلك اليوم، واعتذار أنبياء الله ورسله خوفاً أو حياء من الله:

أما اعتذارهم: فهو من باب علو مقاماتهم، وإلا فإن أكل آدم من الشجرة فشيء قدّر عليه قبل أن يخلق بأربعين عاماً، كما قال لموسى عليه السلام.

وأما دعوة نوح: فمن كان بوسعه أن يصبر على قومه الألف سنة إلا خمسين عاماً؟

وأما إبراهيم: فقوله عن سارة: أختي، أي في الإسلام. وقوله: بل فعله كبيرهم هذا. فهو تعريض بسخافة عقولهم، لتصريحه بقوله: إن كانوا ينطقون.

وأما قتل موسى لنفس، فإنها نفس من عدوه، قتلها في ذات الله.

وأما عيسى فلم يذكر ذنباً، والبعض يذكر أنه اتُّخذ ولداً لله، وأي ذنب له في عمل الغير.

ومرة أخرى إذا كانوا يعنون ذلك ذنباً، فما بال الأمة فيما ترتكب وتتساهل؟ اللهم إلا أن يتداركنا الله بلطفه، ويشملنا برحمته، ويدخلنا في شفاعة نبينا محمد صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم. وهناك أنواع من الشفاعات الخاصة به ﷺ نوردها فيما يأتي إن شاء الله، نسأل الله أن يشملنا بها.

ما بعد الشفاعة العظمى: أول من يشفع لهم ﷺ:

جاءت نصوص عديدة أنه بعد الشفاعة العظمى التي كرم الله تعالى بها نبينا محمداً ﷺ، وفضله على جميع النبيين في ذلك الموقف العظيم، وأنزله به المقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون حين يشفع لهم عند الله لفصل القضاء، فيشمل أهل الموقف جميعاً.

فإن هناك شفاعات متعددة له ﷺ في حالات متنوعة: أولها شفاعته ﷺ لأهل بيته، ثم لأهل المدينة المنورة، ثم لأهل مكة، وشفاعته ﷺ لأقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة، وشفاعته ﷺ لأناس قد أمر بهم إلى النار فلا يدخلونها، وشفاعته ﷺ فيمن يدخلون الجنة بغير حساب، وشفاعته ﷺ في رفع درجات أهل الجنة فوق ما يستحقونه بأعمالهم.

وقد يكون من خصائصه ﷺ: شفاعته في تخفيف العذاب عن بعض أهل النار، وشفاعته في أهل الكبائر من أمته.

ولا شك أن هذه الشفاعات بعد شفاعته ﷺ لأهل الموقف في فصل القضاء، وشفاعته لأهل الجنة في دخول الجنة، أنها فيوضات فضل المولى سبحانه على حبيبه، وصفيه، وخير خلقه، وخاتم رسله صلوات الله وسلامه

عليه وعلى جميع رسله، ومن أكرمهم الله بشفاعتهم. وآمل بيان تلك الشفاعات على ضوء النصوص الواردة فيها:

أولاً: أول من يشفع فيهم ﷺ:

جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول من أشفع له من أمتي أهل بيتي، ثم الأقرب فالأقرب، ثم الأنصار، ثم من آمن بي واتبعني من اليمن، ثم سائر العرب، ثم الأعاجم، ومن شفعت له أولاً أفضل**». هكذا عن الحافظ الخطيب.

وفي مجمع الزوائد (١٠/ ٣٨٠): «**وأول من أشفع له أولو الفضل**». وعزاه إلى الطبراني وغيره، وقال: فيه رجال لم أعرفهم. والحديث يدور على الأولوية، وهو من قبيل المناقب، وفيه البداءة بآل بيته ﷺ.

ومن هذا القبيل ما جاء في مجمع الزوائد عن جابر بن عبد الله قال: كان لآل بيت رسول الله ﷺ خادم تخدمه يقال لها: «برة»، فلقيها رجل فقال: يا برة غطي شعيفاتك ـ أي من شعرها ـ فإن محمداً لن يغني عنك من الله شيئاً، فأخبرت النبي ﷺ، فخرج يجر رداءه محمرة وجنتاه، وكنا معشر الأنصار نعرف غضبه بذلك، فأخذنا السلاح ثم أتيناه، فقلنا: يا رسول الله مرنا بما شئت، فوالذي بعثك بالحق لو أمرتنا بأمهاتنا وآبائنا وأولادنا لأمضينا قولك فيهم. فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: «**من أنا؟**» قلنا: أنت رسول الله. فقال: «**نعم ولكن من أنا؟**» فقلنا: أنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف. قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأول من تنشق عنه الأرض ولا فخر، وأول داخل الجنة ولا فخر، ما بال قوم يزعمون أن رحمي لا ينفع، ليس كما زعموا، إني لأشفع، وأشفع حتى أن من أشفع له يشفع فيشفع، حتى أن إبليس ليتطاول في الشفاعة**». وقال: رواه الطبراني في الأوسط وذكر ضعف السند وتوثيق لرجاله.

فهذا يشهد لتقديم آل بيته، وقد يقول قائل: إنه يعارضه الحديث الصحيح: «**يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً**». فيقال: إنه من باب الحث والحرص، ولن يغني بذاته إلا بشفاعة من الله، فلا تعارض. وقد يعتضد ذلك المعنى بعموم قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]. من

حيث التقديم والتخصيص، مع قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وأما أهل المدينة: فقد جاءت أوليتهم في أول من تنشق عنهم الأرض يوم القيامة بعد النبي ﷺ وصاحبيه رضوان الله تعالى عليهم، ثم أهل المعلاة بمكة. فهذه أوليات قد يساند بعضها بعضاً، وكلها من باب المكارمات والتشريف، وجاء كذلك النص عند البخاري في التاريخ عن عبد الله بن عمارة: حدثنا سعيد بن السائب وساق بسنده إلى عبد الملك بن عباد بن جعفر أن النبي ﷺ قال: «**أول من أشفع له أهل المدينة**». فهذا كما سمعنا من أحاديث البخاري ـ وإن كان في التاريخ ـ فإنه يشهد للأول، وقد ساقه صاحب أسد الغابة (٣/ ٥١٠)، وفي الجامع الصغير، وفي مجمع الزوائد، وفي الإصابة، وكلها مراجع متداولة، ولا يفوتنا أن آل البيت وأهل المدينة يجتمعون، حيث إن جميع زوجات النبي ﷺ ما عدا خديجة رضي الله عنهن أجمعين قد توفين بالمدينة، وكذلك بناته وأولاده وأعمامه حمزة وبنو أعمامه، فلا تعارض تقريباً بين المضمونين، جعلنا الله معهم في شفاعته ﷺ.

ومن تلك الشفاعات لنبينا ﷺ: **شفاعته لأناس قد أمر بهم إلى النار:** قال ابن كثير في النهاية (٢/ ١٧١): النوع الثاني والثالث ـ أي من الشفاعة، بعد الشفاعة العظمى ـ شفاعته في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار أن لا يدخلوا. وساق عن أبي بكر بن أبي الدنيا بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينصب للأنبياء يوم القيامة منابر من ذهب فيجلسون عليها، قال: ويبقى منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي الله** عز وجل منتصباً بأمتي مخافة أن يبعث بي إلى الجنة ويبقي أمتي بعدي. فأقول: يا رب أمتي. فيقول الله: يا محمد وما تريد أصنع بأمتك؟ فأقول: يا رب عجل حسابهم، فيدعو بهم فيحاسبون، فمنهم من يدخل الجنة برحمة الله تعالى، ومنهم من يدخل الجنة بشفاعتي، وما أزال أشفع حتى أعطي صكاكاً برجال قد بعث بهم إلى النار، حتى إن مالكاً خازن جهنم ليقول: يا محمد ما تركت لغضب ربك على أمتك من نقمة». وقد سكت عنه ابن كثير، ومثله يؤخذ به في مثل ذلك من المناقب وفضائل الأعمال.

ثم ساق حديث المنهال عن عبد الله بن الحارث أن النبي ﷺ قال: **«أمرّ بقوم من أمتي قد أمر بهم إلى النار، فيقولون: يا محمد ننشدك الشفاعة.** قال: **فآمر الملائكة أن يقفوا بهم،** قال: **فأنطلق إلى ربي، واستأذن على ربي ﷻ، فيؤذن لي فأسجد وأقول: ربي، قوم من أمتي قد أمرت بهم إلى النار.** قال: **فيقول: انطلق فأخرج من شاء الله أن تخرج، ثم ينادي الباقون: يا محمد ننشدك الشفاعة. فأرجع إلى الرب فأستأذن فيؤذن لي فأسجد»،** وذكر ثناءه على الله بثناء لم يثن عليه أحد، إلى قوله: **«انطلق فأخرج منهم من قال: لا إلٰه إلا الله، فأقول ومن كان في قلبه مثقال حبة من إيمان؟ فيقول: يا محمد ليس تلك لك، تلك لي،** قال: **فأنطلق فأخرج من شاء الله أن أخرج.** قال: **ويبقى قوم فيدخلون النار، فيعيرهم أهل النار فيقولون: أنتم كنتم تعبدون الله ولا تشركون به، وقد أدخلكم النار.** قال: **فيحزنون لذلك.** قال: **فيبعث الله ملكاً بكف من ماء فينضح بها في النار، فلا يبقى بها أحد من أهل لا إلٰه إلا الله إلا وقعت في وجهه قطرة.** قال: **فيعرفون بها، ويغبطهم أهل النار ثم يخرجون فيدخلون الجنة. فيقال لهم: انطلقوا، فيضيفون الناس، فلو أن جميعهم نزلوا برجل واحد لكان لهم عنده سعة، ويسمون «المجردين»».** وسكت عليه ابن كثير وعلق قائلاً: هذا السياق يقتضي تعدد الشفاعة فيمن أمر بهم إلى النار ثلاث مرات أن لا يدخلوها. فيكون معنى قوله ﷺ: **«فأخرج»**: أي أنقذ. والله أعلم. وفي هذا السياق تأكيد على أن شفاعته صلوات الله وسلامه عليه إنما هي بعد الاستئذان على ربه، والإذن له ولمن شاء الله، مصداق قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ كما فيه بيان سعة فضل الله على أولئك، بحيث لو ضيفهم جميعاً واحد منهم لوجدوا سعة.

شفاعته ﷺ لمن يدخلون الجنة بغير حساب:

عنون لهذا النوع كل من صاحب الطحاوية وابن كثير في النهاية، وأشار إلى موضوعه بحديث عكاشة بن محصن. ولم يذكرا فيه تفصيلاً. ويوجد تفصيل لهذا القسم من هذه الشفاعة العظيمة عند أحمد وغيره، نسوق ما تيسر من ذلك بعونه تعالى وتوفيقه:

أولاً: في مسند أحمد (٦/١) بسنده إلى أبي بكر الصديق ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعطيت سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب، وجوههم كالقمر ليلة البدر، وقلوبهم على قلب رجل واحد، فاستزدت ربي ﷻ**، فزادني مع كل واحد سبعين ألفاً». قال أبو بكر ﷺ: فرأيت أن ذلك آت على أهل القرى ومصيب من حافات البوادي.

وفي صفحة (١٩٧) منه أيضاً بسنده عن عبد الرحمٰن بن أبي بكر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن ربي أعطاني سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب**»، فقال عمر: يا رسول الله فهلا استزدته، قال: «**قد استزدته فأعطاني مع كل واحد سبعين ألفاً**». قال عمر: فهلا استزدته قال: «**قد استزدته فأعطاني هكذا**» وفرَّج عبد الله بن بكر شيخ أحمد ـ بين يديه، وقال عبد الله: وبسط باعَيْهِ وحثا عبد الله، وقال هشام: وهذا من الله لا يُدْرَى ما عددُه.

وعند أحمد أيضاً في (٥/ ٢٥٠) بسنده إلى أبي أمامة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ قال: «**إن الله وعدني أن يدخل من أمتي الجنة سبعين ألفاً بغير حساب**»، فقال يزيد بن الأخنس السلمي: والله ما أولئك في أمتك إلا كالذباب الأصهب في الذبان. فقال ﷺ: «**إن الله ﷻ** كان وعدني سبعين ألفاً مع كل ألف سبعون ألفاً، وزادني ثلاث حثيات». قال: فما سعة حوضك يا نبي الله؟ قال: «**كما بين عدن إلى عمان، وأوسع وأوسع يشير بيده**». قال: «**فيه مثعبان من ذهب وفضة**». قال: فما حوضك يا نبي الله؟ قال: «**أشد بياضاً من اللبن، وأحلى مذاقاً من العسل، وأطيب رائحة من المسك، من شرب منه لم يظمأ بعدها، ولم يسود وجهه أبداً**». قال عبد الله: وجدت هذا الحديث في كتاب أبي بخط يده، وقد ضرب عليه فظننت أنه قد ضرب عليه لأنه خطأ، إنما هو عن زيد عن أبي سلام عن أبي أمامة، وقد نقل صاحب كتاب الشفاعة هذا الحديث بنصه ثم قال: قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وهذا إسناد حسن. وهذا الحديث موجود في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٦٢) وقال: عند الترمذي وابن ماجه بعضه، رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح إلا أنه قال: فما شرابه؟ قال: «**شرابه أبيض من اللبن، وأحلى مذاقة من العسل**».

وفي مسند أحمد أيضاً (١٦/٤) تحت عنوان «حديث رفاعة» رضي الله عنه، وساق بسنده إلى رفاعة قال: أقبلت مع رسول الله ﷺ حتى إذا كنا بالكديد - أو قال: بالقديد - فجعل رجال منا يستأذنون إلى أهليهم فيأذن لهم، فقام ﷺ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: **«ما بال رجال يكون شق الشجرة التي تلي رسول الله أبغض إليهم من الشق الآخر؟»** فلم تر عند ذلك من القوم إلا باكياً. فقال رجل: إن الذي يستأذنك بعد هذا لسفيه. فحمد الله وقال حينئذٍ: **«أشهد عند الله لا يموت عبد يشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله صدقاً من قلبه ثم يسدد إلا سلك في الجنة.** قال: **وقد وعدني ربي عز وجل أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب، وإني لأرجو أن لا يدخلوها حتى تبؤوا أنتم ومن صلح من آبائكم وأزواجكم وذرياتكم مساكن في الجنة»**. وساق تتمة هذه الرواية وقال: **«إذا مضى نصف الليل أو قال: ثلثا الليل - ينزل الله عز وجل إلى السماء الدنيا فيقول: لا أسأل عن عبادي أحداً غيري من ذا يستغفرني فأغفر له...»** الحديث. وبين أن إقبالهم هذا كان من مكة. وقد ساق مثل ذلك الترمذي رحمه الله وقال عنه: حسن غريب.

وعند أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سألت ربي عز وجل** فوعدني أن يدخل من أمتي سبعين ألفاً على صورة القمر ليلة البدر، فاستزدت فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً». فقلت: أي ربي، إن لم يكن هؤلاء مهاجري أمتي. قال: «إذن أكلمهم لك من الأعراب».

وقد تتبع بعض الباحثين هذه الأحاديث من حيث الأسانيد وحكموا على البعض منها بالضعيف، والبعض منها بالحسن. ولا شك أن الحديث له أصل ثابت في الصحيحين وغيرهما بدون الزيادة، ولفظه كما ساقه النووي في رياض الصالحين، والشيخ عبد الرحمٰن بن حسن في فتح المجيد، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«عُرضت عليَّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي ليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه. ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سواد عظيم. فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر. فإذا سواد عظيم، فقيل لي: أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا**

عذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: فلعلهم الذين صحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلهم الذين ولدوا في الإسلام فلم يشركوا بالله، وذكروا أشياء. فخرج عليهم رسول الله ﷺ فقال: «**ما الذي تخوضون فيه؟**» فأخبروه فقال: «**هم الذين لا يرقون، ولا يسترقون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**»، فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «**أنت منهم**»، ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**سبقك بها عكاشة**».

وقد ساقه البخاري في عدة مواضع من صحيحه مختصراً ومطولاً، وقد نبهنا على بعض النقاط فيه عند إيراده في ترجمة عكاشة رضي الله عنه وهنا ما يستوقفنا لمعرفة حقيقة السؤال مع النبي ﷺ ومع رب العزة سبحانه، وهو في قول عكاشة رضي الله عنه: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم. فهو قد توجه إلى الله بدعاء رسول الله ﷺ، لأن الله وحده هو الذي بيده هذا الفضل، كما يشعرنا هذا الحديث مع ما تقدم من روايات أخرى بسعة فضل الله على رسوله في عطائه مع الأمة هذا العدد العظيم، يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، إنها درجة لا يكاد يعلو عليها إلا درجات النبيين صلوات الله وسلامه عليهم.

وفي الحديث تفاضل الأنبياء في فضل تابعيه، وقد أومأ إلى ذلك النبي ﷺ في حديث: «**تناكحوا تكاثروا فإني مكاثر ـ أو مباه ـ بكم الأمم يوم القيامة**». كما أنه يعطينا علو منزلة النبوة، إذ أنها لا تتوقف على الأتباع، فقد رأى ﷺ النبي وليس معه أحد، أي أنه يعطينا علو منزلة النبوة، إذ أنها لا تتوقف على الأتباع، فقد رأى ﷺ النبي وليس معه أحد، أي أنه ثبتت له النبوة ولو لم يتبعه أحد. والنبي ومعه الرجل والرجلان، ولا شك أن الأنبياء كان يبعث النبي منهم لقومه خاصة، وبعث نبينا إلى الناس كافة، وهذا موجب للكثرة وزيادة الأتباع. كما أن الحديث أصل في مبدأ التوكل على الله. لأنه كما قال الخليل عليه السلام عن ربه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء: ٨٠]. ولا يمنع ذلك تعاطي الأسباب خاصة في التداوي لمن لم يستطع الصبر، بل إن المؤمن ليتعاطى السبب وهو متوكل على الله في إنجاح ذلك السبب بعينه،

ونعود إلى السبعين ألفاً ومعهم أمثالهم، نسأل الله تعالى من واسع فضله وفيض رحمته أن يدخلنا في شفاعته ﷺ، وأن يسقينا من حوضه فضلاً منه وإحساناً.

شفاعته ﷺ فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم:

عقد هذا العنوان كل من ابن كثير في كتاب النهاية (٢/ ١٧١)، والطحاوي صفحة (١٩٥)، ولم يوردا تفصيلاً لذلك، وعند ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ في التفسير على قوله تعالى: من سورة الأعراف: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٦]. قال: وبينهما حجاب، يعني بين الجنة والنار حجاب يعني حاجز، وهو السور الذي ذكره الله تعالى في قوله: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]. وهو الأعراف التي يقول الله تعالى فيها: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾. وقال: الأعراف جمع، واحدها عرف، وكل مرتفع من الأرض فهو عرف. وإنما قيل لعرف الديك: عرف، لارتفاعه عن ما سواه من جسمه. وأنشد قول الشماخ: وهو في اللسان في وصف حمر الوحش:

وظلت بأعراف تعالى كأنها رماح نحاها وجهة الريح راكز

ثم ساق عن مجاهد وابن عباس في بيان من هم أصحاب الأعراف.

وقد لخص ابن كثير في تفسيره ذلك في قوله: واختلفت عبارات المفسرين في أصحاب الأعراف من هم، وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد، وهو أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم. نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود، وساق آثاراً مرفوعة في ذلك، ثم ساق عن الحافظ ابن مردويه بسنده أنهم أناس خرجوا عصاة بغير إذن آبائهم، فقتلوا في سبيل الله.

وعن سعيد بن منصور بسنده إلى عبد الرحمٰن المزني عن أبيه أنه سأل رسول الله ﷺ عن أصحاب الأعراف فقال: «**هم ناس قتلوا في سبيل الله بمعصية آبائهم، فمنعهم من دخول الجنة معصية آبائهم، ومنعهم من النار قتلهم في سبيل الله**». ثم قال: ورواه ابن مردويه وابن جرير وابن أبي حاتم من طرق عن أبي معشر به، وكذا رواه ابن ماجه مرفوعاً من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس والله أعلم بصحة هذه الأخبار المرفوعة. ثم قال: وقصاراها أن

تكون موقوفة؛ أي على هؤلاء من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين.

ثم قال: وفيه دلالة على من ذكر، ثم ساق نهاية أمرهم: أنهم بعد أن يقضي الله بين الخلائق يدخلهم الجنة برحمته، ورواية أخرى: «**يلهمهم أن يستأذنوا في الشفاعة**» وساق حديث الشفاعة العظمى.

وعند السفاريني: أخرج الطبراني عن ابن عباس: فالسابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله. والظالم لنفسه وأهل الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ.

ومن شفاعاته ﷺ: شفاعته في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب عمله. بوب لذلك ابن كثير في النهاية (٢/ ١٧٣)، وقال: أما دليله فهو ما ثبت في الصحيحين وغيرهما من رواية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما أصيب عمه أبو عامر في غزوة الأوطاس، وأخبر أبو موسى رسول الله ﷺ، ورفع يديه وقال: «**اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك**».

وهكذا حديث أم سلمة: أن رسول الله ﷺ دعا لأبي سلمة بعدما توفي، فقال: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين، واغفر لنا وله يا رب العالمين، وافسح له في قبره، ونور له فيه**». وهو في صحيح مسلم.

قد استدل ابن كثير بدعائه ﷺ بأنه شفاعة لهم في رفع درجاتهم، وهو استدلال متوجه.

ولعل مما يشهد لعموم رفع درجات بعض أهل الجنة إلى ما فوق مستواهم، ما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ . . .﴾ [الطور: ٢١].

قال ابن كثير في التفسير عند هذه الآية: قال الثوري عن عمر بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل، لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ . . .﴾. الآية، قال: ورواه البزار عن ابن عباس مرفوعاً.

وساق عن الحافظ الطبراني بسنده إلى ابن عباس وقال: أظنه عن النبي ﷺ:

«**إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبيه وزوجته وولده، فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك. فيقول: يا رب قد عملت لي ولهم. فيأمر بإلحاقهم به**»، وقرأ ابن عباس الآية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾. ثم قال ابن كثير: هذا فضل الله تعالى على الأبناء ببركة عمل الآباء.

وأما فضله على الآباء ببركة دعاء الأبناء: فقد قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا حماد بن سلمة بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب أنّى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**». إسناده صحيح، وله شاهد في صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

ثم أورد ما يدور على ألسنة طلبة العلم من مقارنة واعتراض بمثل قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾. وأجاب عنه بما يلزم طالب العلم أن يقف كمنهج علمي نسوقه للإيضاح، إذ قال رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي في تتمة الآية الكريمة. ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ قال: لما أخبر سبحانه عن مقام الفصل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل من الذرية يقتضي ذلك الرفع في درجاتهم، أخبر سبحانه عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحداً بذنب أحد. فقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِيٍٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾. أي مرتهن بعمله، لا يحمل عليه ذنب غيره من الناس، سواء الآباء أو الأبناء.

ولعل المتأمل نص الآية الكريمة في قوله سبحانه: ﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ يعني: وما أنقصناهم من عملهم من شيء، أي الآباء في مقابل رفع الأولاد إلى درجاتهم وإلحاقهم بهم، بل هو محض فضل من الله تعالى تفضل به على الطرفين: على الآباء لتقر أعينهم بأولادهم، ويتم سرورهم في الجنة ونعيمها؛ وعلى الأبناء بإنزالها منزلة أعلى من منازلهم، وبالتالي بأعظم نعيم مما كانوا فيه.

وعليه فلا حرج على فضل الله، فلئن كان ﷺ أُعطي الشفاعة فيمن دخل النار أن يخرج منها، ومن أُمر به إلى النار أن لا يدخلها، فلأن يشفع في رفع درجات أهل الجنة في الجنة، أولى وأقرب، والله تعالى أوسع فضلاً.

ولعل مما يستوقفنا هنا ما جاء في بعض أوصاف أصحاب الأعراف من أنهم أناس جاهدوا في سبيل الله بدون إذن أبويهم، فحبسهم معصية الأبوين عن دخول الجنة، كما حبسهم القتل في سبيل الله عن دخول النار، إذ فيه معادلة يستوي فيها رضاء الوالدين مع القتل في سبيل الله، وقد قرن المولى سبحانه الحقين معاً: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾. ثم بيّن تعالى موجب ذلك من الوفاء بالعهد، ومن أداء للحق، فقال: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ وهذا أحسن وفاء بعهد الصحبة ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤]. وهو أحسن أداء للحق في مقابل تربيته صغيراً عاجزاً، فيحيطانه برعايتهما، وهو الآن أصبح شاباً يافعاً، وهما عادا إلى الضعف.

ويأتي الحديث النبوي الشريف في خصوص الجهاد في سبيل الله، فيسأل النبي ﷺ الذي جاء من اليمن ليجاهد معه: «**أَحَيٌّ أبواك؟**» فيقول: نعم. فيرده إليهما قائلاً: «**ففيهما فجاهد**».

كما يستوقفنا إلحاق كل من الوالدين والأولاد بالآخر، مما يؤكد بر الوالدين وحسن تربية الأولاد، ومع هذا وذاك محبة سيد الخلق ﷺ على ما أرشدنا إليه.

شفاعته ﷺ لأهل الكبائر من أمته:

لعل هذا القسم من أقسام الشفاعة هو أرجى الشفاعات عند الأمة، لأنه الذي يشمل العديدين من الأمة، كما يشعر به الحديث: «**كل بني آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون**». فالخطأ هو الغالب على الأشخاص، والشفاعة هي أرجى ما يتطلعون إليه، وقد وجد من يعارض في هذا القسم كالمعتزلة، فلزم بيان حقيقة هذا القسم من طرق إثباته، وإبطال شبه المعترضين بما يتناسب مع غرض هذا الكتاب المبارك إن شاء الله.

وقد جاء التنبيه منه ﷺ على أنه سيوجد من يعارض في هذا القسم، وعند السفاريني رحمه الله قال: كذبت بها المبتدعة، ونفتها مع ثبوت أدلتها، وتضافر

حجمها مما يتعسر إحصاؤه، ويتعذر استقصاؤه. ثم ساق النصوص الآتية:

١ ـ أخرج البخاري عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنه خطب فقال: إنه سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بالرجم، وبالدجال، ويكذبون بطلوع الشمس من مغربها، ويكذبون بعذاب القبر، ويكذبون بالشفاعة، ويكذبون بقوم يخرجون من النار بعدما امتحشوا.

٢ ـ وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقي، وهناد، عن أنس ﷺ: من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها، ومن كذب بالحوض فليس له فيها نصيب.

٣ ـ وأخرج البيهقي عنه أنه قيل له: إن قوماً يكذبون بالشفاعة. قال: لا تجالسوا أولئك.

٤ ـ وأخرج أيضاً عنه قال: يخرج قوم من النار، ولا نكذب بما كان يكذب بها أهل حروراء.

٥ ـ وأخرج أيضاً عن شبيب بن أبي فضالة المكي، قال: ذكروا عند عمران بن حصين الشفاعة، فقال رجل: يا أبا نجيد، إنكم لتحدثوننا أحاديث لم نجد لها أصلاً في القرآن. فغضب عمران وقال للرجل: أقرأت القرآن؟ قال: نعم. قال: فهل وجدت صلاة العشاء أربعاً، وصلاة المغرب ثلاثاً، والغداة ركعتين، والظهر أربعاً، والعصر أربعاً؟ قال: لا. قال: فعمن أخذتم هذا؟ ألستم عنا أخذتموه؟ وأخذنا عن نبي الله ﷺ، وفي كل أربعين درهماً درهم، وفي كل كذا شاة، وفي كل كذا بعير، أوجدتم في القرآن هذا؟ قال: لا. قال: ووجدتم في القرآن ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾. قال: نعم. قال: أوجدتم طوفوا سبعاً، واركعوا ركعتين خلف المقام؟ أوجدتم هذا في القرآن؟ عمن أخذتموه؟ ألستم أخذتموه عنا، وأخذناه عن رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى. قال: أوجدتم في القرآن لا جنب ولا شغار في الإسلام؟ قالوا: لا. قال: فإن الله تعالى قال في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وإنا قد أخذنا عن نبي الله أشياء لم يكن لكم بها علم.

وهنا وقفة مع هذا التوجيه النفيس، والمنهج العلمي العملي، لنصحح مفاهيم أولئك الذين يزعمون أن العمل على ما في كتاب الله فقط، وأن ما نسمع من الأحاديث نعرضه على كتاب الله، فإن وافقه أخذنا به، وإلا تركناه.

ونعلن لهؤلاء: أن مقالتهم تهدم كثيراً من التشريعات، بل وتعارض كتاب الله، وقد جاء فيه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾. وجاء فيه عن صحة أقاويله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]. وعلى ذلك فالسنة كما قيل: قطرة من نهر القرآن. وقال ﷺ: «**ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه**». إلى أمثال ذلك.

والوجهة الثانية في هذه الوقفة هي من جانب الأقوال الموقوفة على الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، مما لم يكن للاجتهاد فيه مجال، أنه محمول على سماعهم إياه من رسول الله ﷺ، كخطبة عمر رضي الله عنه: سيكون في هذه الأمة قوم يكذبون بكذا وكذا. فإن هذا إخبار عن مستقبل، وهو من علم الغيب، لا يكون إلا عن وحي، ومن معصوم.

وبعد هذا العرض لموقف المعارضين، نسوق ما جاء في شفاعته ﷺ في خصوص أهل الكبائر على النحو الآتي:

١ ـ أخرج الإمام أحمد والبيهقي والطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين؟ ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين**». وفي نص آخر: «**خيرت بين الشفاعة وبين أن يدخل ثلثا أمتي الجنة**». بدلاً من النصف.

٢ ـ وأخرج أبو داود والترمذي والحاكم والبيهقي وصححوه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**».

٣ ـ وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه عند الطبراني: أن النبي ﷺ قال: «**شفاعتي في أمتي للمذنبين المثقلين**».

٤ ـ وعن أبي أمامة رضي الله عنه عنه عند الطبراني بمعناه.

٥ ـ وعن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني: أن النبي ﷺ قال: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**».

وتقدم قول ابن عباس رضي الله عنه: السابق بالخيرات يدخل الجنة بغير حساب، والمقتصد يدخل الجنة برحمة الله، والظالم لنفسه وأهل الأعراف يدخلون الجنة بشفاعة محمد ﷺ.

وعن ابن عمر رضي الله عنه في الأوسط للطبراني مرفوعاً: «**إني ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**».

وعن جابر رضي الله عنه عند الترمذي والحاكم والبيهقي قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». قال جابر رضي الله عنه: من زادت حسناته على سيئاته فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب، ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة، وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه، وأغلق ظهره.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قلنا: يا رسول الله لمن تشفع؟ قال: «**لأهل الكبائر من أمتي، وأهل العظائم، وأهل الدماء**». ولعل أهل الدماء غير العمد، أو التي لم يقتص من القاتل، أو هي أعم، وأن الله تعالى يرضي صاحب الحق، ويأذن سبحانه في الشفاعة للقاتل، لعموم قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ** ...﴾ [النساء: ٤٨]. ففضل الله عظيم.

وعند ابن كثير في النهاية (١٧٦/٢) وما بعدها قال: خفي علم الشفاعة على الخوارج والمعتزلة فأنكروها، وعاند بعضهم فرفضوا القول بها. قال: فخالفوا في ذلك جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته، ثم ساق الأحاديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**» وذلك من عدة طرق عن الإمام أحمد رحمه الله، والحافظ أبي بكر البزار، وأبي يعلى، وابن أبي الدنيا، كما ساق نصوصاً أعم كقوله ﷺ: «**لكل نبي دعوة قد دعاها واستجيب له، وإني قد خبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**». وقال: رواه أحمد عن أنس، وهو على شرط الشيخين. ولقد اعتنى ابن كثير بنصوص الشفاعة، مما لو أفرد لكان وافياً في ذلك.

وخير ما نختم به هذا البحث من هذا المنهج المبارك، ما ساقه السفاريني بقوله: وفي صحيح مسلم عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿**فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وقول عيسى: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾**﴾ [المائدة: ١١٨]. فرفع يديه وقال: «**أمتي أمتي، ثم بكى، فقال الله: يا جبريل**

اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسؤك».

وعن علي ﷺ عند الطبراني وأبي نعيم بسند حسن: أن النبي ﷺ قال: «**أشفع لأمتي حتى ينادي ربي تبارك وتعالى: أرضيت يا محمد؟ فأقول: إي رب رضيت**». ولعل يشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ وقد قال ابن عباس: إنها أرجى آية عندنا في كتاب الله.

من تحجب عنهم الشفاعة:

لا شك أن أرجى ما يكون عند كل مسلم أن تناله شفاعة الشفاعين من ملك مقرب، أو نبي مرسل، أو عالم عامل، أو صالح عابد، أو فرط سابق، أو عمل صالح مما تقدم من الشفعاء. وهذا من سعة فضل الله وتسامحه وكرمه وإكرامه، يوم لا ينفع مال ولا بنون، ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه. ولم تبق آمال معلقة إلا برحمة أرحم الراحمين. وهذا مما يدفع كل مسلم ليمهد لنفسه، ويقدم بين يديه ما ييسر له منال الشفاعة ذلك اليوم، وألزم ما يكون في ذلك هو الالتزام بطاعة الله، وطاعة رسوله ﷺ، والاستقامة على دين الله بقدر الوسع والطاقة، كما يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ۝٣٢﴾ [فصلت: ٣٠ - ٣٢] واقرأ قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ۝٨٧ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ۝٨٨ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۝٨٩﴾ [النمل: ٨٧ - ٨٩]. والحسنة هنا اسم جنس أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، أو دون ذلك من طلاقة الوجه، ولين الجانب.

وتأمل تلك المقارنة بين أهل الشرك والضلال، وأهل الإيمان والهداية، في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن

دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الأنبياء: ٩٧ ـ ١٠٠]. فهذا هو الفريق الأول بدايته ونهايته عياذاً بالله تعالى.

أما الفريق الثاني: فهو الآتي بعده مباشرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١ ـ ١٠٣].

ومما يستشعر الخوف والفزع أن جاءت نصوص تشير إلى بعض الطوائف وبعض الأشخاص لا تنالهم الشفاعة، بل هم يحجبون دونها أو تحجب عنهم:

من ذلك طائفة المعتزلة أصحاب واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ لابتداعه أقوالاً في العقيدة، تتعلق بصفات المولى سبحانه وأفعاله، مخالفة لما كان عليه السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم، وأنكر عليه الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ ونهاه عنها، فلم ينته واعتزل مجلسه، وأخذ يروج لابتداعه ومقالاته. مما يستوجب على كل مسلم لزوم منهج الجماعة، وتجنب المبتدعات في الدين، كما قال ﷺ: «**وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار**».

ومما أحدثه المعتزلة: القول بنفي الشفاعة عموماً إلا الشفاعة العظمى لنبينا محمد ﷺ لفصل القضاء، وما عداها من جميع أنواع الشفاعات ينفونها. ولذا فهم محجوبون عن الشفاعة، والشفاعة محجوبة عنهم، كما جاء في حق المبتدعة عند ابن وضاح في كتاب البدع والنهي عنها، أن النبي ﷺ قال: «**حلت شفاعتي لأمتي إلا صاحب بدعة**». وساق ابن حجر في فتح الباري على صحيح البخاري عند كلامه على قوله ﷺ: «**يخرج قوم من النار بشفاعة محمد ﷺ فيدخلون الجنة يسمون الجهنميين**». قال ابن حجر: فقال رجل لعبيد بن عمير، وذاك الرجل كان يتهم برأي الخوارج، فقال: يا أبا عاصم ما هذا الذي تحدث به؟ ـ يعني عن الجهنميين ـ ومن يخرج من النار بشفاعة النبي ﷺ. فقال له أبو عاصم: إليك عني، أي ابتعد عني، لا عبرة بإنكارك، لو لم أسمعه من ثلاثين من أصحاب محمد ﷺ لم أحدث به.

وساق طريقاً عند مسلم رَحِمَهُ اللهُ ليزيد الفقير، قال: خرجنا في عصابة نريد أن نحج، ثم نخرج على الناس. فمررنا بالمدينة، فإذا رجل يحدث، وإذا هو ذكر الجهنميين، فقلت له: ما هذا الذي تحدثون به؟ والله يقول: ﴿إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]. ويقول: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [السجدة: ٢]. فقال: أتقرأ القرآن؟ قال: نعم. قال: أسمعت بمقام محمد ﷺ الذي يبعثه الله؟ قلت: نعم. قال: فإنه مقام محمد المحمود، الذي يخرج الله به من يخرج من النار بعد أن يكونوا فيها، ثم نعت وضع الصراط ومد الناس عليه. قال: يعني الخارجي؛ فرجعنا وقلنا: أترون هذا الشيخ يكذب على رسول الله ﷺ؟ فوالله ما خرج منا غير رجل واحد. ثم قال ابن حجر: إن الخوارج الطائفة المشهورة المبتدعة كانوا ينكرون الشفاعة، وكان الصحابة ينكرون إنكارهم، ويحدثون بما سمعوا من رسول الله ﷺ.

وذكر عن ابن بطال إنكار المعتزلة الشفاعة. ثم أورد عن سعيد بن منصور أن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: من كذب بالشفاعة فلا نصيب له فيها.

ومما ينبغي التحفظ فيه، وشدة الحذر منه، ما جاء في حديث الحوض عند مالك في الموطأ وغيره، وعند المفسرين عند قوله تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ [الحديد: ١٣]. وحديث الحوض (منه): أنه ﷺ يكون فرط الأمة على حوضه، يردونه عليه، فمن شرب منه لا يظمأ بعدها أبداً، وإن أشخاصاً ليصلون إليه ثم يذادون عنه فلا يشربون منه. قال صاحب «**لوامع الأنوار على شرح الدرة المضية**» في قوله:

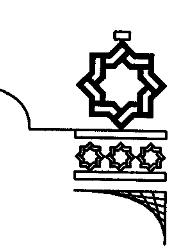
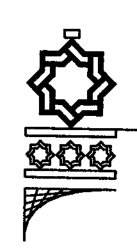
عنه يذاد المفتري كما ورد   ومن نحا سبل السلامة لم يرد

فذكر الخوارج والروافض وأهل البدع والأهواء. وساق ما أخرج مسلم عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «**ليردن على الحوض أقوام فيختلجون دوني، فأقول: رب أصحابي رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك**». فينصرفون عن الحوض عياذاً بالله. وهم الوارد منهم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ . . .﴾ الآية. ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ - أي حين تطفأ أنوارهم - ﴿قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا فَضُرِبَ

﴿بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٢ ـ ١٣].
فأين لهؤلاء شفاعة؟ وهذا المشهد الرهيب الذي يخلع القلوب أشد إنذاراً، وأعظم تخويفاً، من الابتداع والأهواء، كما جاء عنده ﷺ: قال لعثمان بن مظعون رضي الله عنه: «**يا عثمان لا ترغب عن سنتي، فمن رغب عن سنتي ثم مات قبل أن يتوب ضربت الملائكة وجهه عن حوضي يوم القيامة**».

ولعلنا ندرك السر في الدعاء المأثور عند إقامة الصلاة: «**اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه المقام المحمود الذي وعدته**». اللهم أوردنا حوضه، واسقنا منه شربة هنيئة مريئة لا نظمأ بعدها أبداً. ونسأله تعالى أن يرزقنا شفاعته، وأن يحشرنا في زمرته وتحت لوائه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

آيات الهداية من سورة الممتحنة

آثار وأسباب حجب الهداية عن اليهود بظلمهم، والمنافقين بفسقهم:

لبيان آثار ذلك، وإيضاح أسبابه، يلزمنا الأخذ بعين الاعتبار مضمون كل من سورة (المنافقون) كوحدة موضوع اختصت بهم جملة وتفصيلاً، عقيدة وعملاً، أي سراً وجهراً، ومن وحدة موضوع تسلسل السور الأربعة المتوالية قبلها، وهي: الممتحنة ـ الصف ـ الجمعة ـ المنافقون. ونتبعها بالتغابن بعدها مباشرة. إذ نجد في تلك السور الأربع بمجموعها تسلسل موضوع ينتظم علاقة جماعية، وتضع معالم للأمم عامة، وذلك كالتالي:

أولاً: الممتحنة: تختص بطور جديد في علاقة المؤمنين بالمشركين، وذلك بعد الهجرة، وهي لزوم تميز المؤمنين في شخصية مستقلة، ذات كيان مستقل: تستفتح بنداء المؤمنين: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [الممتحنة: ١]. وتأمل هذا النهي عن موالاة أعداء الله وأعدائهم، والنهي عن موادتهم، مع بيان الموجب من سوء فعالهم، حيث أخرجوا رسول الله ﷺ وأخرجوكم، لا لذنب إلا أن تؤمنوا بالله ربكم، وهذا الذنب منكم نظير ذنب أصحاب الأخدود عند الجبابرة ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]. وكذلك هؤلاء الأعداء لا ذنب لكم عندهم في معاداتهم إياكم إلا أن تؤمنوا بالله ربكم، ثم يؤكد عليهم في هذه المقاطعة بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي﴾. نعم وهل هم خرجوا في غير ذلك؟ وقد شهد الله عليهم في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ

وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾﴾ [الحشر: ٨]. فيكون ذكر هذا الشرط تهييجاً لهم، وتأكيداً عليهم بعدم موالاة الأعداء، ولا سراً ولا علناً: ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ . . .﴾.

ثم يبين لهم حالة أولئك الأعداء، وهي على النقيض من حال المؤمنين معهم فقال: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾ [الممتحنة: ٢]. وتأمل تلك الحالات الثلاث: بسط اليد بالبطش، وبسط اللسان بسوء القول، مع طوية سوء يودون كفركم. وعليه: فعلى أي مبدأ أو أي مجال توالونهم وتعلقون إليهم بالمودة؟ لا وكلا لم يبقَ مجال بينكم وبينهم لذلك.

ثم يجيب تعالى على تساؤلات قد تثيرها روابط القرابة والنسب وواقع الحياة، كأن يقول قائل: وكيف نصنع بالأقرباء وذوي الأرحام وحقوقهم علينا؟ فقال سبحانه: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة: ٣]. وهنا تشد الوطأة عليهم، إذ تمس جانباً عاطفياً قوياً، فيأتيهم بمثل قائم قد سبق ممن كان قبلهم، ليكون لهم فيهم أسوة حسنة، فيقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. فهذا إبراهيم وأنتم تنتسبون إليه، وهؤلاء الذين آمنوا معه قد تميزوا عن قومهم، وتبرؤوا منهم ومما يعبدون من دون الله، ويعلنون كفرهم بهم، ويبدون العداوة علانية بينهم وبين قومهم والبغضاء إلى الأبد، حتى يؤمنوا بما آمنوا به بالله وحده، فأنتم يا أصحاب محمد ﷺ لكم في هؤلاء المؤمنين ـ أصحاب إبراهيم ـ لكم أسوة حسنة بهم، في براءتكم من قومكم الذين ناصبوكم العداوة، لقد كانت لكم فيهم أسوة حسنة، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، يعني أمثالكم.

ثم يفتح لهم نافذة الرجاء، ويمد لهم خيط الأمل إن أطاعوا الله في ذلك، فيقول: ﴿۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [الممتحنة: ٧]. وقد نبهت في تتمة أضواء البيان أن (عسى) من الله للتحقيق، وقد جعل فعلاً، فآمن بعض الذين عادوهم، وحسن

إسلامهم، وكان بين الطرفين مودة ورحمة وصلة. والله قدير على تغيير تلك القلوب، وغفور رحيم، يغفر لهم ويرحمكم بصلة أرحامكم.

ومن ألزم ما يتنبه له طالب العلم اليوم، وكل مسلم عاقل، تلك القضية التي جاءت عقب هذا السياق كالبيان لمفهوم المخالفة لأول السورة: ﴿تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾. إذ يقول سبحانه: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]. ليعلم كل مسلم أن الإسلام لا يغرس العداوة والبغضاء في نفوس المسلمين لغير المسلمين إلا عن طريق هذا الدين، ولا يمنع من حسن التعامل وحسن الجوار والله يحب المقسطين. وقد أوسعت هذا الموضوع بحثاً في الكلام على هذه السورة في تتمة أضواء البيان والحمد لله.

ولا أدل على حسن معاملة غير المسلمين المسالمين، من حسن معاملة الذميين والوفود غير المسلمة، التي قدمت على النبي ﷺ عام تسع، وسميت سنتها بعام الوفود، فقد أنزل رسول الله ﷺ البعض منهم بالمسجد، وكان ﷺ يأتي إلى بعضها يتحدث معهم طويلاً كوفد ثقيف مثلاً.

ومن بعده ﷺ نجد عمر رضي الله عنه يرى ذمياً يتكفف الناس السؤال، فيسأله عن حاله، فيقول: يجمع الجزية التي عليه للمسلمين. فيقول عمر رضي الله عنه: ما أنصفناك، استخدمناك قوياً وأهملناك ضعيفاً. وأمر بإسقاط الجزية عنه، وفرض له رزقاً يكفيه من بيت مال المسلمين.

ونحن في هذا الزمن وقد تشابكت مصالح المسلمين مع غيرهم، وأصبحت العلاقة مبناها على تبادل المنافع، ولا غنى لأية دولة في العالم اليوم عن ارتباطها ببقية الدول، سواء في التصنيع والعرض والطلب، أو في المواصلات من شركات الطيران العالمية، أو في البريد والمعاملات التجارية والمصرفية، أو الخدمات الطبية أو الهندسية أو غير ذلك، فبلد منتج وبلد مصنع، وبلد مستورد وآخر مصدر. وقد أصبح العالم كدولة واحدة كبيرة، وليس على المسلمين أي حرج في مسايرة الحياة في هذه الجوانب السلمية العالمية، أما الدول المعادية والتي يصدق عليها قوله تعالى: ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا۟ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾﴾. فهؤلاء هم العدو،

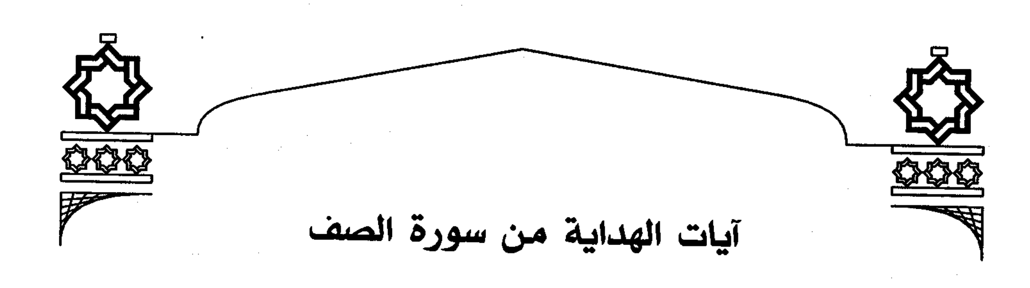
وهم الذين يجب الحذر منهم، وتحرم موالاتهم. وأصدق ما يكون عليه اليوم هي دولة إسرائيل، لتماديها في العدوان والإساءة، وعرقلة جهود السلام التي يسعى إليها العقلاء في العالم، وبهذا يتميز العدو من الصديق، والموالي من المعادي.

وفي ختام السورة نجد منهجاً لمعاملة المؤمنات المهاجرات، وهن يقدمن بدعوى الإيمان ومفارقة المشركين، فيأمر بامتحانهن تأكيداً على صدقهن في قصدهن ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ﴾ ثم مبايعة المؤمنات والتزامهن ألا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنين، ويلتزمن الطاعة في معروف.

وأخيراً: آخر آية منها تعود على أول آية من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾ قال ابن كثير: يعني جميع الكفار من المشركين واليهود والنصارى، ومن كَفَرَ واستحق غضب الله، لأن من كان كذلك لا يستحق الموالاة.

وبهذا تختم السورة بما افتتحت به، وتم تميز المسلمين عن جميع العالم في شخصية إسلامية مستقلة.

* * *



آيات الهداية من سورة الصف

١ ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٩﴾﴾ وقبل هذه الآية قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨ ـ ٩]. ومثل هذا السياق في سورة التوبة، قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة: ٣٢ ـ ٣٣]. وفي سورة الفتح أيضاً: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا . . .﴾ إلى آخر السورة [الفتح: ٢٨ ـ ٢٩]. في هذه النصوص يكشف المولى سبحانه عن خفايا نوايا أعداء الإسلام، من الكفار والمشركين، من يهود ونصارى ووثنيين من أنهم يريدون ويصرون ويعملون جاهدين على إطفاء نور الله بأفواههم.

ويتفق المفسرون على أن المراد بنور الله هو الدين، وهذا ما يدل له قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢]. وكذلك من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: ٣٥]. يعني منورها. وضرب المثل لنوره في قلوب المؤمنين بقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [النور: ٣٥]. وفي هذا السياق يخبر تعالى عن أعداء الإسلام أنهم يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم؛ فبعض المفسرين يعتبره من أسلوب التشبيه، وجعل نور الله هو الشمس ومحاولتهم إطفاءه بالنفخ عليه بأفواههم، كما ينفخ الإنسان على السراج أو الشمعة، وبما أن ذلك مستحيل، فكذلك محاولتهم مستحيلة. ولو اعتبرنا الأسلوب من أساليب الحقيقة، وأن نور الله هو ما شَعَّ من أنوار الحق وضياء الإسلام، وأن محاولتهم إطفاءه بأفواههم هي الدعاية ضده،

والتشكيك في حقائقه، وكل ما أوتوا من مكايد لأهله، كما في مثل قوله تعالى عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [فصلت: ٢٦]. وكذلك ما بينه تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران: ٧٢]. وهذه حلقة من سلسلة تآمر من الأعداء مجتمعين ضد الإسلام، إلا أن هذه أخطرها، لأنهم بإيمانهم به طواعية إشعار بقناعتهم بصحته، ثم كفرهم به آخر النهار إشعار بعدم صلاحيته، وإيهام للعوام والوثنيين أنهم لم يجدوا في هذا الدين ما كانوا يؤملون، ولهذا كفروا به حالاً آخر النهار. وبهذا تدرك سر التشريع في قتل المرتدين.

وسلسلة المؤامرات لإبطال هذا الدين ومحاولة إطفاء نور الله بأفواههم، كشف عنها القرآن بالتسلسل في سورة البقرة، ابتداء من الآية في قوله تعالى: ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾. والخير هو الوحي، وكان الجواب مسكتاً، لأن ذلك لله تعالى وحده، فقال تعالى رداً عليهم: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥]. فلما أسقط في أيديهم، وخابت أمانيهم، فأنزل الله الخير والرحمة على المسلمين، وتوالى الوحي، قاموا مرة أخرى في محاولة ثانية لصد المسلمين وردهم عما اختصهم الله به من الرحمة، قال تعالى عنهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]. وقال تعالى عن المنافقين كذلك كما في سورة النساء: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً . . .﴾ [النساء: ٨٩]. وإذا كان الدافع لذلك هو الحسد فلن يرجعوا عن ذلك أبداً ما استطاعوا، وهذا أشد ما يكون تحذيراً للمسلمين، لأنها محاولة عن قصد، وجناية عن إصرار بعدما تبين لهم الحق، فهي محاولة ضد هذا الحق الذي عرفوه، وكذلك إخوانهم المنافقون أحنقهم إيمان المؤمنين، فتمنوا لهم الكفر، ليتساووا معهم، ولا يفوزون عليهم، وكلاهما بعامل الحسد والحقد.

وبعد أن فشلوا في المحاولتين السابقتين، قاموا بمحاولة ثالثة خطيرة، هي

محاولة التشكيك وإيآسِ المؤمنين من دخول الجنة، وهي التي باع المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله، وثامَنَهم على ذلك بالجنة، فقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾. وكشف الله خيبة أملهم بقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ وادعاءاتهم الباطلة، وطالبهم بصحة مقالتهم فقال: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. كل هذا مسلسل مؤامراتهم، يسوقه القرآن في خلال الآيات من (١٠٥) إلى (١١١) من سورة البقرة. وفي نهاية المطاف من السورة نفسها من الآية العشرين بعد المئة التحذير من أولئك ومن اتباع أهوائهم فقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي الذي جاء به نبينا محمد ﷺ ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، وقد أتم الله وعده، فأتم الدين وأظهره، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وقد صدق الواقع هذا الوعد، فانتشر الإسلام في الشرق والغرب، وظهر على جميع الأديان، وأُجلي اليهود من جزيرة العرب، واستل عرش كسرى وقيصر، فظهر على اليهودية، وعلى النصرانية، وعلى المجوسية، وعلى الوثنية، فأظهره الله على الدين كله. وهنا السؤال: إذا كان الأمر كذلك، فما هي عوامل بقائه ظاهراً، وعوامل دوامه وسلامته من تآمر الأعداء؟ ولعل الجواب يكمن في سياق سورة الفتح في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ وشهادة الله حق. ويرى بعض المفسرين أن ﴿شَهِيدًا﴾ قائمة على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ويرى البعض احتمال أن تكون قائمة على ما بعدها: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾. ولعل الأول أنسب للسياق. وقد أتم الله ما شهد به.

ثم يأتي بعد ذلك ما يمكن أن يكون جواباً على السؤال المتقدم، وهو عن عوامل بقاء ظهور الدين من قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ

﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٨ ـ ٢٩] ففي هذا السياق تعريف لأصحاب رسول الله ﷺ مع رسول الله ومع أنفسهم، وتعريف مزدوج، تعريف لليهود في التوراة، وتعريف للنصارى في الإنجيل، واشتمل التعريفان على تلاحم المسلمين وتراحمهم، وأخذهم بأسباب القوة حساً ومعنى: أشداء على الكفار ولو كانوا ذوي قربى، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. رحماء بينهم إلى حد الإيثار على النفس، ولكأنهم نفس واحدة، كما جاء في الحديث: «**كمثل الجسد الواحد**» وفي التفاف بعضهم البعض ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ . . .﴾ إلى آخر السياق. وإذا تأملنا حال العالم الإسلامي اليوم، وتكالب الأعداء عليه، وتدبير المؤامرات من حوله، لوجدنا ما يقال عنه ما أشبه الليلة بالبارحة، مُنَضرون في كل مكان، وتشكيك في كل مجال ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ والسبيل إلى بقاء هذا الدين ظاهراً، هو العودة إلى ما وصف الله أصحاب رسول الله ﷺ من التآخي والتَراحم، وصدق الله ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

٢ ـ معهد الدعاة إلى الله:

انطلاقاً من الفقرة المتقدمة من آية الهداية في سورة الصف في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ [الصف: ٨ ـ ٩]. ونظائرها من سورة التوبة، وسورة الفتح وما تضمنته من كشف مؤامرات الأعداء ضد الإسلام، وما يلزم من العمل الإسلامي للحفاظ على ظهور الإسلام وإظهاره على الدين كله، فإنَّ من ألزم ما يكون اليوم وقد اشتد تكالب الأعداء، وحمي وطيس الحرب الادعائية، فإن الدارس لأحوال العالم كله اليوم ليرى لزاماً الآتي:

بناء على أن لكل حرب سلاماً، والأسلحة تتنوع بمقتضى متطلبات الواقع، ثم إن الأسلحة أيضاً تتطور، وكل سلاح له ما يضاده ويقاومه، والعالم كله في

سباق في هذا المضمار، والحرب الباردة سلاح الكلام، وتطوره بتطور الإعلام والدعاية، بما في ذلك من ترويج الباطل، وتغطية الحق، وليس ينفع في ذلك إلا سلاح من نوعه، سلاح إعلامي.

وقد وجدنا في تاريخ الإسلام هذا النوع من الحرب، وفي أخطر ميدان وأحرج موقف، ولكن كانت الحكمة الإلهية، والتوجيهات النبوية لذلك كله بالمرصاد، فأحبطت مؤامرات العدو، وذلك في عمرة القضية حين جاء النبي ﷺ وأصحابه إلى مكة معتمرين، بناء على الاتفاقية المبرمة في صلح الحديبية، من أن يرجع المسلمون ولا يصلون مكة عامهم ذاك، ويأتون من العام القادم معتمرين، ولا يحملون معهم سلاح قتال، ولا يمكثون في مكة فوق ثلاثة أيام، فلما قدم المسلمون لذلك استشرف أهل مكة على الجبال حول الكعبة ينظرون ما يفعل المسلمون، ولكن الشيطان حريص، انتهزها فرصة، فجاء لسادات قريش وقال لهم: إن المسلمين قد أتوا منهكي القوى، أنهكتهم حمى يثرب، وأضناهم طول السفر، فلو أنكم ملتم عليهم ميلة رجل واحد لقتلتموهم وقضيتم عليهم؛ وحاول إثارتهم ونقض العهد الذي بينهم، ولكن عناية الله سبحانه تداركتهم، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر رسول الله ﷺ بما زين الشيطان لأعدائهم.

وبتأمل الموقف نجد فريقين:

أحدهما: متمكن في بلده، متوفرة عدته، متكاثر عدده، لو استجاب لخطة الشيطان لنفذها.

والفريق الآخر: محدود العدد، مجرد من السلاح والعدد، نائي الدار ليس له من معين، ولا يصل إليه مدد. فهو كما يقال: في الكماشة، أو بين فكي الأسد.

فالموقف إذاً لا يمكن التغلب عليه بسلاح وقتال، ولكن إذا كانت البداية من الشيطان فكرة، وهي تصوير المسلمين في حالة الضعف والإعياء، فإن السلاح الذي يقاومهما فكرة مضادة، فما كان منه ﷺ إلا أن أطلعهم على الواقع، وكشف لهم عن المؤامرة، وقال لهم: أروهم اليوم منكم قوة. فنزلوا إلى ساحة المطاف مطيعين مشمرين عن ساعد الجد، وبدأوا طوافهم مهرولين

في أظهر ما يكون من صورة القوة والنشاط، فما إن رأى المشركون ذلك، حتى أسقط في أيديهم، وقالوا فيما بينهم: تقولون: أنهكتهم الحمى، وأضناهم السفر، وها هم يهرولون ولكأنهم الحين، والله ما لنا بهؤلاء من طاقة، فأُبطلت المكيدة، وأحبطت المؤامرة، وقوبلت فكرة بفكرة أقوى منها.

وهكذا نحن اليوم: إن الحرب بين المسلمين وأعداء الإسلام حرب باردة، وادعاءات كاذبة، ودعايات مضللة، وما يسمى بالغزو الفكري، وفي مجالات عديدة؛ في العقائد، في العبادات، في المعاملات، بل وفي العادات الفاضلة، وفي كل ما يمتد إلى فضيلة ويمت إليها بصلة، فليس لهذه الحرب الضروس إلا نفس السلاح ونوعيته، ولن يتأتى هذا إلا بعمل تعاوني إسلامي وولي يمكن أن يجند أمام العمل التبشيري الأوربي العالمي في الفاتكان وغيرها، وبعد الدراسة غير القليلة، والمطالعات الوجيزة، بل المشاهدات عن كتب في رحلة الجامعة الإسلامية إلى دول أفريقيا، والوقوف على ذاك النشاط المادي والمعنوي الذي تهيئة المحافل الدولية الأوربية، ماثلاً في نشاط المبشرين هناك، وما سمعنا عنه في أندونيسيا ودول آسيا وغير ذلك، فإني أقدم هذا العرض لهذا العمل الذي أراه صالحاً لذلك، وهو على النحو التالي:

أولاً: إقامة معاهد وكليات للدعوة وإعداد الدعاة في أكثر البلاد الإسلامية، وبالأخص مصر والسعودية والعراق وتركيا وباكستان والهند وأندونيسيا، يديرها جميعها مجلس إدراة موحد، ويشرف على البرامج وتوزيع المتخرجين، تكون المناهج فيها جميعها منقسمة إلى قسمين:

أ ـ قسم للدعاة المحليين يعملون داخل بلادهم لحماية مواطنيهم من الغزو الفكري وتبصيرهم بمهام دينهم وصد الزحف التبشيري عنهم.

ب ـ وقسم يدرب على العمل خارج بلادهم، يبتعث إلى حيث المجلس المنوه عنه، ويلاحظ عنصر التخصص الإقليمي من حيث الأفكار السائدة والعادات والتقاليد المرعية، بجانب القوة في اللغة المحلية.

ثانياً: اختيار مجموعة ممن عرفوا بالنشاط في سبيل الدعوة للإشراف المباشر والعمل الميداني في تلك المعاهد والكليات، سواء في نطاق بلادهم أو خارجاً عنها.

ثالثاً: إنشاء إدارة المقررات لإعداد الكتاب المناسب والرسائل الهادفة.

رابعاً: إنشاء مطبعة كبيرة تتولى طبع متطلبات تلك المعاهد والكليات.

خامساً: إنشاء مجمع تسجيل أشرطة «كاست» يضع ويسجل ما يقدمه المختصون لتوزيعها حتى تصل من لم يصلهم الدعاة. ومعلوم أن هذا لن يتأتى إلا بتمويل كبير؛ فنقول:

أولاً: إن بعض الدول قد أعلنت أنها بصدد تصنيع طائرة حديثة تحتاج إلى مليارات الدولارات، وكذلك دولة أخرى في تطوير دبابة حديثة، ولا شك أن هذا المشروع ألزم وأهم من أهم الطائرات والدبابات، ومع ذلك فإنه يمكن تنفيذه على النحوي الآتي:

أولاً: من جهة إنشاء المعاهد والكليات: فإنه بوسع كل دولة ممن سمينا أو غيرها أن تنشئ ذلك ضمن برنامجها التعليمي، وفي حدود استطاعتها من حيث العدد.

ثانياً: موضوع المطبعة، ومجمع التسجيل، وتكلفة الطباعة، وتوزيع الأشرطة: فإنه يمكن تمويل ذلك عن طريق مساهمة عموم البلاد الإسلامية، سواء كان عن طريق الحكومات، أو المؤسسات، أو الأفراد ولو بجزء من زكاة الأموال من سهم ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، لأن هذا العمل فعلاً في سبيل الله. وقد جعل الله تعالى هؤلاء الدعاة قسيماً للغزاة في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [التوبة: ١٢٢]. فهذه الطائفة هي عين الدعاة الذين نريد إعدادهم. وجاء عنه ﷺ أنه قال: **«من راح إلى مسجدي لعلم يعلمه أو يتعلمه كان كمن غزا في سبيل الله»**. فلو خصصت كل دولة إسلامية جزءاً ـ ولو بسيطاً ـ من ميزانية دفاعها لهذا المشروع، لأمكن تنفيذه، ولعاد عليها بكل خير.

وهناك مجال آخر يتصل بالودائع البنكية في أوروبا وغيرها، يحتاج إلى دراسة عميقة، والذي يهمنا هو إقامة وتنفيذ هذا المشروع، وقد سبقت له محاولة في مصر، فلم ينفذ، وانتقل إلى القدس فحالت الحرب العالمية الأولى دونه، فانتقل إلى المدينة وبُدئ في إنشاء المبنى له، فحالت الحرب العالمية

الثانية دونه، ولعل الوقت قد حان لتلك الجامعات الإسلامية في كثير من بلاد الإسلام.

وبُعَيد كتابة هذه السطور انعقد مؤتمر وزراء الحج والأوقاف والشؤون الإسلامية بمكة المكرمة، لدراسة نفس هذا الموضوع، وكانت توصياته تتضمن جميع ما أشرنا إليه، ولله الحمد والمنة.

٣ ـ آيات الهداية من سورة (الصف):

تقدم الحديث عنها منفردة بما يتناسب معها، والحديث الآن عنها مرتبطة بما قبلها من سورة (الممتحنة)، وبما بعدها سورة (الجمعة)، ثم سورة (المنافقون) فـ (التغابن). حيث إن مجموع تلك السور يشكل وحدة موضوعية للمسلمين، ومن عداهم من المشركين واليهود والنصارى والمنافقين.

وتقدم في الحديث عن سورة الممتحنة أنها ميزت المسلمين عن قومهم المشركين، وقطعت الموالاة بين المسلمين وبين أعداء الله وأعدائهم.

وتأتي هذه السورة ـ سورة الصف ـ فتبين موقف النصارى من المسلمين، وحال نبي الله عيسى مع بني إسرائيل، وسوقه البُشْرَى بنبوة ورسالة من سيأتي من بعده، ويعينه باسمه «أحمد»، وتفضح اليهود والنصارى في كتمانهم شهادة عيسى عليه الصلاة والسلام برسالة محمد ﷺ، وتفرقهم واختلافهم في أنفسهم على رسلهم، وتحث المسلمين على وحدة الصف واتحاد الكلمة.

فتبدأ السورة الكريمة بتسبيح المولى سبحانه من عوالم السموات والأرض: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.

ثم تأتي السورة إلى موقف قوم موسى معه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥﴾. وهذا تحذير المسلمين من أن يؤذوا رسول الله ﷺ، فتزيغ قلوبهم.

ثم تأتي السورة لموقف بني إسرائيل من عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُم مُّصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُۖ﴾ أي أنه واسطة متوسط بين أمتين: أمة سابقة بين يديه وهم اليهود، وما أنزل على رسولهم موسى من التوراة؛ وبين أمة قادمة، ورسولها أحمد. فهو شاهد ومشهود له، وكان على الموجودين من بني إسرائيل أن يؤمنوا بما آمن به عيسى وجاء يبشر به، وهو محمد ﷺ. ولكنهم كانوا على العكس من ذلك: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ وهذا محض الظلم والفرية: ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُوَ يُدۡعَىٰٓ إِلَى ٱلۡإِسۡلَٰمِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧﴾.

ثم كشف الله محاولتهم ضد هذا الدين فقال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾. وفي هذا السياق يعلن المولى سبحانه لنبيه ﷺ وللمؤمنين ضمان إتمام هذا الدين، وانتشار هذا النور ولو حاول الكافرون إطفاءه، وإعلان مرة أخرى بالضمان لنصرة رسوله محمد ﷺ، ونصرة الدين الحق، وإظهاره على الدين كله: من يهودية، ونصرانية، ووثنية، وعلى جميع ما تدين به أية أمة في مشارق الأرض ومغاربها، ولو كره المشركون.

وبمجموع ذلك يتحدى المولى سبحانه أهل الأديان على الأرض سوى أهل الإسلام، وكفى بذلك إحقاقاً للحق، وإبطالاً للباطل، وإعزازاً للإسلام والمسلمين، وإذلالاً لمن سواهم. وهو أيضاً تمييز للمسلمين عما سواهم، ليشقوا طريقهم صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص، لا يتخلله ولا لبنة من أولئك الذين اختلفوا على أنبيائهم، وحاربوا رسلهم. ونظير ذلك ما جاء في سورة التوبة تماماً.

ثم يرسم للمسلمين منهج الربح الدائم والعمل الرابح، فيناديهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١١﴾ ثم يندبهم ليكونوا مع محمد ﷺ كالحواريين مع عيسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ١٤﴾. وهكذا أنتم أمة محمد ﷺ تؤمن طائفة وتكفر طائفة، والنهاية تأييد المولى سبحانه

للذين آمنوا، ونصرهم وإظهارهم على عدوهم من الكافرين.

تأتي بعدها سورة الجمعة، فتظهر اليهود في أسوأ صورة، حيث حملوا التوراة ثم لم يحملوها، فكان مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وتقدم الكلام عليها مفصلاً.

بقي من أعداء المسلمين ذلك العدو الخفي الذي لا ثبات له على مبدأ، ولا استقرار له على حقيقة، ولا استقامة له على منهج، وهم المنافقون. ولا شك أن مثل هذا العدو أخطر على الإسلام وعلى المسلمين، لأنه أمكن هو فيهم من حيث المخالطة والمشاركة في ظواهر الأمور، ويعمل في الخفاء بخلاف المشركين واليهود والنصارى، فإن منهجهم ومبدأهم معلن معلوم من قبل مجيء الإسلام، يعرفه بعضهم من بعض، أما المنافقون فلم ينجم نفاقهم إلا بعد مجيء الإسلام، فكانوا مع المسلمين يظهرون الإسلام، ومع شياطينهم يقولون: إنا معكم إنما نحن مستهزئون، وفي صور عديدة مخادعة.

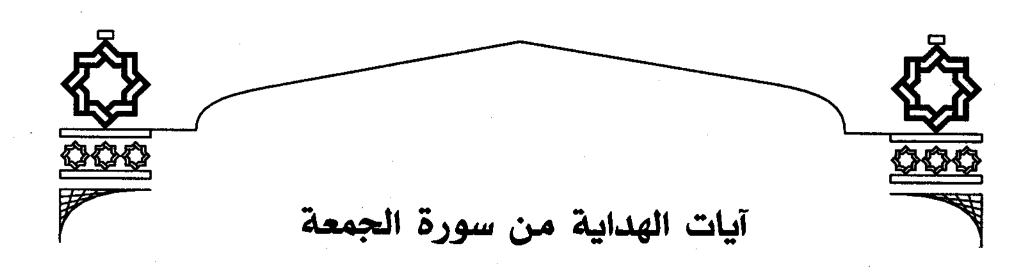
وجاءت هذه السورة فنخلتهم، ونقبت عما يخفونه وينطوون عليه. تبدأ السورة بتحذير النبي ﷺ منهم، فتصفهم بصفتهم الكاشفة وبدون مقدمات: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١﴾. وأعتقد أن المنافقين لم يواجهوا موقفاً هو أصعب عليهم من ذلك، ولا موقفاً أشد إحراجاً وأثقل مؤنة من ذلك، إذ فضح الله شهادتهم التي يشهدونها برسالة محمد ﷺ، ويشهد على كذبهم في تلك الشهادة، وقد يقول قائل: كيف يكذبهم الله في شهادتهم أنه رسول الله، وهو فعلاً رسول الله، والله يعلم إنه لرسوله؟

والجواب: هو في مجموع النص: ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ﴾ أي ذلك قولهم بأفواههم وليس عن عقيدة في قلوبهم. وأصل حقيقة الشهادة أن يطابق القول المعتقد، فيصدق القلب اللسان، وهم أرادوا أن يوهموا رسول الله ﷺ بقولهم: نشهد، أنه عين معتقد مطابق. ولما كان المعتقد أمراً خفياً، كشف الله كذبهم ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾. ولكي لا يسبق إلى الأذهان إبطال قولهم ظاهراً وباطناً، قدم المولى سبحانه ما في علمه سبحانه من أنه ﷺ رسوله حقاً ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾. فيكون تكذيبهم في قولهم: نشهد. هو تكذيبهم في إيهامهم

السامع أن قولهم بألسنتهم يتطابق مع معتقدهم فنفى عنهم الاعتقاد بالتصديق، وشهد على كذبهم فيما يقولون. وكفى بذلك تشهيراً بهم.

ثم يكشف الستار الذي يستترون وراءه بقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢﴾﴾. وهذا الاستخفاف بالإيمان من أخس صفات البشر، لأن جميع الملل تحترم الأيمان، وتجعلها مقياس الوفاء، ومنتهى الأمانة. فافتقدوا مقومات الإنسانية في العقيدة، وفي شرف الكلمة، قال تعالى: ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ﴾ [المنافقون: ٤]. وهكذا كل من لا مبدأ له ولا منهج.

* * *



آيات الهداية من سورة الجمعة

١ ـ إن آية الهداية في هذه السورة: بيان سبب حجب الهداية عن بعض الأمم، والتحذير مما اتصفوا به. ولكأنها في نهاية سياق سورة القرآن الكريم بمثابة التأكيد على لزوم أسباب الهداية، والمبادرة إليها، والتحذير من أسباب حجبها والابتعاد عنها، كما أن النص جاء في سياق عمل مقارنة شاملة بين هذه الأمة الأمية وبين تلك الأمة الكتابية، وبيان الفارق البعيد بينهما.

والنص هو قوله تعالى من أول السورة في كامل السياق: بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [الجمعة: ١ ـ ٤] هذا هو السياق بما يختص هذه الأمة بعد المقدمة بالإعلام بأن العوالم كلها ما في السموات وما في الأرض يسبح لله، وعلى استمرار ودوام في التسبيح، وبيان موجب ذلك، وأنه المستحق له عليهم، لأنه الملك القدوس العزيز الحكيم، صفات جلال وكمال، فهو سبحانه الملك، والعوالم كلها مملوكة له.

ثم يبين امتنانه من واسع فضله على هذه الأمة الأمية: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾. وهم العرب، لا كتاب لهم من قبل، ولم يشتغلوا بالكتابة، بل عمدتهم على الحفظ، وعلى ما تستوعبه ذاكرتهم. بعث في الأميين رسولاً منهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة: ١٢٨]. فهو من أنفسهم جنساً ونسباً، وأميته لم يقرأ ولم يكتب، ولكنه مبلغ رسالة ربه.

ثم بين نوع رسالته: يتلو عليهم آياته، وما يوحيه إليه من آي الذكر الحكيم: آيات بينات. ويزكيهم بالوحي، وبمضمون الرسالة. فيرفع شأنهم، ويرفعهم

عما كانوا عليه من جاهلية جهلاء، ويعلمهم الكتاب، فينفي الأمية عنهم بتعلمهم كتاب الله، حفظاً وتلاوة وعملاً. وبجانب الكتاب الحكمة من السنة المطهرة، والإرشادات الموجهة. وإن كانوا من قبل تلك الرسالة، وقبل ذلك التعليم، لفي ضلال مبين، وجهل مشين. ثم يمتد أثر تلك البعثة بتلك الرسالة إلى الأجيال المقبلة بعدهم: في آخرين منهم لما يلحقوا بهم. بإبلاغ المعاصرين ما تعلموه وتحملوا أمانته، ويمتن على الفريقين المعاصرين والمخاطبين وقت نزول الوحي، المشاهدين البعثة، المخالطين للرسول صلوات الله وسلامه عليه، والآخرين الذين لما يلحقوا بهم، وسيلحقون فيما بعد، يمتن سبحانه عليهم جميعاً بأن هذا فضل من الله، أن امتن عليهم، فبعث فيهم رسولاً منهم، وفضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

ولكأنه بتذكيرهم بعظمة هذا الفضل، لا لمجرد الامتنان عليهم، وإن كانت له سبحانه المنة على عباده، ولكن ليحفظوا هذا الفضل، ويشكروا المتفضل به عليهم، فيقوموا به خير قيام. وتتابع عليه الأجيال، وقد كان بفضل الله كما قال ﷺ في حجة الوداع: «**ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب**». وقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾.

ونلاحظ في القسم بالعصر ـ وهو الزمن على مدى العصور ـ والمقسم عليه الإنسان الذي يشغل هذا العصر، لفي خسر، ولا يسلم من ذلك الخسران إلا الذين آمنوا، أي بما بلغهم من رسالة نبينا محمد ﷺ، وبما أنزل عليه من الكتاب، وبما أوتي من الحكمة، وأوصى بعضهم بعضاً بالحق الذي جاءهم به هذا الدين، وتواصوا بالصبر عليه، وفيه، ومن أجله. نلحظ هذا كله من التنبيه على عظيم فضل الله على العباد في هذا الدين، ووجوب النهوض به قولاً وفعلاً، التزاماً وبلاغاً.

ثم يأتي في المقابل وفي أسلوب التقبيح والتحذير في بيان الأمة الأخرى التي حملت أمانة دينها، وحملت مهمة كتابها، وأمرت بالقيام به، فلم تفعل. فقال ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾ وكلفوا العمل بما فيها، ومن ضمن ما فيها إشهادهم على بعثة محمد ﷺ المنوه عنها في أول السورة، وقد عرفوه حق المعرفة، كما

يعرفون أبناءهم، بل وقد وصفهم الله لهم في سورة الفتح: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ...﴾ [الفتح: ٢٩]. ومع ذلك لم يحملوها تحمل بلاغ وعمل، بل كتموا وجحدوا، فلم ينتفعوا في ذواتهم بإحلال حلالها، وتحريم حرامها، ولم يبلغوها لآخرين، ولم يلحقوا بهم. وزيادة على ذلك أن المشركين لما أتوهم، وقالوا لهم: أنتم أهل كتاب، أخبرونا، ما نحن عليه أم ما يدعونا إليه محمد أفضل؟ فأضلوهم، وضلوا معهم، وقالوا: بل ما أنتم عليه. وكتموا، فكانوا أظلم الناس ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠].

ومن هذا يتبين أن هؤلاء اليهود على العكس تماماً من مؤمني هذه الأمة، وتمت المقارنة، فالمؤمنون آمنوا بالرسالة، وتحملوا الكتابة، وبلغوا ذلك لمن جاء بعدهم إلى اليوم بفضل الله. واليهود حملوا التوراة فلم يتحملوها في شؤون أنفسهم، ولم يتحملوا لمن جاؤوا بعدهم، ففاز المؤمنون بفضل الله، وهلك اليهود بغضب الله.

ثم جاء المثل الكاشف الموضح، كعادة الأسلوب القرآني ضرب الأمثلة بالمحسوس الملموس للمعنوي المعقول، فقال: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾. إن مجرد تمثيلهم بالحمار تشبيهاً مفرداً، ليكفي لتقبيح حالهم، إذ أنه أنزلُ مراتب الحيوانات إدراكاً، وأعلاهم لؤماً وذلة.

فيكون مجيء التشبيه مركباً أولى وأشد، وهو كون الحمار يحمل أسفاراً، كتباً مليئة علماً وحكمة وتوجيهاً، مما يرفع حامله إلى أعلى مصاف المعرفة والكمال، ولكنهم مع حملهم الأسفار لم يدركوا علومها، ولم ينتفعوا بها، كعدم انتفاع الحمار بما يحمل من الأسفار، وليس له منها إلا تبعة الحمل والثقل. وقد قيل في عموم هذا المعنى:

كالعيسِ في البيداءِ يقتلُها الظما   والماءُ فوقَ ظهورها محمولُ

﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ﴾ هؤلاء اليهود ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. نعم، بئس مثل القوم في تمثيلهم بالحمير، وفي عدم انتفاعهم بما يحملون.

ثم جاء إلى نص بيان سبب حجب الهداية عنهم، وهو ما وقع منهم من ظلم، وهو أيضاً ظلم مزدوج.

ظلم لأنفسهم إذ لم يأخذوها بكتاب الله فيهم، ولم يبعدوها عن مهالك ما نهوا عنه.

وظلم غيرهم، سواء من المشركين إذ لم يشهدوا لهم شهادة الحق في بيان صحة الدين الذي جاءهم، وبعث لهم به رسول الله ﷺ، وظلم النبي ﷺ حيث كتموا الشهادة له بالرسالة، وقد أخذ عليهم العهد من قبل ليؤمنوا به.

وفي مجموع ذلك كله تقبيح وتحذير المشركين وغيرهم، بل والمؤمنين، أن يكونوا كغيرهم، بل يسيرون على نهج من قبلهم.

٢ ـ تتمة الحديث عن آية الهداية في سورة (الجمعة):

تقدم الحديث عن المقارنة الموجودة في أول السورة بين الأميين وبعثة الرسول صلوات الله وسلامه عليه، منهم وآخرون منهم لما يلحقوا بهم، وبين الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها. لا في أنفسهم، ولا في حق غيرهم، وما ضرب الله لهم من مثل الحمار يحمل أسفاراً، وبيَّن سبحانه سبب حجب الهداية عنهم، وهو الظلم الواقع منهم، سواء ظلمهم أنفسهم، أو ظلمهم غيرهم ممن حجبوا شهادتهم عنهم في صحة بعثة النبي ﷺ. . .، إلى آخره.

ثم جاء النص بعد ذلك بقوله سبحانه مصرحاً ببيان الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، مخاطباً إياهم بوصفهم، آمراً نبينا ﷺ أن يقول لهم: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟﴾ ولعل مخاطبتهم عن طريق النبي ﷺ، ولم يوجه الحديث إليهم مباشرة، هو أنهم حملوا أمانة الله، ثم لم يحملوها، فلم يعودوا أهلاً لمباشرتهم بالخطاب، فكان الحديث إليهم عن طريق الرسول الجديد الذي أرسله سبحانه في الأميين، قل لهم: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ هذا الزعم بالولاية والقرب من الله، أشد وأقرب إليه سبحانه من دون الناس جميعاً، هو المصرح به في سورة المائدة: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: ١٨]. إنها دعوى عظيمة، ابتدعوها واجترؤوا عليها، ومعلوم أن الزعم أقرب للكذب، فهو دعوى مستبعدة، إما في الحس،

وإما في الواقع. كما قال أبو سفيان لهرقل لما سأله عن رسول الله ﷺ وأجابه بصدق، واستدل هرقل من إجابة أبي سفيان على صحة رسالة محمد ﷺ، فأراد أبو سفيان أن يأتي بما يشكك في مصداقية هرقل، فقال له: ولقد زعم لنا محمد أنه أتى إلى مسجدكم هذا ـ يعني مسجد بيت المقدس ـ وصل فيه، ثم رجع إلى مكة في ليلة واحدة، ونحن نضرب إليه أكباد الإبل شهراً، فاعتبر أبو سفيان إخبار النبي ﷺ بالإسراء زعماً لاستبعاده في الواقع.

وهنا يقول الله تعالى لليهود: إن زعمتم في ادعائكم الباطل أنكم أولياء لله، فأقيموا البرهان على ذلك، ولن تستطيعوا ذلك، وإذا لم تستطيعوه، فتمنوا الموت إن كنتم صادقين.

وفي هذا التمني تنطوي قضية منطقية، وهي أن أولياء الله هم موضع كرامته، وعلى دعواكم في سورة المائدة ﴿أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾. وكرامة الله لأوليائه وأحبائه يوم يلقونه في الدار الآخرة، ويكون بمقتضى زعمكم أن تتمنوا الموت الذي به تنالون تلك الكرامة عند الله.

ثم أخبر سبحانه أنهم لن يتمنوه أبداً لأنهم يعلمون في قرارة نفوسهم أنهم إن تمنوه واستجيب لهم، لن يلقوا إلا العذاب والعقاب بما قدمت أيديهم، من تغيير، وتبديل، وكتم للشهادة، وتضييع لما حملوا من أمانة التوراة.

وقد صرح سبحانه بهذا المفهوم اللازم من تمنيهم الموت لو تمنوه فيما نص عليه في سورة المائدة، رادّاً عليهم ادعاءهم أنهم أبناء الله وأحباؤه أيضاً بقوله سبحانه لرسوله، أن يقول لهم: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ ثم صحح واقعهم: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَۚ﴾ أي من أول ذرية آدم، إلى اليوم الذي أنتم فيه، إلى آخر الخليقة حين تقوم الساعة، وللجميع قانون عام ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ فليس لأمة ولا لجماعة سلطان على الله أن يواليهم دون غيرهم.

ثم بيّن سبحانه أن لا مجال لذلك حيث قال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۖ﴾ من فضاء بما فيه من أفلاك وكواكب، وما لا يعلمه إلا الله، وليس لأحد فيه شراكة ولا تصرف، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سبحانه ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨]. مصير الخلائق كلهم.

وبعد إبطال دعواهم، وإبطال ادعاء من يدعي كدعواهم مثل متطرفي

الجهال، أو أي زنديق محتال يوهم العوام أن له عند الله الضمان بالجنة، فيقال له: إنك بشر ممن خلق. ونزيد نقول لهم: هذا سيد الخلق، وخاتم الرسل، وأكرمهم على الله، وصاحب الشفاعة العظمى والمقام المحمود يوم القيامة، يقول لآل بيته، ولخاصة أبنائه فاطمة الزهراء: «**يا فاطمة اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً**». فأي مخلوق كان بعده صلوات الله وسلامه عليه من ملك مقرب، أو نبي مرسل يزعم أنه ضامن لإنسان بعينه الجنة؟ اللهم إلا من أخبرهم صلوات الله وسلامه عليه وبشرهم بالجنة، حيث كان لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي، وقد قال تعالى: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦]. وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وإذا كان ذلك كذلك، فهل يملك شخص من الناس أن يضمن على الله الجنة لنفسه، فضلاً عن غيره؟ حاشا وكلا ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤]. حقاً كما قال تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ بفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ بعدله. ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: ٢٣].

بعد إبطال مزاعمهم، وإبطال ما يترتب عليها، نجد في سورة المائدة في سياق الموضوع، يوجه إليهم النداء، وإليهم مباشرة وبدون واسطة: قل. وبوصف يلزمهم الطاعة: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾. أي وهو حجة عليكم أن تقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير. فقد جاءكم بشير ونذير، وقامت عليكم بذلك الحجة، فاتبعوه. وبهذا ينتهي بيان الموقف مع اليهود في ادعائهم.

بينما نجد في سورة الجمعة ـ بعد نفس السياق ـ نفس النداء، ولكن للمؤمنين، تتمة للمقارنة السابقة التنويه عنها في أول السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾، وفي هذا السعي إلى ذكر الله عند سماع النداء، وترك البيع وهو وسيلة المعاش، تعبير عملي بأن المؤمنين حملوا ما جاءهم به رسولهم من الكتاب والحكمة، فتحملوه في خاصة أنفسهم، وأوصلوه للذين لما يلحقوا بهم بعد أن لحقوا، وأن دين الله قائم، وأن المؤمنين سائرون عليه كما قال تعالى:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [النور: ٣٦ ـ ٣٧].

ونستطيع القول من فحوى كل ما تقدم: أن من استمع النداء يوم الجمعة، ولم يسع إلى ذكر الله مشتغلاً بالبيع أو أي وسيلة من وسائل المعيشة، فإن فيه صفة من صفات الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها، وهم الذين طغت عليهم الماديات، فاستحلوا ما حرم الله من صيد وشحوم، وهم الذين عطلوا كتاب الله، ولذا جاء عنه ﷺ: **«من ترك الجمعة ثلاث مرات متواليات طبع الله على قلبه»**. وهو نفس العقاب والجزاء الذي وقع على اليهود كما في سورة النساء: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٤ ـ ١٥٥]. وهذا تحذير شديد، ووعيد أكيد، لكل من آثر نفعاً مادياً، وعطل أمراً إلهياً، كما أنه بيان لفضل هذه الأمة سلفها وخلفها، ولله الحمد والمنة.

٣ ـ خاتمة الحديث عن خاتمة سورة الجمعة:

جاءت خاتمة سورة (الجمعة) بمثابة النتيجة العملية لافتتاحيتها، وبين الافتتاحية والخاتمة كان الكشف عن حالة اليهود من إبطال زعمهم أنهم أولياء لله من دون الناس، وتصويرهم في أسوأ مَثَل كالحمار يحمل أسفاراً، بئس مثل القوم.

ولأهمية موضوع خاتمة السورة، لزم الحديث عنها، لإتمام الصورة وإيضاحها مع الربط بالمقدمة.

لقد افتتحت السورة الكريمة بالإخبار عن ملكوت السموات والأرض، بالاستغراق في تسبيح الله الملك القدوس العزيز الحكيم، ثم جاء الامتنان على هذه الأمة الأمية ببعثة رسولهم منهم بخاتمة الرسالات وأعمها، يتلو عليهم آياته، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة. وليس للتزكية من حد، ولا للحكمة من إحاطة. فكانوا بذلك خير أمة أخرجت للناس. وأنه فضل الله يؤتيه من يشاء. ثم جعلهم حملة رسالة لآخرين منهم لما يلحقوا بهم،

وسيلحقون فيما بعد، وقد لحقوا وأبلغوا رسالة الله، فتم لهم فضل الله عليهم في أنفسهم، وفضل الله عليهم فيما تعداهم لغيرهم، والله ذو الفضل العظيم.

وهذه هي افتتاحية السورة الكريمة، ثم بعدها خبر اليهود في تضييعهم أمانة ما حملوه.

ثم جاءت خاتمة السورة بالتطبيق العملي من هذه الأمة، بأنهم إذا سمعوا النداء للصلاة من يوم الجمعة يسارعون بالسعي إليها لذكر الله، ويذرون البيع، وأنهم إذا قضيت الصلاة ينتشرون في الأرض يبتغون من فضل الله، مع دوام ذكرهم لله لعلهم يفلحون.

نلاحظ أمرين من أهم مواضيع هذه السورة الكريمة:

الأول منهما: أن ذكر اليهود كان لتقبيح فعالهم، والتحذير من أمثالهم، وأنهم قوم بهت، غلبت المادة عليهم، فاستبدلوا الدنيا بالدين، واستحلوا ما حرم الله. ويقابلهم النصارى، أهملوا الدنيا وابتدعوا رهبانية ما كتبها الله عليهم، فخسر اليهود وضل النصارى، بينما هذه الأمة قد جمعت بين الحسنيين، وسلمت من الخبيث. وسلكت المنهج العدل الذي حقق للإنسان مطلبه من حيث إنه جسم مادي له متطلبات، وروح إلهي له مقومات، ولم تطغ مطالب جانب على آخر، فكان على فطرته وغريزته، يعمل في كسب معاشه بالبيع والشراء، أو الأسباب الأخرى. فإذا هو سمع النداء سعى لذكر الله، فكان في الأول عاملاً لدنياه، وفي الثاني ساع لأخراه، وهذا هو الاعتدال في منهج الحياة: ديناً ودنيا. ثم إذا هو قضى صلاته وأدى حق الله، انتشر في الأرض يبتغي من فضل الله، وفي ذلك المجال الواسع. ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: ١٥].

ثم تأتي الملاحظة الثانية: وهي ما يربط آخر السورة بأولها في ديمومة التسبيح لله تعالى من عوالم السموات والأرض، ففي المقدمة: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ بصيغة المضارعة التي تدل على التجدد والدوام، وفي آخر السورة ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ أي مع الانتشار في الأرض والابتغاء من فضل الله، يديمون ذكر الله كثيراً، وذكر الله الكثير ليس مجرد نطق اللسان واشتغاله به، فإنه سيتعامل مع الناس، ويعمل فكره فيما يسعى لتحصيله. فيكون فكره لله بكل

أعماله، فإن كان قد عاد إلى بيعه الذي كان عليه، فليذكر الله عند تعامله سواء في عين المبيع بدون غش أو تدليس، أو في آلته من كيل فلا يطفف، أو وزن فلا يبخس. وإن كان سيعود إلى صنعة وعمل منتج، فكذلك يذكر الله بالنصح في عمله، والإخلاص في تعامله. وهكذا فيكونون بعيدين كل البعد عن مكانة الشبه مع اليهود، الذين احتالوا في تعاملهم على ما حرم الله، كالصيد يوم سبتهم بتحيلهم بإلقاء الشباك يوم الجمعة، وإخراجها بحيتانها يوم الأحد، وبإذابتهم الشحوم المحرمة عليهم وبيعها والانتفاع بأثمانها، وبتحريفهم كتاب الله، وكتابتهم كتباً بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، فويل لهم مما كتبت أيديهم، وويل لهم مما يكسبون.

ثم جاءت تلك الصورة التي حدثت من بعض المصلين مع النبي ﷺ على تأويل منهم وعدم تقصير، حينما انتهت الصلاة وكانت الخطبة، ويظنون أن الواجب قد انقضى بأداء الصلاة، ويرون أن لا حرج عليهم إذا انصرفوا، فسمعوا الإعلان عن مقدم تجارة للمدينة، فانصرف البعض إليها، وبقي البعض، فجاء هذا العتب لينهي كل أنواع التقصير، ويحملهم على أفضل أنواع الطاعة والامتثال: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾. أي انفض البعض وذهبوا عنه ﷺ وهو قائم يخطب في الباقين الذين لم ينفضوا، وذلك طلباً للتجارة، قل لهم، وأعلمهم أن ما عند الله جزاء على الطاعة خير من اللهو ومن التجارة.

ثم لفتة كريمة: لئن كنتم بادرتم بالانفضاض للتجارة طلباً للرزق، فالله خير الرازقين. أي ما عند الله من الرزق العاجل والأجر الآجل خير لكم مما ذهبتم إليه. فلا تعودوا لمثلها.

هذا ما تعطيه أريحية وتوجيه آية الهداية وسياقها من هذه السورة في النطاق التوجيهي العام.

وهنا وبالمناسبة أحكام فقهية، يلزم التنبيه عليها، منها: أن خطبة الجمعة كانت بعد الصلاة كخطبة العيدين، ولأسباب ما قدمت الخطبة على الصلاة إلزاماً بسماعها، ومنها أن الخطبة شرط في صحة الجمعة على الجماعة، وليس على الأشخاص، يعني من لم يدرك الخطبة وأدرك الصلاة فقد صحت جمعته،

وتدرك الجمعة عند الأئمة الثلاثة - مالك والشافعي وأحمد - بإدراك ركعة واحدة، كمن أدرك الإمام في الصلاة وهو راكع في الركعة الثانية وركع معه، وعند الإمام أبي حنيفة يدركها إذا أدرك الإمام قبل أن يسلم، يعني لو أدركه في التشهد يعتبر عنده مدركاً للجمعة. وحجة الجمهور في قوله ﷺ: «**من أدرك ركعة مع الإمام من صلاة الجمعة فليضف إليها أخرى، ومن لم يدرك الركعة فليصل أربعاً**» يعني يدخل مع الإمام فإذا سلم الإمام قام فصلى أربعاً ظهراً.

ومن الأحكام الفقهية الهامة: أن الجمعة واجبة، وليست كما يظن البعض أنها سنة مؤكدة، أو فرض كفائي، بل هي فرض عين على كل رجل إلا من أعفاه الشرع منها، كالمريض والمسافر وممرض المريض الذي يحتاج إليه، والمملوك عند البعض، وهي فرض يومها، وليست هي نيابة عن الظهر، ولا يخفى أن الجمعة مظهر من مظاهر الإخاء والتآلف والترابط بين المسلمين، وفرصة لتفقد المسلمين بعضهم بعضاً إذا لم يتراءوا في الصلوات الخمس لبعد منازلهم، وتعدد مساجدهم. وقد بيّن ﷺ أن اليهود لا يحسدون المسلمين على شيء أكثر من يوم الجمعة، ومن التأمين في الفاتحة في الجماعة. وقد تميز يومها بساعة لا يصادفها عبد بدعاء إلا استجيب له.

٤ - آداب الجمعة:

تقدم في سورة الجمعة نص في بيان سبب حجب الهداية عن اليهود من ظلمهم، في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. وكانت مقارنة بين الأمة الأمية وبعثة رسول فيهم منهم، وبين الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها. وكانت خاتمة السورة في بيان وجوب السعي إلى ذكر الله عند سماع النداء من يوم الجمعة، وترك البيع وأسباب المعاش. وتقدم بيان وجوب الجمعة وجوباً عينياً على من توفرت فيه شروط الوجوب.

ولما كانت الجمعة من خصائص هذه الأمة، وهي مظهر من مظاهر ترابط الأمة وتآخيها، ولها عظيم شأن في الإسلام، يظهر للمتأمل أنها قريب شبه من الحج:

إذ تأتي في نهاية الأسبوع، كما يأتي الحج في نهاية الأعمال.

ويأتي إليها المستطيع، وتسقط عن العاجز سواء كالحج من استطاع إليه سبيلاً.

ولندائها اختصاص دون غيرها ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، وفي الحج: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ . . .﴾ [الحج: ٢٧].

وبعد الجمعة: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾، وفي الحج ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٨].

وللحج آداب يلتزم الحاج بها: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]. فكذلك للجمعة آداب يلتزم من يأتيها التأدب بها. نلم ببعض منها:

أولاً: الهيئة الحسنة: من اغتسال، ومن الطيب، ولبس أحسن الثياب لديه. فقد جاء عنه ﷺ فيما يرويه أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه فيما أخرجه أحمد وغيره: قال ﷺ: «**من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده، ولبس من أحسن ثيابه، ثم خرج حتى يأتي المسجد فيركع ما بدا له، ولم يؤذ أحداً، ثم أنصت حتى يصلي، كان كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى**». وفي نصوص أخرى: «**ثم مشى إلى الجمعة وعليه السكينة**». فهذه كلها من السمت الحسن، وحسن السمت من الإيمان.

وقد كان الغسل في أول الإسلام واجباً لحديث: «**غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم**»؛ متفق عليه، والمحتلم يعني من بلغ سن الاحتلام، ثم نسخ بالحديث الآخر: «من توضأ يوم الجمعة فبها، ومن اغتسل فالغسل أفضل».

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كانوا في أول الأمر يعملون لأنفسهم والبلاد حارة، فيأتون بثياب عملهم، فأمروا بالغسل، فلما فتح الله عليهم وكفاهم العبيد أعمالهم، اكتفى منهم بالوضوء.

وكذلك في الثياب: جاء قوله ﷺ: «**من غسّل واغتسل**» قالوا: غسل ثيابه. وجاء أصرح من هذا، قوله ﷺ: «**ماذا على أحدكم لو اتخذ ثوبين لجمعته بدلاً من ثوبي مهنته**». إنه والله الحمل بشدة على النظافة في الثوب والبدن، والحث

الأكيد على حسن المظهر. وقد أشاد الله تعالى بهذا في ثنائه على أهل قباء في قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]. وقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾. وحتى لا تكون المغالاة يقول تعالى في ختام الآية: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣١ - ٣٢].

وهنا مناقشة الفقهاء: هل الغسل للجمعة أو هو لليوم؟ فإذا كان للجمعة، فهو في حق من يحضرها بخلاف أهل الأعذار، ويكون مراعاة لما ينبغي في حق الاجتماعات العامة في كل مناسبة كالعيدين، والوقوف بعرفة والمزدلفة، والطواف، بل والاجتماعات التي تتطلبها حياة الناس كالولائم المشروعة ونحو ذلك. وإذا كان لليوم فهو على كل إنسان حضر الجمعة أم لا، حتى النسوة في البيوت، ويكون ذلك مبعث نظافة بصفة عامة، وصورة شاملة.

كما جاء كذلك تفقد أظفاره كل أسبوع، وشعوره فيما لا يزيد عن أيام معدودة قبل ٤٠ يوماً. وجاء أيضاً أن من لم يجد طيباً فالماء أطيب الطيب، يعني في نظافته.

فهذه الآداب في حسن السمت والهندام، عطاء من عطاءات يوم الجمعة.

وكذلك من سنن هذا اليوم التبكير إليها: وتقدم أنه يتعين السعي إليها وجوباً بسماع النداء، ولكن ينبغي على المسلم أن تكون له همة عالية، ورغبة في الخير أوسع، فيبادر لميادين الخير، على حد قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]. وقد جاءت نصوص صحيحة صريحة في ذلك منها:

عن أوس بن أوس ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من غسل يوم الجمعة واغتسل، وبكر وابتكر، ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام فاستمع ولم يلغ، كان له بكل خطوة عمل سَنَة، أجر صيامها وقيامها**». أحمد وأبو داود والنسائي. ومعلوم أن المشي لمن كان قريباً ولم يشق عليه، ومهما يكون من احتمال معاني (بكر وابتكر) فإنه نص في التبكير إلى الجمعة.

وقد جاء حديث أبي هريرة ﷺ عنه أنه ﷺ قال: «**من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة** - يعني مثله غسلاً كاملاً -. **ثم راح في الساعة الأولى فكأنما قرّب**

بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرّب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرّب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرّب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرّب بيضة، فإذا حضر الإمام ـ أو خرج الإمام ـ حضرت الملائكة يستمعون الذكر**». مالك والبخاري ومسلم.

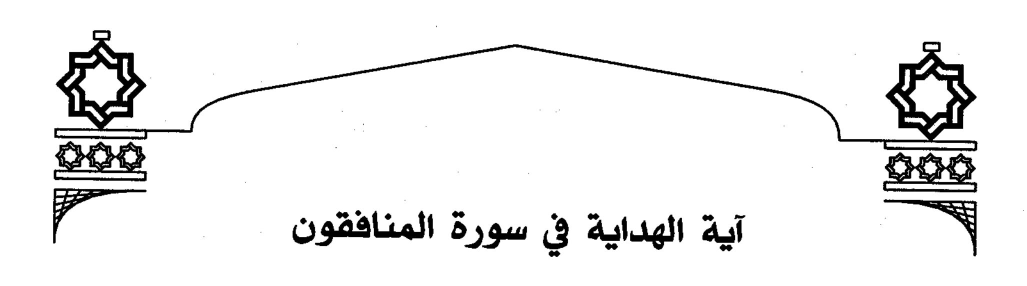
والحديث الآخر: «**إذا كان يوم الجمعة، وقفت الملائكة على باب المسجد، يكتبون الأول فالأول**». وهنا ينبغي الانتباه إلى سعة المجال وعدم الحرمان من بدنة إلى بيضة، كل حسب حاله، وكذلك الترتيب في الحضور، ليعتبر أولئك الذين يتأخرون، ثم يأتون يتخطون رؤوس الناس للوصول إلى أوائل الصفوف، فقد كتب متأخراً، ولو صلى في الصفوف المتقدمة. وقد رأى النبي ﷺ ـ وهو يخطب ـ رجلاً يتخطى رقاب الناس، فقال له: «**اجلس فقد أنيت وآذيت**». وأنيت من الأين وهو الوقت: تقول: آن الأوان. يعني أنه تأخر في المجيء، ثم آذى بتخطيه.

ومن أهم آدابها: صلاة ما تيسر قبل خروج الإمام إلى الخطبة، وحسن الاستماع، قال ﷺ: «**إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة: أنصت والإمام يخطب فقد لغوت**». متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**يحضر الجمعة ثلاثة نفر** ـ يعني أقسام ثلاثة ـ **فرجل حضرها بلغو، فذلك حظه منها** ـ يعني مجرد حضوره دون أجرها ـ **ورجل حضرها بدعاء فهو رجل دعا الله، إن شاء أعطاه، وإن شاء منعه. ورجل حضرها بإنصات وسكوت، ولم يتخط رقبة مسلم، ولم يؤذ أحداً، فهي كفارة إلى الجمعة التي تليها، وزيادة ثلاثة أيام، وذلك أن الله يقول: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**» أبو داود.

ولا غرو في كل هذه العناية بيوم الجمعة، إذ أنه يوم الإسلام، حيث ضل عنه اليهود، فأخذوا السبت، وضل عنه النصارى فأخذوا الأحد، وهدى الله هذه الأمة إليه، بل هو يوم الإنسان: فيه خلق الله آدم، وآدم أبو البشر، وفيه أسجد الملائكة إليه، وفيه أسكنه الجنة، وفيه أهبطه إلى الأرض، وفيه تاب الله عليه.

ومن السنة أن يقرأ في الفجر من يومه السجدة والإنسان، ليتذكر مبدأه ومعاده، فيعمل في دنياه لآخرته.



آية الهداية في سورة المنافقون

جاء النص هنا من هذه السورة في بيان سبب حجب الهداية عن المنافقين بوصفهم بالقوم الفاسقين في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٦﴾﴾ [المنافقون: ٦].

ومما يسترعي الانتباه لأسلوب القرآن الكريم، تلك المغايرة بين ما تقدم في سورة الجمعة في بيان حجب الهداية عن اليهود بوصفهم بالقوم الظالمين. والمتأمل يجد أن كل وصف في موضعه هو الأنسب بالموصوفين:

فاليهود فعلاً أشهر صفاتهم الظلم. والظلم لغة: وضع الشيء في غير موضعه، ومنه منع ذوي الحقوق حقوقهم. وقد سجل القرآن عليهم العديد من صور الظلم، سواء في كتم الشهادة مما استرعاهم الله إياه من رسالة نبينا محمد ﷺ، بل ومن إخبارهم لأهل مكة أن ما هم عليه أصح مما جاءهم به الإسلام. وما كانوا يكتبون الكتب بأيديهم، ثم يقولون: هذا من عند الله، وما هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً. ومن أعظم ظلمهم أن يستبيحوا غش المسلمين ويقولون: ليس علينا في الأميين سبيل. ومن أعظم ظلمهم قتلهم الأنبياء بغير حق، وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً. واحتيالهم على استباحة ما حرم الله من حمل الشحوم، وبيعها، وأكل ثمنها، واحتيالهم في أخذ الحيتان يوم سبتهم، وأشياء كثيرة، واتخاذهم العجل في غيبة موسى عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]. وجاء الوصف الكاشف لنتيجة جرائم ظلمهم في قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾ [النساء: ١٦٠].

أما المنافقون: ووصفهم بالقوم الفاسقين، فإنه أنسب ما يكون بهم، لأن الفسق لغة: الخروج. يقولون: خرجت الرطبة من قشرتها: فسقت الرطبة. وخروج النواة من الرطبة: فسقت النواة. ويظهر عندي أن الفسق عصيان

وخروج عن الطاعة في الخفاء. لأن المادة (ف.س.ق) بالتصريف الأكبر، ومن فقه اللغة من دوران المادة على معانٍ متعددة تجتمع في أصل واحد، نجد فقس بتقديم الفاء خروج الفرخ من بيضته بعد استتاره وخفائه، ونجد سقف بتقديم السين وهو سقف الحجرة يستر ما تحته، وعليه سميت الفأرة: فويسقة، لأنها تخرج ليلاً للإفساد، وعليه قول رؤبة يصف لصوصاً:

يهوين من نجد وغوراً غائرا فواسق عن قصدهن جوائرا

وهذا هو أنسب ما يكون للمنافقين، لأن النفاق إظهار ضد ما يخفى، أخذاً من نافقاء اليربوع، إذ هو يظهر خلاف ما يبطن، فيجعل لجحره باباً معلوماً وفي آخره يجعل موضعاً بينه وبين وجه الأرض، طبقة خفيفة تستر ما وراءها، فإذا أحسَّ بخطر من جهة الباب المظهر ذهب إلى ذاك المكان وضربه برأسه وخرج منه. وقد كان للمنافقين مواقف مع المسلمين، أخطرها هي من اليهود، لأن عداوة اليهود ظاهرة معلنة، وهم كانوا يخفون عداوتهم تحت ما يعلنون من مظاهر إسلامهم ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. فكانوا مخادعين لله وللذين آمنوا كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [البقرة: ٨ ـ ٩]. إلى آخر السياق في حقهم في أوائل سورة البقرة.

وهذه السورة الكريمة اختصت بهم، وسميت باسمهم، فيلزم التحدث عنهم من خلال سورتهم، وقبل ذلك نشير إلى مناسبتها بما قبلها، علاقة ما قبلها بها، ليزيد بيان المغايرة بين اليهود والمنافقين، علماً بأن المنافقين أساساً هم من اليهود، لأن مشركي العرب لم يعرفوا النفاق بل هم صرحاء، سواء في كفرهم يجاهرون به، أو في إسلامهم يصدقون فيه. بخلاف المنافقين: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ...﴾ [البقرة: ١٤].

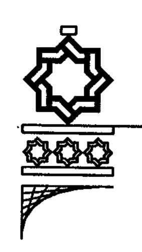
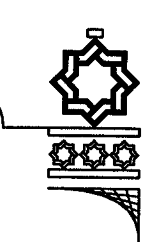
ومناسبة هذه السورة لما قبلها ـ وهي سورة الجمعة ـ قال أبو حيان في تفسيره: إنه لما كان سبب الانفضاض عن سماع الخطبة يوم الجمعة ربما كان حاصلاً من المنافقين، واتبعهم ناس كثيرون من المؤمنين في ذلك. وذلك لسرورهم بالعير التي قدمت بالميرة، إذ كانت وقت مجاعة، جاءت هذه

السورة لبيان حال المنافقين وما هم عليه من عداوة لأهل الإيمان، وبيان سوء فعالهم، وقولهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾. ومعلوم أن أموال المدينة كانت في أيدي اليهود، وكان المهاجرون قد أُخرجوا من ديارهم تاركين أموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، وينصرون الله ورسوله، علماً بأن المنافقين لم يكونوا ينفقون شيئاً إلا الخبيث من أموالهم مداراة ونفاقاً، وكان الأنصار هم الذين يحبون من هاجر إليهم، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وقد سجل الله تعالى لهم هذه المكرمة، إذ كان الواحد منهم يقول لصاحبه وأخيه في الإسلام: تعال أقاسمك مالي، وأنزل لك عن إحدى زوجاتي. وكان المهاجرون أباة متعففين، حتى يقول ابن عوف لأخيه الأنصاري: بارك الله لك في مالك وفي زوجك، دلني على السوق. وعلي بن أبي طالب يؤاجر نفسه، يمتح دِلالاً من بئر، كل دلوٍ بتمرة. وهكذا كان التلاحم بين الأنصار والمهاجرين: بذل وإيثار، وتعفف وإباء.

أما المنافقون فقد سجل القرآن عليهم في هذا المجال صوراً عديدة، تتسم بالشح، ويمليها الجحود، من ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: ٢٦٤]. وهذه صفة المنافقين، وقوله في نفس السياق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧]. كان الأنصار يأتون بالعذق الجيد لأهل الصفة، وكان المنافقون يأتون بالشيص والحشف، فمقالتهم: ﴿لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟﴾. مقالة كاذبة، لأنهم لم يكونوا ينفقون شيئاً ذا بال، وهي مقالة بغيضة، يأباه ذوو المروءات، كشفت عن بخلهم وشحهم ودناءتهم، وقالوا أيضاً أبعد وأشد من ذلك، مما كشف الحقد وسوء الطوية فيهم، بقولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ وذلك في العودة من غزوة المريسيع، والله قد سجلها عليهم، وردها فيهم بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:

٨]. وبهذا انكشفت حقائقهم، وانفضحت سرائرهم، وقال تعالى فيهم: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾ [محمد: ٢٩ - ٣٠]. تلك بعض مواقفهم، أما موضوع السورة فسيأتي تفصيله إن شاء الله.

* * *

آية الهداية من سورة التغابن

١ ـ بتأمل نسق السورة بما قبلها من السور الأربع: الممتحنة، والصف، والجمعة، والمنافقون نجدها بمثابة التصفية والتعليق على مضمون جميع ما تقدم في تلك السور الأربع:

إذ (الممتحنة) ميزت المؤمنين عن المشركين، وألزمت امتحان المؤمنات المهاجرات إحقاقاً لمعنى إيمانهن.

و(الصف) ربطت بين نبي الله عيسى عليه السلام، ونبينا محمد ﷺ، إذ جاء مبشراً به، ومعلناً اسمه أحمد، وربطت بين مؤمني هذه الأمة، وحواري عيسى عليه السلام أنصار الله.

و(الجمعة) كشفت عوار اليهود، وما وقعوا فيه من غبن كمثل الحمار يحمل أسفاراً، واشتركوا في المشابهة بالمشركين كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة.

وجاءت سورة (المنافقون) فكشفت كل خفاياهم، وسوء فعالهم، وقبح مقالاتهم.

وبعد بيان تلك الطوائف كلها، وموقفها من الإسلام والمسلمين، تأتي سورة التغابن تجمل ما تقدم، وتفصل ما يلزم، فتستهل بقوله سبحانه: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾، تنزيه لله سبحانه عن تقصير واقع من تلك الطوائف، وأن العالم كله ـ سماءه وأرضه ـ يسبح له، وبيان موجب ذلك بأن له الملك وله الحمد، يتصرف في ملكه كيف يشاء، وبكل ما يحمد عليه، وهو سبحانه على كل شيء قدير، وهذا من تمام ملكه، ووفاء حمده، ثم جاء إلى عبادته، وبالنظر إلى تلك الطوائف ما بين الإيمان والكفر، مبيناً أن كل ذلك منه سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾: كافر بالخلق كالدهريين، أو كافر بالخالق

يعبدون غيره، ومؤمن بالخلق والخالق. ولا يخفى عليه سبحانه من حالكم شيء والله بما تعملون بصير.

ثم بعد تقريرهم بخلقه إياهم، ذكر خلق العالم كله جملة، قال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي وما فيهن من عوالم لا يعلمها إلا الله، خلقها ﴿بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ﴾ على ما أنتم عليه في صورة الإنسان في أحسن تقويم ﴿فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ وميزكم عن جميع أنواع المخلوقات في هذا العالم، وفي هذا امتنان على العباد، وإظهار للقدرة، وإثبات للحكمة، ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾. أي منه البداية بالخلق، وإليه المصير بالبعث، فلا فوت ولا مهرب، فاحذروا. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾﴾ أي أنه خلق العالم ويدبره بعلمه، ويعلم منكم السر والعلن، أي يعلم السر وأخفى، والله عليم بذات الصدور. تدرج في متعلق العلم من الكليات إلى الجزئيات، من عموم ما في السمٰوات والأرض إلى خصوص ما تسرونه وما تعلنونه، ثم إلى أخص من الخاص وهو العلم بذات الصدور. ولما كان هذا الأخير أخص وأخفى مما قبله، كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ [غافر: ١٩]. وهذا أبعد ما يكون في العلم، جاء مع هذا النوع بلفظ الجلالة ظاهراً: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وبعد هذه الإحاطة بالخلق، والتصرف بالقدرة، والتصنيف بالكفر والإيمان، والإنعام بحسن الصورة والجمال، وإشعارهم بالنهاية والمصير إليه، وأنه عالم بكل أعمالهم وأقوالهم، ما يسرون وما يعلنون، وما توسوس به نفوسهم وتخفيه صدورهم، يوجه إليهم ما ينبههم للموعظة والعبرة بمن كان قبلهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ وما آلوا إليه ﴿فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. ذاقوا الوبال في الدنيا، ولهم أليم العذاب في الآخرة. وما السبب إلا ما أنتم عليه؟ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ كما جاءكم به محمد ﷺ، فاستبعدوا وأعرضوا ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾.

يقول الفخر الرازي: عجبوا من إرسال بشر يهدونهم، ولم يعجبوا من حجر يعبدونه! فكفروا برسلهم وما أتوهم به، وتولوا عنهم، ولم يضروا إلا أنفسهم بكفرهم وتوليهم، واستغنى الله عنهم وعن عباداتهم، والله غني من قبل

إيجادهم، حميد في ذاته سبحانه، لا ينقصه توليهم من كمال محامده سبحانه.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾. لما بيَّن الله سبحانه أنه خلقهم، وصورهم فأحسن صورهم، وأنه إليه المصير بإحيائهم وبعثهم بعد مماتهم، بيَّن هنا زعم الكفار والباعث لهم على الكفر والعناد، والمانع من السمع والطاعة، وهو زعمهم أنهم لن يبعثوا، والزعم كما قيل: مطية الكذب. وهذه كبريات قضايا النزاع مع المشركين كما قال تعالى في آخر سورة يس: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴿٧٨﴾﴾ [يس: ٧٨]. وكذلك قولهم مستبعدين الرسالة والبعث معاً في أوائل سورة (ق) في قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢ ـ ٣]. ونحو ذلك من الآيات.

ويأتي الرد عليهم بإقامة الدليل الملموس على إمكان ذلك، كما في يس؛ قال تعالى: ﴿قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٩]. وقبلها قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ﴾. يعني لو تذكر خلقه من العدم لأيقن أن من خلقها أول مرة قادر على أن يحييها ثانية، وهو أهون عليه.

وفي سورة (ق) وجّه أنظارهم إلى السماء فوقهم: ﴿كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ﴿٦﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ﴿٧﴾ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٨﴾﴾ ثم جاء إلى الصورة العملية للإخبار في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾ إلى قوله: ﴿وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ [ق: ٦ ـ ١١]. أي كذلك الإحياء للبلدة الميتة، وإنبات النبات. ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ﴾ [فصلت: ٣٩]. فهي أدلة مشاهدة ملموسة على البعث.

ولكن هنا في التغابن لم يقم لهم أدلة كتلك، بل قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾. وهنا يأتي السؤال: كيف يقسم لهم على صحة البعث في معرض عنادهم، ويكون المقسم به من لا يؤمنون به؟! فهم لا يؤمنون بالرسول، وقالوا: أبشر يهدوننا؟ مع ملاحظة تأكيد هذا القسم باللام والنون.

وأشار الفخر الرازي أن الفائدة في هذا القسم بيان أنه ﷺ موقن بالله رباً،

وأنه أقسم به بمقتضى هذا اليقين. ولعل من موجب هذا القسم هو إبراز قوة يقين المصطفى ﷺ بربه إلى الحد الذي يفرض نفسه عليهم، غير مبال بإنكارهم، واعتباره أمراً واقعاً بالفعل.

ثم عقب على القسم بالبعث ـ أي على إثباته ـ بتعقيب يزيل ما يتوهمون من موجب نفي إيمانهم، نحو استبعادهم ذلك، وصعوبته. فقال سبحانه: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

وبالعودة إلى أول السورة، من أنه له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، ومن أنه خلقهم وصورهم، فأحسن صورهم؛ فإن القادر على ذلك قادر على بعثهم بيسر وسهولة.

وإلى هنا ينتهي النقاش مع الكفار بإلزامهم بإمكان البعث، ومجازاتهم بما كانوا يعملون. فجاء بعدها توجيه المؤمنين: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾﴾ وهذه هي المرحلة الثانية من مراحل السورة على ما سيأتي إن شاء الله.

٢ ـ المرحلة الثانية من سورة التغابن:

تأتي المرحلة الثانية من هذه السورة بدعوة المؤمنين والناس أجمعين إلى الاستمساك بالعروة الوثقى، والاستضاءة بنور الله، الذي أنزله إرشاداً أو هداية للخلق، ليخرجهم من ظلمات الجهل وضلال الكفر، إلى نور المعرفة وهداية الإيمان.

﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾: والفاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟﴾ تشعر بربط هذا الإرشاد إلى الإيمان بما قبله، وهو بعد بيان نبأ الذين قبلهم، وما ذاقوا وبال أمرهم بسبب كفرهم، كأنه يقول: فلا تكونوا مثلهم، بل أنتم فآمنوا. وهذا غاية الإشفاق بهم، والعطف عليهم.

وقد تضمن هذا الأمر الموجه إليهم: الإيمان بثلاث مستلزمات: بالله، وبرسوله، وبنوره المنزل. لأن الله هو الذي أرسل الرسول، والرسول جاءهم بالنور، فلا ينفك الإيمان بواحد دون غيره، فهي وحدة إيمانية مكتملة، فمن آمن بالله لزمه الإيمان برسوله، ومن آمن برسوله لزمه الإيمان برسالته، وهي

في هذا النور الذي أنزله الله عليه. وإطلاق النور عن أي قيد يفيد العموم، فيشمل التوراة والإنجيل والقرآن، لأنها كلها أنارت سبيل الرشاد، كما تنير الشمس الطريق في البلاد، وقد اندرجت تحت شمول القرآن الكريم: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ﴾ [الشورى: ٥٢]. وكذلك الرسول صلوات الله وسلامه عليه؛ فهو السراج المنير: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ ـ ٤٦].

وهذا تصحيح لمفاهيمهم في شخصيات الرسل، حيث قالوا: ﴿أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾؟ وذلك أنهم وإن كانوا في الجنس من البشر إلا أنهم تميزوا بتلك الرسالة، وهذا النور الإلهي، الذي خصهم الله بإنزاله عليهم. وإن مصداقية هذا النور ما صنع بالأمة الأمية، حيث أثار قلوبهم فعزفت عن عبادة الأصنام، وأثار عقولهم فسادوا العالم ونشروا السلام، فأرسوا قواعد العدل، وثبتوا دعائم الفضل، بما التزموا من إرشاد وتعليم، وطبقوا من أحكام.

وهذا النص يتضمن أن من لوازم الإيمان اصطحاب العمل، لأن الإيمان بالله يتعلق بالعقيدة، والإيمان برسوله يستلزم لازم الرسول وهو الرسالة، وهذه الرسالة التي صار بها الرسول رسولاً هي هذا النور، وهو القرآن بما فيه من عقائد، وعبادات، ومعاملات، وتوجيه، وإرشاد جملة وتفصيلاً، وأنه مشعر بأن من لم يلتزم بموجب الرسالة كأنه لم يؤمن بالرسول، ولذا افترض الله تعالى طاعة رسوله، وامتثال كل ما جاء عنه، ونفي الإيمان عمن لم يلتزم بذلك، فقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]. وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وفي هذا النص أيضاً تعريض بالكفار، لأن من لم يؤمن بالله ورسوله والنور المنزل فهو في ظلام يتخبط في ضلال، ويتيه في حيرة وقلق. كما أن فيه تنويهاً بالمؤمنين، أنهم بإيمانهم هذا فهم على بصيرة وهداية، والله بما تعملون بصير.

ثم يأتي إلى النهاية الكبرى، والموقف العظيم الذي يجمع الله فيه الفريقين، ويتغابن فيه أهل الأعمال بأعمالهم: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾.

ومعلوم أن الغبن نقص في الحق، والغبن نقص في الثوب. وأصل الغبن في تبادل السلع، وما يقع من نقص على البائع في قيمة سلعته، وهذا يشعر بأن الحياة سلعة، والإنسان سلعة، فماذا عمل الإنسان في حياته؟ وماذا عمل لنفسه؟ وهذا يردنا إلى سورة الصف في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ . . .﴾ [الصف: ١٠ ـ ١١]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١]. وقد بيّن سبحانه غبن المنافقين في صفقتهم: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٦]. وبيّن غبن اليهود في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [البقرة: ٨٣ ـ ٨٦]. فهي لا شك صفقة خاسرة. وفي الحديث: «**كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**».

وتظهر حقيقة الغبن الذي تعظم فيه الحسرة ـ نسأل الله السلامة ـ في منازل الناس في النار وفي الجنة، حيث إن الله تعالى جعل لكل إنسان مقعداً في النار ومقعداً في الجنة، يذهب إلى أحدهما لا محالة، ويخلو الآخر منه، فإذا دخل أهل النار النار، ذهبوا إلى مقاعدهم فيها، وحرموا مقاعدهم في الجنة. وإذا دخل أهل الجنة الجنة، ذهبوا إلى مقاعدهم فيها، وسلموا من مقاعدهم في النار. وهذا بمثابة التبادل والاختيار، فعندئذ يظهر غبن الكفار، حيث أخذوا مقاعد في النار، وتركوا مقاعد في الجنة، وليس بعد ذلك نقص وحرمان، كما تظهر غبطة المؤمنين، حيث أخذوا مقاعد في الجنة، وسلموا من مقاعد في النار، فأي ربح، وأي سعادة بعد ذلك؟

إنه حقاً يوم التغابن، ولذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. ونظيره قوله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وفي مقابل ذلك يأتي القسم الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ خَالِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٠﴾﴾ [التغابن: ١٠]. وهذا التقسيم والثنائي للمؤمنين والكافرين، والجنة والنار، وهو التقسيم المتقدم في أول السورة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾﴾. فجاء هنا بيان مصير كل من الفريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

إن عرض هذا اليوم في هذه السورة بهذا الأسلوب في هدوء وإيجاز، ليحمل العبد على التفكر والعظة، ويعطي نفسه المهلة للمقارنة لينظر لنفسه، فإن كان من المؤمنين زاد يقينه واجتهد في العمل الصالح، لأنها جنة الخلد، وليس لديه فرصة للعمل سوى مدة حياته، وهي لا شك منقضية إن عاجلاً أو آجلاً، فيتخذ دنياه سوقاً لآخرته، ولا عليه ممن سواه. وإن كان ـ لا قدر الله ـ من الفريق الآخر، فإن فسحة الأجل حرية باتخاذها، عوضاً عن الماضي، فيرجع إلى ربه، وإلى نور كتابه، وإلى هدي رسوله ﷺ ولو لآخر لحظة من حياته، فرحمة الله واسعة، وفضله عظيم. وليقرأ في وصف هذا اليوم أوائل سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾ [الحج: ١ ـ ٢]. نسأل الله السلامة والعافية والتوفيق إلى ما يحبه ويرضاه.

٣ ـ الجانب الشخصي من سورة التغابن:

بعد بيان الجانب الإلهي في أوائل هذه السورة، وبيان الخلق والتصوير، وذكر يوم الجمع، وتغابن الخلق، ومآل الفريقين: إما إلى جنة الخلد، أو إلى نار أبداً، والأمر بالتزام الطاعة، والإيمان بالله ورسوله وكتابه، وبعد تقرير قضية القضاء والقدر، ولزوم المؤمنين بالتوكل على الله مع قمة التوحيد ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾﴾.

بعد هذا تأتي السورة بأخطر قضايا المجتمع الإنساني، وهي قضية الزوجين والأولاد مع الوالدين، أي المجتمع المصغر في كيان الأسرة.

ومعلوم أن الأسرة هي أولى لبنات المجتمع الإنساني، وعلى نوعيتها تتوقف نوعية المجتمع، فكلما كانت قوية متماسكة محكمة البناء، تسودها المودة، وتغمرها الرحمة، وتعطرها العاطفة، كان المجتمع كذلك كالبنيان المرصوص، وكالجسد الواحد. وإذا ما تخلخل بناؤها، وتقطعت أواصرها، واختفت عواطفها، كان المجتمع أيضاً كذلك. وقد شاهدنا في الآونة الأخيرة عواقب المجتمعات التي أهملت نظام الأسرة، ولم تبال بكيانها، بل وقد ألغته نهائياً، فانفرط عقدها، وتشتت شملها، وأصبحت مجتمعاتها مجتمعات آحادية كقطعان الحيوان في الخلاء، أو مجموعات الأسماك في الماء. مجتمعات لا تربطها إلا المنفعة، ولا يسيرها إلا السلطة الحاكمة. فلا تعاطف، ولا تراحم، ولا مكانة لضعيف عاجز.

ومن هنا ندرك مدى اهتمام الإسلام بالأسرة من أول تكوينها، ومسايرة حياتها إلى ممات أفرادها.

وهنا في سورة التغابن جانب إنساني، يقوم في تعامل الأسرة على الإحسان، كل الإحسان، شكلاً ومعنى، في صفح عن الخطأ، وعفو عن الإساءة، ومغفرة للزلة، مع البذل والعطاء. وهذا أعدل وأكرم ما شهدته الإنسانية في مدى تاريخها، وبهذا حققت الأسرة المسلمة الغاية منها، فقدمت للإسلام رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه. وكما قيل: رهبان بالليل، فرسان بالنهار. وقال عنهم القرآن: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولو أردنا أن نشير إلى قواعد تكوين الأسرة المسلمة، ومنهجها في الحياة، نقول بإيجاز: إن أساس كيانها الإيمان، والنوعية المؤمنة قبل كل شيء، كما قال ﷺ: **«تنكح المرأة لأربع: لمالها، وجمالها، وحسبها، ودينها»** ـ أي بمقتضى الجبلة ـ **«فعليك بذات الدين ـ أو فاظفر بذات الدين ـ تربت يداك»**. وكذلك كتاب الله تعالى في الزوجين معاً: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾. يعني خير من مشركة حرة، ولو أعجبتكم بجمالها وحسبها... ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ـ أي لا تزوجوهم ـ ﴿حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ﴾ ـ حر نسيب حسيب ـ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ بشخصه أو بوصفه، ثم بيّن سبحانه النتيجة معللاً لذلك: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي

المشركون ﴿يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ﴾ والأعمال المؤدية إليها، فإن تزوجتم من نسائهم كانت الزوجة وهي مشركة داعية زوجها وأولادها إلى النار، أو زوجتم نساءكم بالمشركين كان زوجها داعيها وداعياً أولادها منه إلى النار، ولكن الله سبحانه يدعو إلى الجنة، فإن تزوجتم مؤمنة ـ ولو كانت أمة مملوكة ـ فهي داعية زوجها ـ أي مطيعة له ـ وداعية أولادها ـ أي منشئة إياهم ـ على أعمال الجنة وهكذا.

ثم يأتي منهج الأسرة في حياتها ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ [البقرة: ٢٢٨]. وجعل الرابطة بين الزوجين المودة والرحمة، وجعل اللهُ الزوجةَ سكَناً للزوج، وموئلاً للراحة، والعهد بينهما على مبدأ: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ [البقرة: ٢٢٩]. ويمتد هذا الإحسان حتى بعد الفرقة: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]. إلى جوانب أخرى عديدة مع الأولاد وأولي الأرحام، مما يجعل العالم كله بمثابة الأسرة الواحدة الكبيرة.

وهنا يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ﴾. ما أشده من خطر أن يأتي العداء من موطن الولاء! وما أصعب منه إحراج! فإذا كان الإنسان يحذر من زوجه وولده، فأين سيجد أمنه ويكون مأمنه؟ ولو أن الإنسان جند كل قواه، وقابل ذلك بالمثل، لكانت الحياة بين أفراد الأسرة أشبه بمعركة حامية الوطيس لا هوادة فيها، ويكون الغالب مغلوباً، والمنتصر خسراناً لأنه سيفقد أقرب الأقربين إليه، وأعز الموجودين عليه. ولكن التوجيه الإلهي إلى منهج التعامل معها في أعلى مكارم الأخلاق، وأسمى منازل الكرماء، فيعالج الموقف بما يعتبر معاكساً لسلوكهم، بمثابة من يعالج الداء بمضاده، كمن يطفئ النار بالماء. فيقول سبحانه: ﴿وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾. وبتأمل هذا المنهج، نجد كل صفات الإحسان: العفو، والصفح، والغفران. أي بحيث لم يبقَ لأعمالهم العدائية أي أثر في النفس يحملها على الإساءة، ويبقى القلب نقياً، والنفس طيبة، وذلك كله لوجه الله تعالى، ورغبة فيما عند الله من المعاملة بالمثل الموحي إليه قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يعني إن عفوتم، وصفحتم، وغفرتم ما يكون من أزواجكم وأولادكم، فإن الله غفور رحيم، أي يعاملكم

بالمثل، فيغفر لكم، ويرحمكم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]. ولا شك أن هذا الأسلوب كفيل ليس في اتقاء العداوة فحسب، بل في القضاء عليها، واستبدالها بالمودة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: ٣٤]. ولعل من ألطاف المولى قوله: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ﴾. ومن للتبعيض، أي ليس الجميع كذلك، ولعل هذا البعض هو الأقل، لأنه خلاف العادة والمألوف.

ثم يتبع هذه القضية بقضية أعم، أي أن من سلم من البعض المتقدم قد لا يسلم من الكل الآتي، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾. ومعلوم أن الفتنة ابتلاء قد يكون بالخير، وقد يكون بالشر، ليظهر مدى يقين المؤمن، كما جاء عن نبي الله سليمان عليه السلام في عرش بلقيس، قال تعالى عنه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ﴾ [النمل: ٤٠]. وكذلك في عموم الناس: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقد بيّن الله لنا من صور عداوة الأولاد، ما جاء في خبر الخضر عليه السلام مع الغلام، الذي قتله مخافة منه على والديه، ومن فتنة المال الذي قال: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ﴾ [القصص: ٧٨]. وعن آخرين بقوله: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧].

ثم بيّن سبحانه منهج السلامة من هذه الفتنة على غرار منهج السلامة من العداوة المتقدم ذكرها، فقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ﴾. فلا شيء أسلم من فتنة المال مثل الإنفاق منه «**ورجل أعطاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير**». لأنه بذلك يتحرر من قيود الشح القتّال: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ثم يأتي بالإشادة بفضل الإنفاق: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ خالياً من

إبداء المنة والنفعية ﴿يُضَٰعِفۡهُ لَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ولعل أولى مواطن هذا القرض الحسن هم أولئك مصدر العداوة والفتنة: الزوجة والأولاد، كما في الحديث: «**حتى اللقمة تضعها في فم امرأتك**».
ونختم السورة بهذا التذييل بمثابة الرقيب عليهم: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [الممتحنة: ١٨].

٤ ـ المرحلة الأخيرة من هذه السورة الكريمة (التغابن):

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ تلك هي آية الهداية من هذه السورة، وجاءت ضمن أخطر قضايا المعتقد، وهي قضية القضاء والقدر.

وقد جاءت هذه الآية بعد الحث على الإيمان بالله ورسوله، والنور الذي أنزله سبحانه ليخف على هذا المؤمن تقبلها.

بل إن مجموع ما جاء في السورة يعتبر بمثابة التمهيد لها؛ من قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ﴾. وتلك الأحداث التي تصيب العباد جزء من تصرفه سبحانه في ملكه، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾. وقوله: ﴿وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ﴾. وقوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي فلن تكون إصابة إلا بإذنه وعلمه. ﴿يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾. وكذلك يعلم ما يصيبكم. «**فما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك**» لأن ذلك كله بإذن الله.

وقد صرح السياق في سورة الحديد بما يهون على المسلم تلقي كل ما قدر الله له بكل ارتياح وطمأنينة، ويثق بأنه الخير له في هذا الذي قدره الله عليه أو له. قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢].

ففي الأنفس: كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٍ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٍ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥].

وفي الأرض: كالزلازل، والفرق، والقحط، ونحو ذلك، وكلها في كتاب من قبل أن نبرأها ونوجدها في حيز التنفيذ، فهي مقدرة ومقيدة في كتاب، لا

يبدل ولا يغير، اللهم إلا بإذنه سبحانه، ويكون معلق حدوثها بموجب، أو عدم حدوثها بموجب، كما في أثر الدعاء: أنه يتزاحم مع البلاء بين السماء والأرض.

وإذا كان منهج القدر على هذا الحال، وكان الإيمان به ركناً من أركان الإيمان الستة، فليس أمام المسلم بل والمؤمن بله العاقل، إلا أن يستقبل كل قضاء قضاه الله له وعليه بكل الرضا، وبكل التسليم، لأن المقدِّر لذلك أرحم بالعبد من نفسه، وأعلم بما يصلح له من نفسه، وهو الغني الحميد. ولكن كما قال ﷺ في عودته من الطائف في لجوئه إلى ربه: «**إن لم يكن بك غضب عليَّ فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي**». وقد جاء: «**إن الله تعالى ما سئل شيئاً أحب إليه من العافية**».

والنص هنا يوجه المسلم توجيهاً إلهياً حكيماً، نتيجة إيمانه بالله، وتسليمه لما أصابه بإذن الله، فيقول تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. أي يهديه إلى الرضا والتسليم، فتلزمه السكينة والطمأنينة. وليس في الوجود أعز من ذلك، لأن هدوء القلب يفيض على الجسم أمن الإيمان، ويقين التسليم، وبرد الطمأنينة، فتغمره السعادة. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧]. فصلوات الله ورحمته بهؤلاء نتيجة هدايتهم بالصبر على ما أصابهم من النقص في الأنفس والثمرات المنوه عنه قبلها.

وهكذا هنا ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾. ويهد قلبه هنا مطلق، لم يقيد إلى أي شيء يهديه، فيكون للدلالة على العموم في كل مصيبة، ولكل سبيل رشيد. بل لو أخذنا هذا النص وحده لكان من يؤمن بالله يهد قلبه عند كل حيرة، أو لبس أو إغلاق أمر من الأمور عليه، لأنه بإيمانه بالله يكون لجوؤه إليه، ولجوؤه هو طلب صلاحه، وصلاحه في هداية قلبه.

وقد ينفث في روعه بعض الحلول، لم تكن واردة على خاطره، كما وقع للنفر الذين بعثهم ﷺ فمروا بحي من العرب، فطلبوهم القِرى، وهو حق لكل ضيف، فأبوا عليهم لأنهم مسلمون، فتنحوا جانباً وعرَّسوا، فسلط الله عقرباً

على سيد ذلك الحي، فجاءوا إلى المسلمين، يسألون: هل فيكم من راق؟ وأخبروهم، فقام معهم واحد منهم، وشارطهم على غنم حيث أَبَوا قِراهم أولاً، ثم قرأ عليه سورة الفاتحة، فكأنه نشط من عقال. ولما انتهوا إلى رسول الله ﷺ، سأله: «**وما يدريك أنها رقية؟**» فقال: شيء نفث في روعي.

وهذا هو عين هداية القلب إلى ما هو الأصلح، وقد مر كل إنسان بمواقف عصيبة، وأوصدت دونه الأبواب، وعندما يرجع إلى الله بإيمان صادق، يهدِ قلبه، ويشعر بإحساس غريب كأنه يقول له: افعل كذا، أو قل كذا، فيكون الفرج العاجل.

وقرئ: ﴿يهدأ قلبه﴾. من الهدوء، وعدم الجزع، وهذا وإن كان المعنى الأول أتم، إلا أن في هذا أيضاً فائدة عظمى، لأن المصيبة قد تكون عظيمة، والجزع فيها شديد، وقد يؤثر على أعصاب الإنسان بمؤثرات ضارة في بدنه وعقله، قد تصل إلى شلل المخ، وذهاب العقل. فإذا هدأ قلبه، زالت عنه تلك المؤثرات، وسلم من تلك الآفات.

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ سواء فيما يصيب من مصيبة، أو فيما يهد قلب العبد إليه.

وبعد تقرير قاعدة القضاء والقدر، يرشد سبحانه إلى ما ينبغي على العبد في سلوكه فيقول: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾. أي أن القدر من الله، والطاعة عليكم، فإن توليتم عن الطاعة، سواء في حالة المصيبة أو غيرها، فإنما على رسولنا البلاغ المبين، لأن مهمة الرسالة التبليغ عن الله.

ثم تأتي قمة التوحيد، وعلاقة المؤمن بربه: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي وهو وحده المتصرف في هذا الكون بما يريد، ليس له معين، وبالتالي فلا يرجى إلا هو، ولا يخشى ويرهب إلا جانبه. وإذا كان الأمر كذلك، فلا علاقة للعبد بغيره سبحانه، على حد قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾. أي لا نعبد غيرك، ولا نستعين إلا بك، لأن غيرك لا يستحق أن يعبد، وغيرك لا يملك الإعانة، وعليه الحديث: «**وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم بأن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لا ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لا يضروك إلا**

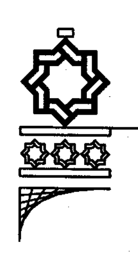
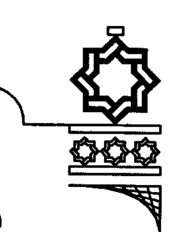
بشيء قد كتبه الله عليك». وهذا كله مدلول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

ويأتي بعد ذلك بالنتيجة العملية: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي الذين آمنوا بمضمون قوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾. فعلى كل من يؤمن بأنه سبحانه هو الله لا إله إلا هو أن يكل أمره إليه، ويجعل اعتماده عليه، لأنه يوقن أنه لا يأتيه خير، ولا يُصرف عنه شر، إلا منه سبحانه وإليه.

وإذا اجتمع للعبد منازل الرضا بالقضاء، وأيقن ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله. ومنازل التوكل على الله، وأيقن أنه لا يسوق الخير إلا الله، ولا يصرف السوء إلا الله. وأيقن أن إحاطته بعلم الله، وشموله برحمة الله، كان أسعد خلق الله، ولكأنه استودع نفسه وديعة عند الله، وصدق الله إذ يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]. وقال: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢].

وفي مقدمة سورة الأنفال بيان أن التوكل على الله كبرى علامات الإيمان، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤]. جعلنا الله وإياكم منهم، إنه سميع مجيب.

* * *

نص الهداية والاستقامة من سورة الملك

ولعله من أمثل نصوص الهداية والاستقامة، حيث جمعهما معاً، ولعله كذلك من أوضحها دلالة، وأقواها فعالية، حيث ساق الهداية والاستقامة في أسلوب مقارنة، وأبرز المعنوي المعقول في صورة المادي الملموس، وفي سياق الاستفهام الإنكاري والتقريري. ولعل هذا أدعى وأنسب إلى ما يمكن في نهاية المطاف بعد العروض العديدة، والصور المتنوعة لموضوع الهداية والاستقامة، ابتداءً من سورة الفاتحة إلى قرابة نهاية القرآن الكريم.

وتأمل معي هذا السياق هنا في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [تبارك: ٢٢]. فتجد مقارنة بين ممشيين متقابلين: ممشى المكب على وجهه، وممشى السوي على صراط مستقيم. وحقيقة الانكباب على الوجه تتنافى مع حقيقة الممشى والسير الفعلي، وعليه فإنه مَثَلٌ مضروبٌ لأمرين معنويين، جُعلا في صورة المحسوسَين. والمشي منكباً على الوجه يقال لمن يمشي على غير هدى، وفي طريق غير مسلوك، ولا موصل لغاية. يقال: فلان هامَ على وجهه. أي لا يلوي على شيء، ولا يتجه إلى وجهة معينة، ولا إلى غاية مقصودة، فهو كالتائه الضال، الذي يدور في حلقة مفرغة، أو يريد غاية ولا يعرف الطريق إليها، فهو يسير خبط عشواء.

أما قبيله الآخر: فهو الذي يمشي سوياً على صراط مستقيم، معتدلاً في مشيه، مستقيماً على طريقه، والذي يوصله إلى غايته في أقرب زمن، وبأقل مجهود. والاستفهام هنا إنكاري وتقريري:

إنكاري: على من يمشي مُكِبّاً على وجهه على غير هدى **ويبصر** لأن ذلك ليس من سيماء العقلاء، إذ العاقل **لا يخطو** خطوة إلا بعد أن يعلم إلى أين ستؤدي به، كما قيل:

قدر لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ موقِعَها　　فَمَنْ علا زَلَقاً عن عِزَّةٍ زَلَجا

واستفهام تقريري: لأن كل من يسمع بهذه المقارنة، ويتصور طرفيها، يقرر طواعية وبدون تردد أن الذي يمشي سوياً على صراط مستقيم أهدى من ذاك الذي يمشي مكباً على وجهه، ولا مقارنة بينهما، لبعد ما بين الطرفين، وهذا هو هيكل المقارنة، ولقد سمعت قصة واقعية توضح هذه الصورة وتطبقها عملياً: أشار إليها أحد طلاب العلم لتلاميذه، وكانوا معه في سفر، وهم عمال على الزكاة، يسيرون في البوادي ليحصوا على البادية أنعام الزكاة، وكانوا يسيرون على ركائب نجائب سريعة، وفي أثناء سيرهم قاصدين موضعاً معيناً ترده البادية من بعيد، مروا ضُحى في طريقهم بأعرابي على بعير بطيء السير، هزيل الجسم، واجتازوه سراعاً، وخلفوه وراءهم، وجدوا السير ليصلوا إلى الماء سريعاً، وبعد جهد جهيد، وسفر بعيد، وصلوا الماء قبيل العصر، فأدهشهم أن رأوا صاحبهم الذي خلفوه وراءهم قد وصل إلى الماء قبلهم، وسقى بعيره، وملأ سقاءه، ونام في ظل شجرة عند الماء. فقال لهم شيخهم: لا تعجبوا، فإن مَثَلَنا ومثل هذا الأعرابي، كمن يمشي مكباً على وجهه، لا يعرف الطريق، ومن يمشي سوياً على صراط مستقيم. وإنّ قليلَ العمل على هدى وبعلم، خير من كثيره على جَهْلٍ وبغير علم.

ثم إن هذا الواقع الملموس، لَيثير تساؤلاً حول سبب هذا الانكباب والوقوع في الحيرة والمتاهة في ضلال، وحول ما به تدارك هذا الحال، والخروج منها إلى الاستقامة على الصراط السوي. والجواب من واقع السياق باعتبار ما قبل النص وما بعده، وبالنظر فيما قبله نجد قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١]. فنجد ثلاث صفات اجتمعت على الكفار، كل واحدة منها كفيلة بأن توصلهم إلى ما وصلوا إليه. الأولى: مركب الغرور. والثانية: تطاول العتو. والثالثة: الإعراض والنفور.

أما الغرور: فهو منزلق أبينا آدم من الجنة، حين غره الشيطان وقاسمهما أنه لهما من الناصحين، فدلاهما بغرور حين استمعا له، فأكلا من الشجرة التي

نُهيا عنها، وقد لعب كذلك بقريش يوم بدر، حين خافوا أن يخرجوا فتخلفهم خزاعة على مكة، فظهر لهم في صورة سراقة قائلاً: إني جار لكم. فدفعهم إلى القتال بغرور، ولما عاين الجد نكس على عقبه، وقال: إني أرى ما لا ترون، إني أخاف الله رب العالمين. فكان الثمن غالياً: قتل سبعون، وأسر سبعون. وقد يقول قائل: إن الغرور دائماً مركب الطغاة. فهذا فرعون خرج في أثر موسى عليه السلام، وقد عاين بأمي رأسه الآية العظمى في انفلاق البحر لموسى، وكان ذلك يكفي لاعتباره، فإن لم يؤمن به يكف عن ملاحقته؛ ولكن طغيانه الذي تسلط عليه، وغروره الذي يتحكم فيه منذ أن تطاول بقوله: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾. أعمى بصيرته، ودفعه غروره أن واصل سيره وراء موسى في البحر، فأمهله الله حتى توسط المسافة، فأطبق عليه الماء فأغرقه، وكذلك النمرود مع إبراهيم عليه السلام، عاين رعاية المولى لخليله، فأخلف السنة الكونية، فسلب النار خاصيتها، فكانت برداً وسلاماً على إبراهيم؛ وكان فيها أيضاً عظة وعبرة، إن لم يؤمن به يَكُفُّ عن إيذائه، وهكذا كل عتو وكل من ينفر عن دعوة الحق، فهو بقدر شدة نفوره عن منطلق الحق يكون إسراعه إلى مسيرة الباطل، وهو به في أبعاد الضلال والضياع.

أما الجواب عن السؤال الثاني وهو: كيف يصحح هؤلاء مسيرتهم ويعودون إلى الاستواء على الصراط المستقيم هداة مهتدين؟ فهو كذلك فيما جاء عقب تلك الصورة والمقارنة، وهو قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [تبارك: ٢٢ ـ ٢٣]. إذ يشعر هذا التعقيب على هذا التصوير بأنهم لو أنهم أعملوا تلك النعم العظام في حقيقة ما خلقت له، فكان السمع لتعقل ما يسمعون وتدبره، وكانت الأبصار للاعتبار بما رأت من عجائب صنع الله الدالة على عظيم قدرته وحقيقة وحدانيته. وكانت الأفئدة من وراء ذلك أوعية علم ونور وهداية. وقد نبه المولى سبحانه على مهمة تلك النعم الثلاث: السمع والأبصار والأفئدة، وأنها منافذ وأوعية للعلم في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ ثم بيّن تعالى نتيجة من لم يصرف تلك النعم إلى ما جعلت له

بقوله معقباً على ذلك: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾ [الإسراء: ٣٦ ـ ٣٨]. وعليه فإن أعظم شكر تلك النعم، أن يوجّهها صاحبها إلى ما جعلها الله إليه. هدانا الله إلى سواء السبيل، إنه ولي ذلك، والقادر عليه.

بلوغ الغاية في منهج الهداية (سورة: ن):

بفضل من الله تعالى وتوفيقه وعون منه وهدايته نصل إلى بلوغ الغاية، وأقصى النهاية في منهج الهداية، في سياق سورة ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾ [القلم: ٧]. ولإيضاح ذلك، فإن هذه الآية الكريمة تشير إلى فريقين متقابلين، وهما على النقيض كل منهما للآخر، تناقض الضلال مع الهدى، وهذا يستلزم معرفة كل فريق، ليتم سلوك الهداية، والأخذ بأسبابها، واجتناب الضلالة، والحذر من مسالكها.

ولمعرفة ذلك نأتي لأول السورة الكريمة بمثابة أنها وحدة موضوعية تقريباً في هذه القضية، فنجد قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾﴾. فأمامنا شخصية المصطفى ﷺ، وشخصيات المكذبين، ويأتي الحديث مع المصطفى ﷺ ممهداً له بقسم كريم: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾﴾ وما من شك أن القلم هو عنوان ووسيلة العلوم والمعارف، وأول ما خلق الله القلم، وجرى القلم بكل ما هو كائن، بما كان وما سيكون، إلى أن ينزل الخلق منازلهم يوم القيامة. وكان المقسم عليه رد لدعوى زائفة من حاسدين ادعوا زوراً وبهتاناً على سيد الخلق بأنه مجنون، فيقول سبحانه: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾﴾. وقد جاءت دعواهم تلك صريحة في قوله تعالى عنهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. وفي الرد عليهم هنا إظهار فضل المصطفى ﷺ بما أنعم الله تعالى عليه من جليل النعم وأوسعها، لأن لفظ (نعمة) هنا نكرة أضيفت إلى معرفة، فصارت من صيغ العموم، كقوله

تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فلفظ ﴿نِعْمَةَ﴾ منكر أضيف إلى معرفة (لفظ الجلالة) فأفادت العموم والشمول بدليل ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ فكذلك هنا ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أي: بإنعامه عليك.

ويقول المفسرون: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ مثل ما أنت بحمد الله كذا وكذا. ولكن الأظهر هو ما دلت عليه الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾. فقد ربطوا الوصف بالجنون، بإنزال الكتاب إليه، لأنه قبل أن ينزل عليه هذا الكتاب كان عندهم الأمين، فيكون المعنى هنا: ما أنت بإنعام الله عليك بمجنون، بل على العكس، إن إنعام الله عليك يجعلك في القمة من الكمال والحكمة والروية.

كما أتبعها بلوازم الكمال في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣﴾، أي جزاء على حسن فعالك، يجري لك الأجر دون انقطاع. وأنه أجر في مقابل، وليس هبة ابتداء.

وقمة الفضل، ومنتهى الثناء، وغاية المدح، قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾. وعليه: فإن نعمة ربك هي التي أوصلتك لذلك، وكفى بذلك فضلاً وتفضيلاً.

بقي علينا أن نتبين نعمة ربه عليه.

يقول المفسرون: هي النبوة والهداية، وهذا حق، وقد جاءت بعض الآيات تشير إلى نعمة ربه سبحانه عليه خاصة، وعلى الأمة معه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾ [الفتح: ١ ـ ٢]. وهذا الفتح هو صلح الحديبية، وإتمام النعمة إظهار الدين، وفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، وقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. وهذا هو أتم النعم.

وكذلك في قوله تعالى في سورة الضحى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ ثم أخذ يعدد نعمه عليه وعظيم عطائه العاجل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ أي:

شكراً لنعم الله عليك ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ فإن من شكر النعمة التحدث بها، وكلها نعم جليلة، والتنويه بقوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ أي منهج النبوة والرسالة، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]. وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾.

فهل من كانت هذه نعم الله عليه وإنعامه عليه بعظيم فضله سبحانه يصح أن يوصف بالجنون؟ سبحانك هذا بهتان عظيم، إنما يوصف حقاً بالجنون من يصف من هذه صفاته بالجنون. نعم إن من يصفه بالجنون لهو حقاً المجنون.

بعد هذا الرد القاطع، والبيان الجامع، يأتي بما هو بمثابة التسرية والتهديد: التسرية عن رسول الله ﷺ، والتهديد لأولئك المجانين المفتونين في دينهم وعقولهم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾. وسترى الرؤية الحقة، وتبصر حقيقة الواقع ويبصرونه هم أيضاً. والسين هنا للمهلة، لحين مجيء الوقت المناسب، سواء في الدنيا بنصرة هذا الدين وإكماله، وإتمام النعمة، ودخول الناس في دين الله أفواجاً، ويسفر الصبح لذي عينين. أو كان ذلك يوم القيامة، وعلى رؤوس الأشهاد. نعم ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾﴾ وعلى أعلى المستويات ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ أنت أم هم ﴿ٱلْمَفْتُونُ﴾ في عقله، وفي دينه.

والخبر القاطع في سرد العلم إليه سبحانه ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾. إضافة الرب إليه ﷺ: ﴿رَبَّكَ﴾ مع أنه ربهم جميعاً، ورب الناس أجمعين، تجديد لذكر النعم ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾. إشعار بأنه ﷺ في كنف ورعاية ربه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾.

وهنا لطيفة بلاغية، حيث لم يحدد أي الفريقين على أي المنهجين، ولكأنه يترك المجال لذوي العقول ليحكموا من خلال الواقع، أو أنه ترك التحديد لأنه محدد بطبيعته. كما في قوله: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ ومعلوم قطعاً حقيقة كل من الفريقين. وقد أخذ حسان رضي الله عنه هذا الأسلوب البديع فقال يخاطب أبا سفيان بن الحارث قبل الفتح لما هجا النبي ﷺ:

أتهجوهُ ولستَ له بكفءٍ فشرُّكما لخيركُما الفداءُ

فقد أَبْهَمَ، وكان في إبهامه بلاغة ولطافة، مع أنه ألمح بقوله لأبي سفيان: ولست له بكفء. وهنا أيضاً ألمح السياق بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ وما بعدها.

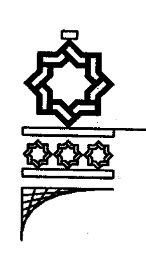
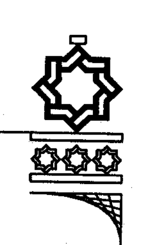
ونحن اليوم، وقد ختم الله هذه المعادلة، بأنه سبحانه أعلم بمن ضل عن سبيله، وهو أعلم بالمهتدين، وعلمنا يقيناً وما بعد اليقين أنه ﷺ سيد المهتدين، وسيد الهادين، ولزمنا السير على هداه، وهو الجامع لكل فضل، والمحصل لكل خير، كما قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ قال الفخر الرازي: ليس هو في التشريع، لأن لكل أمة شرعة ومنهاجاً، ولكن لكل نبي خصلة كريمة، فكان كل واحد منهم صلوات الله وسلامه عليهم كان مختصاً بخصلة واحدة، فأُمر ﷺ أن يقتدي بهم، فجمع كل ما كان عندهم، فاستحق أن يوصف بأنه على خلق عظيم، جمع جميع مكارم أخلاق من قبله.

ومثله قول السيوطي: ما أوتي نبي معجزة إلا وأعطي ﷺ مثلها، لتكمل له صفات الكمال.

ونحن قد أمرنا بالاقتداء به، كما أمر ﷺ بالاقتداء بالذين هدى الله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فكان هدي هذه الأمة أكمل وأشمل.

وبهذه الخاتمة نكون بفضل الله وتوفيقه قد بلغنا الغاية من آيات الهداية ولله الحمد والمنة، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيد الخلق أجمعين، المبعوث رحمة للعالمين، وبالله تعالى التوفيق.

* * *

آيات الهداية من سورة الجن

١ ـ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا (١٨) وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا (٢١)﴾ [الجن: ١ ـ ٢١]. هذا السياق بكامله فوق العشرين آية يشكل منهجاً متكاملاً في أصول الدعوة إلى الله، وهداية الثقلين الجن والإنس، وبيان أقسام الجن أمام الأديان السماوية وخاصة دين الإسلام، وكذلك بيان نتيجة كل قسم. وكذلك فيه التنصيص الصريح على شمول الدعوة الإسلامية إلى جميع الخلائق على تفصيل وإيضاح كامل.

والنظر في هذا السياق يتطلب مقدمة تشتمل عدة ملاحظات منها:

علاقة هذه السورة بالتي قبلها سورة «نوح» علاقة عجيبة، توحي بشبه المقارنة بين الجن والإنس؛ فالجن بمجرد سماعهم القرآن عرفوا أنه قرآن

عجب، وأدركوا أنه يهدي إلى الرشد، فآمنوا به حالاً. بينما نبي الله نوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وما آمن معه إلا قليل. وهذه المقارنة تسترعي الانتباه، ولكأن السياق يوضح مدى قوة إدراك الجن للحقائق، وسرعة استجابتهم لمن يدعو إليه، ومن جانب آخر كما أشار إليه أبو حيان بما مضمونه: إنه تبكيت للعرب حيث كانوا يعبدون الأصنام كقوم نوح، وجاءهم رسول منهم وبلسانهم، وعرفوا أن ما جاءهم به معجز، ومع ذلك أصروا على كفرهم، وأبطؤوا في استجابتهم إليه. هذا وقد يستشهد لهذا المعنى من الجانبين بما جاء عنه ﷺ: أنه لما قرأ سورة «الرحمن» **قال: «للجن كانوا أحسن إجابة منكم، فما قرأتُ عليهم ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ إلا قالوا: ولا بشيء من آلاء ربنا نكذب»**. ومن الملاحظات أيضاً بيان علاقة الجن بالإنس، ثم بالرسل، ثم بعض ببعض:

أما علاقتهم بالإنس: فأولها وأعظمها علاقة المساواة في أصل الغاية من خلقهما جميعاً، وهي لعبادة الله وحده، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]. وسيأتي بيان علاقة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

أما علاقة الجن بالرسل: من غير الإيمان والكفر، فقد وجدنا علاقة الجن بنبي الله سليمان علاقة مادية، تدور في مجال الخدمة والتسخير، ففي سورة «ص» قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص: ٣٧ ـ ٣٨]. وفي سورة سبأ قوله تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ...﴾ [سبأ: ١٢ ـ ١٣]. وفي سورة النمل في قصة عرش بلقيس: ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل: ٣٩]. لقد كانوا مسخرين لخدمة نبي الله سليمان حتى بعد مماته، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤]. وهكذا كانوا يعملون في البر ويغوصون له

في البحر. بينما نجد علاقتهم بنبينا محمد ﷺ علاقة دعوة ورسالة، كما أُوحي إليه ﷺ بذلك: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ ثم بيّن تعالى أن استماعهم هذا لم يكن من قبيل الصدفة، بل إن الله تعالى قد صرفهم إليه ليستمعوا منه، كما في قوله تعالى في سورة الأحقاف: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٢].

فهؤلاء النفر من الجن ساقهم الله إليه يستمعون القرآن وهو لا يعلم بهم، وسواء كان ذلك منصرفه إلى سوق عكاظ، أو منصرفه من الطائف وهو الأرجح، فإنه بهذه المناسبة يمكن أن يقال: لقد عوضه الله تعالى من ثقيف الذين رفضوا قبول دعوته، وضنوا عليه بكتمان مجيئه إليهم عن قريش، وتسليط سفهائهم عليه، كان موقفاً عصيباً، كان من نتائجه أن أنطق الله رسوله بهذه المناجاة الحية المثيرة: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت أرحم الراحمين، وأنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى عدو بعيد يتجهمني، أم إلى صديق قريب ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي غضبك، أو يحل بي سخطك. لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**»، اللهم عفوك، اللهم لطفك. إنها زفرات في عبارات، ضاقت بها الأرض، وتقبلتها السماوات، فاستنزلت ملك الجبال طوع أمره، فانفسح صدره صلوات الله وسلامه عليه، ووسعهم حلمه: «**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**». ويأتيه هذا النفر من الجن يستمعون القرآن، وسرعان ما استنصت بعضهم بعضاً حتى فرغ ﷺ من تلاوته، ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾. أي فإن لم تستجب له ثقيف، فقد

استجاب له نصف الثقلين، وبدون عناء ولا مشقة ولا إيذاء، ولله الحمد والمنة.

٢ ـ التفصيل المنهجي في إيمان الجن:

عالم الجن آية من آيات القدرة الإلهية في الخلقة وفي السلوك:

ففي أصل الخلقة: يقرنهما سبحانه في سورة الرحمن: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ [الرحمن: ١٤ ـ ١٥]. وفي سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾. فهو عالم كعالم الإنس، خلق من قبله ومن نار.

وقد أعطي القدرة على تشكله في صور متعددة، ومن خاصيته أنه يرانا من حيث لا نراه نحن، لأنه عالم نيراني إلا إذا تشكل في صورة ملموسة كالحيوانات مثلاً، وهو في ذاته كعالم الإنس من حيث الذكورة، والأنوثة، والتناسل، والتكاثر، والحياة والموت.

وكذلك في المنهج السلوكي: صلاحاً وفساداً، استقامة وانحرافاً.

وقد عمتهم رسالات الله كما جاء قوله تعالى يقررهم بذلك فيقرون على أنفسهم: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ ...﴾ [الأنعام: ١٣٠]. قال ابن كثير: والرسل من الإنس خاصة، وليس من الجن رسل. وهو قول مجاهد وابن جرير وغير واحد من الأئمة من السلف والخلف. ويستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]. ومفهومه أنه لم يرسل من النساء، وهو إجماع، ولم يرسل من الجن وهو اتفاق، وبدليل قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَـٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]. قال ابن كثير: فحصر النبوة والكتاب بعد إبراهيم في ذريته، ولم يقل أحد من الناس أن النبوة كانت في الجن قبل إبراهيم عليه السلام.

وقال ابن عباس: الرسل من الإنس والنذر من الجن. وهذا أخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟

﴿فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝٢٩﴾ وفي هذا السياق ما يدل على أنه لم يبعث في الجن رسلاً منهم، وإنما هم تبع للإنس، قول هؤلاء النفر من الجن لقومهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٣٠ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣١]. فهم يخبرون عن القرآن أنه أنزل من بعد موسى، وأنه مصدق لما بين يديه، فلو كان لهم رسل منهم لذكروهم، ولو كانت لهم رسالات خاصة بهم لانتظروها، ولكنهم قالوا لقومهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾. وعليه فالجن تبع للإنس في الرسالات، ومؤمنهم مؤمن بجميع الرسل.

وفي هذا الإيمان السريع من عالم الجن حجة على الإنس، عربهم وعجمهم:

أما عربهم: فإنهم وهم غير جنس النبي ﷺ، منذ أن سمعوا الهدى آمنوا به، ومنذ أن حضروه قالوا: أنصتوا. في الوقت الذي وقف فيه العرب وهم آباء وإخوان الرسول ﷺ، يعرفونه ويعرفون نسبه، ويخاطبون معه بلغتهم، ينكرون عليه رسالته، ويقولون بعكس ما قال الجن بعضهم لبعض: ﴿لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]. إنه أسلوب الجهالة، ومسلك الغوغاء، فإنه كان الواجب عليهم أن ينصتوا إليه ويتفهموا ما جاء فيه، ثم بعد ذلك يروا رأيهم. فكان موقف الجن أحكم وأعلم، قال: أنصتوا. فلما قضي، أي وعقلوا ما فيه، وعرفوا أنه يهدي إلى الرشد وإلى طريق مستقيم، ولَّوْا إلى قومهم منذرين.

ومما يدل على سفه المشركين واحتجاب أفئدتهم قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢]. قال ابن كثير: وهذا مما عيبوا به، وكان الأولى لهم أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له، ووفقنا لاتباعه. ولكنهم - كما قدمنا - قد لجوا في عتوهم ومضوا في نفورهم، فعميت عليهم الحقائق.

وقد كانت نتائج شمولهم بالرسالات تبعاً للأمم من الإنس، أن اختلفوا أيضاً كما اختلف الإنس تماماً، فمنهم من أخلص التوحيد قولاً وعملاً كما هنا

في قوله تعالى عنهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣﴾ [الجن: ٢ ـ ٣]. رداً منهم على اليهود في العزير، وعلى النصارى في مريم والمسيح.

ثم بيّن تعالى طوائفهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدٗا ۝١١﴾ [الجن: ١١]. أي هذا النفر الذين استمعوا القرآن وآمنوا به، كانوا قبل ساعتهم تلك، وقبل إعلانهم إيمانهم، كانوا مع قومهم طرائق عدداً. قال مجاهد: فيهم المرجئة والجبرية والقدرية. والأولى أن يقال: كان فيهم اليهود والنصارى والمجوس. بدليل ما نفوه عن المولى سبحانه بقولهم: ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ۝٣﴾ لأنه يشعر أنه كان فيهم من يقول ذلك على الله، وهم سفهاؤهم، بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا ۝٤﴾ وإعلان ظنهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ۝٥﴾ [الجن: ٤ ـ ٥]. ومن ذلك الكذب قولهم: المسيح ابن الله، أو العزير أو الملائكة بنات الله. فكان إيمان مؤمني الجن أسرع وأقوى من إيمان مؤمني الإنس. وقد كشف السياق من سورة الجن عن العلاقة القديمة بين الجن والعالم الذي يعيشون فيه: سماءه وأرضه، فعن عالم السماء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسۡنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدۡنَٰهَا مُلِئَتۡ حَرَسٗا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا ۝٨﴾ [الجن: ٨]. وبيّن الغرض من هذا اللمس بقوله: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾. كانوا يتسمعون كلام الملائكة، فيستمعون الكلمة حقاً، فينزلون بها على صاحبهم من الكهان، فيكذب معها ألف كذبة.

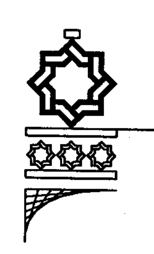
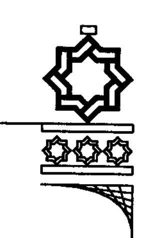
ولما بُعث النبي ﷺ وصار يأتيه الوحي من السماء، كان من لوازم حفظ هذا الوحي أن مُنعت الجن من استراق السمع، وكان كما قال تعالى عنهم: ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا﴾ [الجن: ٩]. وقد أوضح العلماء الحرس والشهب أنها النجوم، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [تبارك: ٥]. وذكر المفسرون أن العرب لما رأوا الشهب تنقض من السماء إلى الأرض فزعوا، وظنوا انتهاء أجل الدنيا، فقال حكماؤهم: انظروا إلى النجوم الثوابت، فإن كانت نقصت فهو كذلك، وإن كانت كما هي في مسارها فلعله حدث جديد.

كما بيّن السياق علاقة الجن بالإنس قبل البعثة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦]. يكشف الله تعالى لنا عن حقيقة تعلق الإنس بالجن، وأن نتيجتها زيادة الإرهاق للإنس. قال المفسرون: كان الجن في أول الأمر يخافون من الإنس أشد من خوف الإنس منهم، فلما صار الإنس يعوذون بالجن استخفوا بهم. فكانوا في الجاهلية إذا نزل قوم وادياً في سفر، قالوا: أعوذ بِسَيِّدِ هذا الوادي. فها هو عالم الجن يبطل هذه الاستعاذة، ويعلن عكسها.

وهناك علاقات عديدة بين الجن والإنس، سواء في المساكنة والمخالطة، وفي الصحبة والمؤاخاة، وكل ذلك واقع، بل وفي المشاركة في مجالس الذكر، ومدارسة العلم؛ سواء متخفين على حالتهم، أو متشكلين في صور الإنس، وقد أثبت لهم النبي ﷺ الهجرة إلى المدينة، كما في قصة الرجل الذي قتل الحية ومات في الحال، وأخبر ﷺ أنها من الجن المهاجرين، انتقم له أصحابه، ونهى عن قتل **الحيات** في المدينة، حتى تستأذن ثلاثاً.

ومما هو محل نزاع تزاوج الإنس بالجن؟ والأخبار في ذلك كثيرة. وهل يكون بينهما نسل أم لا؟ وقد ألفت في ذلك الكتب، وأوضحت كل ما يكون بين الجن والإنس وطرق معيشتهم، ونظم حياتهم، وطعامهم، ويهمنا أن الكتاب الكريم هُدًى للثقلين الإنس والجن على السواء.

* * *

آيات الهداية من سورة الإنسان

١ ـ ولعلها مسك الختام في هذا الكتاب المبارك، إذ جاءت مع بيان مبدأ الإنسان ومنتهاه، حيث تقدمها بيان أول خلق الإنسان ونشأته، وأعقبها بعث الإنسان ونهايته.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦﴾. وبيّن أعمالهم التي يجازون عليها أحسن الجزاء: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢﴾ [الإنسان: ١ ـ ١٢]. إلى آخر ما وصف سبحانه من نعيم أهل الجنة في الجنة.

في هذا السياق يبين المولى سبحانه مبدأ الإنسان الأول آدم عليه السلام بسؤال تقريري: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ رُوي عن ابن عباس: أن الإنسان الأول هنا هو آدم، لم يكن شيئاً مذكوراً حيث كان طيناً أربعين سنة، ثم صلصالاً أربعين سنة، وحَمَأً مسنوناً أربعين سنة، ثم خلقه بعد مئة وعشرين سنة.

أما الإنسان الثاني هنا في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ فهو الإنسان من ذرية آدم عليه السلام. ويشهد لذلك ما في آخر السورة قبلها: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٩]. ومن كلام ابن عباس رضي الله عنهما: أنه مضى على آدم أربعون سنة ثلاث مرات، فإن

ذريته يمضي عليها أربعون يوماً كذلك ثلاث مرات، الأولى: نطفة. والثانية: علقة. والثالثة: مضغة. وبعد مئة وعشرين يوماً ينفخ فيه الروح.

تلك لمحة عن تاريخ الإنسان مقدمة وتمهيداً بين يدي آيات الهداية، ليتذكر مبدأه، ويقر بقدرة خالقه، ويؤمن بميعاده ومبعثه؛ ليعمل لذلك اليوم، كما في السورة قبلها: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠]. بلى إنه على كل شيء قدير؛ فالقادر على إيجاد الإنسان الأول من لا شيء، من تراب من طين من صلصال من حمإ مسنون؛ والقادر على إيجاد نسله من نطفة أمشاج، قادر على بعثه بعد الموت، والبراهين على ذلك كثيرة في كتاب الله، من أوضحها قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٨ ـ ٧٩]. وفي قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾. ربط بين جعله سميعاً بصيراً، وبين هديناه السبيل، أي أعطاه المولى سبحانه وسائل الاهتداء: من سماع الذكر، وتأمله، وتدبر معانيه، وما فيه من هداية وإرشاد وتوجيه، لصلاح الدنيا والآخرة معاً، كما قالت الجن من قبل: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ [الجن: ١ ـ ٢]. كذلك كونه بصيراً يرى من آيات ربه في ملكوت خلقه، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ٢١]. والسبيل هنا هو الطريق السوي والصراط المستقيم الذي بعث الله به الرسل، الموصل إلى رضوانه سبحانه، والهداية هنا إلى هذا السبيل هي هداية البيان والإرشاد، كما أسلفنا في أول هذا الكتاب المبارك: تقسيم الهداية إلى قسمين: هداية بيان ودلالة، وهي مهمة الرسل إلى الأمم، وهداية توفيق وقبول، وهذه لله سبحانه، على حد قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦]. وقد أرسل الله الرسل مؤيدين بالمعجزات، ومعهم الكتب مناهج حياة سعيدة، وأعطى الله العباد وسائل المعرفة والاهتداء؛ من سمع يسمعون به، وبصر يبصرون به، وقلوب وأفئدة يعقلون بها. فهم بعد ذلك إما شاكراً، وإما كفوراً. كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ

﴿ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾. أي بينا له طريق الخير ليسلكه، وبينا له طريق الشر ليتجنبه. وجاء في السُّنَّة: «**كل مولود يولد على الفطرة**». وقوله ﷺ: «**كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها**». وقبلها في نفس الحديث: «**القرآن حجة لك أو عليك**». أي حجة لمن عمل به، وحجة على من تركه ولم يعمل به.

وروى ابن كثير عن الإمام أحمد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من خارج إلا ببابه رايتان: راية بيد ملك، وراية بيد شيطان، فإن خرج لما يحبه الله، اتبعه الملك برايته، فلم يزل تحت راية الملك حتى يرجع إلى بيته، وإن خرج لما يسخط الله، اتبعه الشيطان برايته، فلم يزل تحت راية الشيطان حتى يرجع إلى بيته». وهكذا يكون الإنسان إما شاكراً وإما كفوراً.

ثم بيَّن تعالى مصير كل من الفريقين: ﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغۡلَٰلٗا وَسَعِيرًا ٤﴾ وهذا عياذاً بالله غاية النكال بالكفار. ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ يَشۡرَبُونَ مِن كَأۡسٖ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ٥ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفۡجِيرٗا ٦﴾ وضمن الفعل ﴿يَشۡرَبُ﴾ معنى (يتمتع) فعداه بقوله: ﴿بِهَا﴾ ليعلم أن شربهم ليس عن ظمأ، وإنما هو تلذذ وتمتع.

ثم تمضي السورة الكريمة إلى نهايتها، فيأتي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾ قال ابن كثير: يعني هذه السورة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ أي السبيل الذي هداه إليه، المذكور في أول السورة، لكنه سبحانه يبين أن ذلك موكول إلى مشيئته سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أي بهداية التوفيق والرشاد، وانشراح الصدر لما أنزل الله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المعرضين عن دين الله ﴿أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا﴾ [الإنسان: ٣٠ ـ ٣١]. أجارنا الله من ذلك، وهدانا إلى ما يحبه ويرضاه برحمته وفضل منه وكرم.

وهنا وقفة طويلة في موقف حرج، وهو أن الأمر مربوط بالمشيئة، فيقال: لا شك أن كل شيء بمشيئته سبحانه، ولا يقع في ملكه إلا ما يشاء، ولكنه سبحانه أرسل رسلاً، وأنزل كتباً، وهدى وبيَّن، فلا يحق لأحد أن يحتج بالمشيئة الأزلية، لأنها في علمه سبحانه، وقد وقعت هذه القضية وأوردها المشركون في الأصول وفي الفروع، ورد الله تعالى عليهم إيرادها. وذلك في

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ تلك هي عين القضية فكان الجواب قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا﴾ ثم طالبهم بالحجة على ادعائهم: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ [الأنعام: ١٤٨ ـ ١٥٠]. وقبلها بآيات: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٣]. وفي سورة الحديد زيادة إيضاح: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾. وبعدها بآية: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٥]. فما قدر مسطور في كتاب قبل إيجاده، وليس لأحد علم به، والرسل جاءت بالكتب والميزان لهداية الناس، وإقامة العدالة بالقسط، وشرع الله الجهاد، لتظل كلمة الله العليا، ويبقى نور الحق ساطعاً، وصوت الدعاة إلى الله مرتفعاً، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٢ ـ تتمة آية الهداية من سورة (الإنسان):

نص الآية الكريمة قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ ـ ٣].

وكانت مقدمة تلك الهداية لهذا السبيل على كلا الحالين شاكراً أو كفوراً مقدمة توضيحية لمبدئه: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾. ثم تصوير خلقته من نطفة أمشاج، مختلطة ما بين ماء الرجل والمرأة، ومجموعهما ماء مهين. ثم الغاية من ذلك الإيجاد، وهو الابتلاء بالتكاليف. وقد وفر الله له إمكانيات التمكين من الاختيار لأي السبيلين،

فجعله سبحانه سميعاً بصيراً، يسمع الآيات ويتبصر في المواعظ، ويبصر الآيات الكريمة الدالة على القدرة الإلهية، ويعقل ويعي كل ما يسمع، وما يبصر ويقايس، ويستهدي ويسلك السبيل على بصيرة ويقين.

ثم بيّن تعالى مصير كل سبيل ومن يسلكه بما أعده الله للكافرين من سلاسل وأغلال وسعير. وفي المقابل ما أعده الله للأبرار من كؤوس الشراب مزاجها زنجبيلاً، عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً. وبيان سبل الخير وما يوصل إلى النعيم المقيم، وهي أفعال جامعة من صدق القول والوفاء بالنذر، ومخافة يوم كان شره مستطيراً. وإطعام الطعام على حبه والرغبة فيه مسكيناً ويتيماً وأسيراً؛ أي مجموعة ضعفة بني الإنسان ولو كان كافراً، إذ الأسير في أيدي المسلمين لا يكون إلا من الكفار، يفعلون ذلك ابتغاء مرضاة الله: إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً.

ثم وصف الله تعالى كامل نعيم الجنة وما يلقون فيها من نضرة ووجاهة وسرور، ورفاهيتهم متكئين على الأرائك. لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. وتيسير تناول نعيم الجنة ودانية عليهم ظلالها، وذللت قطوفها تذليلاً. عيون متفجرة، وأشجار مثمرة، وظلال وافرة. نعم لو تكاملت في الدنيا، لكانت أنعم عيشة، شملت كامل متع الدنيا، يزيدها متعة وإيناساً تطواف الولدان المخلدين عليهم ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ ومن وراء ذلك ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾. والمنة الكبرى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾﴾ [الإنسان: ٢٢]. فالمولى المنعم عليهم بالهداية يشكر لهم سعيهم.

ثم تكون خاتمة السورة بالتوجيه لما يمكن أن يكون وسيلة إلى هذا النعيم المقيم، وهو العمل بما أنزل الله من القرآن الكريم: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ أي على فترات، لتأنس بتكرار الوحي، وتتقوى بمعاودة صلتك بربك؛ على حد قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. ثم الوصية بالصبر لحكم ربك، إشعار بما يلاقيه الدعاة من خصوم كل دعوة خير، والاعتصام بالله، وعدم الالتفات لأي آثم أو كفور. وليكن عدتك في ذلك: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ بصفة دائمة، وفي جميع أوقاتك، ماثلاً في

أداء الصلوات بكرة وأصيلاً ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَٱسۡجُدۡ لَهُۥ وَسَبِّحۡهُ لَيۡلٗا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾ فريضة ونافلة، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾ [المزمل: ٦]. وقوله: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]. وقد يكون في تخصيص الليل لأنه الوقت المناسب لوصل المحبين، ومناجاة المتقين، وآية المنيبين. كما في قوله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا﴾ [الإسراء: ١]. وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ ﴿١﴾﴾. ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ﴾ [الدخان: ٣]. وفي الوقت الذي يوبخ فيه الأعداء: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمۡ يَوۡمٗا ثَقِيلٗا ﴿٢٧﴾﴾. وهذا من سفاهة عقولهم أن يؤثروا العاجلة على الباقية، ويتحملوا أثقال ذلك اليوم ووزره؛ أثقال الحساب، أثقال المسؤوليات، على حد قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

ونهاية المطاف مع هذه السورة الكريمة ـ سورة الإنسان ـ التي أعادت على مسامعه ذكرى مبتدئه، ورسمت له منهج حياته وتكاليف عباداته، وصورت له تفاصيل منتهاه. وبهذا فقد اشتملت على عموم جوانب الإنسان كلها: وجوداً وعدماً، سلباً وإيجاباً. فإنها تستوقفه في النهاية وقفة تنبيه وإيقاظ: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ﴾. حقاً لقد اشتملت السورة الكريمة بهذا العرض على أبلغ تذكرة، تذكر الناس، وتنبه الغافل، وتشجع الواعي، وتضع الإنسان على قمة الاختيار، وصدق العزيمة، وقوة الإرادة والمشيئة، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ وله ما تقدم من حسن الجزاء مع شكر مسعاه ومفهومه، وقد أغفل ذكره، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾. وإغفاله عن الذكر تنبيه على أنه غير مرغوب فيه.

وموضوع الهداية في هذه السورة هو مجموع هذا العرض البين الواضح في الجوانب الثلاثة:

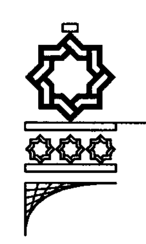
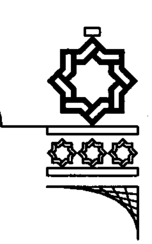
أ ـ إيجاد الإنسان بعد أن لم يكن شيئاً مذكوراً، ليبتليه ربه بالتكاليف والعبادة.

ب ـ إعطاؤه مقومات التمكين والأهلية، لتحمل مسؤولية هذا التكليف من سمع وبصيرة وإدراك.

جـ - إرسال الرسل بالهدى والرشاد.

وقد أعطي كمال القدرة على الاختيار والمشيئة ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ إلا أن تلك المشيئة علقت بمشيئة عليا بتلك المشيئة التي تسير هذا العالم كله، بل هي المشيئة التي أوجدت الإنسان نفسه من العدم، والمشيئة التي منحته مقومات مشيئته في نفسه لكل صغيرة وكبيرة، فلا يقع في الكون شيء إلا بمشيئته سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾. فيهب لمن يشاء وسائل ودوافع إرادة الخير، ويحرم ويمنع من لم يشأ تلك الوسائل، وهذا بفضل وإحسان، وذاك بعدل وميزان. ونتيجة لذلك: ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾. أي بفضله وتوفيقه ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾. على ظلمهم لأنفسهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [يونس: ٤٤]. ومثله: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]. وهنا تختلج في النفس خلجات، وتترقرق على الشفتين كلمات، ويجبن الإنسان أن يتفوه شيئاً، أمام مشيئة الله النافذة، وقدرته القاهرة، فيذعن المؤمن لإرادة الله ومشيئته وحكمته. ومع هذا فإن المولى سبحانه في بداية السورة قد مهد للجواب، وفي نهايتها أوضح طريق الصواب. فافتتح السورة بالسؤال عن بداية الإنسان، وأنه لم يكن شيئاً مذكوراً: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ فكان في العدم قبل عجنه طيناً، وكان في العدم قبل مجه نطفة، وهذا العدم لم يعط الإنسان حقاً على الله بإيجاده، بل كان إيجاده محض مشيئة من الله، وإذا لم يكن أصل مجيئه إلا بمشيئة من الله، فأي شيء في كون مشيئة الإنسان مرتبطة بمشيئة الله سبحانه، التي ارتبط بها الكون كله. وبيّن لنا سبحانه كنه تلك المشيئة، أنها عن علم وحكمة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. ولهذا العرض نظائر سيأتي إيرادها والتعليق عليه إن شاء الله.

* * *

آيات الهداية من سورة البلد

١ ـ يرتبط نص الهداية في هذه السورة بما قبله وما بعده، مما يجعل السورة كلها نصاً متكاملاً في الموضوع.

وبداية السورة قوله تعالى: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد: ١ ـ ١٠]. وهذه الآية الأخيرة وهي الآية العاشرة من مجموع عشرين آية للسورة كلها، هي النص الحرفي للهداية ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ والنجد: الطريق، وهذا مطابق لما تقدم في سورة الإنسان ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ والسبيل والطريق مترادفان على معنى واحد، ثم مضت السورة الكريمة في رسم المنهج لأحد النجدين والمطلوب سلوكه منهما: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾ ثم بيّن مصيرهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝١٨﴾. ثم حذر من أهل الطريق الآخر: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ۝٢٠﴾ [البلد: ١١ ـ ٢٠]. إن المتأمل في نسق هذه السورة الكريمة، في قصر آياتها، وتوافق مقاطعها، وإيراد موضوعها، ليجد معالم إعجاز متكامل، وصور إبداع متناسق، حتى في شكلية الآيات ومضمونها. انظر طريقة عرض المقومات: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾ آية مستقلة، انفردت بذكر العينين، ﴿وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾. آية جمعت بين اللسان والشفتين؛ فالعينان عضو مستقل، واللسان والشفتان عضوان يكمل كل منهما الآخر؛ وهكذا كل جزئياتها في أعداد آياتها العشرين، تظهر روعة هذا كله بالحديث مفصلاً عنها آية آية، وجزئية جزئية، إن شاء الله.

أما موضوعها الإجمالي فهو: الهداية إلى النجدين، ومقومات التكليف، وإيضاح عاقبة الفريقين، كل ذلك في غاية الإجمال، وإحالة على تفصيل متقدم، فهي تتفق تماماً مع منهج الهداية في سورة الإنسان المتقدم إيراده، وتتميز هذه السورة ببيان ارتباط النبي ﷺ بالبلد الحرام، وهو حل بذلك البلد، ثم بيان حالة البشر جميعاً من والد وما ولد، ومكابدته الحياة.

أما التفصيل في هذه السورة فكالآتي: افتتحت السورة الكريمة بتعظيم هذا البلد بالإقسام به: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾. وأجمع المفسرون على أن البلد هو مكة المكرمة، والتفصيل في إيراد حرف «لا» قبل القسم مع أنها وضعت للنفي، والقسم للإيجاب والثبوت، فهل القسم منفي أم ثابت؟ والإجماع على أنه مثبت، لوجود جواب القسم: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾. ولوجود القسم مثبتاً بهذا البلد في موضع آخر بالاتفاق، في قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ [التين: ١ ـ ٣]. والذي هو مكة المكرمة باتفاق، وعليه فالسلام للتأكيد، وهو أسلوب عربي معروف، ونظيره قوله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢]. بدليل النص الآخر ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ﴾ [ص: ٧٥]. وأنشد القرطبي قول الشاعر:

تذكرتُ ليلى فاعترتني صبابةٌ وكادَ صميمُ القلبِ لا يتقطعُ

فلفظ «كاد» تدل على وقوع تقطع صميم القلب، لا على نفيه، وتكون «لا» صلة للتأكيد. والقسم بهذا البلد تعظيم لشأنه، ولا شك فهي أم القرى؛ وهي البلد الأمين، وهي الحرم الأمين، ومَن دخله كان آمناً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝٢﴾. جملة بين القسم وجوابه، ودل مجيئها على بيان حاله ﷺ في هذا البلد، وحال أهله معه؛ فالبلد هو البلد الحرام الآمن المؤمّن كل من فيه، حتى الطير في الهواء، والوحش في الخلاء، ويلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه في حرم هذا البلد فلا يخيفه ولا يفزعه. بينما أنت، وأنت من هو في الذروة حسباً ونسباً ومكارم أخلاق، والداعي إلى سعادة الدنيا والآخرة، قد استحلوا إيذاءك، بل وتآمروا على إخراجك منها، بل وعلى قتلك واستحلال دمك بها. إن مجيء ذلك لهو أكبر وأفظع جرم يسجل عليهم، حيث جاء عاجلاً قبل أن يستكمل القسم، وقبل

مجيء الجواب عليه، وهما متلازمان، فيفصل بين المتلازمين بهذه الجملة الحالية: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾. وفي دفع الإيهام تفصيل واسع، ونحن اليوم من حقنا أن نسجل على كل من استحل ترويع مسلم، وتخويف آمن، في هذا البلد الحرام أنه ارتكب أعظم جرم، وأكبر إثم، وتجاوز كل حدود الطغيان والتعدي؛ لم يرع للبلد الأمين مأمنه، ولا للبيت الحرام حرمته، ولا لجماعة المسلمين حقوقهم. فهو مع أولئك المشركين على خط سواء، بل هؤلاء أسوأ حالاً من المشركين الأولين، لأن المشركين كانوا على حسب معتقداتهم، ومع ذلك كانوا يُؤَمِّنون كل لاجئ لهذا الحرم، ولو كان فاراً بجريمة. أما هؤلاء مستحلو حرمة الحرم اليوم، فعلى أبرياء مستجيبين نداء المولى، ممتثلين أوامر الله ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وهذا النداء الذي دوى صداه منذ الخليل عليه السلام ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٨].

ومن حكمة الله أن زامن بين موسم الحج والأشهر الحرم، ليجتمع للحاج الأمن في الزمان، والأمن في المكان، فقال تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة: ١٩٧]. وهي شوال وذو القعدة وذو الحجة، وقال: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة ٣٦]. والأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، فتزامنت أشهر الحج مع الأشهر الحرم التي يعظمها العرب، فلا يعتدون فيها ولا يظلمون، فلا قتل ولا قتال، ولا سلب ولا نهب، فيسير الحاج من أقصى الجزيرة إلى البلد الحرام في مأمن بحرمة الأشهر الحرم، فيصل إلى الحرم فيأمن بحرمة البلد الحرام، وأكد هذا المعنى وألزم المؤمنين به في أول سورة المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾ [المائدة: ٢]. إنها النعمة العظمى، نعمة الأمن والأمان للحاج، منذ أن يخرج من بيته في أول ذي القعدة، فيصل إلى بيت الله في ذي الحجة، ويعود إلى وطنه في المحرم. ولكن من سولت لهم أنفسهم الضالة، وامتدت أيديهم الآثمة ينتهكون كل تلك الحرمات: حرمة الزمان، وحرمة

المكان، وحرمة المناسك والمشاعر، وحرمة المسلمين التي قال فيها ﷺ: «**حرمة المسلم عند الله أعظم من حرمة الكعبة**». بل وحرمة الرأي العام، وحرمة الأقطار الإسلامية التي تنتظر عودة حجاجها موفوري الصحة والسلامة. ومع هذا كله فقد مضى الحجيج في أداء مناسكهم، وطاعة ربهم في قوة وترابط، مطمئنة قلوبهم، طيبة نفوسهم، محفوفين رعاية، ومشمولين بكل عناية، يلهجون بلسان الشكر والثناء لرب البيت أولاً، ولخادم الحرمين الشريفين والمسؤولين ثانياً. وستظل مسيرة الخير تواصل سيرها بإذن ربها، ولله الحمد والمنة.

٢ ـ آية الهداية من سورة (البلد):

كانت الفقرة الأولى عن افتتاحية هذه السورة الكريمة، بالقسم الكريم، بهذا البلد العظيم مكة المكرمة. وجاءت الجملة الحالية بين القسم والمقسم عليه: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ وللعلماء في معنى (حل) أقوال عديدة منها: مستحل إيذاؤك. ومنها: حلال لك ما حرم على غيرك. وتقدم الكلام على اعتبار المعنى الأول وما يترتب عليه، وآثار ذلك إلى اليوم، وإلى المستقبل.

ومن معاني ﴿حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾: حال فيه ومقيم، ومعلوم أن الحال قيد لصاحبها، كقولك: جاء زيد ضاحكاً. فكذلك هنا جملة: وأنت حل بهذا البلد قيد للإقسام بهذا البلد، وفيه زيادة تعظيم وتكريم لهذا البلد المقسم به، حال كونه ﷺ حالاً به، وقد نوه سبحانه في موضع آخر من كتابه الكريم على تلك الإقامة، وهذا الحلول فيهم، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٣٣]. فكان مجرد وجوده ﷺ فيهم أمان لهم من أن يوقع بهم العذاب على كفرهم وتكذيبهم، حتى مع تحديهم واستهانتهم فيما قال تعالى عنهم قبلها مباشرة: ﴿وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢]. فكان الجواب إغفالهم، والتنويه بفضل وجوده ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾. لأنهم في تحديهم حمقى سفهاء، فبدلاً أن يقولوا: اللهم اهدنا إلى الحق، يطلبون مطر الحجارة عليهم من السماء، ومثل

هؤلاء لا قيمة لوجودهم، فأغفلوا في إيراد الجواب. وبعد القسم الكريم وما معه من إظهار فضل النبي ﷺ وتعظيمه، جاء العطف بقسم آخر عام في المقسم به تمهيداً لمواساته ﷺ في عموم والد وما ولد. وقد قصره أكثر المفسرين في بني الإنسان من آدم، وما ولد وتناسل من ولده، أو إبراهيم عليه السلام وما ولد من أصول العرب والعجم، أو كل والد وولده، وقال بعضهم: إن «ما» في ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ نافية، فيكون المقسم به كل والد منجب، وكل ما لم يلد لعقم. فيعم بني الإنسان جميعاً، وخص بني الإنسان لشرف خلقتهم، وعلو منزلتهم عند الله، وما فيهم من الأنبياء والصالحين، وهو الجنس المكرم على حد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]. وأعتقد أن مجيء المقسم به منكراً (والد) ومجيء (ما) التي لغير العاقل غالباً، يشعر بإرادة جميع الكائنات الحية المتوالدة والمتكاثرة بالتوالد، أو غيره من حيوان وإنسان، وحتى الحيتان في الماء، والطيور في الهواء، وكذلك النباتات والأشجار ومما هو في علم الله تعالى مما تعلمه أو لا تعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٣٩]. يعني بكل شيء:

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحد

وقد نقل الشوكاني هذا القول عن ابن عطية، وأنه اختيار ابن جرير رحمه الله، وهذا العموم ملائم للمقسم عليه، وهو قوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾. أي: مكابدة أمور حياته، ولئن كان جواب القسم على خصوص الإنسان، فلأنه محل التكاليف وتحمل المسؤولية، وإلا فكل كائن حي يكابد في حياته من حالة ولادته إلى حالة مماته، وكذلك التنصيص على الإنسان بالذات ليتم المطلوب من هذا القسم، وهو إيناس النبي ﷺ وتسليته عما يكابده مع قومه، وهو حل ببلده معهم، كأنه يقال له: إن كل إنسان جاء إلى هذه الحياة فإنه يقطع طريقه فيها، ويقضي عمره في مكابدة، فلا تأس عليهم، ولا تجزع من أعمالهم. ويقولون: أصل الكبد راجع إلى العضو المعروف في الجسم «الكبد» يقال: كبد فلان إذا مرض كبده، فلحقته شدة آلامه. ومنه: المكابدة، المحاولة بشدة في أمر «ما»، فإذا كان كل إنسان خلق في كبد والرسول ﷺ إنسان فلا بد أن يصيبه ما يصيب بني جنسه، بل جاء عنه ﷺ: **«أشد الناس**

بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل». ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾ [الانشقاق: ٦]. والكدح والمكابدة من منطلق واحد.

وجاءت السنة بإثبات تلك المكابدة في الجانبين من مسلك الإنسان في الخير والشر، فقال ﷺ: **«حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات»**. ومعلوم أن تخطي المكاره، وتحمل مسؤولياتها، لا يتأتى إلا بمكابدة، كالحفاظ على الصلوات الخمس في أوقاتها، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين، وبذل المال مع شح النفس عليه ﴿وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ﴾ [النساء: ١٢٣]. بل وبذل النفس في سبيل الله:

.... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وغير ذلك.

وأيضاً مقاومة الشهوات والتعفف عنها، لا يتأتى إلا بمكابدة، فحياة المسلم كلها جهاد مع نفسه طيلة حياته، ولعل السر في الهداية في هذه السورة ينبعث من هذا التوجيه الإلهي لجبلة الإنسان، وما خلق فيه من مكابدة وكدح، لأن العاقل إذا تأكد له ذلك، لا شك أنه سيجعل مكابدته وكدحه فعلاً فيما يرضي ربه، ويصبر على ما يلقاه في الدنيا، لينعم بالراحة والرضوان، وعيشة مرضية في دار النعيم كما تقدم في سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ۝٢٢﴾ [الإنسان: ٢٢]. وإلا سيظل في مكابدة حتى بعد الموت وما لا يعلمه إلا الله تعالى.

ومن لطائف أسرار البلاغة في كتاب الله، أن يأتي لفظ المقسم به مشعراً بالمقسم عليه، فجاء ﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ فأول مراحل المكابدة أول لحظة مجيئه إلى الدنيا، فالوالدة تكابد حال ولادتها ما الله به عليم، والولد كذلك إذ يمر بأضيق وأحرج ضيق يأتي عليه في الدنيا، أعطى هذا المعنى لفظ والد وما ولد، لأنه متضمن المصدر لهذه المادة «الولادة» ثم يواصل مسيرة حياته في مكابدة حتى النهاية، وهناك تبلغ المكابدة أقصاها عند الوفاة، وحالة النزع، حتى قالت فاطمة رضي الله عنها: وا كرباه يا أبتِ. فقال ﷺ: **«لا كرب على أبيك بعد اليوم»**.

ثم تأتي بعد ذلك ضمة القبر، يقول ﷺ في حق سعد: **«اهتز عرش الرحمٰن لموت سعد»**. ويقول: **«لقد ضمه القبر ضمة تختلف منها أضلاعه، لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد»**.

ثم يأتي الحساب، وتطاير الكتب، ثم أهوال الموقف: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢]. إلى أن ينتهي كل إلى مصيره، والسعيد من أكرمه الله بفضله في آخر لحظة من دنياه، وأول لحظة من آخرته: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾ [فصلت: ٣٠ ـ ٣١].

فإذا سجي في قبره، كان له روضة من رياض الجنة، وإذا فزع الناس من قبورهم لا يحزنهم الفزع الأكبر، وإذا اشتد هول الموقف وألجم الناس بالعرق، كانوا في ظل عرش الرحمٰن، وإذا انتهت مواقف العرض، كانوا مع: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ [الزمر: ٧٣ ـ ٧٤]. وقالوا أيضاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]. أي: وكل مكابدة في الدنيا في سبيل رضوان الله سبحانه، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

٣ ـ من آيات الهداية من سورة (البلد):

تقدم الكلام بإيجاز على افتتاحية هذه السورة الكريمة: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾﴾ والإشارة إلى أقوال العلماء حول هذه اللام، هل هي للنفي حسب الظاهر، أو أنها صلة للتأكيد؟ بل قيل: إنها قُرئت (لأقسم) بلام الابتداء. وقد ناقش والدنا الشيخ محمد الأمين رحمه الله جميع الأقوال مؤيداً تلك المناقشة بما جاء من شواهد الشعر، وكذلك على قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾﴾.

والحديث هنا على مقتضى هذا القَسَم من حيث الصيغة والمضمون، والربط بين صيغة القسم والموضوع المقسم عليه، والكشف عن صورة البيان

الإعجازي بين هذا الموضع والموضع الآخر الوارد فيه القسم أيضاً بنفس البلد، وعلى نفس المقسم عليه، الذي هو خلق الإنسان، ألا وهو ما جاء في سورة (التين والزيتون) حيث جاء قوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ١ ـ ٤].

فالقسم هنا في سورة البلد، لم يصف البلد بشيء وجعل للقسم فيها قيداً بقوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝٢﴾ وعلى أن (حل) بمعنى حال فيهم، وهم مع تحريم الاعتداء في هذا البلد، واحترام حرماته، فإنهم يستحلون إيذاءك، وتصبر عليهم، فقد وضعوا عليه سلى الجزور وهو ساجد عند الكعبة، ومنعوه دخول مكة بعد عودته من الطائف، ويأتيه ملك الجبال نصرة له عليهم، فيأتي ويعتذر عنهم، ويدعو لهم: «**اللّهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**».

وأخيراً يستحلون دمه، فيتآمرون بإحضار عشرة فتيان ينتظرونه على باب بيته، ليضربوه ضربة رجل واحد، فيحفظه الله منهم، ويخرج تحت ظلال سيوفهم، ويسخر منهم بوضع التراب على رؤوسهم، ويمضي في طريق هجرته. كل ذلك وهو ﷺ صابر ينتظر هدايتهم، وعطف على القسم الأول ووالد وما ولد. وما في دلالة هذا اللفظ على المعنى المصدري: الولادة ومصاعبها، ويأتي المقسم عليه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ۝٤﴾. ومن ذلك ما تكابده أنت معهم، فكان السياق بأسلوبه متلائماً متناسقاً في العرض والتصوير، كما كان مناسباً متناسقاً في التسلية والمواساة لرسول الله ﷺ.

بينما القسم في الموضع الآخر، جاء بالتين والزيتون، وطور سينين، ومعها: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾. فالمقسم به هنا تين، وهو أعلى أجناس الفاكهة، والزيتون وهو أعلى أجناس الأدهان من شجرة مباركة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار. ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ محل المناجاة للكليم موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وهذه الثلاثة بالغة في أجناسها أقصى مراتب الفضيلة، جاء معها القسم بهذا البلد عينه، ولكن بقيد الأمين: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾. فاجتمعت أمهات الفضائل في صيغ القسم، وجاء المقسم عليه من منطلق الفضائل في القسم، وهو وإن نفس المقسم عليه في سورة البلد، إلا أنه هناك ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾. فخلق الإنسان في

كبد مناسب كل المناسبة لاستحلالهم إيذاءه وما يكابده ﷺ فيما يتحمل منهم، ومناسب أيضاً كل المناسبة لما تكابده كل والدة في ولادتها، وكل مولود في مولده، وخلق الإنسان في أحسن تقويم مناسب كل المناسبة لما اشتملت عليه تلك المسميات في سورة التين، من أفضل النعم وأكمل الفضائل، وبهذين القسمين المتحدين في المقسم به والمقسم عليه، المختلفين في وصف كل منهما بما يليق من سياق وعرض، يتضح جانب من جوانب الإعجاز، بحيث لو جعلت جواب القسم الوارد في سورة التين جواباً للقسم الوارد في سورة البلد، لما كان متلائماً ولا متناسقاً معه، وكذلك العكس، ونظير ذلك أيضاً في كتاب الله مجيء القسم بالنجم مرتين، وفي موضعين مختلفين، وكذلك بأسلوبين متغايرين كالآتي:

القسم الأول: في أول سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾﴾ [النجم: ١ ـ ٧].

والقسم الثاني: في سورة الواقعة: قوله تعالى: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

والمقارنة بين القسمين في الموضعين من حيث وصف المقسم به وملاءمته مع المقسم عليه في قوة الملاءمة والترابط والمناسبة وذلك كالآتي:

الأول: في سورة النجم، جاء القسم بالنجم في حالة من أخص حالاته، وهي حركته وهويه من بزوغه إلى مغيبه، وهي حركة كونية دقيقة منتظمة، تقيس العرب بها ساعات الليل، وتهتدي بمسيرها نحو مقاصدها واتجاهاتها، فهي علامات الطريق، وآلات التوقيت كما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦]. هذا هو المقسم به: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ والمقسم عليه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾. فلكأنه بهذا يقول لهم: إن النجم في كبد السماء هادٍ لكم، ودليل في ظلمات الليل في البر والبحر، لا يضل من اهتدى به أبداً، وأنتم تعلمون ذلك يقيناً، فكذلك نجم محمد ﷺ صاحبكم الذي

تعرفونه، ما ضل وما غوى فيما يدلكم عليه، ويرشدكم إليه، وأن ما جاءكم به إنما هو وحي يوحى، فليس هو من عنده ولا عن هوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ وجاءه عن طريق مأمون ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾﴾. جبريل عليه السلام، عن رب العزة سبحانه، وهكذا يتلاءم المقسم به ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ مع المقسم عليه ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ . . .﴾ إلى آخره.

والموضع الثاني: المقسم به هو أيضاً النجم، ولكن في مواقعه في كبد السماء ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ أي: التي تعلمون بعدها وحفظها وصيانتها عن أن تصل إليها عادية الإنس أو الجن، أو أن يقدر أي مخلوق على تغيير تلك المواقع، فقد وضعت بحكمة وبدقة في حفظ وصيانة.

المقسم عليه هو كتاب الله تعالى، في حفظه وصيانته ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. أي: ولكأنه يقول لهم: لئن كانت النجوم التي ترونها، وتعرفون مطالعها، وتدركون مواقعها، جازمين بأنها محفوظة عن اللمس، أو عن العبث، أو التقديم والتأخير، وهذا قسم لو تعلمون كنهها وأبعادها وبروجها عظيم؛ عظيم في الدلالة على قدرة الله تعالى وحكمته في دقيق صنعه، فإن القرآن الكريم لكذلك في حفظه وصيانته على الوصول إليه، وامتداد يد التغيير أو التبديل إليه في كتاب مكنون ممنوع عن جميع المخلوقات إنس أو جن، لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة المقربون، حيث يؤذن لهم في حدود النقل والبلاغ كما يأمرهم به الله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. وهكذا يتلاءم هنا المقسم به مواقع النجوم ـ في حفظها وصيانتها ـ مع المقسم عليه القرآن الكريم ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾. ولو غايرنا بين كل قسم وجوابه، لما تلاءم ولا تناسب معه، وهذا جانب من جوانب الهداية والإعجاز، وربط المعنوي بالمحسوس، زيادة في الإيضاح والبيان.

٤ ـ من آيات الهداية في سورة (البلد):

بعد بيان القسم في صيغة المقسم به والمقسم عليه في أول السورة الكريمة،

وما اكتنف ذلك من جانب النبي ﷺ، وما كان يكابده مع قومه ويصبر عليهم، جاء الحديث عن الإنسان أيضاً، سواء كان المراد الجنس وهو الغالب، أو كان المراد إنساناً بعينه، فإن الدلالة والبيان في الرد عليه، وما ينبغي عمله، والمنهج الذي يلزم سلوكه ابتداء من ادعائه. ﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي: مالاً كثيراً متلبداً بعضه فوق بعض. وهذا الادعاء متضمن أنه في سبل الخير متمنناً به، وينجر معه الادعاء ضمناً أفعال الخير الأخرى غير المالية من أقوال وأفعال. فيأتي الرد عليه بما يسمى الجواب المسكت: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾. أي: حين يفعل ما ادعاه. إنه مخطئ في حساباته، ويقيم الحجة عليه من نفسه هو: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾. وهنا من أسرار الإعجاز البياني ووضوح الدلالة والهداية في كتاب الله تعالى: لأن الذي جعل للإنسان عينين يبصر بهما ما حوله ـ وما كان ليبصر شيئاً لولا أن جعلهما الله إليه ـ والذي جعل للإنسان لساناً وشفتين ينطق بهما ما شاء من القول ـ ولو لم يجعلهما له ما كان لينطق ولا حرفاً ـ لن يعجزه شيء، إنه يرى ويسمع ويعم جميع أفعال هذا الإنسان مما يراه بعينه، وينطقه بلسانه، وهو سبحانه وتعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ [ق: ١٦ ـ ١٨].

ومن ناحية أخرى: إن الله سبحانه قد أعطى الإنسان مقومات السلوك، وأدوات التأمل والاعتبار، والنظر والمقايسة، والإمكانيات التي بها صار أهلاً لتحمل أمانة التكليف، ومسؤولية الاختيار. وقد أرسل إليه الرسل بالهداية والبيان، وهداه النجدين، وبيَّن له عاقبة كل طريق منهما: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾. والهداية هنا هداية بيان، لأنها تناولت النجدين، وليست هداية توفيق ورشاد، لأن تلك خاصة بطريق واحد لمن خصهم الله تعالى بها.

ولما كانت الهداية هنا بيانية، نَدَبَهُ سبحانه إلى ما فيه صلاحه وبه خلاصه. والعجيب أيضاً أنه من نوع ما ادعاه أولاً في الإنفاق الكثير، كأنه حسن توجيه لتصرف الإنسان بما ينفعه، فقال تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾. والعقبة: المضيق بين جبلين، أو تجاوز الجبيل الصغير بنوع تكلف ومشقة، والمدلول

العام للعقبة يشعر بالمثابرة في تخطي كل الحواجز بين الإنسان وبين الجنة، كما تقدمت الإشارة إليه في الحديث الصحيح: «**حفت الجنة بالمكاره**»، ومجموع تلك المكاره يشكل تلك العقبة، فهي تتسع لكل التكاليف ذات الكلفة والمشقة، ولكن السياق عمد إلى أمرين هنا:

أحدهما: إعظام وإكبار وتهويل أمر تلك العقبة في إجمالها في قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾. نظير قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾﴾ [الحاقة: ١ ـ ٣]. وقوله: ﴿ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾﴾ [القارعة: ١ ـ ٣]. لأنها فعلاً عظيمة، واختيارها شاق يتطلب دوام المكابدة المنصوص عليها في أول السورة.

الأمر الثاني: شرحها بأعلى مراتبها في ثلاث حالات، الأولى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾. الثانية: ﴿أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾. الثالثة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾﴾.

وبالعودة إلى هذه الحالات مع ملابسات الظرف التي نزلت فيه زماناً ومكاناً، نعلم أي عظمة في تلك العقبة: ففك الرقبة آنذاك كان متوجهاً إلى أسس عمل إنساني، وهو أن بعض ضعفة المسلمين من العبيد في أيدي أسيادهم، قد أسلموا فأحنق عليهم صدور ساداتهم، واشتدوا في إيذائهم، لا لشيء إلا لأنهم آمنوا بالله وبرسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾﴾ [البروج: ٨]. فكان فكاك تلك الرقاب ذا إيجابيتين: إيجابية كونهم آمنوا، أي نصره للإيمان وهو لا يزال في بدايته مع أولئك. وإيجابية كونهم أناساً ضعافاً لا حول لهم ولا طول. وكل إيجابية منهما منفردة تستوجب الحث على فكاكهم من أيدي الطغاة القاسية قلوبهم.

وقد سجلت لنا موسوعات السيرة بعض تلك الأحداث، وبعض السَّباقين إلى الخير، السابقين إلى اقتحام تلك العقبة من ذلك تلك الأسرة الكاملة (آل ياسر) التي قال فيها ﷺ: «**صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة**». وقد قتلت أم عمار واسمها سمية ولم ترجع عن دينها.

وذكر ابن كثير في البداية نقلاً عن ابن إسحاق: أن بلالاً رضي الله عنه كان لأمية بن خلف، فكان إذا حميت الظهيرة يخرجه، ثم يأمر بالصخرة فتوضع على صدره،

ثم يقول له: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيجيبه وهو على ذلك: أَحَدٌ أَحَدٌ. فمر به أبو بكر فاشتراه فأعتقه.

وذَكَر جماعة منهم: عامر بن فهيرة، وأم عبيس، وزنيرة، والنهدية وابنتها، ومما حدث لزنيرة: أن بصرها قد ذهب عنها يوم أن أعتقها أبو بكر، فقال المشركون: أذهب بصرها اللات والعزى. فقالت: لا والله إن اللات والعزى لا يقدران على شيء، فرد الله إليها بصرها.

وهكذا فإن فك الرقاب آنذاك كان جزءاً من التحدي الإسلامي للمشركين، وكان نصرة لدين الله، وكان ترابطاً جديداً بين أفراد الإسلام الذي لا يعرف جنساً ولا قبيلة. فكان بلال الحبشي، وصهيب الرومي، ثم سلمان الفارسي.

وقد جاء عنه ﷺ الفرق بين فك الرقبة وعتق النسمة، في حديث البراء بن عازب: جاء أعرابي وسأل النبي ﷺ عما يدخله الجنة؟ وكان جوابه ﷺ: **«أعتق النسمة، وفك الرقبة»**. فقال: يا رسول الله أوليستا بواحدة؟ قال: **«لا، إن عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها»**.

وعلى هذا فالنص هنا ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ دعوة إلى المسلمين لخلاص أولئك المملوكين بكل ما يستطيعون، منفردين أو مجتمعين، متعاونين على ذلك.

وقد جاءت النصوص في عتق الرقاب فلا حصر له، بل جعل العتق في جميع الكفارات: في قتل الخطأ، في الظهار، في اليمين، بل وفي التطوع يعتق به من النار، بل قد يكون إلزاماً كمن أعتق شخصاً له في عبد، وله مال قوم عليه، وأعطى الشركاء أنصباءهم منه، وعتق عليه.

وعطف على عتق الرقبة الحالة الثانية الإطعام. وليس مطلق إطعام لمطلق جائع، ولكن تأمل تلك القيود:

أولاً: في حالة الإطعام في يوم ذي مسغبة، أي: شدة وجوعٍ، وقلة توفر الطعام. إنها القمة في سمو النفس، والغاية في التعاطف، ولقد افتخرَ طرفة بقوله:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الآدم ميتاً ينتفر

لأن المشتاة وقت الشدة، وامتدح الله الأنصار بما مضمونه ذلك: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ثم القيد في المطعوم: ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾. إن إبراز صفة اليتم التي

تجسم الضعف والحرمان، وتستثير العطف والإحسان، لفيه الكفاية ليجود أي إنسان في يوم المسغبة المذكور. ثم يزيد فيدلي بمقربته، وهو لا شك له قرابة أدناها الإخاء، وأقصاها ما بعد من الجدود والآباء.

ثم يعطف عليه **الصنف الآخر**: صاحب الحاجة، ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ فإن لم يكن قريباً، فهو مسكين ذو متربة؛ قد ألصقته المسكنة بالتراب، يفترش الأرض، ويلتحف السماء.

ثم يأتي العامل الأكبر: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهذا هو الرابط العام الذي لا يعرف جنساً ولا وطناً، فيربط بين جميع المؤمنين. ثم يبرز أخص صفات الإيمان، والتي هي بمثابة الإطار العام للإنسان في هذه السورة ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ الصبر على الشدائد، كما صبر أولئك المستضعفون؛ والصبر على كل ما يتطلب المكابدة، والتواصي بالمرحمة، كما رحم صدر هذه الأمة بعضها بعضاً ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾﴾. وقد أوضحها تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ ...﴾ [الواقعة: ٢٧ ـ ٣٤] إلى آخره.

٥ ـ آيات الهداية من سورة (البلد):

في نهاية هذه السورة الكريمة توجيه قرآني كريم إلى اقتحام العقبة، واجتياز المخاطر يوم القيامة بصالح الأعمال في الدنيا: من فك الرقاب وعتقها، وإطعام اليتيم حالة المسغبة، والمسكين ذي المتربة، واشتراط أن يكون ذلك صادراً من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر، وتواصوا بالمرحمة. وهذه قاعدة عامة في صحة الأعمال الصالحة وتحري قبولها، وهي ما قاله العلماء:

الأول: أن يكون العمل موافقاً لشرع الله تعالى على حد قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. وقوله ﷺ: «**كل عمل ليس عليه أمري فهو رد**». يعني: مردود على صاحبه. وفي الأثر: «**خير الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة في النار**». أعاذنا الله والمسلمين.

الشرط الثاني لصلاح العمل: أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى، يبتغي به رضوانه سبحانه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥]. وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: ٢]. وقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠]. وقد أعلن ذلك القرآن الكريم على لسان رسوله المصطفى ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝١١﴾ [الزمر: ١١]. بل أعلن عنه ﷺ عموم أمره، وجميع شأنه، أنه لله وحده: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٦٣﴾ وفي الآية قبلها بيان بأن هذا هو الهدي إلى الصراط وهو قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ . . .﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣].

والمتأمل واقع الإنسان مع ربه، يجد هذا المعنى وهو إخلاص العمل لوجه الله، واللجوء إلى الله تعالى وحده، فطرة صادقة تتجلى عند الشدائد، حيث يعلم الإنسان ويوقن أنه لا يقدر على كشفها إلا الله، وقد ذكر القرآن الكريم بعض حالات المشركين عند مواجهة الصعاب، ومخاوف الأخطار في قوله تعالى عنهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٢٢﴾ [يونس: ٢٢]. ومثلها في سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. وفي سورة لقمان: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ . . .﴾ [لقمان: ٣٢]. وفي قصة عكرمة رضي الله عنه لما هرب عام الفتح، وركب سفينة، واضطرب بهم البحر، وقال لهم ربان السفينة: لا تدعوا سوى الله وحده، فوالله لن ينجيكم من هذه إلا الله، فعقلها وفهم حقيقتها، وقال: لئن كان لا ينجي في البحر إلا الله فلن ينجي في البر إلا الله؛ لله عليَّ إن أنجاني من هذه لآتينَ محمداً، ولأضعنَّ يدي في يده، ولأجدنه براً رحيماً. فَسَلِمَ، وجاء، وأسلم.

الشرط الثالث: من شروط صلاح العمل: أن يكون صادراً من عبد مؤمن

بالله واليوم الآخر. والنصوص في ذلك كثيرة، منها هذا النص في هذه السورة: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ﴾ ومنها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢﴾ [البقرة: ٦٢]. فهؤلاء الطوائف كلها: اليهود، والنصارى، والصابئين عبدة النجوم، ومثلهم كل مشرك مع الله غيره، اشترط في عملهم عملاً صالحاً، أن يكون بعد الإيمان بالله، واليوم الآخر، وبرسالة نبينا محمد ﷺ؛ وكذلك عموم قوله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧]. وفي المقابل بالنسبة للمشركين قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩]. وقوله: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣].

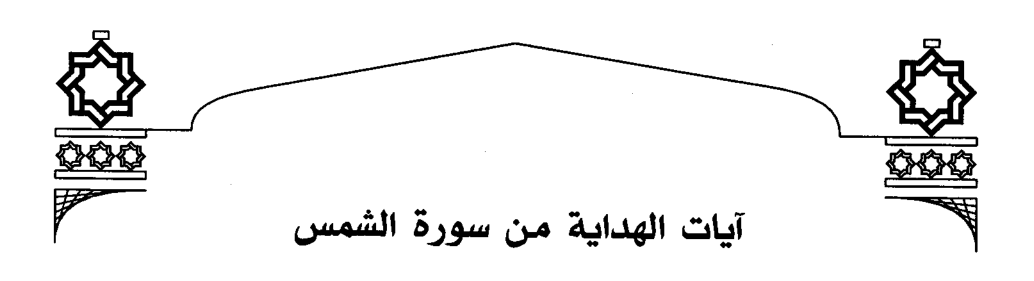
فإذا ما اكتملت تلك الشروط الثلاثة، كان العمل صالحاً، حرياً بالقبول وحسن الجزاء.

وبجانب تلك الشروط الثلاثة، توجيه عظيم، ولكأنه تذييل وربط وعود على بدء، بل وشمول، ونوع من الإعجاز البياني لموضوعية هذه السورة الكريمة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٧]. لأن المتأمل لذلك يجد الترابط بين هذا التواصي، وبين أول ووسط وآخر السورة الكريمة، في تكوين وحدة موضوعية لهذه السورة الكريمة، وهي: أن السورة افتتحت بالقسم العظيم على خلق الإنسان في كبد، ووسطها فيها الهداية لاقتحام العقبة بفك الرقاب، وإطعام الأيتام والمساكين، وهذه الخاتمة فيها التواصي بالصبر والتواصي بالمرحمة. وهذا في غاية الإبداع والارتباط والتناسق إلى حد الإعجاز، إذ الافتتاحية التي أوضحت خلق الإنسان في كبد، توحي بضرورة الصبر على المكابدة، وألزم ما يكون لمكابدة الأعمال هو الصبر، سواء كان صبراً على الطاعات ومجاهدة النفس عليها، أو كان عن المعاصي ومجاهدة

النفس عنها، فالصبر من عزائم الأمور، كما قال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

وقد أوصى الله به نبينا ﷺ تأسياً بأولي العزم من الرسل: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وكذلك الدعاة إلى الله كما في وصية لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان: ١٧]. فالتواصي بالصبر في نهاية هذه السورة هو أمثل ما يكون لمقدمتها عوناً على ما خلق الإنسان فيه من كبد، والتواصي بالمرحمة هي روح الترابط والتعاون والتعاطف، وهي أنسب ما يكون لكفالة اليتيم والتكافل مع المسكين وكل ذي حاجة، بل إن الرحمة هي لب الإسلام. انظر في رابطة الابن بالوالدين في قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]. وفي ترابط الزوجين في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]. وانظر إلى ما بين المؤمنين بعضهم لبعض: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]. وهذا من أخص صفات أصحاب رسول الله ﷺ في التوراة. وانظر إلى علاقة النبي ﷺ بالأمة، في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨]. جمع الله تعالى لنبينا في المرحمة بدل: الرحمة. فيه إشعار مؤكد وجوب التراحم، وأن يوصي بعضهم بعضاً به، وهذا في عموم المواقف، كما قال الفخر الرازي: أن يرحم المظلوم، أو الفقير، أو يرحم من يقدم على منكر، فيمنعه منه، وذلك كله داخل في الرحمة، ويكفي في هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال الفخر الرازي: مدار أمر الطاعات على هذين الأصلين. ولهذا كان أولئك هم أصحاب الميمنة، يعني اليمين، الوارد بيان حالهم في سورة الواقعة: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ ...﴾. إلى آخر السياق.

*** *** ***



آيات الهداية من سورة الشمس

نص الهداية في هذه السورة الكريمة قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٧ ـ ١٠]. يعتبر هذا النص في هذه السورة مفسراً وموضحاً نص الهداية في السورة التي قبلها مباشرة، وهي سورة البلد المتقدم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ ـ ١٠]. وتقدم أن النجد هو الطريق، أي هداه وبيّن له طريقي الخير والشر؛ وهنا صرح بمدلول النجدين في قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾. وهذا من شواهد ارتباط السور في نسق المصحف بعضها ببعض كارتباط الآية في السورة الواحدة؛ بل هو تمام النسق في السور الثلاثة على التوالي والترتيب، في سورة الإنسان: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ وفي سورة البلد: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ تفسيراً للسبيل، وفي سورة الشمس: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ تفسيراً للنجدين.

والإلهام لم يأت في القرآن بلفظه إلا في هذه السورة: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾. وأصل المادة كما قال صاحب معجم مقاييس اللغة: اللام والهاء والميم. أصل صحيح يدل على ابتلاع شيء ثم يقاس عليه، تقول العرب: التهم الشيء: التقمه. ومن هذا الباب الإلهام. كأنه شيء ألقي في الروح فالتهمه، قال الله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾. وساق ما قيس على أصل المادة لغة.

أما المعنى المراد هنا فقد تعددت الأقوال فيه مع تقاربها في المعنى، فعند ابن جرير: عن ابن عباس رضي الله عنهما: ألهمها: بيّن لها ما ينبغي أن تأتي أو تذر من خير أو شر، أو طاعة أو معصية. وعن مجاهد: بمعنى عرّفها.

والوجه الثاني: ما قاله آخرون: أن الله جعل فيها ذلك. وذكر حديث

القدر: أن رجلاً من مزينة سأل رسول الله ﷺ: أرأيت ما يعمل الناس فيه ويتكادحون؟ أشيء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم ﷺ، وأكدت به عليهم الحجة؟ قال: «**في شيء قد قضي عليهم**». قال: ففيم نعمل؟ قال: «من كان الله خلقه لإحدى المنزلتين يهيئه لها». وتصديق ذلك في كتاب الله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾.

وناقش الفخر الرازي هذا الموضوع، وبيّن الفرق بين التعليم والتعريف، وبين الإلهام، بما نقله عن الواحدي فقال: التعليم والتعريف والتبيين غير، والإلهام غير، ثم شرح معنى الإلهام بقوله: هو أن يوقع الله في قلب العبد شيئاً، وإذا أوقع في قلبه شيئاً فقد ألزمه إياه. وهنا يأتي السؤال: كيف يلقي الله في قلب العبد شيئاً من الفجور والله لا يأمر بالفحشاء؟ وأجيب عن ذلك: بأن الله يلقي في قلب العبد معنى الفجور ليجتنبه؛ كما يلقي في قلب العبد معنى التقوى ليفعله. وقدم ذكر الفجور على التقوى، لأن مَن تجنب الفجور فقد لازم التقوى، وكما يقال: درء المفاسد مقدم على جلب المصالح.

هذا ما يتعلق بنص الهداية في هذه السورة الكريمة. ولكن المتأمل في مجموع سياق السورة، يجد مقدمات ومقابلات بديعة، ووحدة متكاملة، حيث بدأت بآيات كونية في الأرض وفي السماء، وانتهت إلى الحقيقة الإنسانية في النفس البشرية، وانتهت إلى نتائج السلوك والاختيار، وختمت بأعظم مثال، وأوضح معجزة، بداية ونهاية. وفي مجموعها: الرد الواضح البين على ما يرد على السورة من تساؤلات في القدر وغيره، وذلك على النحو الآتي:

بدأت السورة الكريمة بقسم متعدد يسترعي الانتباه في شكله ومضمونه. أقسم سبحانه بالشمس وضحاها، وبالقمر إذا تلاها. وهما متقابلان متعاقبان، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها. وهما متقابلان متناقضان، وجود أحدهما ينفي ويمنع وجود الآخر. ثم بالسماء وما بناها، والأرض وما طحاها. وهما متقابلان تقابل الضدين، فأحدهما ضد الآخر علوي وسفلي. ثم بالنفس وما سواها وما أودع فيها مما ألهمها فجورها وتقواها، وهما متقابلان تقابل النقيضين بوجود أحدهما ينتقض وينتفي وجود الآخر. وكل هذه المقسم بها من شمس وقمر، وسماء وأرض، وما يلابسهما من ليل ونهار،

هي أعظم الآيات الكونية الدالة على عظمة القدرة الإلهية دلالة مزدوجة:

أولاً: في القدرة على إيجاد كل منها.

ثانياً: القدرة على إيجاد الضدين. وبالتالي فلا غرور ولا غرابة في أنه سبحانه يفطر النفس البشرية ويسويها قابلة مشتملة على النقيضين، فألهمها فجورها وتقواها. فتصبح بقدرته وعظيم حكمته مهيأة لكل من الأمرين معاً.

وبالعودة مرة أخرى إلى ما أقسم الله تعالى به، نجده في جملته عناصر هذا الكون حساً ومعنى، متحركاً وساكناً.

فالمحسوس: المتحرك شمس وقمر، وفي حركة كل منهما أكثر من آية، وأكثر من دلالة، والساكن الأرض والسماء، ولا يعلم في كل منهما من آيات ودلالات على الإرادة الإلهية، وعظمة الربوبية، لا يعلمه إلا الله.

والمعنوي: هو تلك النفس التي لم يدرك كنهها أحد حتى الآن، وبالتالي لا يدرك الكيف الذي به سواها سبحانه، وهذا الإلهام الذي أفاضه سبحانه عليها، ولعل في هذا رد للإنسان إلى أصل قضيته، وعنصر تكوينه، حيث كان بداية أمره من تراب، والتراب جزء من الأرض، وليس له حياة إلا بالشمس وضحاها، تحت سقف السماء التي بنيت على هذا الكون، وفي إطار الليل والنهار، تحركه وسكونه، وهذا الجانب المحسوس فيه، ثم نفخ فيه سبحانه من روحه فكان خلقاً سوياً، فهنا يذكره بعوامل حياة وبقاء عنصره: المادة مما سخر له من شمس وقمر، وليل ونهار، على أديم الأرض وتحت سقف السماء، وتلك النفس وما سواها، بهذا الإلهام الذي لا وجود له إلا من الله وحده، وبهذا الإلهام الإلهي يجد الإنسان نفسه مستقلاً في ذاته، حراً في اختياره، إن سلك مسلكاً، سلكه مستبيناً رشده من ضلاله، كما قال تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ثم بيّن تعالى نتائج كل من الاختيارين في نهاية هذا العرض، في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ وهذا هو المقسم عليه بكل المقسم به المتقدم. وتجد الشفافية الشافية في جواب القسم، فتشف عن مدى ارتباط المقسم عليه بالمقسم به، فالتزكية: طهارة وإضاءة، حتى قيل

للشمس: «زكاء». وهذا يلتقي مع الشمس في أحسن حالاتها وقت الضحى، ومع القمر في اكتمال نوره، ومع النهار إذا جلاها، والسماء في سموها ورفعتها، ودساها منها معنى الخفاء والانسفال، فيتفق مع الليل في ظلامه، والأرض في انسفالها، والسورة وحدة متكاملة، وسيأتي زيادة إيضاح لذلك في الحديث عنها مفصلاً إن شاء الله، مع بيان خاتمتها.

٢ ـ آيات الهداية من سورة (الشمس):

تقدم الحديث عن الوحدة المتكاملة في هذه السورة، والصور المتقابلة في صيغ القسم المتعدد في أولها، وعلاقة ذلك بآية الهداية والإلهام الإلهي للنفس البشرية. ولأهمية المضمون في هذه السورة، وزيادة الإيضاح والبيان، لزم تناول ما أجملناه مرة أخرى بالتفصيل حسب الإمكان، على ضوء السياق وأقوال علماء التفسير رحمهم الله. وقد ألممنا بما يقتضيه المقام في تتمة أضواء البيان، نورد منه الآتي:

قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝١﴾. إلى قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧﴾. أقسم تعالى بهذه الآيات الكونية، ولله ـ سبحانه ـ أن يقسم بما يشاء، لأنها من صنعه وخلقه وإيجاده، ودلالات على قدرته وعظمته ووحدانيته، فكأنه أقسم بذاته سبحانه. ويتضح هذا المعنى جلياً في هذه السورة، لأن الشمس وضحاها آيتان، فالشمس في ذاتها بجرمها وما فيها من طاقة حرارية منذ أن خلقها الله، تدفئ الأرض، وتمد النبات، وتساعد على الحياة، لا يقدر على إيجادها، ولا على بقاء طاقتها، إلا الله سبحانه. ثم إن ضحاها ناشئ عن حركتها: من إشراق ومسيرة إلى وقت الضحى، ثم مواصلة مسيرها إلى غروبها، في حركة دائبة منتظمة، لا يعتريها خلل، ولا اضطراب آية أخرى.

ويتبع هاتين الآيتين، وهما طاقة الشمس وحركتها، وجود عناصر الحياة على الأرض، وحركة الإنسان والحيوان والنبات، وجميع الكائنات الحية، آيات لا يحصيها إلا الله.

وفي القسم بالقمر إذا تلاها. فالقمر في ذاته آية، ودنوه ما بين الشمس والأرض واستمداده الضوء من الشمس وإرساله إلى الأرض آية. وفي لفظ

(تلاها) وما يشعر بأمرين: الملازمة والدقة، فهو ملازم للشمس. في أول الشهر القمري حين تغرب الشمس، يتلوها القمر في ظهوره على أصح القولين، ثم يواصل مسيرته في منازله على التوالي حسب تقدير العزيز العليم: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٤٠].

ثم أتبع آيتي الشمس بآيتي النهار والليل، وهما ناشئتان عما تقدم، فقال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾. والجلاء: الوضوح والظهور، والضمير في (جلّاها) قيل: راجع للشمس، وقيل: للأرض، وهو اختيار ابن كثير، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ﴾ [يونس: ٦٧]. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾. وفي هاتين الآيتين العظيمتين أيضاً وضوح الدلالة على عظيم قدرة المولى سبحانه، إذ لا يقدر على الإتيان بالنهار يجلي الكون، ولا المجيء بالليل يغشاه إلا الله سبحانه، كما لن يقدر على حركة الشمس إلا الله تعالى، وقد لجأ إلى حركة الشمس في إقامة الحجة لله خليل الرحمٰن، إذ قال لنمرود: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٨]. وكذلك تحدى الله الخلائق في آيتي الليل والنهار في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١ - ٧٢]. حقاً لا يقدر على ذلك إلا الله. ومن لطيف الإشارة هنا قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَـٰهٌ﴾ ففيه الإشعار بأنه لا يقدر على ذلك إلا من كان إلهاً، ولا إله إلا الله وحده سبحانه.

ثم انتقل إلى العالم العلوي ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾﴾. ونجد هنا مغايرة في هذا القسم، إذ كان المقسم به قبلها بالشمس وأثرها، ولم ينوه بالمؤثر، ولكن هنا جاء القسم بالسماء وما بناها، وسواء أراد بناءها أو أراد بانيها، فالأول هو بناء السماء، لا يقدر قدره إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ﴾ [الرعد: ٢]. والعقل يقصر عن إدراك ذلك إدراكاً كاملاً، هذا الجرم المرتفع عن الأرض مسيرة خمسمائة عام، وسمكه في ذاته خمسمائة

عام، يكون مرفوعاً هكذا بدون عمد، وبدون تعليق، وإنما بالقدرة الإلهية التي تمسكها. وكذلك قوله: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ٦٥]. فهذا من جانب رفعها مبنية. ومن جانب آخر في سلامة هذا البناء منذ بنائها ورفعها، لم يعتريها تشقق ولا تفطر، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. إلى قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الملك: ١ ـ ٤] ثم إن هذا البناء لا شك أنه لوازم القدرة والقوة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾ [الذاريات: ٤٧]، أي: بقوة. كما قال: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ﴾ [ص: ١٧]، أي: القوة. ثم لا، ولن يستطيع أحد أن يدرك مادة بنائها ما هي؟ من حديد، أو نحاس، أو أي شيء آخر. وهذه آية أيضاً، ثم إن هذا البناء العظيم تبعته مكملات زينة له، وحفظاً ممن حاول الاقتراب منها من عالم الجن المتمرد: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾ [الملك: ٥]. وتلك السماء على شدة بعدها وارتفاعها فهي السقف لهذا الكون، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبيا: ٣٢]. نقل القرطبي عن مجاهد في (آياتها): أنها ما اشتملت عليه من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح... إلخ. أن في هذا كله آيات للمتأمل، تهديه وتدله على قدرة الله تعالى ووحدانيته، وتدعوهم إلى الإيمان به. ويحتمل ـ والله تعالى أعلم ـ أن (آياتها) في صفاتها المذكورة هنا من كونها: (سقفاً) لأن السقف لا بد له مما يسقف عليه من جدران أو عمد، مهما كان صغيراً أو غير ثقيل. وهذا السقف العظيم بغير عمد نراها، وهذا أعظم آية، ثم كذلك كونها محفوظة من كل ما يعتري السقوف الأخرى من تصدع أو فطور على مدى الآماد البعدية، التي لا يعملها إلا الله. فهذه أيضاً آية، وما فيها من آيات في علم الله سبحانه.

وعودة إلى هذه المقسم بها: شمس وقمر، ونهار وليل، ثم سماء وما بناها، على أن المراد بناؤها.

أما على أنه: وبانيها، فهذا يكون صريح القسم بالله تعالى، وغاية ما فيه استعمال (ما) التي لغير العاقل في حقه سبحانه، والجواب عن ذلك من وجهين:

الأول: أن (ما) و(من) قد ينوب أحدهما عن الآخر، وقد جاءت (ما) محل (من) في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣]. ومجيء (من) محل (ما) قول الشاعر:

أسربَ القطا هل من يعيرُ جناحَه ... لعلي إلى من قد هويت أطير

وفي كل من الحالتين سر بلاغي معروف، والسر في مجيء (ما) هنا، معنى الوصفية لله تعالى في بناء السماء.

ثم بعد تقديم السماء بما فيها من آيات وهداية، وجاء بمقابلها: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾﴾. وطحاها بمعنى: دحاها، وبمعنى: خلق، وعليه قول الشاعر:

وما تدري جذيمة من طحاها ... ولا من ساكن العرش الرفيع

وتأتي (طحا) بمعنى ذهب، كقوله:

طحا بك قلب في الحسان طروب ... بعيد الشباب حين جاء مشيب

وهذا يستلزم معنى خلقها ومدها، وأودعها ما تشاهد فيها، كما قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾﴾. [النازعات: ٣٠ ـ ٣٢] فالأرض بجبالها وبحارها وزروعها وما جعل فيها من ستر الإنسان: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾﴾ [المرسلات: ٢٥]. فالأرض وما طحاها تساوي والسماء وما بناها، وهما وما قبلهما وحدة كونية متكاملة، وصورة واضحة، فيها الدلالة والهداية على ما سيأتي إن شاء الله تعالى:

٣ ـ من آيات الهداية من سورة (الشمس):

تقدم في أول السورة الكريمة قَسَم عظيم بآيات كونية عظيمة: بالشمس والقمر، والليل والنهار، والسماء والأرض في أكمل حالات كل منها. وأوجزنا الحديث عن تلك الآيات بما يدعو كل عاقل إلى الاهتداء لمنهج الحق والإيمان بوجود مدبر قادر عليم، يسير هذا الكون سماءه وأرضه وما حواه، بحكمة لا يقدر قدرها إلا هو سبحانه. وفي نفس السياق وضمن هذا

بالنفس البشرية في أكمل حالاتها، وأعلى مستواها، وهذا القسم هو محل نص الهداية من هذه السورة.

ولو أمعنا النظر فيما تقدم من القَسم، وبخمس آياتٍ كونية عظيمة، وقارنا بينها وبين هذا القسم الأخير: و(النفس) في هذه الحالة ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾﴾ لوجدنا مقدمة السورة كلها بمثابة التقديم والتمهيد لهذا النص، حيث إن الشمس والقمر وحالاتهما من ضحاها، وتلوّه إياها، ومن إشراق ينشر النهار، وغروب يجلب الليل، آيات محسوسة ثابتة أحداثها، ومشاهدة آثارها، والسماء في سعتها وسمكها وارتفاعها، والأرض في امتدادها، هما العالم الذي يحتوينا، والفراش الذي يأوينا، والسقف الذي يظلنا ويقيناً، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ...﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢]. فالأرض والسماء وما فيهما بمثابة البيت الكبير المليء بالأرزاق لساكنيه، فالإقسام بهذه المسميات إقسام بما به حياة الإنسان، وليس بغريب عليه، إلا أنه في حاجة إلى تأمله وتدبره، ليستدل به على وجود وقدرة من أوجده، فيعبده وحده، ولا يشرك معه في عبادته غيره.

أما القسم بالنفس وما سواها، وما تبع ذلك من إلهامها فجورها وتقواها، فهو قسم بمغاير كلية عما تقدم، مغاير في كنهه وذاته، مغاير في كيفيته وحالاته، مغاير في تسويتها. والحديث عن النفس أولاً عن ذاتها وخاصة هنا، ثم عن تسويتها، ثم إلهامها وآثار هذا الإلهام في حياتها ومصيرها، وكلها جوانب تكاد تعجز العلماء في حقيقة إدراكها:

فأولاً: عن ذاتها، وما المراد بالنفس هنا؟ أهو الإنسان جملة أم هو ما عدا الجسم المركب من لحم ودم وعظم؟ وهو الأمر الذي به حياته، وبدونه يكون مماته، وإيضاح ذلك: أن أصل هذا الإنسان بني هيكله من تراب، وظل على أصله ما الله به عليم، ثم نفخ الله تعالى فيه من روحه. فصار بشراً سوياً، كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]. وقد زاد ذلك إيضاحاً في سورة

الحجر: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾. وقال بعدها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩]. فهنا صلصال من حمأ مسنون، وهذا جرم مادي محسوس، وهنا نفخ فيه من روح الله، وهذا أمر معنوي لا يدركه الحس، ولا يكفيه العقل، وهو على حد قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]. فما المراد بالنفس هنا؟ أهو الإنسان بعنصريه أم هو العنصر غير المادي؟

وبالرجوع إلى كتاب الله نجد لفظ النفس يستعمل تارة لمجموع الإنسان، وتارة لخصوص العنصر غير المادي، ومن الأول: قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وهي آدم عليه السلام، وقوله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى﴾ [المائدة: ٢٥]. وعن عزيز مصر في شأن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]. وعن وفد نجران: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٦١]. وغير ذلك من الآيات التي جاء فيها لفظ: «النفس» بمعنى الشخص.

وجاءت النفس بمعنى أخص، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ . . .﴾ [الأنعام: ٩٣]. يعني أرواحكم. وقوله عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨]. وقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]. وقوله عن المنافقين: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ . .﴾ [المجادلة: ٨]. فهذه وأمثالها خاصة بالعنصر الذي هو أثر من آثار النفخ من روح الله. ومعلوم أن كل فرد من أفراد الإنسان قد نفخ فيه من روح الله تعالى.

وبناء على هذين الاستعمالين فهل المراد بالنفس: عموم الإنسان وتسويته كمال خلقته: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الإنفطار: ٧]. ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [طه: ١٧]. وهل المقصود بالنفس هنا فرداً معيناً؟ كما قيل: هو آدم أصل الخليقة. ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: ٦]. ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا . . .﴾ [النساء: ١]. أو هو نبينا محمد ﷺ، إذ إن نفسه أرقى وأكمل أنواع البشر، وأكرمها على الله، واللفظ إذا نكر صرف إلى أعلى أفراده. أو أنها مراد بها الجنس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾﴾.

أما على الاستعمال الثاني غير المادي فهذا السر الإلهي في كيان الإنسان، وأقسم الله به لتناهي عظمته من حيث كنهها: كيف هي؟ وممّ هي؟ وكيف سواها؟ ولا جواب عليه إلا أنها من أمر ربي. ويأتي تبعاً لتسويتها على ما أراد الله تعالى هذا الإلهام وللنقيضين، فتصبح مستوية التهيئة، قابلة لهذين المنهجين: الفجور والتقوى، والفجور أصله من الانفجار، كقوله: ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢]. ومنه انفجار الليل عن الفجر، وانتشار نوره. فالفجور: هو شق عصا الطاعة. والتقوى: من الوقاية، وهي اتخاذ ما يقيها من عذاب الله، فهما متقابلان، وتسوية النفس على هذا هو جعلها قابلة وصالحة للمنهجين جميعاً، وهذا من تمام القدرة.

وقد بلغت أنظارنا إلى فرق ما بين الإنسان وملائكة الرحمٰن، إذ أن الملائكة عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون؛ بينما الإنسان قد سوى الله نفسه، وألهمها العصيان والطاعة، أي جعلها صالحة وقادرة، ولها الحرية في الاختيار.

وقد انقسمت النفس البشرية إلى ثلاثة أقسام:

نفس مطمئنة، فهي راضية مرضية.

ونفس لوامة وهي تارة مستقيمة، وتارة منحرفة، ولكنها سرعان ما تتبصر وترجع إلى الاستقامة.

ونفس أمارة ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾ [يوسف: ٥٣].

وعلى هذا التقسيم فإن النفس المطمئنة هي التي لا تقدم على عمل إلا إذا اطمأنت إليه، كما قال ﷺ: **«والبر ما اطمأنت إليه النفس»**. فهذه نهايتها كما قال: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠]. والنفس اللوامة نهايتها كما قال تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ

﴿عَلَيْهِمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢]. أما الثالثة فيجب الحذر واللجوء إلى خالقها. أن يقي منها ويعين على تزكيتها.

٤ ـ من آيات الهداية في سورة (الشمس):

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾. اتفق العلماء على أن هذا هو جواب القسم، أو المقسم عليه، وبتأمله نجده قد اشتمل على مضمون الشرائع كلها، وتضمن مهمة الرسل جميعهم في أممهم، لأن الله تعالى ما أرسل رسولاً، ولا أنزل كتاباً، ولا وضع شريعة، إلا لتزكية النفس، والسمو بها إلى مصاف الأبرار، ومسايرة المصطفين من عباد الله الأخيار، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله.

وهذا الشمول في جواب القسم، يتعادل ويتوازى مع تلك التي أقسم الله بها، والتي جمعت كل الآيات الكونية، وأصل المخلوقات السماوية والأرضية، بل معها خالقها وبانيها.

فأقسم بالشمس وبضحاها وما يلزم ذلك من بث الحياة في الأحياء، مما للشمس فيه تأثيرها البالغ سواء من إنبات النبات والأشجار، أو إتباع الثمار، أو غير ذلك.

وبالقمر إذا تلاها: وما يتبع ذلك من الكواكب في مسيرها، والنوم في مواقعها، والأفلاك في مدارجها، مما لا يعلم كنه ذلك كله إلا الله.

وبالنهار إذا جلاها، وكشفها، وأضاء ما طلعت عليه الشمس من وجه البسيطة، فلا تقوى قوى العالم ـ وإن تضافرت وتضاعفت ملايين المرات ـ أن تجلي إقليماً واحداً، كما يجليه النهار.

وبالليل إذا يغشاها: وهو كذلك لا تقوى قوى العالم كله أن تكشف غشاء الليل عن وجه الأرض.

وبالسماء وما بناها: سواء مادة بنائها، أو قدرة الصانع في سمكها.

وبالأرض وما طحاها: والأرض مختلفة التربة، متباينة التضاريس، وما فيها مما أودعه الله فيها، وطحاها عليه مما أعجز العقول أن تدرك حتى كنه أو كيفية شيء من ذلك.

ثم يقسم سبحانه بالأمر الذي لم يزل غيباً عن إدراكنا وتصوراتنا، وسيزال كذلك إلى ما شاء الله، وهو النفس البشرية، تلك التي هي قسيم الهيكل المادي، الذي هو بمثابة البيت الذي يحتويها وبه حياته، وسواء كانت هي الروح، أم شيء آخر، فهي لا شك من أمر ربي، وقد سواها، فألهمها فجورها وتقواها.

ولو قال قائل: إن النفس هنا نكرة عامة، قد تشمل كل ذي نفس سائلة، من حيوان وطير وحيتان، فإن لديها من الإلهام ما تكيف به معيشتها في الحصول على طعامها وشرابها، وفي منهج تزاوجها وتكاثرها، وحنوها على صغارها، وحمايتها لنفسها وما إلى ذلك كله، فإنه لا شك من عند الله، وقد أشرنا إلى هذا المعنى في هذا الكتاب المبارك عند قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ [الأعلى: ٣]. وقوله: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. وهدايته سبحانه لمخلوقاته، لا يخرج عن إلهامها إياها، وعلى فقد توازن المقسم عليه مع ما أقسم الله به في هذه السورة الكريمة.

ومن هذا التوازن وهذه المعادلة، يتبين لنا مدى أهمية جواب القسم هذا: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾. ونواجه هنا سؤالاً في غاية الأهمية، وهو صلب الموضوع، وتتعين الإجابة عليه، والسؤال هو: كيف السبيل إلى تزكية النفس؟ ولعلنا نستطيع إيراد الإجابة من كتاب الله تعالى على ضوء ورود التزكية في مواطنها المتعددة، العامة والخاصة، وهي على النحو الآتي.

فمن العامة: ما جاء في دعوات الرسل عموماً، كما قال موسى رضي الله عنه لفرعون: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]. وما جاء في دعوة الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٩ ـ ١٣٠]. إنها الحكمة الربانية، أن يعقب آية التزكية بآية سفه النفس، لأنهما ضدان. تقول: فلان مزكى، أي عدل مقبول الشهادة. وفلان سفيه، أي غير مقبول الشهادة. والآية الأخرى: ﴿وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا

﴿وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ [البقرة: ١٥٠ ـ ١٥٢]. والتعقيب على آية التزكية بالأمر بذكر الله وشكره، مشعر بأن تزكية النفس تكون بذكر الله وبشكره، والتزكية في مثل هذه الآيات لا شك أنها باتباع الكتاب والحكمة، وكل ما في شرع الله، وما جاء به النبي ﷺ في كل قضية كُلِّيَّة أو تعليمات جزئية، على ما سيأتي مفصلاً:

أولاً: في العفة والفضيلة: قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠]. ومعلوم أن غض البصر هو أولى خطوات التعفف، والكلام في النظرة وآثارها كثير، فطريق التزكية من الرذيلة والتطهر من الفاحشة، إنما بدايته غض البصر، يليه حفظ الفرج، وبالتالي سلامة المجتمع، وقوة بنائه، وشدة ترابطه. وكذلك في أفراد الأسرة، وحسن القوامة على النساء كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾ [البقرة: ٢٣٢]. فعدم منع النساء من الزواج، والقيام بمساعدتهن، موجب لتزكية الجميع: الولي في حسن قوامته على من ولاه الله أمرهن، والمرأة في صيانتها وحفظها بزواجها، وبالتالي المجتمع كله بنشر الفضيلة ومنع الرذيلة. ومن ذلك: آداب الزيارات، ودخول بيوت الغير بعد الاستئذان والاستيناس، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ . . .﴾ [النور: ٢٧ ـ ٢٨].

فالرجوع ـ وبنفسٍ طيبة، والتماس العذر لصاحب البيت ـ أزكى من اقتحام البيوت على أهلها، تعظيماً لحرمات بيوت الناس، وما فيها من محارم وعورات، وأزكى من إحراج أصحابها في أن يأذنوا مكرهين، أو على حالة لا يرضونها، ولا يكون ذلك أي قول: (ارجعوا)، والرجوع بالفعل ـ إلا عند سلامة الصدور، وعدم التكلف. ولذا جاء بعدها بآية واحدة الأمر بغض البصر من المؤمنين ومن المؤمنات، وبحفظ الفرج، لأنها كلها سلسلة آداب وتعاليم،

﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾. وعلى هذا كله فيكون الفلاح في تزكية النفس أولاً وقبل كل شيء: بالإسلام وتعاليمه، وبالإيمان ومعتقداته، وهذا هو مجمل دعوة الرسل للأمم، ومهمة الرسالات في نفوس البشر، ثم بحمل النفس على وسائل العفة والطهارة، ابتداءً من احترام حرمات بيوت الغير من أن يسبق إليها النظر قبل الإذن بالدخول، كما في الحديث: «**إنما جعل الاستئذان من أجل النظر**». ثم في الطرقات وغيرها بغض البصر، وبالتالي حفظ الفرج، وأما ما يساعد على ذلك، فكما تقدم ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾. وأخيراً اللجوء إلى الله تعالى، ودوام الضراعة إليه، ليزكينا من فضله، كما قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١]. وقد كان ﷺ عند هذه الآية يقول: «**اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها**».

٥ ـ آيات الهداية من سورة (الشمس):

بعد إيراد جواب القسم في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾: وتقدم الكلام على عوامل تزكية النفس المقصود من اهتداء الإنسان واستقامته.

جاء عرض مجمل لقصة ثمود مع نبي الله صالح، وتكذيبهم بما جاءهم به، رغم ما عاينوا من الآية العظيمة. والتي طلبوها في موقف التحدي والتعنت، وهي الناقة. فأجمل الله تعالى القصة في قوله: ﴿كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥]. وقد وردت هذه القصة في عشر سور قبل هذه السورة، ولما كانت هذه السور هي خاتمة مطاف إيرادها مجملاً لجميع ما ورد فيها.

وبتأمل هذا السياق نجد خمس قضايا، تكاد كل قضية تقترن بسببها أو موجبها، وهي:

الأولى: تكذيب ثمود نبيهم صالحاً، وسبب تكذيبهم الطغيان.

الثانية: انبعاث واحد منهم لعقر الناقة، وسبب انبعاثه شقاؤه.

الثالثة: تحذير نبيهم تعرضهم للناقة ولسقياها، وسببه أنها ناقة الله، تشرب من ماء الله، وترعى في أرض الله.

الرابعة: فكذبوه فعقروها، أي عقر الناقة بسبب تكذيبهم تحذير نبيهم.

الخامسة: قضية إهلاكهم: فدمدم عليهم ربهم، وبسبب ذنبهم وجعلها عامة عليهم، فسواها بينهم، وموجب هذا أنه سبحانه لا يخاف عقباها، فلا يداري أحداً.

أما تفصيل تلك القصة فبحسب ورودها في السور العشر كالآتي:

أولاً في سورة الأعراف: جاءت قصة ثمود في السياق متوسطة خمس قصص، فقبلها قصتا نوح وعاد، وتشتركان في الغرض والمنهج والنهاية. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٩ ـ ٦٤]. فالغرض: عبادة الله وحده. والمنهج: تصدي الملأ من قومه فكذبوه. والنتيجة: إغراق المكذبين.

وعن عادٍ إثرها مباشرةً، ومثلهم تماماً، قال تعالى: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٦٥ ـ ٧٢] فتطابقت مع ما قبلها، الغرض: يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره. والمنهج: تصدي الملأ من قومه بتكذيبه. والنتيجة: نجاته ومن معه وقطع دابر المكذبين.

ومن ثم جاءت قصة ثمود: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

﴿٧٣﴾ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٣ ـ ٧٨]. فالغرض: عبادة الله وحده. والمنهج: تصدي الملأ من قومه بالتكذيب، وتجاوز الحد عتواً عن أمر ربهم بعقر الناقة. والنتيجة: أخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين. تطابق تام في موضوع القصة وسياقه مع ما قبلها.

وجاء بعدها قصة لوط: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأعراف: ٨٠ ـ ٨٤]. فالموضوع: نهيهم عن الفاحشة التي لم يسبقوا إليها. والمنهج: التآمر على إخراجه من قريتهم. والنتيجة: إهلاكهم بما أمطر عليهم ـ مبيناً في موضع آخر ـ حجارة من سجيل.

وبعدها قصة مدين مع شعيب: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ﴾ إلى قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: ٨٥ ـ ٩١] فالموضوع: عبادة الله تعالى وحده. والمنهج: تصدي الملأ من قومه لتكذيبه، والتآمر على إخراجه ومن آمن معه من قريتهم طبق ما جاء في قصة لوط. والنتيجة: إهلاكهم بالرجفة.

ها هو السياق في سورة الأعراف لخمس أمم تتوسطهم ثمود مع صالح.

وفي سورة القمر: نفس السياق، وبنفس الترتيب مع زيادة إيضاح وتفصيل، قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ يعني مشركي الجاهلية ﴿قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾

وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ٩ ـ ١٤]. إنها القدرة التي لا تقاوم، والموعظة التي لا تكابر.

بـعـدهـا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر: ١٨ ـ ٢٠].

بـعـدهـا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر: ٢٣ ـ ٣١].

بـعـدهـا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾﴾ [القمر: ٣٣ ـ ٣٤].

تلك القصص التي تشترك في الموضوع والمنهج والنتيجة، تأتي تباعاً في سورتي الأعراف والقمر، وإن قصتي عاد وثمود، لا شك أقوى ارتباطاً، وأقرب مشابهة جملة وتفصيلاً، وقد قرنتا معاً في أكثر من موضع، ففي سورة النجم: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [النجم: ٥٠ ـ ٥١]. وفي الحاقة: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ [الحاقة: ٤ ـ ٧].

وهنا يأتي التطلع بعد استعراض موارد قصة ثمود في كتاب الله، واشتراكها مع ما قبلها وما بعدها من قصص الأمم مع أنبيائهم، ثم هي تختص دون تلك القصص بإيرادها في خاتمة سورة الشمس وضحاها، ومما يمكن القول له: أن قوم صالح وثمود خصوا بأمرين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٧ ـ ١٨]. وهذا التقسيم في الجزاء: عذاب لمن استحب العمى على الهُدَى، ونجاة المؤمنين منهم المتقين. وهذا يتطابق ويتفق تماماً مع جواب

القسم في سورة (الشمس وضحاها): ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾.

أما الأمر الثاني: فهو في عين الآية التي جاءتهم بالنسبة للأمم الأخرى، على ما سيأتي تفصيله إن شاء الله في خبر الناقة.

٦ ـ من آيات الهداية في سورة (الشمس):

خبر الناقة وموضع الآية فيها:

تتلخص قصة ثمود مع صالح عليه السلام فيما يختص بالناقة مما ساقه المفسرون: أن نبي الله صالحاً لما دعا قومه لعبادة الله تعالى وحده مدة طويلة، ولم يستجب له إلا المستضعفون من قومه، فقال الملأ منهم في يوم عيد لهم ـ وكانوا يخرجون معهم أصنامهم في مهرجان العيد ـ فقالوا لنبي الله صالح: ندعو آلهتنا وتدعو إلٰهك، فإن استجابت لنا آلهتنا اتبعتنا، وإن استجاب لك إلٰهك اتبعناك. فأخذ عليهم العهود والمواثيق على ذلك، فقاموا يدعون آلهتهم أن لا يستجيب إلٰه صالح إليه، ثم طلبوا من صالح أن يسأل ربه أن يخرج لهم ناقة عشراء وبراء من صخرة كانت منفردة يسمونها (الكاثبة)، فقام صالح عليه السلام إلى صلاته، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وبراء يتحرك جنينها في جوفها، كما سألوا، فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره. وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد. . . إلخ.

وأقامت الناقة وفصيلها بعدما وضعته بين أظهرهم مدة، وكانت تشرب من بئرها يوماً، وتدعه لهم يوماً. وكانوا يشربون لبنها يوم شربها، يحتلبونها فيملؤون ما شاؤوا من أوعيتهم وأوانيهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القمر: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾﴾ [الشعراء: ١٥٥]. وكانت على ما قالوا خلقاً هائلاً، ومنظراً رائعاً.

وتمام القصة على ما جاءت النصوص: أنهم عقروها فأهلكهم الله. ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾. وهنا يقف

بعض المفسرين من القدامى ويتابعه بعض المعاصرين موقف تحفظ من أمر الناقة ويقول: إن الناقة كانت لهم آية كما جاء صريحاً في قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣]. ويجعل مناط الآية ما لم يمسوها بسوء فهم آمنون. ويقول: كل ما عدا ذلك ليس فيه نص صريح. والذي يظهر من مجموع النصوص أن الآية فيها متعددة:

أولاً: في ذاتها وفي مجيئها، وأنها جاءت بطريقة خارقة للعادة.

ثانياً: في سقياها، وهذا أيضاً صريح في الدلالة كما في سورة والشمس وضحاها من قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾﴾ فعطف السقيا على الناقة، والعطف يقتضي المغايرة، وعليه فالناقة في ذاتها آية، وسقياها آية، ولا تكون الناقة آية إلا إذا كانت فعلاً مغايرة لما هو معهود عندهم.

وقد صرح تعالى فيما جاء في سورة الإسراء بقوله: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩]. وقال القرطبي وابن كثير في (مبصرة): يعني (نيّرة، واضحة الدلالة على قدرة الله، ووجوب عبادته وحده سبحانه). وهذا يؤيد ما اتفق عليه جمهور المفسرين.

وعلى هذا يكون مناط الآية فيها: هو هذا الذي كان مجيئها، وفي معرض تحديهم، ولا مانع عقلاً ولا شرعاً على ذلك، لأنه ـ سبحانه ـ إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون. وهذه الناقة مثال عملي أبصرته عيونهم، دال على كمال القدرة الإلهية: فصخرة صماء جماد، لا نماء لها كالشجرة، ولا حيوية فيها كالحيوانات، فيتعنتون في طلبهم إخراج ناقة منها، وعلى مرأى منهم ومسمع تتحرك الناقة وتتمخض، وتنصدع الصخرة عن تلك الناقة، عظيمة الخلقة، هائلة مكتملة وبراء، يتحرك جنينها في بطنها، ثم تنتج هذا الحمل فصيلاً يتبعها، ثم تأتي آية سقياها.

ولهذه الناقة في وجودها نظائر:

أولاً: آدم عليه السلام من عنصر تلك الصخرة وهو التراب، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: ٢٠].

ثانياً: عصا موسى عليه السلام؛ عود من شجرة يبس، يحملها في يده يتوكأ عليها،

ويهش بها على غنمه كبقية العصي في أيدي الناس؛ وفي لحظة يقول الله تعالى له: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ ثم وفي لحظة قال له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٩ ـ ٢١].

وقريب من ذلك أو نظيره: طيور عيسى عليه السلام: كما قال تعالى عنه: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ . . .﴾ [آل عمران: ٤٩].

وهنا دعوة إسلامية لجميع فلاسفة العالم، وعلماء ما يسمى بعلم الأحياء، والباحثين عن أصل وجود الحياة على الأرض، ومتى وكيف؟ ويقدرون من ملايين السنين تواجد غازات وأحماض وغير ذلك، تفاعلت ووجد عن طريقها الحياة، نقول لهم وللعالم كله، ولمنكري الربوبية، ومنكري وجود الإلٰه القادر الفعال لما يريد: تلك صخرة صماء، ليست تحتوي على سوائل، ولا على أحماض، ولا على غازات تخرج من جوفها، وفي لحظات ـ وليست ملايين ولا آلاف ولا عشرات السنين، في لحظة التحدي، وإثر لحظة الدعاء ـ تخرج تلك الناقة آية مبصرة، وليس في جوف الصخرة أسباب التلقيح، فليس فيها ناقة ولا جمل، وكان مجيء الناقة آية، ولكنها تأتي وفي جوفها جنينها يتحرك؛ إنها القدرة التي ليست لها حدود.

وتلك العصا في يد موسى عليه السلام، عود يابس، كم له مدة في يده، وكم مدة قطع من الشجرة؛ في أقل من طرفة عين ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ﴾ فترة هويها من يده إلى الأرض، وما تصل إلى الأرض إلا وهي حية تسعى، كونها تصير حية ولو مدة يكون آية كونها تسعى كاملة الحيوية، وسعي قوي شديد الحركة، كأنها جان، يخاف منها موسى يولي مدبراً. وفي لحظة أيضاً يقول الله تعالى له: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾ وحالاً، لحظة تناوله إياها عادت الحية عصا يتوكأ عليها، ويهش بها على غنمه، ثم لم تزل تلك العصا بيد موسى تأتي عنها المعجزات في المواقف الحرجة: يضرب بها البحر متلاطم الأمواج، فإذا به ينفلق ويجمد الماء، ويجد موسى وقومه طريقاً في البحر يبساً، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾. إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً﴾ [الشعراء: ٦٣ ـ ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]. وفي وجودهم مدة التيه، وطلبهم السقيا، قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠].

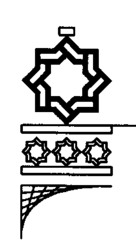
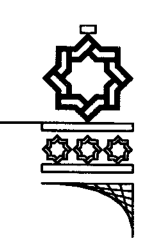
فهناك في البحر: يتوقف الماء عن المسير، وتصبح فيه طريقاً يبساً.

وهنا في الحجر الأصم: تنفجر منه اثنتا عشرة عيناً تفيض ماء، قد علم كل أناس مشربهم.

إنها القدرة الإلٰهية وكفى، لو تأملها كل عاقلٍ مريداً الحقيقة لبادر بالإيمان، وحصل له اليقين كما حصل لمن آمن بنبي الله صالح، وقالوا للملأ الذين استكبروا: إنما بما أرسل به مؤمنون.

ونحن وإن لم نشاهد بأبصارنا تلك الآيات، فقد أدركناها ببصائرنا، وأيقناها بقلوبنا، وهدانا الله لما فيها من آيات وهداية، سجلها لنا كتاب الله أعظم آية، وأقوى معجزة، ذهبت كل معجزة مع من جاء بها، وبقيت معجزة نبينا محمد ﷺ دلالة وهداية للعالمين.

* * *

آيات الهداية من سورة الليل

١ ـ نص الهداية في هذه السورة الكريمة هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ ولكن السورة كلها مرتبطة ارتباطاً متكاملاً في موضوعها، من قسم وجوابه، والنتيجة في الآخرة، كما يلاحظ التشابه الكبير بينها وبين السورة التي قبلها: في صيغ القسم، وتعدده، والمقسم عليه وتقسيمه، والنتيجة المترتبة عليه.

فاستهلت بالقسم بالليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾. والسورة قبلها استهلت بالقسم: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾﴾. وفي هذه السورة أقسم بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾﴾. وفي التي قبلها أقسم بالنفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها. والنفس قسيمة الجسم في تكوين الإنسان. والإلهام هو الجانب الخفي في سلوك الإنسان.

وفي هذه السورة القَسَمُ بالقسيم الثاني في تكوين الإنسان، وهو القسم المادي، حيث إن الإنسان من جسم وروح، فأقسم هنا بما خلق الذكر والأنثى، والذكورة والأنوثة أمران ماديان من خصائص الجسم، لا من خصائص الروح، ففي السورة قبلها أقسم تعالى بالنفس وخصائصها من فجور وتقوى، وهنا أقسم بخلق الجسم وخصائصه من ذكورة وأنوثة، ثم جاء المقسم عليه متطابقاً لما في السورتين: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾ أي مختلف متباعد، وذاك يسعى إلى ضده، وهذا السعي بقسميه هو المنهج العملي الظاهر المشاهد الناتج عن الجانب الخفي من إلهام النفس فجورها وتقواها.

وإلى هنا تكون السورتان معاً مكتملتين بعضهما ببعض، كما قال ﷻ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]. يشبه بعضه بعضاً في سياقه، في أسلوبه، في معانيه، لا يخالف بعضه بعضاً، ولا في شيء من

ذلك. وكما قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

ثم إن السورة الكريمة مضت في بيان مسيرة هذا السعي الشتيت، ونتائجه العملية، من حيث المعتقد تصديقاً وتكذيباً وعطاءً وبخلاً، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾. ويقابله ـ وعلى طرفي نقيض معه ـ ما جاء في قوله عنه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ أي المال الذي بخل به. ثم وبعد هذا الإجمال البياني، والإيضاح القرآني، وكشف الحقيقة عن المسكين: تصديقاً وتكذيباً، وعطاء وبخلاً، وتيسيراً وتعسيراً، أعذر الخلق وأنذرهم: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾ إن علينا البيان والإيضاح، والإرشاد والدلالة والهداية، وقد بينا وأوضحنا، وكل يسعى حيث أراد، وكل ميسر لما خلق له ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾. والملك كله لله، فهو رب العالمين، ومالك يوم الدين، فالدنيا والآخرة كلاهما لله، وأمرهما إلى الله، ولا شك أن الآخرة إما جنة أو نار، فيأتي التحذير من النار شفقة عليهم، ورحمة بهم، فيقول تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾﴾ وهو المتقدم ذكره: ﴿مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾.

أما القسم الثاني، فسيكون بعيداً عنها: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾. وهو القسم المتقدم: ﴿مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾.

ثم تأتي خاتمة السورة بحديث عن نموذج فرد للذي أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، وكان المثل المثالي، والفرد الأمثل في الأمة كلها، كما وصفه الله تعالى ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

هذا هو الغرض الإجمالي لهذه السورة الكريمة في مقدمتها بالقسم المتعدد، وفي المقسم عليه من السعي المختلف، والمسلك العملي والاعتقادي: عطاء وإمساك، تصديق وتكذيب، إعذار وإنذار، عرض النموذج الأعلى والأمثل للفرد الذي اعتلى قمة المثالية في تلك الجوانب التشريعية، دون أن يكون في عمله وسلوكه هذا فضل لأحد عليه، وإنما وجهته وغايته في هذا كله ابتغاء وجه ربه الأعلى، وعليه يأتيه الوعد الكريم من رب العرش العظيم: ﴿وَلَسَوْفَ

﴿يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾. إنها الغاية أيضاً، والقمة في العطاء، والنهاية في الجزاء، وبهذا تكون هذه السورة الكريمة تكلمت بصفة إجمالية عن منهج الهداية نظرياً، ومسلك الهدى عملياً، في الشخصية الأولى في هذه الأمة بعد نبيها محمد ﷺ، الذي هو أبو بكر الصديق، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح عليها أبو بكر**». وسيأتي تفصيل ذلك كله إن شاء الله.

وقبل ذلك التفصيل لهذه السورة، فإنا نلفت النظر إلى ناحية أخرى تتصل بترابط السور الثلاث المتتالية: سورة ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾﴾، تليها سورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾، وقد بينا ترابط هاتين السورتين، وبالنظر إلى السورة الثالثة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ مع هذه السورة ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾﴾ نجد الترابط القوي كذلك، حيث افتتحت سورة الضحى بالقسم بآيتين كونيتين: والضحى: وهو ارتفاع الشمس في أول النهار، وبالليل إذا سجى، وهما عين المقسم بهما في السورتين السابقتين، ثم يأتي المقسم عليه في سورة الضحى بما يتعلق بالنبي ﷺ في لطف وشفافية وهدوء: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. ويبشره بما تقر به العين، ويطمئن إليه القلب، وتطيب له النفس، ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ ويأتي العطاء الذي لا حدود له ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾. عطاء الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة، عطاء الشفاعة العظمى والمقام المحمود، الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، عطاء الشفاعة في الأمة، حتى لا يبقى في النار من أمته ﷺ من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان.

ويلاحظ هنا أنه وإن جاء القسم في سورة الضحى بالليل والنهار، كما جاء في السورتين قبلها، إلا أنه هنا جاء القسم بهما في ألطف صورهما، فالقسم بالنهار لم يأت بالنهار إذا جلاها، ولكن جاء في ألطف أوقاته وأهدئها: بالضحى، ولا شك أن الضحى أحسن أوقات النهار اعتدالاً. ثم القسم بالليل لم يأت به إذا يغشى، بل جاء به إذا سجى، ولا شك أن (سجى) ألطف وأرق من (يغشى) وهذا ما يتناسب مع الموقف النبوي الكريم، وأسلوب الهداية في القرآن العظيم، وسنلم بتفصيل الهداية في السورة الكريمة وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾.

٢ ـ تفصيل القول عن الهداية في سورة (الليل):

قال تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٣﴾: يقسم المولى سبحانه بهذين القسمين المزدوجين، والمقابلين بالليل وبالنهار، وبخلق الذكر والأنثى، والأول بظرف حياة الإنسان في حركته وسكونه، فالليل لباسه، والنهار معاشه، والذكورة والأنوثة أقسامه. وفيه تجانس بين هذين القسمين: فالليل والنهار بالنسبة للزمان كالذكر والأنثى لجنس الإنسان، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ الَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ [يس: ٣٧]. وقد مضت السورة الكريمة في هذا الأسلوب المزدوج إلى نهايتها. وفي نوعي السعي، وأنه شتى، وفي من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، ومن كذب وتولى مع بخله واستغنائه، وبين التيسير لليسرى ومقابلها للعسرى، وفي الآخرة والأولى، وبين من يصلى ناراً تلظى، ومن ينعم بالفردوس الأعلى.

وقد ذكر الفخر الرازي عن القفال رَحِمَهُ اللَّهُ أنها نزلت في الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيما أنفقه في سبيل الله، وما أعد الله تعالى من إبعاده عن النار، وعطائه ما يرضيه من رضوان الله تعالى. وفي نقيضه: أمية بن خلف، من بخله وإمساكه، وتكذيبه وكفره. ولكنه أشار أنها شاملة للصنفين جميعاً، عامة في كل أفراد الأمة، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤﴾. ولقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝١٤﴾ وعلى حد قولهم: (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب). إلا أنه كما يقال أيضاً: صورة **السبب قطيعة الدخول**. فيكون التنويه بصفات وأعمال أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من المبادرة بالتصديق، والمبالغة في الإنفاق في سبيل الله، وابتغاء وجه ربه الأعلى، مثالاً للمؤمن الكامل، والمثال الأكمل عملياً لمن أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، ويكون أمية بن خلف أو على ما قال ابن كثير: إنه أبو جهل بدلاً من أمية، فكلاهما سواء نموذج عملي لمن بخل واستغنى، وكذب بالحسنى. ويكون أفراد الأمة كلها تبعاً لهما، كل في الطريق الذي سلكه سلفه، وكل بقدر ما وصل إليه من خير أو شرع، وكل ميسر لما خلق لهن.

وبتأمل مستهل السورة الكريمة في موضوع القسمين الليل والنهار، تجد هذا

القسم تقدم الكلام عليه عند إيراد السورة التي قبلها ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ والقسم الثاني: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ هما عنصر التزايد والتكاثر، وهذا التزاوج هو ثالث آيات القدرة المنوه عنه في سورة الذاريات، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩﴾ [الذاريات: ٤٧ ـ ٤٩]. قال ابن كثير: أي جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، بر وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنباتات. وكلامه هذا رحمه الله على التسامح فيه يفيد أن كل كائن له مقابل، ولا يوجد واحد فرد إلا الله سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤]. وكل ما عداه سبحانه له مقابل، حتى المستحدث من الموجودات، كالتيار الكهربائي من سالب وموجب، وحتى الذرة في نواتها ومحيطها، حتى قطرة الماء من عنصري الأكسجين والهيدروجين. وهذا كله من الآيات الكونية، وقد نعلمها أو لا نعلمها.

والذي يهمنا في ذلك هو جنس الحيوان والنبات، فكل الحيوانات الثديية تتزاوج بين ذكر وأنثى، وكل النباتات تتلاقح ذكورة وأنوثة، والسر الخفي في هذا العمل هو التذكير والتأنيث، أما في الإنسان فظاهر الازدواج فيه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣]. وقال تعالى في حق النباتات والأشجار: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]. وهو في النخل مشاهد ملموس، وجنس النخيل فيه من خصائص الإنسان لشيء الكثير، منها: تميز ذكوره من إناثه، ومنها: نقل اللقاح من الذكور إلى الإناث، ومنها: قطع رأسه يميته، حتى قيل: إنه يحزن ويفرح لصاحبه. أما بقية النباتات والأشجار فإن الله تعالى يجعل في بعض أزهار الشجرة الواحدة أزهار ملقحة، فتحمل الرياح لقاحها إلى الأزهار المثمرة، فتلقحها بإذن الله، وكذا بعض الفراشات والنحل حين تتنقل من زهرة إلى زهرة، فيعلق بأرجلها أو أجنحتها من لقاح الذكورة إلى زهرات الأنوثة، وعظمة السر الذي أعجز العالم وحير العلماء كون الزوجين ينجبان تارة ذكراً، وتارة أنثى. والمسلم إذا رجع إلى كتاب ربه

وجد ذلك اختيار الحكيم العليم، وهبة العزيز الكريم، يفعل ما يختار وما يشاء. وانظر قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩ ـ ٥٠]. تأمل المقدمة لهذه القضية: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الملك المطلق للعالم كله، سمائه وأرضه. وهو ملك تصرف، لا ملك امتلاك فحسب، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾. ومن تلك المشيئة والإرادة المتصرفة ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لا لكل من تزوج ورغب الإنجاب، بل هذا راجع لمشيئته هو سبحانه ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾. ويغاير في الهيئة حسب مشيئته هو سبحانه ﴿وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ أو يغاير أيضاً في الهيئة ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ﴾ وأيضاً يغاير في صنف آخر ﴿وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾. إنها مشيئته الفعال لما يريد، ولم تقو ولا تقدر قوة حتى الآن أن تغاير في هذا العطاء.

وبقي التطلع لمبدأ هذا التنويع، حيث إن المولود يأتي من بين الزوجين، ومن نطفة أمشاج، مختلطة ماء الرجل بماء المرأة، فجاء قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٦]. أي إن المني من الرجل هو مبدأ كل من الذكورة والأنوثة. ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٣٩]. فجعل منه، أي من مني يمنى، وهو ماء الرجل، وهذا أظهر وأبرز آيات القدرة الإلٰهية، حيث رتب عليها إمكانية البعث، وإحياء الموتى: ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: ٤٠]. بلى إنه على كل شيء قدير.

أما التفسير العلمي لذلك: فقد اكتشفوا أن ماء الرجل يحتوي على قسمين من الحيوانات المنوية: قسم كما يقال: فردي، وقسم زوجي، وماء المرأة لا يحتوي إلا على قسم واحد وهو الزوجي، فإذا انقسمت بويضة المرأة، كان كل قسم منها زوجياً، فإن جاءه ماء الرجل من القسم الزوجي تلاقح مجموعها معاً بالزوجية، وكان المولود أنثى، وإذا جاءه من ماء الرجل من القسم الفردي، كان المجموع فردياً، وكان المولود ذكراً بإذن الله. وهذا مصداقه

قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]. ولهذا تمدح سبحانه وأقسم بخلق الذكر والأنثى.

وإلى هنا ثم القسم بالليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، وما خلق الذكر والأنثى. وبقدر عظمة القَسم تكون عظمة المقسم عليه، على ما سيأتي إن شاء الله.

٣ ـ مع آيات الهداية من سورة (الليل):

جاء القسم العظيم بالليل إذا يغشى، وبالنهار إذا تجلى، وبما خلق الذكر والأنثى. تلك العظمة الإلٰهية التي أخضعت قوى العالم، وحيرت عقول العلماء، إذ القسم بالليل إذا يغشى، قسم به وبما يغشاه ويغطيه من أجزاء العالم كله، سهوله وجباله، بره وبحره، طيره وهوامه. أي الليل وما وسق وجمع.

والقسم بالنهار إذا تجلى، قسم به وبما جلاه من حركة فلكية منتظمة دائبة، منذ خلق الله الشمس، وخلق الأرض والسماء، وما جلاه النهار، وكشف عنه، من كل ما دب على الأرض: من ذرة، وبعوضة فما فوقها، وما نعلمه أو لا نعلمه.

والقسم بما خلق الذكر والأنثى، لا شكَّ يشمل ويستتبع مع الخلق خصائص كل خلق، خصائص الذكورة بكل ما يتميز به الرجل، وخصائص الأنوثة بكل ما تختص به المرأة من حمل، وولادة، ورضاع، وغير ذلك. وأهم الخصائص هنا هو اختصاص الجنس في الجهاز الجنسي، ويقول علماء التشريح: إن الجنين يمضي في نموه من أول لحظة «علوقه»، إلى أن يكمل أربعة أشهر، أي الثلاث الأربعينات الواردة في الحديث: أربعين يوماً نطفة، وأربعين يوماً علقة، وأربعين يوماً مضغة، ثم ينفخ فيه الروح. وثلاثة الأربعينات هذه هي الأربعة الأشهر، وبعدها يبدأ تكوين الجهاز الجنسي، وهو يشبه أن يكون متقارباً عند الذكر وعند الأنثى، إلا أنه في الذكر يبرز إلى خارج الجسم، وفي الأنثى يدخل إلى الداخل، فيصبح للأنثى المبيضان والرحم، مقابل ما للذكر تماماً. ثم إن جهاز الرجل يفرز المني، وجهاز المرأة يفرز البويضات، ومنهما

يكون الولد بإذن الله. وإيراد هذا القسم لا شك أنه نوع من الهداية إلى الله، ودليل على قدرة الله تعالى، إذ يقيم الله تعالى للإنسان حجة عليه من نفسه، وقد ألزمه تلك الحجة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٥٩]. بل إن هذا الإمناء المذكور لم يكن من صنعهم، بل إن الرجل وكل ذكر من الحيوانات الثديية لا توجد في جسمه قطرة مني واحدة، وإنما تتواجد عند الانفعال الجنسي، فيمر الدم بالأنثيين بل بإحداهما، وفي أثناء مروره يتحول الدم إلى مني. وثانية الأنثيين لشعر اللحية. ولذا فإن الرجل إذا خصي فإنه لا ينجب، ولا تكون له لحية.

وكل تلك الخصائص وما يتبعها، لا شك علامات واضحة، ودلالات بينة، على بديع صنع الله تعالى، قد لفت الأنظار إليها في غير ما آية من كتاب الله، كقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١]. وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: ٥٣]. وعليه فمن لم يقرأ آيات الكتاب ويتبصر معانيها، ويهتدي بمدلولها، فإنه يتأمل آيات الكون، ويبصر قدرة الله فيها، بهذا يتضح لنا مدى عظمة هذا القَسم، ومنهج القرآن في أنواع ما يقسم الله به، لبلوغه الغاية في الدلالة على القدرة الإلهية.

ولا شك أنه بقدر ما يكون القسم عظيماً، يكون المقسم عليه كذلك، وهو هنا باتفاق المفسرين قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾. وكم هو متطابق مع المقسم به في ازدواجيته: ليل ونهار، ذكر وأنثى. وسعي شتى: سعي إلى الخير، وسعي إلى الشر، وهو حاصل لكل من الذكور والإناث، فبقدر البعد ما بين الليل والنهار، ومغايرة كل من الذكر للأنثى المقسم بهما، بقدر البعد بين السعيين للخير وللشر، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١]. وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ [السجدة: ١٨]. وقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ﴾ [المائدة: ١٠٠]. وهكذا يكون الحال في الآخرة، لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون.

ومن إيضاح الدلالة، وبيان الهداية، يأتي التفصيل لمجمل الفريقين

المتغايرين، بداية بالأعمال، ونهاية بالمآل، فيقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾. وهذا الفريق هو من أكرمه الله وهداه، ثبت له ثلاثة أمور:

العطاء: في سبيل الله، ولم يقيد هذا العطاء لا بنوع ما يعطي، ولا بمقدار ما أعطاه، ليعم ويشمل، أعطى المال، وأعطى الجاه، وساعد غيره بكل وجوه العطاء، حتى بشاشة الوجه والكلمة الطيبة، أعطى ما عليه من الواجبات، أعطى ما لم يجب عليه من فعل الخيرات.

واتَّقى: والتُّقى جماع كل خير، واجتناب كل نهي، والابتعاد عن كل محرم بل ومكروه وما فيه شبهة، اتخذ بينه وبين ما لا يرضاه الله وقاية، فلا يجانس المعاصي، ولا يداني المحرمات، يصدق عليه: «**من ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه**».

والأمر الثالث: وهو أساسها، وكان مع ذلك وقبله مصدقاً بالحسنى، كما تقدم نظير ذلك في سورة البلد في اقتحام العقبة: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ ۝١٧﴾. والتصديق بالحسنى قيل: بلا إلٰه إلا الله. وقيل: بالجنة والجزاء. يعني بالبعث وما فيه. وهما متلازمان، فمن صدق بلا إلٰه إلا الله، صدق بالبعث وبالجزاء، ومن صدق بالجنة، صدق بلا إلٰه إلا الله، وكلا المعنيين تشهد له نصوص من كتاب الله، فعن معنى لا إلٰه إلا الله قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١﴾ [الأنبياء: ١٠١]. وعن الجنة قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ١٦].

وبهذا العموم، يكون الوصف ـ بهذه الصفات الثلاث ـ قد عم كل أوجه الفضل، وسما بصاحبه أعلى قمة الهداية والسعادة، حيث أنفق بدون حد، وفي كل وجه، سراً وعلانية. وبلغ في العفة والتقى ذروة الكمال، وصدق بكل يقينه وشعوره. ومعلوم أن هذا أحق من يكون به هو الصديق رضي الله عنه، وقد جاء في الحديث ما يشهد له في الأمرين الإيمان والتصديق، والإنفاق والتقوى:

الأول: «**لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح عليها إيمان أبي**

بكر» رضي الله عنه. وقد ظهر مصداق ذلك في تسيير جيش أسامة حيث قال: والله لا أحل لواء عقده رسول الله ﷺ، ولأقاتلهم ولو كنت وحدي، وكانت الأمة كلها في جانب آخر، حتى عمر بن الخطاب، ثم شرح الله صدور المسلمين، ووافقوا أبا بكر على رأيه.

والثاني: قوله ﷺ على ما جاء في صحيح البخاري رضي الله عنه في مناقب الصديق عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة يا عبد الله هذا خير، فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام وباب الريان**». فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما على هذا الذي يدعى من تلك الأبواب من ضرورة. وقال: هل يدعى منها كلها أحد يا رسول الله؟ قال: «**نعم، وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر**».

وفي قصة أبي بكر مع عمر رضي الله عنهما جاء في آخره قوله ﷺ: «**إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت. وقال أبو بكر: صدق. وواساني بنفسه وماله، فهل أنتم تاركو لي صاحبي**»، مرتين. ومعلوم أنه تصدق بجميع ماله مرتين، وقال له ﷺ: «**ماذا تركت لعيالك؟**» فقال: تركت لهم الله ورسوله، وتكفي شهادة الله له: أنه أعطى واتقى، وصدق بالحسنى.

٤ ـ آيات الهداية من سورة (الليل):

تقدم الكلام على القسم الأول من قسمي مدلول قوله تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾﴾. وهو القسم الذي امتن الله تعالى عليه بالهداية، ويسر طريقه وهداه إلى كل أفعال الخير فأعطى واتقى، وصدق بالحسنى.

ويقابله القسم الثاني، والمضاد والمغاير له، والمعبر عنه في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾﴾ قال ابن كثير: وأما من بخل أي بما عنده واستغنى، قال عكرمة عن ابن عباس: أي: بخل بماله، واستغنى عن ربه عز وجل. وهذا نظير ما جاء عن قارون قوله تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

﴿مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ...﴾ [القصص: ٧٧ ـ ٧٨].

وهذا الصنف قد اجتمعت فيه ثلاث خصال السوء كلها: البخل، وهذا كما قيل: أخس صفات الرجل، حتى قيل: البخيل عدو الله، عدو الناس. وقيل: البخل دائماً مع الجبن، لأن الجبان يخشى الفقر، والذي يضن بماله لا شك يضن بنفسه، ولذا امتدحوا الكريم الجواد بقولهم:

يجودُ بالنفسِ إنْ ضَنَّ الجبانُ بها   والجودُ بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠]. والنصوص في ذم البخل والإمساك عن الإنفاق كثيرة، وتأمل هذا التصوير البديع للدنيا بأكملها في قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَـٰمًا ۖ وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ [الحديد: ٢٠]. فالعذاب الشديد لمن بخل واستغنى، ومغفرة الله ورضوانه لمن ذكروا قبل هذه الآية، ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [الحديد: ١٨].

وأما استغناؤه بماله عن ربه فهو من حماقته، وقصر نظره، وقد ضرب الله لنا المثل بالرجلين في سورة الكهف في قوله تعالى: ﴿۞ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَـٰبٍ وَحَفَفْنَـٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَـٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَـٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ إلى قوله تعالى عنه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾﴾ [الكهف: ٣٢ ـ ٤٣]. وفي حق أبي

لهب جاء قوله تعالى: ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ . . .﴾ السورة كلها. وقد قيل في هذا المعنى وعدم الاغترار بوفرة المال:

وما يدري الفقير متى غناهُ ... وما يدري الغني متى يعيلُ
وما تدري وإن رمت سقيا ... لغيرك أم يكون لك الغسيلُ

وقد أوقعه في ذلك كله عدم إيمانه وتصديقه لرسول الله ﷺ، وما كان منه من التكذيب بالحسنى، وكانت النتيجة انحرافه وسلوكه المتعسر، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾.

قال أبو حيان: تيسره للعسرى، من باب المقابلة مع تيسره لليسرى، لأن العسرى ليس إليها تيسير.

وقال آخرون: التيسير للعسرى هو عدم هدايته وحرمانه من التوفيق للخير والإحسان.

وأحاديث القدر، و«**كل ميسر لما خلق له**» كثيرة، ساق ابن كثير منها روايات عديدة.

ثم بين تعالى نتيجة هذا الاستغناء، وذلك البخل والحرص على ماله، أنه لم يغن عنه شيئاً: ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾. سواء كان المعنى تردى في مسلكه وفي دني أخلاقه الذميمة: من بخل، واستغناء، وتكذيب. أو كان المعنى في الآخرة، وتردى في النار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ۝١٠﴾ [آل عمران: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٩١﴾ [آل عمران: ٩١]. وقوله تعالى مبيناً ما سيقابلون به يوم القيامة من تبكيت على حالهم: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ﴾ [الأنعام: ٩٤]. ولا شك أن المال عملة سارية في الدنيا، أما في الآخرة فلا تعامل بها، دائماً التعامل بالحسنات وما قدمه الإنسان لنفسه: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبأ: ٤٠].

وبعد هذا كله من بيان حالة الفريقين ومسلكهما في الدنيا، جاء النص الصريح في الهداية ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾. قال الفخر الرازي: فاعلم أنه تعالى لما عرفهم أن سعيهم شتى في العواقب، وبين ما للمحسنين من اليسرى، وللمسيئين من العسرى، أخبرهم أنه قد قضى ما عليه من البيان والدلالة، والترغيب والترهيب، والإرشاد والهداية. فقال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾. وهذا الوجه نظير قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢]. وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]. وعند ابن كثير: قال قتادة: أي: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾: يعني تبيين الحلال والحرام. وتقدم قريباً قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾. أي بينا لهم. يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]. أي أنه سبحانه بيّن للأمم سبل النجاة، وما ينبغي فعله وما لا ينبغي، ولكن الشقاء عياذاً بالله يغلبهم فيضلوا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٥]. وقبلها من نفس السورة جاء بيان الفريقين ضمناً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾ [محمد: ١٦]. فهذا بيان لحال الفريقين، لأن من في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم﴾ للتبعيض، أي أن الرسول ﷺ يتلو على أسماع الجميع من الآيات ما يوحيه الله إليه، فمنهم من هم أهل العلم، وهم الذي قد استمعوا سماع إيمان وتصديق، وحصل لهم العلم بما سمعوا، ومنهم من لا علم لهم، لأنهم استمعوا سماع نفاق، أو سماع من لا يعنيه ما يسمع، فيتساءلون مع أهل العلم: ماذا قال آنفاً؟

ثم بيّن تعالى عاقبة الفريقين، فقال عمن لم يَع، ولم يعقل، ولم يفتح قلبه لسماع الوحي: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وبيّن حال أهل سماع الإيمان بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾ [محمد: ١٦ ـ ١٧]. والمعنى الثاني في ﴿عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي إن علينا وإلينا مرجعهم ومآلهم، فيجازيهم، نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦]. والوجه الأول أرجح، وبالله تعالى التوفيق.

٥ ـ مع سورة الليل في آيات الهداية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾.

يلاحظ في الآيتين الأوليين تطابق تام في الأسلوب، من حيث التأكيد بأن، والتخصيص بالتقديم ﴿عَلَيْنَا﴾ و﴿لَنَا﴾. وهما من جهة الدلالة فيهما شمول عام. فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا﴾ أي ليس علينا غيرنا. وهو فعلاً لا يملك هداية الخلق إلا الله سبحانه، سواء كانت هداية بيان، أو هداية توفيق. قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧]. وفي الإسراء: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ...﴾ [الإسراء: ٩٧]. وقبل الرسالة وإنزال الوحي لم يكن هدى ولا هداية، ولكن الله تعالى هداهم بنور الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢]. فحقيقة الهدى لله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]. ومثل هذا الحصر في أمر الهدى، كذلك الحصر في أمر الدارين ومردهما، والتصرف فيهما وملكهما، فهو لله سبحانه وحده. وقد جاءت النصوص صريحة في كل من الدارين أنهما مملوكتان لله تعالى، وجمعهما في سورة الفاتحة، فأشار إلى الأولى بقوله تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والعالمون: جمع عالم من الإنس والجن والملائكة والطير والحيوان والنبات والجماد، بل والذر في تخوم الأرض. وإلى الثاني بقوله: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾﴾. وعن الدار الأولى قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ [آل عمران: ٢٦]. وقوله: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: ٤٩]. وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [تبارك: ١].

فالملك كله وسائر ما فيه من أرض وسمٰوات وما بينهما وما فيهما، كما قال تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾ [المائدة: ١٢٠]. أي مما يلج في الأرض أو يعرج إلى السماء، وما يستقر بينهما من كواكب وأفلاك وسحب ورياح، وما لا يعلمه إلا هو سبحانه، كله ملك لله، وهو ملك اقتدار وتصريف وعلم بجميع ما فيه دقيقه وجليله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١]. واقرأ قوله تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: ٥٩]. ومثل هذه الآيات في كتاب الله، ولكأنه سبحانه هنا يقول: لكل من أعطى واتقى، ومن بخل واستغنى: إن من أعطى سأعطيه ما لا يقدر على عطائه غيري، لأن الدنيا كلها ملكي؛ ومن بخل واستغنى إنما يبخل على نفسه، وليس له غنى عني، فهو ليس غنياً حقيقة، ولكنه استغنى أي ادعاء في نفسه، وحقيقته أنه ذرة في ملك الله، وحياته من طعامه وشرابه وغذائه وتنفسه وأنفاسه كل ذلك لله ومن الله. وكذلك الآخرة والملك فيها، قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ . . .﴾ [الحج: ٥٥ ـ ٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفرقان: ٢٥ ـ ٢٦]. فقوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ بالنسبة لما كان في الدنيا من ملك وملوك، فإنها كانت مؤقتة وعارية من الله تعالى كما تقدم: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾. أما ملكه سبحانه فهو الملك الحق، سواء في الدنيا كما قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ﴾ وكذلك الملك يوم القيامة، فهو حقيقة للرحمٰن، يحكم بينهم ويجازيهم على أعمالهم، لا منازع ولا معارض ولا مشارك ولا ملك ولا مملوك، الكل عبيده، وهو وحده مالك الملك. كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ . . .﴾ [غافر: ١٦ ـ ١٧].

وإذا كان الأمر كذلك يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً، والأمر يومئذٍ لله فيجب الحذر، فجاء التحذير والإنذار مبكراً: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾﴾.

ثم بيّن علاقة كلا الفريقين منها: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾.

وهنا وقفة طويلة مع موجب صلي النار ومجانبتها، وهو مركب من أمرين:

أحدهما: التصديق والتكذيب، يعني الإيمان والكفر.

والثاني: إيتاء المال والتولي.

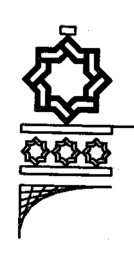
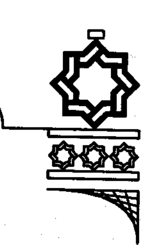
وهما المتقدمان في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾. ومقابله: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ حيث نجد تطبيق قانون المعاوضة القائم عليه معامل الخلائق: الإنسان والحيوان، فالإنسان مع الإنسان، بقدر ما تعطي تأخذ، كما في البيوع والإجارات، وكذلك مع الحيوانات، بقدر ما تعطيها من علف تعطيك خدمة وعوضاً من عمل أو حليب، بل يوجد تعاون بين بعض الحيوانات، كما بين التمساح وبعض الطيور، وعلى هذا فالعاقل لن يعطي درهماً إلا في مقابل، كخبز أو قلم أو ما يحتاجه. فلو جئنا إلى الذي أعطى والذي بخل واستغنى، لوجدنا هذا القانون مطبقاً تماماً، فالمعطي مصدق بيوم الجزاء، فهو يعطي اليوم، ويعوض فعلاً، ولكن المعوض مؤجل ليوم الجزاء والحساب: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾﴾ [الزلزلة: ٧]. وعليه الحديث: «**والصدقة برهان**». فالصدقة بناء على التصديق، وهما من مادة (الصدق)، والمتصدق متعامل مع الله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

أما البخيل المتولي، فإنه ـ بمقتضى قانون المعاوضة ـ لن يعطي إلا بعوض، وليس عنده من المساكين ولا الفقراء المحتاجين عوض عما سيعطيه، وليس هو مصدق بيوم الدين حتى يجعل العطاء منه قرضاً حسناً مع الله. ولهذا ينذره الله تعالى ناراً تلظى، لا يغنيه منها إلا التصديق بالبعث، والتصدق من ماله يدخره لذلك اليوم. وقد قال ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**».

أما المعطي المتقي المصدق، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا﴾. وإذا تجنبها فأين سيكون مآله؟ إنها داران فقط: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾

[آل عمران: ١٨٥]. وقد أشار آخر السورة إلى هذه النتيجة بقوله تعالى ممتدحاً مقصد المعطي وإخلاصه في عمله أنه كان ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ يتطهر، يتزيد من الخير، ويتزود لذلك اليوم، وما فعل ذلك عن معاوضته في الدنيا لنِعَم عليه للغير يردها: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾﴾ بهذا العطاء، ولكن ما فعله، ولا بذل ماله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ إيماناً منه وتصديقاً، والجزاء من جنس العمل، فكما أعطى ماله ابتغاء وجه ربه الأعلى، وطلباً لمرضاته. لسوف يعطيه الله من فضله ما يرضيه، وهذه بشرى للصديق رضي الله عنه بالجنة وبالرضى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٧ ـ ٨]. جعلنا الله منهم، وبالله تعالى التوفيق.



آية الهداية من سورة الضحى

١ - يتميز نص الهداية في هذه السورة الكريمة أنه خطاب مع النبي ﷺ، ويأتي ضمن ثلاث نعم عظيمة، يقرره ﷺ عليها في قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾. كما تتميز هذه السورة كلها باختصاصها بشخصية الرسول ﷺ من الجانبين المعنوي والحسي إن صح هذا التعبير.

ونعني بالجانب المعنوي: جانب النبوة والرسالة، وما يتعلق بتتالي الوحي عليه ﷺ.

والجانب الحسي: الجانب الشخصي والإنساني في حالات ثلاثة بالغة الأهمية: «أ» حالة اليتم وما يعتريها من إيواء. «ب» حالة السلوك وما يحيطه من هداية وإرشاد. «ج» حالة العيلة وما يلزمها من مساندة وإغناء. وتلك الحالات الثلاث كل حالة منها تعتبر موضوعاً مستقلاً، وقضية اجتماعية عامة، تستوجب الاهتمام والعناية. وقد أتم الله تعالى نعمته عليه ﷺ فيها جميعها، وقد أعقبتها وصايا ثلاث في مقابل نعمته إيذاناً بشكر المنعم سبحانه، ورعاية لحقوق تلك النعم العظيمة منتظمة في سياق قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾. وهذه في مقابل: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾. وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾ وهذه في مقابل الهداية والإرشاد باعتبار السؤال استفتاء واسترشاد، ومقابل: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ باعتبار السؤال لسد حاجة واستجداء. وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾. فهي عامة شاملة لكل ما تقدم، من حيث أن لفظة (نعمة) وإن كانت مفردة، إلا أنها بإضافتها فهي من إضافة النكرة إلى معرفة فتجعلها من دلالات العموم كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. فنفى إمكان إحصائها، مع أن لفظها مفرد، ولكنها نكرة أضيفت إلى معرفة فدلت على

العموم. وأعظم نعم الله تعالى عليه هي الرسالة على ما سيأتي إن شاء الله.

وهذا الجانب الإنساني من الإيواء حالة اليتم، والهداية في السلوك، والغنى في حالة العيلة، قد يشارك فيها بعض الناس، ولذا فإن الوصايا التي جاءت في مقابلها تندرج في ظلها الأمة كلها، من النهي عن قهر اليتيم، ونهر السائل العديم، ووجوب التحدث بنعم الله وفضله العظيم.

وقد افتتحت هذه السورة الكريمة بقسم كريم على عظيم نعم الله تعالى على رسوله ﷺ دون سائر الخلق، تعظيماً له وتكريماً، وإيناساً له وتأييداً ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾ والمتتبع لهذه السورة يجدها اختصت بالنبي ﷺ، فلم تتناول لا من قريب ولا من بعيد أي موضوع ولا جانب سوى النبي ﷺ، حتى قيل: هي سورة محمد ﷺ، كما قالوا عن التي قبلها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ ۝٣ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾. وقدمنا هناك أن المعني بذلك هو أبو بكر الصديق، وفيها قوله سبحانه عنه: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝١٩ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝٢١﴾ فقالوا: هذه سورة أبي بكر. وعقد بعض العلماء في السورتين مقارنات عديدة، سنلم بها عند إيرادها إن شاء الله.

والدارس المتأمل لهذه السورة الكريمة ـ سورة الضحى ـ وبتفكير عميق، وبُعد ودقة ملاحظة، يتعين عليه الربط بين السورتين قبلها وبعدها ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ حيث تأتي التي بعدها بمثابة استتباع النعم المتعددة في سورة الضحى، كما يسترعي انتباهه وينبه شعوره ووجدانه ما سبقت فيه هذه السورة، فيلحظ الشفافية في ألفاظها، والحنو في مدلولها، والإيناس في مواضيعها، وأضواء العطف والرفق في تقريراتها، والعتب الذي يبعد القلق، ويورث الطمأنينة، وينتهي ببرد اليقين؛ كما يتعين على متأمل هذه السورة إطالة الوقوف عند كل لفظة يستشف مدلولها، وما تحتويه في دلالتها بدلاً عن نظيرها، حتى في مواقع الكلمات من تقديم وتأخير، كما قيل وعلى سبيل المثال:

جاء في السورة قبلها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ فقدم الليل على النهار، ووصفه: ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ بينما في سورة الضحى قدم الضحى على

الليل، ووصف الليل: ﴿إِذَا سَجَىٰ﴾ ولكل ذلك دلالته ومعانيه على ما سيأتي إن شاء الله الإجابة عليه.

كما يلزم الدارس لهذه السورة الكريمة «الضحى» أن يختمها بعمل مقارنة ومقابلة بين المواضيع التي اشتملتها، وعمل الموازنة بينها، ليرى لمسات الإعجاز، ويدرك سعة منهجيتها، وعمق أبعادها، وفي اعتقادي لو أفردت بمؤلف خاص، كما أفردت بعض السور كسورة النور، وسورة الحجرات وغيرهما، يتناول فيه كل جوانبها بدقة وشمول، وأسلوب يجمع بين دقة العلوم ورقة الآداب، لكان مؤلفاً فريداً في نوعه. وإنا في هذا الكتاب المبارك، آيات الهداية، لنستهدي المولى ﷻ في تناول تلك الجوانب بقدر الوسع، مع وفي حدود الكتاب، ومسار النصوص الكريمة، ونقدم أولاً الربط بينها وبين ما قبلها وما بعدها، لنتعرف على موقعها من كتاب الله في نسق المصحف الشريف.

أما السورة التي قبلها فقد جاء فيها بيان حال من أعطى واتقى، ومن بخل واستغنى، ثم بيان حال الغنى مع التردي، ثم بيان مصدر الهدى ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾﴾. ثم مرد أمر الآخرة والأولى إلى الله تعالى ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾.

وجاءت سورة الضحى بعدها فيها أوسع العطاء إلى حد الرضى ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾. وفيها الامتنان بالهدى، وأفضل أنواع الغنى، وهو الكفاية من العيلة، مع افتتاح كل منهما بالقسم بكل من الليل والنهار، مع المغايرة في التقديم والتأخير، ففي التي قبلها: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾ قدم الليل على النهار، ووصف الليل بكونه يغشى، وفي الضحى قدم النهار على الليل، ووصف الليل بكونه ﴿سَجَىٰ﴾. وقيل في ذلك: إن السورة قبلها لأبي بكر، وقد سبق في حياته أنه أدرك الجاهلية قبل الإسلام، فقدم الليل وأخر النهار في مقابلة الجاهلية والإسلام. وسورة الضحى لمحمد ﷺ، وليس في حياته ظلمة، بل من بدايتها نور. أما وصف الليل بالغاشية فهي للأمور الشديدة: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾﴾ وأما وصفه بأنه ساجٍ فهو للهدوء كالنائم المسجى بثوب، ومنه العين والطرف الساجي الفاتر، وهو ما يتناسب مع هدوء ولطائف وقت الضحى المتناسق مع لطائف السورة وضوحاً على ما سيأتي.

٢ ـ مع آية الهداية في سورة (الضحى):

تقدم التنبيه على أن هذه السورة متحدة الموضوع لرسول الله ﷺ، وما جاء فيها من تعداد النعم العظام وطريق شكرها.

والحديث من السورة في سياقها، يتطلب سمواً في النفس، وشفافية في الروح، ورقة في التعبير، ودقة في الإدراك، ووجداناً في الإحساس. كل ذلك ليستطيع المتحدث عنها الوصول إلى مستوى تصوير ما تناولته من مواضيع، وما سيقت فيه من أسلوب، وما بنيت عليه من ألفاظ، حيث إن السورة الكريمة جاءت رقيقة حنونة، تلمس برقتها وتغمر بحنانها القلب الذي استوحش فتور الوحي عنه، فتؤنس وحشته وتجد تشوقه، وتزيد طمأنينته، وتمنحه برد اليقين، وتقدم له أجزل العطاء وأعظم الجزاء، وتكشف له عن واقع الحاضر ومجهول المستقبل: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾. ما ودعك في الماضي ولا قلاك، وللآخرة في المستقبل خير لك من الأولى، أما العطاء فلا حد له إلا رضاك.

ولرفيع مستوى هذه السورة لا نستطيع الحديث عنها إجمالاً، ولكن قد يتيسر تقديمها تفصيلاً، لنقف عند كل آية منها نستشف معناها، ونستلهم الله تعالى في مؤداها، فنقول وبالله تعالى التوفيق، ومنه العون والسداد:

افتتحت السورة بالقسم الكريم: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾. وهما مجموع الزمن، إلا أنهما ألطف وأرق أجزائه، فالضحى رقة النهار وألطفه، ظرف العيدين وإظهار الفرحتين. فالنهار في رقته، والشمس في لطافتها، والهواء في شفافيته: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾﴾ بدلاً من ﴿إِذَا يَغْشَىٰ﴾ لهدوئه وسكونه وما فيه من وصل الأحبة، وقرة العيون. يقسم بهما سبحانه ويخاطب فيهما حبيبه، فيؤنس وحشته، ويرد لهفته: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾﴾. فيحبط ويدحض ادعاءات أعدائه، وما أشاعته زوج أبي لهب حين فتر الوحي عنه ﷺ، فقالت: ما أرى شيطانه إلا قلاه. فعظم على رسول الله ﷺ، لأن القلى البغض، وودعك قرئ بتشديد الدال من التوديع، وهو ما يكون عند السفر والفراق من الوداع، وما يوحي به من آلام الفراق. وقرئ بتخفيف الدال من

الودع وهو الترك. والتشديد أشد، لأن من ودعك فقد أمعن في الترك.

ويشتد هذا الواقع على رسول الله ﷺ وهو في معرض التحدي لقومه، وليس مستنده في ذلك التحدي إلا تولي الوحي الذي يثبت به فؤاده. ويشتد هذا أيضاً وقد ذاق حلاوة المناجاة، ورأى أنوار وحي الله، واستعذب مذاق كتاب الله، فتتضاعف عليه آلامه، وتتجسم في نفسه آماله، فيأتيه هذا القسم الهادئ الساجي، فيبدد كل ما يعانيه، ويذهب عنه عناء ما يلاقيه.

لا ثم لا ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾. وما كان ليصطفيك من جميع خلقه، ويتعهدك من قبل وجودك، ويرعاك في أصلاب آبائك، حتى إذا شرفت بك الدنيا، وأشرقت السمٰاوات والأرض برسالتك، وأعلنت على قومك دعوتك، يتركك ويودعك حاشا وكلا. وما كان أيضاً يصطفيك ويصطفيك، ويوليك عنايته من أول يوم وجودك، ويستخلص قلبك لذكره، ويطهره من نزغات عدوه، وقد نشأتَ وحيداً في هذا الكون، بعيداً عن كل جهالات القوم، ثم يقلوك، لا على ذنب اقترفت، ولا لعيب اتصفت، فكل ما فيك وما عليه جبلت يدعو للحب والتكريم، والإجلال والتعظيم، ألست سيد الثقلين، وخيار من خيار من خيار بغير مين؟ لا ولن يكون. إنها مزاعم الأعداء، وأوهام الجهلاء، فكن على يقين من أمرك، وأنت فعلاً على يقين مع ربك.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ربك الذي أحاطك بربوبيته ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾. وليس هذا فحسب، بل المستقبل أمامك، وما أعد الله لك، وما قدر من أجلك، خير لك مما مضى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤﴾. والآخرة هنا: آخر حياته ﷺ، أو آخرة الدنيا، بل كلاهما خير له من الأولى من أول أمره. فآخرة ما بقي في تاريخ ومراحل الرسالة، وإبلاغ الدعوة خير من الأولى، بما فيها من انتصار على الأعداء، ومن فتح للأمصار، وظهور لدعوتك، وتمام لرسالتك، وانتشار الدين وظهوره على الدين كله، وتمكين أصحابك من سيادة العالم وقيادة الأمم، وآخرة الدنيا خير وأعظم لما سيكون لك من سيادة الموقف، فتشفع الشفاعة العظمى، حين لا يتقدم أحد ممن تقدمك في الرسالة، وتقول: أنا لها. وكلٌّ يقول: نفسي نفسي. وتقوم المقام المحمود الذي يغبطك عليه الأولون والآخرون، حيث تشفع في فصل القضاء، فتشمل في شفاعتك الأمم

وأنبياءها، وتعطَى الوسيلة والفضيلة، فلا ينازعك ولا يشاركك فيها أحد، وهي المنزلة العالية الرفيعة في الجنة، ولا تكون إلا لعبد واحد، وهو أنت صلوات الله وسلامه عليك.

ثم يكون العطاء الأدنى، والجزاء الأكرم، ليس له حد، ولا يحصيه عد، بل نهايته رضاك: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾. فكل ما يرضيك فهو لك؛ فهذا منبر الحمد على ترعة من ترع الجنة، وهذا حوض الكوثر من شرب منه لا يظمأ بعده أبداً، وهؤلاء سبعون ألفاً من أمته يدخلون الجنة بغير حساب، وهذا رفع الإصر والأغلال عن أمته، مما كان على الأمم الماضية، وهذا العفو له عن أمته الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه، وهذه شهادة أمته على الأمم، وشهادته على الأمة، وهذا العطاء الذي لم يعطه أحد من الأنبياء قبله، في الحديث الصحيح: «**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة**» ـ وأهمها الشفاعة العظمى، ومعها شفاعات متعددة للأمة ـ «**وكان النبي يبعث في قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة**».

وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: إن أرجى آية عندكم قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]. وإن أرجى آية عندنا آل البيت قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾ ومن رضاء محمد ﷺ أن لا يدخل أحد من أهل بيته النار. نقله ابن كثير عن ابن جرير وابن أبي حاتم، وقال الحسن: يعني الشفاعة. وعن جعفر الصادق: قال: رضاء جدي أن لا يدخل الناس موحد. وروي قوله ﷺ: «**إنا أهل بيتٍ اختار الله لنا الآخرة على الأولى**: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥﴾». وإذا كان هذا لأهل بيته، فهو ﷺ بالمؤمنين رؤوف رحيم.

ثم يأتي تعداد النعم عليه، على ما سيأتي إن شاء الله.

٣ ـ مع آية الهداية من سورة (الضحى):

قدمنا فقرتين عن أوائل هذه السورة الكريمة، وما اشتملت عليه في لطافة

القَسَم بالضحى والليل إذا سجى، وحنو المقسم عليه ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝﴾، وسعة العطاء الذي يرضيه ﷺ، وكان في جميع ذلك إيناس لرسول الله ﷺ، وإبعاد لوحشة فتور الوحي عنه، وإفساح مجال آمال المستقبل عنده، ثم جاء تعداد نعم الله تعالى عليه ليكون الحاضر امتداداً للماضي، وانطلاقاً للمستقبل.

وأولى تلك النعم في حفظه ورعايته، أحوج ما كان إليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝﴾. وما أحرجها مرحلة في حياة الإنسان، حيث يفقد الأب الحاني، والعائل المشفق الذي يحيطه بالرعاية والعناية، ويظلله بالعزة والكرامة.

وكم عني القرآن الكريم بشأن اليتيم في نفسه، وماله، وحسه، وشعوره. وجعل ﷺ كافل اليتيم رفيقه في الجنة. ويتيم البشر موت الأب، وقد توفي أبوه ﷺ وهو حمل في بطن أمه، فلم يقر عيناً برؤية أبيه، ولم يسعد أبوه برؤيته، وماتت أمه وهو ابن سبع سنين، وقد اجتمع عليه في موت أمه مع الحزن الأسى، ومعها العناء، لم تمت أمه على فراشها بين أهلها فيشاركه الحزن أهلوه وأهلوها، بل ماتت في غربة وفي سفر وقفر، كانت عائدة به ﷺ من مزاورة أخواله بالمدينة، فأخذها المرض بالطريق، وأعجزها عن مواصلة المسير، وحضرتها سكرات الموت، وهو يشهد كل ذلك ولا يملك لها من الله شيئاً، وليس يخفى على ذي بصيرة تلك النظرات الكليلة من أم حزينة، ينتزعها الموت من بين يدي طفلها، قلقة على مصيره، وفي تلك الفلاة المخيفة تبادلها نظرات بريئة، لم ترَ حادث الموت من قبل، ولم تدرِ لمن سيؤول من بعد، يرى أمه بين آخر لحظة من الدنيا، وأول لحظة من الآخرة، وهو على جسر بين اللحظتين، لا يدري ما الله فاعل به، كل ذلك يدور في فلك اليتيم المؤلم، الذي مر به ﷺ.

ولكن الله لم يطل عليه تلك المرحلة، ولم يثقل عليه تبعاتها، فآواه إلى ركن شديد، وسند فريد، إلى سيد قريش عبد المطلب، ثم من بعده إلى عمه أبي طالب، إلى أن بعثه الله برسالته إلى الناس، وظل عمه يحوطه ويرعاه، ويقف دونه ويصد عنه كل من عاداه، حتى قال: والله لن يصلوا إليك بجمعهم، حتى أوسد في التراب دفيناً.

ومن لطائف التعبير ورقائق الخطاب، تلك الصيغة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾. أبرز كاف الخطاب مع ﴿يَجِدْكَ﴾ ولم يبرزه مع ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾. وشفافية اللطائف في أمرين:

أولاً: في قوله تعالى: ﴿يَجِدْكَ﴾ بدلاً من قوله تعالى: ألم تكن يتيماً.

والثاني: في إبراز الكاف مع ﴿يَجِدْكَ﴾ وعدم إبرازه في ﴿فَـَٔاوَىٰ﴾.

أما الأول: فإن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ فكأنه يشعر بصورة ما إذا كانت عناية ربه سبحانه هي التي تطلبه حتى وجدته لشدة العناية الإلهية به، ولهذا أبرز كاف الخطاب، وحذف من آوى تلطفاً من مواجهته ﷺ بهذا الامتنان. وكذلك ذكرها وحذفها فيما بعدها: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾. فكأنه من الإعجاز في الأسلوب القرآني أن قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ وهنا وقفة في ضوء هذا الإعجاز، نستخلص منها هداية كتاب الله للأمة، وهي:

إذا كان رب العزة سبحانه يسوق هذا الموقف على هذا المستوى من اللطف والإحسان، فإن عموم الأمة يتعين عليهم التزام الأدب، وتقديم الإحسان إلى اليتيم دون جرح شعوره، وإثقال كاهله بالامتنان عليه. ولعل من قائل: لقد أطلت في تقرير هذه النعمة، نعمة الإيواء في حالة اليتيم، وما هو أثرها وعظيم تأثيرها، والحال أنه كم من يتيم رده الله إلى من يؤويه؟ فأقول: إن عظيم أثرها يظهر في شدة خطورة حياة اليتامى آنذاك، وقد صور القرآن الكريم جانباً من قسوة المجتمع عليه، حتى كان كالحمل بين الذئاب. اقرأ قوله تعالى من سورة (الفجر): ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

وأخذت رعاية اليتيم في القرآن حيزاً كبيراً، لهذا كانت رعايته ﷺ حالة يتمه في مثل ذلك المجتمع، ثم يواصله معه إلى أن يأتيه الوحي، فيلقى كل عنت من قومه، فيصد عنه أعداءه، ويقوم بإبلاغ رسالة ربه في حماه، إنها لنعمة عظيمة، ومنة جسيمة. ولقد ظهر عظيم ذلك الأثر حين توفي عمه فاجترأ عليه قومه، وأخذ يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج، يطلب من يؤازره حتى يبلغ

رسالة ربه، بل خرج إلى الطائف يدعو ثقيفاً، وكان من ثقيف ما كان.

وقد يقال أيضاً: ولِمَ هذا التقرير عن حالة اليتيم وقد مضى زمنها، وانقضى وقتها، وهو الآن نبي مرسل جاوز الأربعين، وبزوجة وأولاد؟

وأجاب عن ذلك ضمن كلام طويل الفخر الرازي ملخصه: كأنه ﷺ لما قال له ربه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦﴾ قال: بلى يا ربي. ومن ثم يرجع ﷺ لنفسه بتوجيه من ربه ولسان الحال يقول له: لم أودعك، ولم أقلك حال يتمك، بل آويتك ورعيتك. فكيف أودعك الآن وأقلوك وأنت قائم بإبلاغ رسالتي إلى خلقي؟ هذا لا يكون أبداً.

وذكر الفخر الرازي سؤالاً هو: كيف يحسن من الجواد الكريم أن يمن بنعمه على من أنعم بها عليه؟ وقد ذم الله فرعون إذ أورد قوله لموسى عليه السلام: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشعراء: ١٨]. والجواب: أنه يحسن من الله تعالى، لأنه بذلك يقوي قلبه، ويبشره بدوام الإنعام عليه في الماضي والحاضر والمستقبل. ولقد علم كل مسلم، بل وكل منصف، أن إيواء الله سبحانه ليتمه ﷺ جعله فرداً علماً متميزاً على أيتام العالم قديمه وحديثه، من قبله ومن بعده، وأصبح كافل أيتام الآخرين بل الأسوة والقدوة الحسنة في عطفه وبره وحنانه، وبَشَّر كافل اليتيم بمصاحبته في الجنة، وبشر الأرملة التي تأيمت على أيتامها حتى خرجتهم، بظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، وجعل خير بيوت المسلمين بيتاً فيه يتيم يحسن إليه، وشرها بيتاً فيه يتيم يساء إليه، ولا يبعد من يقول: لعل يتمه كان إكراماً له، فلم يترك له أبوه يرعاه، ولكن الله سبحانه هو الذي تولاه من بداية أمره إلى منتهاه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه من والاه.

٤ ـ مع آية الهداية من سورة (الضحى):

في هذه السورة الكريمة بعد المقدمة والافتتاحية، إيراد نعم ثلاث، يقرره سبحانه عليها: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾. ومعلوم أن الجواب على ذلك كله: بلى يا رب، ولك الفضل.

وتقدم الكلام على التقرير الأول، والآن الحديث عن التقرير الثاني: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

أولاً: عن شفافية الأسلوب في التعبير: يوجد بدلاً من كنت، وإبراز الكاف في وجدك، وعدم إبرازها في هدى. وتقديم التنبيه على ذلك في نظيرها المتقدم: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾﴾.

ثانياً: من حيث الترتيب: معلوم أن حالة اليتيم سابقة من حيث الزمن، فكأن تقديمها هو الأنسب. وأيضاً إيواء اليتيم فيه حفظ كيانه والحفاظ على حياته، وهذا مقدم على أمر الهداية، لأنها عرض بالنسبة لكيان الإنسان.

ثالثاً: من جهة المعنى: وقد حار فيها العلماء الأعلام، وربما زلّت فيها الأقدام. وقد أوجز القول فيها والدنا الشيخ الأمين في الأضواء في سورة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام عند قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف: ٨]. الظاهر أن مراد أولاد يعقوب عليه السلام بهذا الضلال في الآية، إنما هو الذهاب عن علم الحقيقة في أمرهم كما ينبغي، كما في قولهم لأبيهم أيضاً: ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]. وقوله تعالى في نبينا ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾. أي: لست عالماً بهذه العلوم التي لا تعرف إلا بالوحي، فهداك إليها وعلمكها بما أوحى إليك من هذا القرآن العظيم. ومنه بهذا المعنى قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها بدلاً أراها في الضلال تهيم

يعني أنها غير عالمة بالحقيقة. وكذلك أولاد يعقوب، وصفوا أباهم لأنه آثر اثنين: يوسف وأخاه على عشرة.

وفي كتاب دفع إيهام الاضطراب، قال: قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾. هذه الآية الكريمة يوهم ظاهرها أن النبي ﷺ كان ضالاً قبل الوحي، مع أن قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ﴾ [الروم: ٣٠]. يدل على أنه ﷺ فطر على هذا الدين الحنيف، ومعلوم أنه لم يهوده أبواه، ولم ينصراه، ولم يمجساه، بل لم يزل باقياً على الفطرة حتى بعثه الله رسولاً، ويدل لذلك ما ثبت أنه أول ما نزل عليه الوحي كان يتعبد في غار حراء. وبعد أن أورد رحمه الله هذا الإشكال أجاب عنه بقوله: إن معنى قوله: ﴿ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، أي: غافلاً عما تعلمه الآن من الشرائع،

وأسرار علوم الدين التي لا تعلم بالفطرة ولا بالعقل، فهداك إلى ذلك بما أوحى إليك، فيكون معنى الضلال هنا هو الذهاب عن العلم، ومنه قوله تعالى بهذا المعنى: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وقوله: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]. وأورد بيت: (وتظن سلمى): المتقدم. ثم قال: ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]. لأن المراد بالإيمان شرائع دين الإسلام. وقوله: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٨٦]. ثم أشار إلى الأقوال في معنى الضلال ذهابه وضياعه وهو صغير في شعاب مكة، أو في سفره إلى الشام، ورجَّح الأول. هكذا أوجز والدنا الشيخ الأمين المعنى في ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾.

وقد أطال القول فيها الفخر الرازي، فأورد عشرين قولاً تضمن جميع أقوال المفسرين، بدأها بقول الكلبي والسدي: أنه كان على دين قومه أربعين سنة، ثم قال: وأما الجمهور من العلماء فقد اتفقوا على أنه عليه السلام ما كفر بالله لحظة واحدة. ومما استدل به قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ٢]. ثم ذكروا في تفسير هذه الآية وجوهاً كثيرة، وأخذ يعددها حتى بلغت العشرين وجهاً، وقبل إيراد البعض منها نورد مع قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ ما كنا نسمعه وندرسه عن الخليل إبراهيم عليه السلام من قول البعض: أنه لم يكن يعرف ربه حتى نظر في النجوم وإلى الشمس والقمر، وقوله فيها: هذا ربي، في تلك المحاجة مع قومه: أن هذا خطأ، وأن إبراهيم عليه السلام كان يتنزل معهم ويتدرج في الاستدلال ليوقفهم على حقيقة آلهتهم التي يزعمون من أنها نواقص تظهر وتأفل. وأنه لم يأتِ عليه ولا لحظة واحدة كان فيها مشركاً بربه، بدليل قوله تعالى عنه: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝٦٧﴾ [آل عمران: ٦٧]. فنفى سبحانه عنه الكينونة في الماضي يهودياً ولا نصرانياً ولا من المشركين، وأثبت له كونه كان حنيفاً مسلماً. فإذا كان ذلك كذلك في حق الخليل عليه السلام، فلأن يكون في حقه عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم أولى وأحرى. ولئن ناقش

مناقش عن طريق العقل وإمكانه، فإن الدليل القاطع مع النقل يمنع وقوعه، وأقوى دليل عندي في ذلك: أن الله سبحانه لم يترك للشيطان عنده حظاً حيث ثبت أن الله تعالى شق صدره، وهو رضيع عند حليمة السعدية، قبل سن التمييز عند لداته، وأخرج حظ الشيطان منه، وملأ قلبه نوراً وحكمة. ولعل هذا القدر مما أوردناه فيه الكفاية لهداية الحائرين في المعنى من ﴿ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ من جانبه المعنوي.

أما الوجه الثاني: وهو بمعنى الذهاب في شعاب مكة أو عند حليمة أو في سفره إلى الشام فهذا لا إشكال ولا شبهة فيه، وخير ما قيل في ذلك ـ وهو الوجه الثالث من العشرين عند الفخر الرازي ـ قال: ما روي مرفوعاً أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**ضللت وأنا صبي عن جدي عبد المطلب، كاد الجوع أن يقتلني، فهداني الله**». وعزاه إلى «الضحاك» وذكر تعلقه بالكعبة، قوله:

يــا رب رد ولــدي مــحــمــدا   أردده ربي واصطنع عندي يدا

فما زال يردد هذا عند البيت حتى أتاه أبو جهل على ناقة وبين يديه محمد ﷺ وهو يقول: لا ندري ماذا نرى من ابنك؟ فقال عبد المطلب: ولِمَ؟ قال: إني أنخت الناقة وأركبته من خلفي فأبت الناقة أن تقوم، فلما أركبته أمامي قامت الناقة. وساق تعليق ابن عباس على ذلك بقوله: رده الله إلى جده بيد عدوه، كما فعل بموسى حين حفظه على يد عدوه. ويقال: أيضاً أنه من الإرهاص بنبوته ﷺ، كما جعل الله لفيل أبرهة إدراكاً بتعظيم الكعبة، فبرك في وادي محسر، ولما وجهوه إلى حيث أتى، قام وهرول.

أما بقية الأوجه العشرين فكلها صحيحة، سواء كانت قريبة أو بعيدة، فإن أهم ما كان عندنا تصحيح المفهوم فيها.

ومسك الختام في هذا المقام قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦١ ـ ١٦٣]. وهذا هو منهج الهداية العامة التامة للأمة في شخصية الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

٥ ـ مع آية الهداية من سورة (الضحى):

تقدم أول هذه السورة ـ مؤنسة المصطفى ﷺ ـ ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥﴾. فهو وعد بالعطاء الذي يرضيه ﷺ، ثم ذكَّره المولى بالنعم التي تزيده طمأنينة من واقع حياته ﷺ من بدايتها، لتشمل السورة، وتنفرد بحالته شخصياً صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾. وتقدم الكلام على الأولى والثانية.

أما الثالثة: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾: فالعائل صاحب العيال، والعائل ذو العيلة وهي الحاجة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾ ـ أي بمنع المشركين عن الحج ـ ﴿فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ...﴾ [التوبة: ٢٨]. وعليه قول الشاعر:

فما يدري الفقير متى غناه ... وما يدري الغني متى يعيل

ويقول المفسرون: أغناه الله أولاً بكفالة جده وعمه، ثم بمال أبي بكر، ثم بمال خديجة رضي الله عنها. وقد جاء عن أبي بكر رضي الله عنه: أن خديجة رضي الله عنها جاءت بمالها كله ودعت أشياخ قريش، قال أبو بكر: فما رأيت الذي أمامي من وراء المال وقالت: أشهدكم أن هذا المال مال محمد، لا أسأله عن شيء أنفقه، فيمَ أنفق؟ وقال المفسرون: ثم بعد ذلك أغناه الله تعالى بالغنائم والفيء من الفتوحات الإسلامية.

وقيل: إن الغنى هنا ليس غنى المال، وإنما هو غنى النفس بالعفة والقناعة، وقد يعنون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝١٣١﴾ [طه: ١٣١]. والآية الآخرى من سورة الحجر مبينة أعظم عطاء، وأكبر غناء، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ۝٨٧ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الحجر: ٨٧ ـ ٨٨]. حقاً إنه العطاء الذي لا مثل له، سواء كان في السبع المثاني وهي سورة الفاتحة على أرجح الأقوال، أو السور السبع البقرة وما بعدها؛ وأن فاتحة الكتاب من كنز تحت العرش،

ثم (القرآن العظيم)، فلأي شيء تمتد العينان بعد ذلك؟ ولا شك أن الله تعالى جمع الغنى بقسميه لحبيبه وصفيه ﷺ: غنى المال، وغنى القناعة. وإن التعليق على ذلك، والدرس المستمر أثره، والممتد تأثيره للأمة: أن الغنى والعيلة أمور عوارض، فليس في العيلة نقص ولا عيب، والمال عرض قابل للعوارض من نقص وزيادة، وكمالات الرجال في رفيع الخصال، وقد أبان عن ذلك أبو طالب في خطبته خديجة رضي الله عنها لرسول الله ﷺ إذ قال: إن محمد بن عبد الله من لا يوزن به فتى في قريش إلا رجح عليه فضلاً وخلقاً ونسباً، وإن له في خديجة بنت خويلد رغبة، ولها فيه مثل ذلك، وإن كان في المال قل، فالمال ظل زائل، وما أحببتم من الصداق فعلي. ففضل على فتيان قريش بفضل صفاته، ولم ينقص عنهم بنقصان ماله.

والمتأمل هذا الموقف، والمقارن بين هاتين الحالتين المتغايرتين: حالة العيلة، وحالة الغنى، ليرى المثالية العليا، ويرى فيها رسول الله ﷺ يجمع فيهما الفضيلتين في مقام الفقير الصابر، والغني الشاكر. فلم يلهه فقر عن مبادئه ومنهج حياته، ولم يطغه غناه عن ذويه.

ومن دقائق الإشارات البلاغية في آية بعد أوسع عطاء: ﴿سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾: توجيه إلهي ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. وكذلك هو مع عطاء المادة، وسعة الغنى، وعطاء من لا يخشى الفقر، كان ﷺ أخفض الناس جناحاً للمؤمنين. وهذا هو سر الهداية في هذه الآية تهذيباً للنفوس الطامحة.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾. فالنفس إذا تركت لجبلتها جزعت في فقرها، وطغت في غناها. ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾﴾.

أما الأسوة والقدرة والكمال الإنساني في رسول الله ﷺ فقد ظهر عملياً في الحالتين:

ففي حالة العيلة: يمضي على أهل بيته الشهران تهل عليهم ثلاثة أهلة، لم يوقد عندهم نار؛ ويكون طعامهم الأسودان: التمر والماء؛ ويأتيه الضيف فيرسل لزوجاته يسأل عن قرى لضيفه فلا يجد شيئاً؛ فيعرض ﷺ قرى ضيفه بأغلى ثمن: «**من يستضيفه وله الجنة**». وفي غزوة الخندق ينكشف رداؤه ﷺ

عن حجر معصوب على بطنه من شدة الجوع؛ وأخيراً يخرج من دنيا الناس ودرعه مرهون عند اليهودي في آصع من شعير، وما شكا عيلة، ولا جزع من فقر، ولا رد سائلاً عما في يده وهو أحوج ما يكون إليه، والآثار في ذلك كثيرة، وقد مهد الطريق أمام كبار النفوس، وعظماء الرجال الذين في مواقع قيادية.

كما كان كذلك في حالة غناه: يعطي عطاء من لا يخشى فقراً، وإن موقفه ﷺ من غنائم حنين لم تزل معالمها مناراً هادياً: فقد أعطى المؤلفة قلوبهم الآلاف من بهيمة الأنعام، وحدث أن لم يعطِ الأنصار شيئاً، وكان بعض الناس لم يزل يزن الأمور بموازين المادة، فبلغ رسول الله ﷺ بعض القول، فجمعهم وكشف لهم عمَّا خفي عليهم من دخيلة أمرهم، وزيف لهم زخارف المادة، فقال في مقالة عتب وإخاء، وتجديد عهود الود والوفاء، ما طابَت به نفوسهم، وانشرحت له صدورهم، ثم قال: «**أَوَجَدتم عليَّ أن أعطيت قوماً (لعاعة) من الدنيا أتألف قلوبهم على الإسلام، ووكلتكم إلى ما وقر في قلوبكم من الإيمان؟ أما ترضون أن يرجع الناس إلى رحالهم بالشاة وبالبعير، وترجعون أنتم برسول الله ﷺ؟ الأنصار شعاري والمسلمون دثاري، ولو سلك الناس وادياً وشِعباً وسلك الأنصار وادياً وشعباً لسلكت وادِي الأنصار، ولولا الهجرة لكنتُ امرأً من الأنصار**». فبكوا حتى أخضلت لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله ﷺ.

إن الدنيا كلها لعاعة مهما تكاثرت، تلك هي المقامات الرفيعة، والمثاليات العالية، التي رسمها لنا رسول الله ﷺ بمسلكه ومنهجه في كلتي حالتي الغنى والفقر؛ ولكن لما كان يصعب على آحاد الأمة الصعود في سلمها، والوصول إلى مستوياتها، رسم لنا ما هو في المقدور، وما تقواه النفوس من الحث على العلم والكسب والثناء على الغنى للرجل الصالح:

فقال في العموم: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**».

وقال لسعد حين أراد أن يتصدق بماله، أو بنصفه، أو بثلثه.. قال: «**بثلثه، والثلث كثير، لأن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس السؤال**».

وقال: «**لأن يأخذ أحدكم حبلاً وفأساً فيحتطب ويستفيد خير له...**» الحديث.

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: إن النفس لا تطمئن حتى يحرز موتها.. بينما في قصة قرص الشعير، وإهداء الشاة قالت: والله لا يكمل إيمان العبد حتى يكون يقينه بما عند الله أقوى من يقينه مما في يده.

وفي الأثر: «**من أصبح آمناً في سربه، معافىً في بدنه، عنده قوت يومه، فقد حيزت له الدنيا**».

والمصطفى ﷺ هو المثل الأعلى في الحالتين صلوات الله وسلامه عليه.

٦ ـ منهج الشكر في آيات الهداية من سورة (الضحى):

إن أعظم وأوسع مجالات الشكر ما كان عملياً ومن جنس ما أنعم الله تعالى به، وإن أمثل ما يكون ذلك ما يأتي عن رسول الله ﷺ. وفي هذه السورة الكريمة سورة الضحى التي اختصت برسول الله موضوعاً وخطاباً بعد تعداد نعم الله تعالى عليه: من إيواء في يتم، وهداية في منهج، وغنى في عيلة. تلك القضايا الكبرى في حياة كل أمة: قضية اليتم، وقضية السلوك، وقضية المال. وقد كتب الله لرسوله مواجهة كل ذلك، واجتيازها بمثاليات عالية، ليكون الأسوة الحسنة والقدوة العملية للأمة؛ والفرد الكامل في آحاد الأمة. ونظير ذلك ما جاء أنه ﷺ قد رعى الغنم ليحسن رعاية الأمة، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾. والجواب قطعاً: بلى يا ربي، ولك الشكر.

فيأتي التوجيه الإلهي لشكر تلك النعم عملياً بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾. فنجد دلالة حرف (الفاء) هنا ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ﴾ وما عطف عليه، تشعر هذه الفاء إما التعليل، وإما بالسببية، أو غير ذلك، فإنها ـ بدون شك ـ رابطة بين ما قبلها وما بعدها، مشعرة بلزوم الشكر على ما قبلها بفعل ما بعدها.

﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠﴾. وبالتأمل في هذين الأمرين: ففي حق اليتيم فلا تقهر، وفي حق السائل فلا تنهر، مع أن كلاً

منهما إساءة منهي عنها لكل منهما، ولكن النهي عن القهر في حق اليتيم، والنهي عن الانتهار في حق السائل، يحقق نوعاً من الإعجاز البياني في أسلوب القرآن:

لأن اليتيم: ضعيف الجانب، وهو في رعاية وليه معرض للقهر في معاملته من جهة ماله. ولذا حذر الله منه، وجعل آكل ماله آكلاً ناراً، ومعرضاً للقهر من جهة شخصه بإهانته وإهماله، وليس له موئل ولا ظهير، ولذا حث الله تعالى على الإصلاح لهم: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]. ومعرض للقهر في تخاطبه وفي عبوسة الوجه إليه، وفي جوانب عديدة.

أما السائل: فليس بينه وبين من يسأله إلا العطاء أو الرفض، فإن أعطاه فبالحسنى وبدون من ولا أذى، وإن لم يعطه فليقل له قولاً معروفاً. ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣]. فلا مجال لنهره، وبإجابته سواء بالعطاء أو بالقول الحسن انقطعت علاقته به، بخلاف اليتيم كما أسلفنا.

وقد خطر لي معنى كان بعيداً، إلا أنه يشهد له من اللغة الاشتقاق الأكبر، وهو لو نظرت إلى كلمة (قهر) فقرأتها من اليسار لكانت «رهق»، وكلمة «نهر» تقرأ «رهن»، ولا شك أن الرهن فيه عنت وشدة، فيشترك القهر والرهق في عنت اليتيم، ورهن تدل على الحاجة، لأن الرهن لا يكون إلا في حالة العسرة عن سداد الدين حالاً، فبين نهر ورهن ارتباط يناسب حال المسكين المحتاج، فكان مجيء النهي عن القهر مع اليتيم، والنهي عن النهر مع المسكين، كمال المطابقة والتوافق.

ويأتي مسك الختام للسورة الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾. وكم هي نعم الله تعالى على رسوله الكريم وعلى عباد الله جميعاً. إن أقرب النعم في هذا السياق نعمة الإيواء في حالة اليتيم، ونعمة العطاء والغنى في حالة العيلة، ومن قبلها النعمة العظمى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾.

والتحدث بالنعمة يكون بحسبها، فالتحدث بنعمة المال: بذله. وبنعمة الجاه: السعي في حاجة المحتاجين. وبنعمة العلم: نشره. وهكذا كل نعمة بحسبها.

ولا تطمئن النفس إلى مجرد التحدث بالنعم الحديث عنها: أعطاني الله كذا وكذا. بل إن الأمر في الخطاب مشعر بكون التحدث بالنعم عملياً، لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ ولم يقل: أما عن نعمة ربك فحدث. فالتحدث مطلوب أن يكون بالنعمة نفسها، وهذا ما كان من فعله ﷺ، يطبق ذلك عملياً مع اليتامى والمساكين والسائلين، وعموم أفراد الأمة.

وإذا كانت السورة كلها خطاباً لرسول الله ﷺ وفي خاصة نفسه، إلا أن هذه التوجيهات الثلاثة تتبعه الأمة في ذلك. وأذكر أنه ذات ليلة قرأ الإمام في المسجد النبوي الشريف بهذه السورة الكريمة في صلاة المغرب، وبعد الصلاة لحقني شخص من عامة الناس في هيئة عامل من العمال، وسألني هل هذه الثلاثة خاصة بالنبي ﷺ أم نحن أيضاً فيها؟ فعجبت من فطرته، وأخبرته بأنها للنبي ﷺ ونحن تبع له فيها. ومما لا شك فيه أنها اللمسات الرفيقة، والعبارات الرقيقة التي تذهب عنت اليتيم وتأخذ بيده، وتبرئ جرح المساكين، وتملأ قلب المحسنين رضى وسعادة، وتشرح صدور ذوي المروءة لفعل الجميل وبذل المعروف، ولعلنا ندرك شفافية ما بين السورتين (الضحى) وما بعدها: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ شفافية تكاد تجعلهما كالسورة الواحدة، وتجعل الثانية كالمتممة للأولى، ويأتي ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ كالمعطوف على ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ وما بعدها، فهو نوع من تعداد النعم على رسول الله ﷺ، ومنها النعم الذاتية في شخصه صلوات الله وسلامه عليه، وهي من أجل النعم، وهي شرح الصدر، وهي قاعدة وجماع الخير كله كما قال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

ونجد نبي الله موسى الكليم بعد أن أعطاه الله المعجزات، وأيده بالآيات الباهرات، وقال له: ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ۝٢٣﴾ ثم حمله الرسالة إلى فرعون: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٢٤﴾. قال عليه السلام مستعيناً على أداء رسالته بعدة عوامل كان بدايتها قوله: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ وأعقب عليها قوله: ﴿وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ۝٢٧ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِى ۝٣٠﴾ إلى آخره [طه: ٢٣ ـ ٣٠]. وقدم على ذلك كله طلبه: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾. وذلك أن الإنسان إذا شرح الله صدره لشيء أقبل عليه

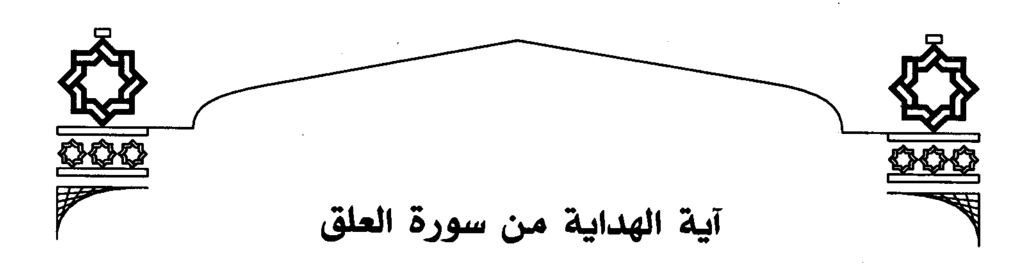
بكل قواه، ومضى فيه على بصيرة، وتخطى إليه كل العقبات. ألم يعلنها صلوات الله وسلامه عليه لعمه: «**والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في شمالي، على أن أترك هذا الأمر ما تركته...**» إلخ.

وفي نهايتها تجديد العطاء، وزيادة الإنعام ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾﴾. فهو مقرون بذكر الله مع كل أذان وإقامة وتشهد، وبالصلاة والتسليم عليه. قال حسان:

أغر عليه للنبوة خاتم ... من الله مشهود يلوح ويشهد
وضم الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذن أشهد

وختمت السورة بتفتح كل أبواب الخير، وتيسير كل عسر، والتوجيه بالرغبة إلى الله وحده: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾﴾. لأن ما عند الخلائق فهو من الله، فلتكن الرغبة كلها إلى الله، وما يكون يوم يلقاه.

***



آية الهداية من سورة العلق

١ ـ **في هذه السورة الكريمة** تلتقي النهاية بالبداية، نهاية هذا الكتاب المبارك (آيات الهداية) بالبداية.

في افتتاحية الوحي الكريم، ونص الهداية فيها هو قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢﴾ [العلق: ٩ ـ ١٢]. وبتأمل هذه الآيات الأربع، نجد:

الأولى: للتعجب من هذا الذي يتعرض وينهى، أي لمجرد توجيه النهي منه، لأنه لا يملك هذا الحق ولا يخصه، وكان الأولى له أن يتابع هذا الذي ينهاه.

ثم جاءت القضية تبين وتكشف من الذي ينهاه، وعن أي شيء؟ فنجده: ينهى عبداً إذا صلى أو أمر بالتقوى.

وبتأمل النسق القرآني الكريم: نجد نص الهداية يتوسط هذين الأمرين العظيمين، فيتقدمه عبد يصلي، ويعقبه عبد يأمر بالتقوى. ولهذا النسق مؤداه من عدة جوانب:

الأول: من جانب هذا الطاغية المتجاوز حده، المعترض من يقوم بهذين العملين الجليلين، لأن من حق من يقوم بهما أن يعان عليهما، ويتبع فيهما.

الجانب الثاني: الإشادة والتنويه بهذا العمل الذي فيه صلاح الفرد وإصلاح الجماعة، صلاحه في العادة لربه، وتقوية صلته بالله، وإصلاح الآخرين بالأمر بالتقوى، لأن التقوى جماع كل خير، وتشمل الفعل والترك، فعل المأمورات وترك المنهيات، فصاحبها آمر بالمعروف، ناهٍ عن المنكر.

الجانب الثالث: إبراز منهج الهداية في هذين الأصلين: صلاح النفس، والعمل على إصلاح الغير. وصلاح النفس يتمثل في الصلاة، ويتبعها بقية أعمال الخير من صيام، وزكاة، وتلاوة، وذكر لله. أما إصلاح الغير: فجِماعُهُ

في الأمر بالتقوى المتضمن قيام الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وهذه هي الصورة الإجمالية لنص الهداية من هذه السورة.

ولكن السورة كلها لها وحدة موضوعية متكاملة، تتكون من عدة مواضيع، تعتبر كالفصول تشكل الباب الواحد، ودراسة هذه السورة تختلف عن دراسة غيرها من السور إذ أن دراستها تتطلب دراسة أحوال العالم كله، وعلاقة الأرض بمن فيها: بالسماء، بالله، بالملائكة، بالمبدأ، بالمعاد، بالغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان، وخلق لأجله هذا الكون وسخره له. دراسة الإنسان من أول وجوده، دراسة مناهج الهداية والدراية، رسالة العلم والعالم دراسة الثراء العلمي والطغيان المادي، دراسة المقارنة بين الحق وأعوانه، والباطل ودعاته، دراسة إحاطة علم الله بكل ما يكون من كل من هو كائن، دراسة الوعيد الشديد للمكذبين بهذا الدين، المعارضين للمهتدين، دراسة للمنهج السوي الذي يجب أن يستديم عليه الهداة والدعاة، حتى ينالوا القرب من الله. إنها فعلاً تشتمل على البداية والنهاية، بداية الوحي، ونهاية التكاليف. ولعلنا إن شاء الله نوفق لإيراد هذا المنهج المتكامل، نختم به منهج آيات الهداية والاستقامة في كتاب الله على غاية من الإيجاز.

أخي المسلم السالك إلى الله طريق الهداية والاستقامة، ثبتني الله وإياك، وسدد خطانا جميعاً، إن هذه السورة سورة (اقرأ) لهي أول نافذة شع منها نور الهداية من عند الله تعالى إلى أهل الأرض في هذه الأمة، إنها أول سبب امتد من السماء إلى الأرض، يتعلق فيه الخلائق إلى خالقهم. إنها أول قطرة الغيث الذي بلل جفاف القلوب التي طال عليها الأمد فقست وتحجرت، إنها أوائل لمسات الرحمة المهداة إلى عالمنا الذي نعيشه. إنها باتفاق أئمة المفسرين وأهل التحقيق أول ما بدئ به الوحي على رسول الله ﷺ؛ فأشرقت بها طلائع فجر النبوة من أعالي قمة جبل حراء، كان العالم في جاهلية جهلاء، يتخبط في ظلام مطبق، أخطؤوا الطريق، وضلوا السبيل، ينحتون الحجر ويعبدونه، يسيبون السوائب، ويضطرون إلى أكل الميتة وخشاش الأرض، يحفظون المستجير الدخيل، ويقطعون الطريق على ابن السبيل، يقرون أصحاب الرايات، ويئدون البنات. حياة مليئة بالمتناقضات، وحيثما أحلوا كان الظلم وانعدمت القيم.

ونظر الله إلى العالم نظرة رحمة، فاختار خيارهم، واصطفى صفيهم، فاصطنعه لنفسه، وتعهده من قبل خلقه، وحفظه في طفولته، وشق صدره فطهر قلبه من أرجاس قومه، وبَغَّض إليه ما هم عليه. فنشأ فرداً واحداً وحيداً، وحببت إليه الوحدة، واستأنس بالعزلة، فعمد إلى القمم العالية تطلعاً لمعالي الأمور، فوجهه مولاه إلى التحنث والمناجاة.

حتى إذا انصقل قلبه، وصفت روحه، وامتد سببه إلى السماء، أرسل إليه سيد الملائكة المكرمين، المطاع ثم أمين، أتاه وهو في ذلك الغار يقرئه كلام الله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾. يا لها من مفاجأة شكلاً ومعنى وموضوعاً:

شكلاً: في مجيء جبريل عليه السلام، ملك من السماء، يضم إليه بشراً من الأرض، يخاطبه ويعقل عنه.

معنى: في تكليف الأمي الذي لم يقرأ كتاباً، ولم يخط قلماً، يكلف بالقراءة.

موضوعاً: فيما تناولته تلك الافتتاحية: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾.

سبق في تتمة أضواء البيان أن نوهت عن هذه الآيات الخمس، أنها تشتمل على تسع مسائل مرتبطة بعضها ببعض، ارتباط السبب بالمسبب، والعام بالخاص، والدليل بالمدلول عليه، وكلها بالغة الأهمية. وقال عنها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن هذه السورة وأمثالها فيها من العجائب، لما جاء فيها من التأسيس لافتتاحية تلك الرسالة العظيمة، ولا نستطيع إيفاءها حقها عجزاً وقصوراً. ومما كتب عنها رحمه الله فوق المئتي صفحة في أجزاء المجموع الثالث والسادس عشر والسابع عشر، ليرجع إليه من شاء.

ومن أهم ما تضمنته تلك المقدمة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ نبي أمي تفتتح رسالته بالأمر بالقراءة، لتتم المعجزة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ ...﴾ [العنكبوت: ٤٨ ـ ٤٩]. وجاءت ﴿بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إيذاناً بأنه ليس من عند غير الله، لا جبريل الذي نزل به ولا غيره. وإبراز صفة (الربوبية) هنا، تنبيه استكمال النعمة من رب العالمين. ووصفه سبحانه بالذي خلق، بإطلاق الخلق عن نوع

المخلوق، ليعم خلق جميع المخلوقات. ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]. ثم جاء بما يخص الإنسان من عموم المخلوقات ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾. وفي هذا التخصيص معنى عظيم من جهتين:

الأولى: جهة الإنسان نفسه، لإقامة الدليل عليه من ذاته بآية خلقه، ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥]. بل خلقهم الله، وهذا مسلم به، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

والجهة الثانية: البداية بخلق الإنسان من علق، فتجاوز ما قبلها من نطفة ومن تراب. وهذا بالغ الحكمة، إذ الإنسان لم يشاهد الخلق الأول من تراب، والمني لا يستلزم مجيء الولد، أما العلق في الرحم فهي البداية الملموسة.

ومن جانب آخر: فإن ربط بداية خلق الإنسان مشعر بأن إنزال الوحي إيجاد وخلق الإنسان جديد، فكانت المقابلة مكتملة من طور العلقة مع نزول الملك باقرأ، لأنه سبق فترة وحي قبل ذلك، وهي مدة التحنث ستة أشهر، فطويت وطوي مقابلها من أطوار الإنسان ما قبل العلقة، فكانت مقارنة متساوية، ولا شك أن الخلق الجديد أهم من الأول على ما سيأتي إن شاء الله.

٢ ـ مسك الختام لآيات الهداية والاستقامة من سورة (العلق):

تقدم الحديث عن افتتاحية السورة الكريمة بالأمر باقرأ باسم ربك الذي خلق، وبداية خلق الإنسان من علق.

وبعد تلك الافتتاحية أعيد ذلك الأمر بالقراءة والإشادة بشأن العلم والقلم: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. ولا شك أن من أعظم آثار كرم الله تعالى للعباد العلم، وقد قرن بخلق الإنسان من علق، أي إلى أن جعله في أحسن تقويم. فكذلك التعليم بالقلم من أول تعلم الحرف إلى نهاية تعليمه ما لم يعلم: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨]. وكل علم عند الإنسان فهو من عند الله، سواء كان غريزي الوهب، كالطفل يلهم امتصاص الثدي ونحوه. كما قال تعالى في جواب موسى لفرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾

[طه: ٥٠]. أو كان استدلالياً مكتسباً، كتعلم الصناعات والتجارب وغير ذلك، كما قال تعالى في تعليم الحيوان: ﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤].

والمتأمل في قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ٥]. سواء عن طريق الوحي كتعليم داود عليه السلام صنع الدروع: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]. يعني: اجعل حلق الدرع متساوية المقدار. كما أشار سبحانه إلى صناعات معرفة المقادير: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩]. فمثل هذا من جانب الوحي.

وأما ما كان من جانب التجارب فهو أيضاً من عند الله لأنه سبحانه الذي وهب الإنسان القوة المفكرة، والعقل المستنتج. ثم يندد بالطغيان المادي، سواء عن طريق المادة أو العلم، كما وجدنا من قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨]. ومن قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]. وذلك لعدم الاعتراف بمصدر تلك النعم، وعدم الإيمان به، بينما نجد نبي الله سليمان يقول: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ ..﴾ [النمل: ١٩]. ومن طغيان العلم ما وصل إليه المعسكران من تفجير الذرة، ويتطاول بعضهم على بعض، وهما معاً يتطاولان على العالم.

والآية تشير بلطف إلى أن هذا الطغيان وَهْمٌ، لأن مبعثه: ﴿أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ فهو على ما يتراءى له في نفسه. وقد تكون الحقيقة غير ذلك، لقدرة الله على إهلاك ما بيده، كما خسف بقارون الأرض. ولها نظائر.

ويهمنا هنا التنبيه على الاحتراس والتحفظ من كل أنواع الطغيان، سواء طغيان العافة فلا يتجبر على الضعفاء، أو طغيان المال فيتعالى على الفقراء، أو طغيان المعرفة فيختال على الجهلة البسطاء. وهذا الموضع من أهم أنواع الهداية والسلوك القويم في هذه السورة. والوازع الرادع عن هذا كله: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ﴿٨﴾﴾. أي: فيقتص من كل طاغ وباغ، وتقدم قوله: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩]. وبعد هذا العرض في تلك المقدمة جاءت آية الهداية في سياقٍ بديع ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ

إن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾. وهنا تكرار: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ ثلاث مرات كلها تشعر بالتعجب من مرئيها:

الأولى فيها: التعجب ممن ينهى عبداً إذا صلى، لأن الصلاة لله فكيف ينهى عنها.

والثانية: إثبات أن المصلي على الهدى، ومن كان على الهدى لا يجوز توجيه النهي إليه.

والثالثة: نهي من يأمر بالتقوى، ومن حق من هذا شأنه أن يستجاب له، ويساعد على ما يأمر به، لأنه يأمر بما فيه سعادة الإنسان في الدنيا وفي الآخرة، وقد جاء عن الشاعر قوله:

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ ... ولكنَّ التقيَّ هو السعيدُ
وتقوى اللهِ خيرُ الزادِ ذُخراً ... وعندَ اللهِ للأتقى مزيدُ

وللفخر الرازي هنا كلام جيد، حيث قال: هنا سؤال، وهو أن المذكور في أول الآية هو الصلاة، وهو قوله: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾﴾ والمذكور هنا أمران، هو قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾﴾. في فعل الصلاة، فَلِمَ ضَمَّ إليه شيئاً ثانياً؟ يعني وهو قوله: ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾. ثم قال: جوابه من وجوه:

أحدها: أن الذي شق على أبي لهب، أو أبي جهل من أفعال الرسول ﷺ، هو هذان الأمران: الصلاة والدعاء إليها، والدعوة إلى الله.

الوجه الثاني: أن النبي ﷺ كان لا يوجد إلا على أحد هذين الأمرين، إما في إصلاح نفسه، وذلك بفعل الصلاة. أو في إصلاح غيره، وذلك في الأمر بالتقوى.

الوجه الثالث: أنه عليه الصلاة والسلام كان بصلاته على الهدى آمراً بالتقوى، لأن كل من رآه وهو في الصلاة كان يرق قلبه، فيميل إلى الإيمان، فكان فعل الصلاة دعوة بلسان الفعل، وهو أقوى من الدعوة بلسان القول.

ويشهد لما قاله، ما كان من وفد ثقيف لما أنزلهم ﷺ بالمسجد، وكانوا في رمضان، فشاهدوا إقامة الصلاة وصيام المسلمين، فما لبثوا أن أسلموا قبل أن يغادروا المدينة المنورة.

ومن هنا يأتي كمال منهج الهداية وهو أن قوامه أمران: صلاح الداعية إلى الهدى بالعمل الصالح، وإصلاح المدعوين بالأمر بالتقوى، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣]. فيجمع بين الدعوة إلى الله والعمل الصالح، وكل آيات الدعوة تقوم على ذلك: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقوله تعالى عن شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وفي نهاية السورة الكريمة مقارنة بين الطرفين: من كان على الهدى مقيماً للصلاة، آمراً بالتقوى، ومن أطغاه كفره وتكذيبه، فوقف في طريق الهداية. ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ ولا شك أن هذا أعلى مراتب الإصلاح والهداية. بينما الطرف الثاني: ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾. أي: مُطَّلِعٌ على أعمال كلا الفريقين.

ثم يأتي التهديد وشدة الوعيد: ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ أي عن نهيه لأهل التقى ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾: ونطأطئ من كبرياء طغيانه ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾﴾. آثمة مجترئة على خالقها. ويأتي التحدي ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ كل من ينتدي معه في مجلسه، وكل من يعاضده ويؤازره. ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾﴾. وأي: طاقة له ولأنصاره بزبانية جهنم، إنه لا طاقة له بذلك.

ثم يأتي القول الفصل وإبطال لكل ما زعمه، وإضراب عن كل صور العناء والتكذيب، والنهي والمعارضة ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ فإنه الكاذب، والكاذب لا يطاع على كذبه. إنه خاطئ والخاطئ لا يساير على خطئه، فانصرف عنه ولا تلتفت إليه، وخذ في طريقك أنت، واسلك منهجك الذي أوحاه الله إليك: من صلاة، وأمر بالتقوى، فدم عليه، واسجد واقترب. وقد خص السجود، لأنه كما قال ﷺ: «**أقرب ما يكون العبد لله وهو ساجد**». وكانت قرة عينه ﷺ في الصلاة.

والحمد لله والصلاة والسلام على خاتم رسل الله صلوات الله وسلامه عليه. وبالله تعالى التوفيق. ليلة الجمعة ٩/ ٥/ ١٤١٠هـ.

فهرس موضوعات الجزء الثاني

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة